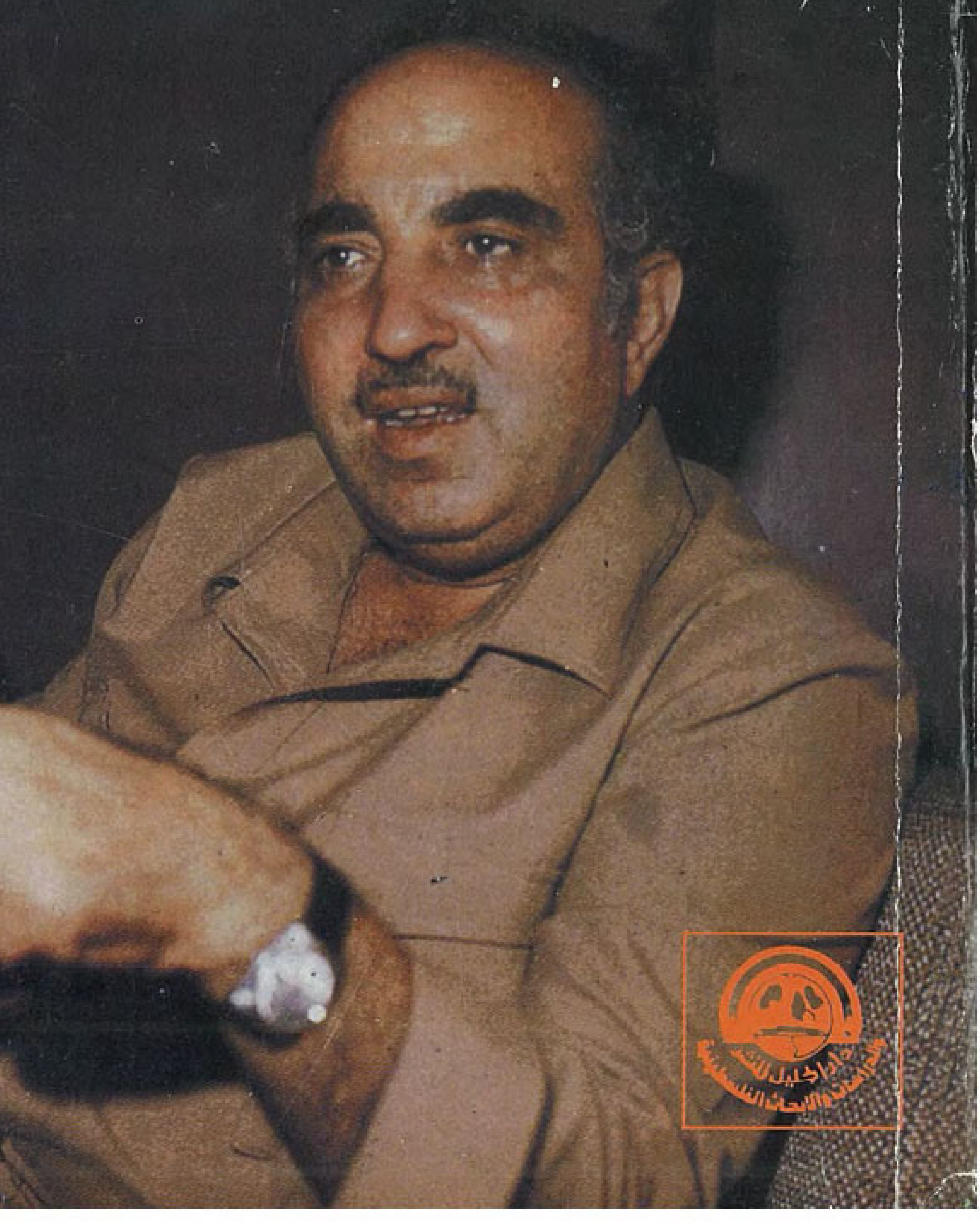
صلاح خلف «أبو إياد»

فلسطيني بلا هوية

«.. سيكون لنا ذات يوم ـ وطن»

تحرير وتصويب :

فؤاد أبو حجلة





الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٩٩٦

صلاح خلف "أبو اياد"

فلسطيني بلا هوية

مزيدة ومنقحة

رقم التصنيف	:	٩٥٦،٤
المؤلف ومن هو في حكمه:		صلاح خلف (ابو اياد)
عنوان المصنف	:	١- فلسطيني بلا هوية
		-٢
رقم الايداع	:	(١٩٩٦/١/٢٣)
الملاحظات	:	عمان : دار الجليل

* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

رقم الاجازة المتسلسل ١٩٩٦/١/١٨

رقم الايداع لدى

مديرية المكتبات والوثائق الوطنية

١٩٩٦/١/٢٣

تصميم الغلاف: ناروة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

١٩٩٦

دار الجليل للنشر
والدراسات والابحاث الفلسطينية _ عمان
ص. ب ٨٩٧٢ تلفون ٦٦٧٦٢٧ فاكس ٦٨٣٦٦٨

فلسطيني بلا هوية

صلاح خلف "أبو اياد"

"... سيكون لنا ذات يوم _ وطن"

تحرير وتصويب: فؤاد أبو حجلة

إصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية

عمان ـ ص.ب ٨٩٧٢ تلفون ٦٦٧٦٢٧ ـ ٦٧٥٦٢٧
تلكس ٢٣٠٢١ ـ فاكسميلي ٦٨٣٦٦٨

APALESTINIAN WITHOUT IDENTITY

SALAH KHALAF 'ABU IYAD'

Secand Edition
1996

Published By:

DAR EL-JALEEL

For Publishing and Palestinian Research and studies - AMMAN

P-O - Box 8972 Tel- 667627

Telex 23031 Fax-683668

المحتويات

تقديم:

نقرأ في بطون الكتب تأريخاً للزمان والمكان في حياة الشعوب، التي عمرت هذا الكون، منذ بدء الخليقة، وحتى يومنا هذا، فتنتصب أمامنا، ملامح الزعماء، الذين أمسكوا بزمام الامور، وقادوا شعوبهم الى بر الأمان، وعلى الرغم من النزعة الانسانية نحو الزعامة، بيد أنها لم تكن غاية في حد ذاتها، ذلك أن قيادة الأمة والاستحواذ على حبها، والظفر بتأييدها، علامات على الطريق، تؤدي الى الهدف والزعامة في آن واحد.

كثيرون هم اولئك الذين اغرتهم الكراسي والمناصب، فاهملهم التاريخ، أو انه سجل لهم بمداد أسود، على صفحات اكثر سواداً، فيما كان القادة الأفذاذ الزاهدون، يركبون الصعاب، ويتحسسون مواقع الألم، ويرسمون طريق المستقبل برؤى صنعت التاريخ.

ولعل شخصية الزعيم الحق، تكون اكثر حضورا بين الشعوب المقهورة، التي وقعت ضحية للظلم والعدوان، ذلك انه مطالب بالنضال من اجل اعادة الحق الى نصابه.

واذا كان لنا أن نتحدث عن الشعوب المغلوبة على أمرها، فان الشعب الفلسطيني، يتصدرها، فقد ذاق مختلف أنواع الويلات، اعملوا فيه قتلا وتشريدا، وبنوا على انقاضه دولة لمن لا يملك الأرض ولا الحق.
نكبة، تلتها نكسة، ومن ثم هزائم، وحين قرر أهلها تحمل مسؤولياتهم، تصدى لهم المصلحيون وتجار القضية، لكن الحق كان أقوى، ذلك أن رب البيت أدرى بما فيه.

هم نخبة من الفلسطينيين العاديين، كان معظمهم يعيش في أمان الوظائف العامة والخاصة، في داخل الوطن وخارجه، حين اقسموا يمين الخلاص، عبر كل الطرق والاساليب، فاثبتوا أن الشعب الفلسطيني ليس مجرد لاجئين بلا هوية.

ابو اياد، كان واحداً من اولئكِ، الذين الّفوا جمل النضال، وترجموها على أرض الواقع، مدفعاً ورصاصة وحجراً، وكلمة امتلك الجرأة في حدها الأقصى، ولم يخجل من قول الحقيقة حين يتثبت منها، حتى لرفاق الدرب، وتجاوز ذلك الى الزعماء العرب والوزراء، فما كان أحب اليه، من أن يقول ما تولد لديه من قناعات.

انه مثال للرجل الصلب ، الذي يصعب كسره ، وكان كافيا أن يتحدث الى الجماهير ، ليلهب حماسها ، ويجدد لديها العزم والتصميم على بلوغ هدف التحرير ؛ فقد كان خطيبا مفوهاً ، يلوذ بالكلمة حين تتعثر البندقية .

امسك بيده سلاح المهام الخاصة ، لم يخش الموت ، فقد زهد في الدنيا ، وتطلع الى انتشال الجسد الفلسطيني من مهاوي الضياع ، ليطل برأسه من جديد ، متحدياً محاولات طمس قضيته وادخالها في صحراء التيه .

كان أبو اياد متفتحاً ، يقرأ الاحداث ، والمتغيرات التي تكتنف العالم ، انشد للسلام ، ولكن على طريقته ، تحدث مع الاسرائيليين المحبين للسلام ، وفتح قنوات حوار معهم ، لكنه كان يدرك أن الصراع أبدي ، فثمة بون شاسع بين طموح الشعب الفلسطيني في دولته المستقلة على ترابه الوطني ، وبين "أرض اسرائيل الكبرى" .

. . . وقضى أبو اياد ، دون أن يتحقق حلمه في العودة الى الجذور . . الى يافا ، تلك المدينة الصغيرة الوادعة من فلسطين التي أقضت مضجعه ، واستشهد من أجلها ، على يد اعداء القضية والشعب .

ونسجل في سفر التاريخ ، أن ابا اياد صنع جزءاً من البداية في مسيرة شعب طويلة ، صعدت روحه الى بارئها وفي نفسه فلسطين الوطن والشعب ، الذي لن يشطب من لائحة الشعوب ، ما دامت هناك أم فلسطينية تزغرد لابنها الشهيد ، وترضع وليدها لبن الحرية والحياة ، وترفد ساحة المواجهة بمزيد من الرجال .

"فلسطيني بلا هوية" سيظل عنواناً لكتاب أبي اياد ، حتى يسترد الفلسطيني هويته ، ولسوف يظل الكتاب شاهداً على أن الرجل ما زال يعيش بيننا ، نتقاسم واياه الهم والنضال الى أن يصبح الكتاب سيرة حياة وتاريخاً ، حيث سنستأذنه حينئذ في تأليف كتاب جديد تحت عنوان "فلسطيني له هوية" .

أسرة دار الجليل

المقدمة

عندما اقترحت علي دار نشر "فايول" ان انتج هذا الكتاب، اعترف بأنني قد ترددت في تحمل مهمة تتطلب هذا القدر من المتاعب. للوهلة الاولى يبدو انه من المغري ان تحاور "قائدا تاريخيا" للحركة الوطنية الفلسطينية هو اول من رضى ان ينخرط في مشروع كالذي نحن بصدده. هذا فضلا عن ان "ابا اياد" يحتل مركزا مرموقاً داخل المقاومة الفلسطينية. فبالاضافة الى انه أحد مؤسسي حركة "فتح" واحد الاعضاء البارزين في لجنتها المركزية، يتولى الرجل أيضا قيادة الاجهزة الخاصة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبهذه الصفة يجمع "ابو اياد" المعلومات التي تحصل عليها مختلف فصائل التجمع المركزي للفدائيين وينسقها. علاوة على ذلك تتهم كل من "الموساد" و "السي. آي. ايه" ابا اياد بأنه زعيم منظمة "ايلول الاسود" وانه قد دبر عمليات "ارهابية" هي من أعنف ما شهدته السنوات الأخيرة من العمليات الدموية خصوصاً عملية دورة ميونيخ الاولمبية التي احتلت حيزا خاصا في وقائع عام ١٩٧٢. ولان "ابا اياد" يحتل مناصب رئيسية كهذه، فقد كان هذا هو بالضبط ما يبرر شكنا في نجاح مشروع الكتاب... هل كان سيتلافى مواجهة الاسئلة التي تفرض طبيعتها ان تكون "تطفلية" او "محرجة" وعلى الاقل، هل كان "ابو اياد" قادرا على صرف النظر عن القيود المألوفة التي تفرضها عليه مسؤولياته؟ هل يقبل بأن يميط اللثام عن السر الذي ما انفك، منذ عشرين سنة على تأسيس فتح، يستر صورة هذه المنظمة: جذورها، ايديولوجيتها، تنظيمها، نشاطاتها (السرية او غير السرية) وأهدافها الحقيقية؟

لم يكن ثمة مفر إذن من أن تكون المراهنة مخيفة بعض الشيء، ذلك ان هنالك مخاطرة كبيرة بأن تقود رغبة المؤلف في انتهاج اسلوب المؤرخ الى تبني اسلوب المقالة النقدية او السيرة الذاتية المعظمة. مع ذلك اسهمت الالتزامات التي تعهد بها ابو اياد، والتدقيقات التي اعطاها بشأن نواياه، في التقليل من مخاوفنا بصورة كبيرة.

وحسب ما أشار إليه، لم يكن يريد أن ينتج لا مذكرات ولا سيرة ذاتية تخصه، ولم يوافق على ان يتحدث عن نفسه وعن تجاربه الشخصية الا بقدر ما يسهم ذلك في تنوير القراء حول تطلعات ونضالات وسيكولوجية الشعب الفلسطيني، وكذلك حول ايديولوجية وتنظيم المقاومة الفلسطينية.

انه يجيب بصراحة عن جميع الاسئلة ذات المحتوى السياسي رغم احتمال ان يجر عليه ذلك، كما يقول: "الكره والنفور". ولكن ابا اياد احتفظ بحقه في عدم الاستجابة للرد على الاسئلة التي يمكن ان تعرض أمن المقاومة او أمن رجالها للخطر، ولما كانت كل دعاية في نظره "عملية عقيمة" فقد كان يرى أن من واجبه ان يقول، ضمن حدود المعقول، الحقيقة كاملة حتى لو كانت مزعجة او مؤلمة للفلسطينيين أنفسهم... وهكذا ففي تحليله لعقيدة وعمل الفدائيين اسلم نفسه بصراحة قاسية للنقد والنقد الذاتي وذلك لمصلحة المقاومة.

وكوني قد عرفت ابا اياد منذ عشر سنين، استمعت اليه في العديد من المرات، سواء في حفل عام او في جلسات خاصة، فقد كان لدي من الأسباب ما يجعلني اعتقد بأن الكتاب، كما كان يتخيله، لن يكون قليل الاهمية. وبما انه معروف بكلامه الصريح فقد جلب ابو اياد لنفسه نسبة من الصداقات توازي مثيلتها من العداوات التي نجمت عن قوله جهرا، في الغالب ما يكتفي مواطنوه او اقرانه بقوله في مجالسهم الخاصة المحدودة.

في هذا الصدد تحضرني ثلاثة من لقاءاتي مع ابي اياد خلال اللقاء الاول في كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٩ في منزل سفير الجزائر في القاهرة، السيد الاخضر الابراهيمي، ادلى ابو اياد بأقوال ادهشت مستمعيه، فقد اعتبر امام مجموعة من الشخصيات الاجنبية، التي من بينها عدة ممثلين لدول عربية، ان المقاومة الفلسطينية تشكل خطرا على مجموع الانظمة العربية اكثر بكثير من خطرها على اسرائيل، ولكي يوضح تحليله، لجأ ابو اياد الى الصورة الرمزية التالية : "اراد رجل ان يسقط برتقالة رائعة وشهية فعمد الى هز شجرة البرتقال بعنف ولكن بينما بقيت الثمرة

المشتهاة عالقة بقوة بالشجرة، راحت سائر البرتقالات، ومجموعها ثلاث عشرة برتقالة، تسقط الواحدة تلو الاخرى" واوضح ابو اياد ان البرتقالة التي لم تنضج بعد حتى يتم قطافها ترمز الى الدولة الصهيونية...

ان "ابا اياد" هو اول قائد في "فتح" يصوغ في اكتوبر ٦٨ "الهدف الاستراتيجي" للمقاومة: تحويل فلسطين الى "دولة ديمقراطية" يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين، وهي صيغة تعني تفكيك الدولة الصهيونية... زيادة على ذلك، كان ابو اياد اول من دعا علنا في شباط ـ فبراير ١٩٧٤ الى ايجاد "فلسطين مصغرة" عربية تقوم الى جانب الدولة اليهودية...

وابتداء من تشرين الثاني ـ نوفمبر ٧٢، كان ابو اياد يقول لي: يجب ان نكون صريحين مع جماهيرنا لان امتناعنا عن ان نقول لها كل الحقيقة انما يعني شكلا من اشكال احتقار هذه الجماهير". وبعد عدة ايام من حرب رمضان او يوم الغفران، في ٢١ اكتوبر ٧٣، كان ابو اياد اكثر وضوحا اثناء حديث معه في القاهرة، فقد اعتبر ان الواقعية تستلزم اخذ ميزان القوى بعين الاعتبار ذلك انه "لا فائدة من ان يكون المرء خالص التشدد اذا كان ينبغي عليه، كما كانت حالة الحاج امين الحسيني، ان يقضي ايامه الاخيرة في المنفى.

ورغم انه كان لا يرجح ان تقبل اسرائيل بالتفاوض مع منظمة التحرير حول تسوية ما فإنه كان يراهن حينئذ على مشاركة الفدائيين في مؤتمر جنيف شريطة ان يتم تعديل قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بحيث يعترف بأن الفلسطينيين ليسوا مجرد "لاجئين" وانما هم قبل كل شيء "شعب" له "حقوقه الوطنية".

لا شك في ان ابا اياد هو احد الرؤوس السياسية الاكثر شهرة في المقاومة الفلسطينية، انه احد افضل خطبائها ايضا لان مجرد ظهوره على منصة ما يكفي لإثارة حماس الجماهير، مع ذلك ليس لأبي اياد مظهر المقاتل او الثوري، قامة متوسطة مربوعة تميل الى السمنة وذات بدانة واضحة، وهو يفضل ارتداء بذلة عادية ذات تفصيل رديء عموما على

البذلة العسكرية التي تميز سائر الفدائيين. اما شكله فيوحي بصورة معلم الفلسفة التي عاشها فعلا قبل ان يكرس حياته للنضال... وجهه مستدير ممتلىء وعيناه تشعان ذكاء وهما متوجتان بحاجبين سميكين فحميين، شعر رأسه نادر تبدو عليه ملامح الشيب عند الصدغين ويكاد لا يخفي صلع اعلى الجمجمة.

والحقيقة ان ابا اياد كشخص هو رجل متعدد القدرات عميقها، ولو ان القدر لم يكن قد جعل منه ما هو عليه الآن، لكان من دون شك قد اصبح كاتباً، بذاكرة عجيبة فقد كشف عن قدرته كقاص لا نظير له، اثناء سهراتنا الطويلة كانت حكاياه التي تتخللها النكات والصور الآخاذة والسمات المرحة تنم عن مدى رهافة ملكة الملاحظة عنده، ومدى حساسيته، كل ذلك من خلال اجابته على اسئلتي امام جهاز للتسجيل لضرورة انتاج هذا الكتاب، وبخاصة من خلال الاحاديث المتقطعة معه. في الظاهر يبدو الرجل مترفعاً ولكن انفعاليته الوجدانية ترشح من ظاهر جلده.

لم يبك ابو اياد، كما يقول، سوى مرة واحد في حياته وذلك في سن السابعة عشرة عندما ضربه ابوه في فورة غضب، ولكن صوته يتكسر عندما يستذكر هروب اسرته المأساوي من فلسطين قبل يوم واحد من اعلان دولة اسرائيل، او عندما يسترجع المذلات والمضايقات التي تعرض لها عبر مصائبه كفلسطيني لا هوية له. وابو اياد نزق سريع التأثر لا يتحمل اقل اساءة لما يرى فيه مساسا بكرامته او كرامة شعبه.

ولما كان يعيش حياة "ثوري متجول" مهدد باستمرار، فقد انفصل منذ عام ١٩٦٧ عن عائلته التي تقيم في ضواحي القاهرة، وبما ان من المفترض انه لا يأخذ اية اجازة، فالنتيجة هي انه لا يرى زوجته واولاده الستة (ثلاث فتيات وثلاثة فتيان تتراوح اعمارهم بين السابعة والسابعة عشرة) الا نادرا جدا، وهكذا فبسبب انهماكه كليا في مسؤولياته خلال الشهور الثمانية عشرة للحرب الاهلية اللبنانية، امتنع عن الذهاب الى القاهرة طيلة هذه المدة رغم ان العاصمة المصرية تستلزم ساعة طيران

واحدة من بيروت، ولكن ملامح الدمع تغشى عينيه كلما تحدث عن مكالمة هاتفية اجراها مع هذا او ذاك من اولاده وخصوصا ابنته جيهان البالغة من العمر خمس عشرة سنة وهي مصابة بمرض شلل الاطفال منذ ولادتها الامر الذي اقتضى وضعها تحت الاشراف الطبي الدائم.

غير ان الحنان الذي يبديه ابو اياد تجاه اسرته، والمودة التي يظهرها لاصدقائه وتسامحه تجاه خصومه، كل ذلك لم يمنعه بشكل نادر في الواقع من ان يعاقب بالموت خائنا للقضية الفلسطينية او عميلا لاسرائيل. اما سلوكه تجاه مسألة العنف فيتسم بالازدواجية في الممارسة، فعلى الرغم من انه نصير عنيد للكفاح المسلح، فهو لم يشارك مشاركة فعالة في اي نشاط عسكري. انه بالتأكيد كان موجودا اثناء معركة الكرامة في آذار ـ مارس ١٩٦٨، ولكنه لم يطلق رصاصة واحدة ضد المهاجمين الاسرائيليين. اكثر من ذلك، ولاسباب لا يوضحها، ترك نفسه يغفو في رابعة النهار بينما كانت معارك الكرامة على اشدها، وذلك على بعد عشرات الامتار خلف الصخرة التي كان قد احتمى بها، ولكن لا شك انه يظل يختلف كثيرا عن معظم مسؤولي حركات التحرر الوطني الذين، رغم انهم يخططون ويوجهون عمليات العصابات، لا يلقون بأنفسهم في خضم المعمعة. في هذا الصدد يذكرنا ابو اياد بمناحيم بيغن المتهم هو ايضا بعمليات ارهابية دموية مدهشة رغم ان من المشهور عن القائد السابق "للارغون" انه بطبيعته انسان غير عنيف، وتماما مثل الزعيم الفلسطيني يستفظع بيغن رؤية الدم امامه.

لقد كانت مسألة الارهاب موضوعاً لحوارات طويلة واحياناً لنقاشات حامية اثناء فترة التحضير لانتاج هذا الكتاب، وسيجد القارىء ان المقولة التي يدافع عنها ابو اياد على هذا الصعيد هي الاقل طرافة. ففي نهاية التحليل، نراه يميز بين العمليات التي يستحسنها ويوافق عليها ـ يصفها بـ "العنف الثوري" وتلك التي يدينها ويدمغها بالارهاب، خصوصا عمليات خطف الطائرات التي تعرض للخطر حياة المدنيين الابرياء. بالمقابل ، سنجد انه يضفي صفة الشرعية على عمليات كعمليات

ميونيخ والخرطوم (ضد الدبلوماسيين الامريكيين والسعوديين) وعملية طريق حيفا ـ تل ابيب في آذار ـ مارس ١٩٧٨.

ولكن هل هناك نوعان من الرهائن، احدهما "بريء" والاخر "مذنب؟" يجيب ابو اياد على ذلك بالايجاب قبل ان يشدد على ان الاسرائيليين يتحملون كل مرة المسؤولية الثقيلة في قتل الرهائن بدل الاستجابة للمطالب السياسية لخاطفيهم. ولكن الا تؤدي عملية الابتزاز التي يلجأ اليها هؤلاء بالضرورة الى الموت في حالة عدم حصولهم على مطالبهم؟ يؤكد ابو اياد ان الفدائيين لم يبيتوا النية في اية مرة لان يعدموا رهائنهم. وهذا التأكيد يظل بحاجة الى اثبات صحة.. ان الحجج التي يعرضها الزعيم الفلسطيني في هذه الصفحات ستترك عددا من القراء الغربيين في حالة من الحذر. وسنلاحظ ان هذه الحجج لا تختلف كثيرا عن تلك التي عرضتها حركات حرب عصابات اخرى من ماوماو كينيا الى توباماروس الارغواي، ومن ثوار الجزائر الى ثوار الجبهة الوطنية الروديسية. وبغض النظر عن فظاعة الارهاب، اليس هو سلاح الضعفاء الاخير؟... ان ابا اياد يؤكد ضمنا هذه المقولة عندما يفيد بأن منظمة ايلول الاسود قد نشأت عام ١٩٧١ من اليأس الذي ولدته هزيمة الفدائيين في الاردن. وان الامر الذي له دلالته الكبيرة هو ان هذه المنظمة قد اوقفت نشاطها بعد "الانتصار" العربي في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ونجاح منظمة التحرير الفلسطينية على الصعيد الدولي.

ينفي ابو اياد نفياً قاطعاً انه كان قائد منظمة ايلول الاسود. اننا نميل الى تصديق ذلك عندما نعلم ان تلك المنظمة لم تكن تعني في الحقيقة منظمة لها بنيتها واهدافها المحددة وانما هي عبارة عن تكتل مجموعات من الكوماندوز الفلسطينيين الذين لا تربطهم روابط عضوية. كان العديد من كوادر "فتح" يحركون هذه المجموعات بصورة مستقلة وينفصل الواحد منهم عن الآخر بحواجز عازلة وذلك كاجراءات أمن اضافية... ومن المرجح ان الرجل الذي ترأس هذه المنظمة كان أبو يوسف النجار الذي كان مسؤولا في تلك الفترة عن جهاز أمن فتح وهو احد القادة الفلسطينيين الثلاثة الذين قتلوا في بيروت على يد كوماندوز

اسرائيليين في نيسان ـ ابريل ١٩٧٢.

كل ذلك لا ينتقص من حقيقة ان ابا اياد يصف بالتفصيل تحضير وتنفيذ العمليات الرئيسية لمنظمة ايلول الاسود خصوصا عملية ميونيخ اضافة الى عمليتين تكادان لا تصدقان من اجل ابعاد جلالة الملك حسين عن السلطة في الاردن، ورغم انه لا ينسب الى نفسه تولي هذه العمليات، الا انه لا يتردد في القول أنه وافق عليها، هل علم بهذه العمليات بعد فوات الاوان كما يؤكد ذلك بصفته رئيساً لاجهزة منظمة التحرير الخاصة... هذا ممكن، ولكن ما كشفه لنا، فضلا عن الدقة المتناهية لما رواه، يمكن ان يدفعنا للاعتقاد بأنه لم يكن بعيدا كل البعد عن بعض تلك العمليات.

يعرف ابو اياد ان حياته في خطر، انه يعرف ذلك لانه سبق ان نجا من عدة محاولات اغتيال بينها واحدة يرويها بالتفصيل في هذه الصفحات. والخطر على حياته لا ينبع من اسرائيل وحدها، ذلك ان عددا من اجهزة المخابرات الاجنبية، خصوصا المخابرات العربية، لها مصلحة في القضاء عليه. انه يعيش حياة رجل مطارد حتى في بيروت التي هي قلعة للمقاومة الفلسطينية، ذلك انه مجبر على الاخذ بتدابير امنية مخيفة خصوصاً على اثر القطيعة بين منظمة التحرير ومصر بعد زيادة السادات للقدس. لم يعد له مقر سكن ثابت فهو يتصرف بعدة مكاتب ولا يذهب الى احدها الا بصورة غير متوقعة... ويتناوب اربعة من الحراس السريين المسلحين بالرشاشات على حمايته ليلا ونهاراً، وهو لا يتردد على اية مؤسسة عامة كما انه لا يتناول اية وجبة في المطاعم، ولا يستطيع ان يشبع ميوله للعروض المسرحية بالذهاب الى المسرح او السينما، وهكذا فلم يتمكن من مشاهدة فيلم الماني غربي عن عملية ميونيخ الفدائية الا من خلال عرض خاص.

لقد وضعته لقاءاتي معه امام مشكلة امنية ضخمة. ولما كانت هذه اللقاءات سرية فقد كانت تتم ليلا وبالتتابع في بيوت عدد من الاصدقاء الذين كانوا عموما غير فلسطينيين يتعاطفون مع المقاومة الفلسطينية.

وكانت السيارة التي تقل ابا اياد الى مكان اللقاء غالبا سيارة بيجو ٥٠٤ ستائرها مسحوبة - سرعان ما تغادر بعد ان تصل الى عتبة البناية حتى لا تثير انتباه الجيران بينما كان حرسه الخاص يذوب في المحيط.

نادرون هم اولئك الذين كانوا قادرين على تحديد مكان وجوده، وكان مدير الشبكة التلفزيونية الخاصة بفتح، والمنفصلة عن شبكة الدولة اللبنانية، يطلعه على النداءات التي يتلقاها، زيادة على ذلك، كان عدد من ذوي المراكز المرموقة في المقاومة يستطيعون في حالة الاضطرار القصوى ان يتصلوا به مباشرة عن طريق مركز للبث. هذه التدابير الامنية كانت تزعج ابا اياد كما يبدو، وكان يجدها بلا جدوى، وقد فرضت عليه التدابير المذكورة من قيادة فتح بعد الغارة الاسرائيلية، على بيروت في نيسان-ابريل ١٩٧٣ والتي اودت بحياة ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية.

لم يكن صوفياً او قدرياً وكان يقول لي ويكرر: ان "تشككيته" تقوم على القناعة التالية: "كل انسان مستعد للتضحية بحياته يقدر على اغتيال اي شخص يريد". وبصورة طريفة يتعايش في شخصية ابي اياد نفوره الطبيعي من العنف واشمئزازه من التجسس، ولذلك فعندما يتعلق الامر بأجهزته الخاصة نراه يفضل اللجوء الى تعبير جهاز "الرصد" او "الأمن". انها مسألة تتعلق بدلالة الالفاظ دون شك ولكن مع ذلك فهي تعبر عن عقلية مشرد، مناضل عانى منذ طفولته من السلطة القمعية للدول.

لا مراء في ان ابا اياد يأخذ مداه في دوره كقائد سياسي، وهذا ما تشهد عليه قصص احاديثه ومساوماته مع مختلف رؤساء الدول... فنظرا لسمعته كمفاوض محنك جرى تكليفه غالباً بمهمات بالغة الدقة. وخلال الحرب الاهلية اللبنانية كان الناطق باسم عشرين حزبا ومنظمة وتجمعاً لبنانياً او فلسطينياً لها ولاءات مختلفة وكان ينبغي عليه ان يصل معها الى موقف مشترك قبل ان يحتك بمنظمات اليمين اللبناني ويفاوضها.

بمزاج متوازن، صبور، حليم واحيانا بشوش رأيته يفاوض تلفونيا

بحذاقة حول مشروع اتفاق يهدف الى الحصول على انسحاب الميليشيات المارونية من جنوب لبنان... كان يكشف ان "هذه المساومات لن تؤدي الى شيء، نحن نعرف ذلك سلفا ولكنها تتيح لنا الفرصة على الاقل لنسبر نوايا خصومنا وخصوصاً نوايا حماتهم الاسرائيليين".

ومن المشهور عن ابي اياد انه قائد الجناح المتشدد داخل فتح، ولكن اختلافه في وجهات النظر مع بعض رفاقه حول طريقة حل النزاع العربي ـ الاسرائيلي يظل مع ذلك ذا طابع تكتيكي، وبالتأكيد هو يطرى فكرة وحدة العمل مع تنظيمات جبهة الرفض الفلسطينية في وقت اصبحت فيه المقاومة مهددة بمجموعها، ولكنه يدين في نفس الوقت مقولات المتطرفين الذين يرفضون حلا وسطا يتجسد في دولة فلسطينية مصغرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، ولم يكن يؤيد المحادثات السرية التي جرت بين ممثل عن منظمة التحرير الفلسطينية الدكتور "عصام سرطاوي" وعدد من الشخصيات الاسرائيلية (خصوصا الجنرال بيليد واريه الياف ويوري افنيري) وذلك في باريس عام ٧٦ - ٧٧ .

مع ذلك نراه يوضح في هذا الكتاب انه، مبدئيا، ليس معاديا لفكرة مفاوضات مع الدولة اليهودية ولا لفترة اعتراف متبادل بين الشعبين الفلسطيني واليهودي، وتجد تصرفاته المتناقضة في الظاهر تفسيرها من خلال قوله بأن "اية تسوية متفاوض عليها لن تكون مطروحة بالفعل، طالما لم يتغير ميزان القوى لصالحنا بشكل ملحوظ". وبعكس القادة الاخرين، يرى ابو اياد انه فقط "عندما نكون اقوياء يمكن ان نقدم تنازلات لا تمس الاشياء الاساسية، والا فلا يمكن لاي حل وسط الا ان يشكل استسلاما".

هذه القناعة هي التي جعلته بلا شك يدين بشدة زيارة السادات للقدس... هنا نجده يتخطى ردة الفعل العاطفية التي لا يخفيها مع ذلك ليعيب على رئيس الدولة المصرية ليس فقط زيارته للقدس وانما وهمه الذي يتجسد في الاعتقاد بأنه يمكن أن يربح القضية بينما يتسم وضعه بالضعف امام اسرائيل . وبعد ان استمع الى خطابي السادات وبيغن

امام الكنيست الاسرائيلي في ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٧، قرأ ابو اياد مجددا كتاب زعيم الليكود: "الثورة" وقال لي بعدها بمرارة: يوحي لي بيغن بالاحترام لانه يعرف على الاقل كيف يدافع عن وطن حتى لو كان مغتصبا. بالمقابل يرضى السادات ان يبيع بثمن بخس الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني.

لم يكن يتصور ان الرئيس المصري قد يذهب الى حد عقد صلح منفرد مع اسرائيل: "لا يمكن لاية دولة عربية ان توافق على تسوية بدوننا ولا يمكنها اكثر من ذلك ان تقر تسوية ضدنا". هذا ما كان يراه قبل قمة كامب ديفيد بايام.

في خاتمة هذا الكتاب يسلم ابو اياد نفسه الى عملية نقد ذاتي معريا "اخطاء ونقاط عجز" المقاومة الفلسطينية منذ عشرين سنة. ورغم كشف هذا النقد للعيوب الا انه جريء قياساً على التبرير الذي يمارسه باقي القادة غالبا.

بعد ان يجعل من نفسه لسان حال "تشاؤم الواقعيين" و "تفاؤل الثوريين" معا، لا يستبعد ابو اياد امكانية شل المقاومة الفلسطينية بل وحتى تدميرها، كل ذلك مع اقتناعه الكامل بأن شعبه الفلسطيني سيتمكن على المدى الطويل من ان يجسد حقوقه في وطن وفي دولة مستقلة ذات سيادة.

"فلسطيني بلا هوية" ليس كتابا موضوعياً، ولم يكن ممكناً ان يكون كذلك رغم كثرة الاشياء التي كشف عنها. ولكن الكتاب يشكل وثيقة قيمة وفريدة من نوعها ستسهم بالتأكيد في فهم القضية الفلسطينية.

اريك رولو

* كتبت هذه المقدمة في اواسط الثمانينات.

تمهيد:

انها المرة الاولى التي يوافق فيها احد قادة المقاومة "التاريخيين" على نشر مذكراته . وفي كتابه "فلسطيني بلا هوية" يجيب ابو اياد - احد مؤسسي حركة فتح - عن الاسئلة حول بداية الحركة الفلسطينية وايديولوجيتها وتنظيمها وحول الفدائيين ونشاطاتهم السرية وغيرها من الاسئلة التي ظلت حتى الان بلا جواب صادق عن مصدر مسؤول مأذون له . وابو اياد يتصدى في مذكراته للاخطاء التي ارتكبها رؤساء المنظمات الفدائية وللصراعات التي ما انفكت تنخر منظمة التحرير الفلسطينية وتعيق عملها .

وبصفته عضوا في اللجنة المركزية لحركة فتح فان ابا اياد يضطلع بمسؤوليات متعددة بينها مسؤولية تسوية المشكلات الدقيقة مع مختلف رؤساء الدول . وهو يكشف في كتابه تفاصيل المحادثات السرية التي اجراها - في احايين كانت عصيبة - مع عبد الناصر والملك فيصل والرئيس الليبي القذافي والرئيس السوري حافظ الاسد ، ثم يرسم عبر ذلك صورة لمحادثيه العرب هؤلاء لا مراعاة فيها ، ولا مجاملة ، ليصدر بعد ذلك عليهم احكاما تصل في صراحتها الى حد الفظاظة . وابو اياد الى ذلك جوالة كبير وهو يطلعنا على زياراته للصين وفيتنام وكوبا والاتحاد السوفياتي ومحادثاته مع شوان لاي والجنرال جياب وفيدل كاسترو الخ . . .

ثم ان القائد الفدائي الذي طالما اشارت اليه المخابرات الاسرائيلية (الموساد) ووكالة المخابرات المركزية الامريكية (السي . آي . إيه) كرئيس لمنظمة ايلول الاسود وافق ان يقدم سردا تفصيليا حول إعداد وتنفيذ عمليات الاغتيال الفلسطينية . وقد كان بعض هذه العمليات باهرا شأن عملية الالعاب الاولمبية في ميونيخ ، كما كان بعضها مجهولا من الجمهور شأن اغتيال عملاء الموساد في اوروبا .

وابو اياد يتمتع بمركز يتيح له ان يكشف النقاب عن "حرب الاشباح" التي لا تزال قائمة بين الاسرائيليين والفلسطينيين منذ سنوات: فقد اصبح رئيساً لمخابرات منظمة التحرير الفلسطينية منذ العام ١٩٧٠ ، بعد

ان كان احد اوائل المسؤولين عن دوائر فتح الامنية (١٩٦٨-١٩٧٠).

وبالنظر الى انه كان مولجاً بالشؤون المتعلقة بلبنان، فان ابا اياد يقدم عرضاً اخاذاً لمحاولات المقاومة الحيلولة دون نشوب الحرب الاهلية اللبنانية فيذكر مفاوضاته ومداولاته مع الزعماء اللبنانيين ولا سيما مع سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل.

يضاف الى ذلك ان سرده لمختلف مراحل النزاع اللبناني ـ بما في ذلك الصدام بين السوريين والفلسطينيين ـ يبرر الابعاد الدولية للحرب اللبنانية.

واخيراً فان الشخصية الثانية في فتح تورد الشروط التي يضعها الفلسطينيون لاقامة سلام مع الاسرائيليين: سلام ليس مبنيا على العدل ـ كما تدعو اليه جبهة الرفض ـ وانما على العدل والواقعية معا.

الفصل الاول

بذور الحقد

سيظل يوم ١٣ ايار ــ مايو ١٩٤٨ محفورا في ذاكرتي الى الابد *. ففي هذا اليوم وقبيل اعلان دولة اسرائيل بأربع وعشرين ساعة، فرت عائلتي من يافا لتلجأ الى غزة. فقد كنا محاصرين... كانت القوات الصهيونية تسيطر على كافة الطرق المؤدية الى الجنوب، ولم يكن لدينا من وسيلة اخرى للنجاة بانفسنا الا طريق البحر. وكان ان اقلعنا، والدي واشقائي وشقيقاتي الاربعة وعديدون اخرون من عائلتنا، في ما يشبه ان يكون مركبا تحت وابل من القذائف التي كانت تطلقها المدفعية اليهودية المتمركزة في التجمعات المجاورة ولا سيما في تل ابيب .

ولقد سلك مئات الآلاف من الفلسطينيين طريق المنفى في ظروف مأساوية في الغالب، اما انا الذي لم اكن بلغت سن الخامسة عشر بعد، فان الرحيل اتخذ بالنسبة الي ابعاد يوم الحشر. فقد اخذني مشهد تلك الحشود من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال الرازحين تحت ثقل الحقائب او الصرر، متجهين بشق الانفس نحو ارصفة ميناء يافا في عجيج كئيب. وكانت تتخلل صرخات البعض وندب وانتحاب البعض الاخر، انفجارات تصم الآذان.

ولم يكد المركب يرفع مراسيه، حتى سمعنا عويل امرأة، فقد لاحظت ان احد اطفالها الاربعة لم يكن على المركب، وراحت تطلب العودة الى المرفأ للبحث عنه. الا انه كان من الصعب علينا، ونحن نتعرض لنيران المدافع اليهودية الغزيرة ان نعود ادراجنا فنعرض للخطر حياة ما بين مائتين وثلاثمائة شخص بينهم العديد من الاطفال في المركب. ولقد ذهبت توسلات تلك المرأة الباسلة سدى فانهارت باكية. وكنا بضعة اشخاص نحاول تهدئتها مؤكدين لها انه سيتم ايواء ابنها الصغير بالتأكيد ثم يرسلونه في وقت لاحق الى غزة. ولكن عبثا، اذ راح قنوطها يتزايد برغم محاولاتنا، وبرغم تطمينات زوجها. ثم اذا بأعصابها تخور فجأة فتتخطى حافة المركب وتلقي بنفسها في البحر. اما زوجها الذي لم يفلح في الامساك بها، فقد غطس بدوره، ولم يكن اي منهما يحسن العوم فابتلعتهما الامواج الهائجة أمام نواظرنا. واما المسافرون الذين اخذهم الروع فكانوا كمن أصابه الشلل.

ولماذا غادرنا دورنا وارزاقنا ورمينا بأنفسنا في مغامرة المنفى. اني لم اكن وانا

* ابو اياد من مواليد ١٩٢٢

الذي يوفر السلطة الابوية لاطرح المسألة على نفسي في ذلك الحين حتى مجرد طرح. سيما واني كنت مقتنعاً، شأن ذوي، بأنه ليس أمامنا سبيل آخر للافلات من الموت. فمجزرة دير ياسين وقعت قبيل ذلك بشهر، وزرعت الرعب في نفوس ابناء وطني. ففي ٩ نيسان (ابريل)، قامت حركة مناحيم بيغن، الارغون زفاي ليئومي (المنظمة العسكرية القومية) بمهاجمة هذه القرية الوادعة الواقعة غربي القدس وابادت معظم سكانها: فقتل اكثر من ٢٥٠ رجلا وامرأة وطفلا لا مدافع عنهم، أو ذبحوا او دفنوا احياء، ومثل بالعديد من الجثث بالسلاح الابيض وبقرت بطون ثلاثين امرأة من نساء القرية الحوامل.

لم يكن لدينا اي سبب يدفعنا للشك بصدق المذبحة الهمجية التي سيؤكدها السيد جاك رينير، ممثل الصليب الاحمر الدولي، اثر استقصاء قام به شخصيا في دير ياسين. فبشاعة التفاصيل التي نقلها، تذكر بالفظاعات التي ارتكبها النازيون في اوروبا المحتلة.

كانت يافا كدير ياسين، تحت رحمة القوات الصهيونية التي تسيطر بالكامل على المنطقة الواقعة خلف تجمعنا. اما الهاغاناه، وهي جيش الوكالة اليهودية "الرسمي" فكانت تنسق نشاطاتها تنسيقاً وثيقاً مع نشاطات "الخوارج" من امثال مناحيم بيغن. وشنت في اول نيسان (ابريل) ١٩٤٨ هجوما حسب الاصول بغرض تصفية "الجيوب" العربية داخل الاقليم الذي رسم له ان يكون الدولة اليهودية. فكان يجري تحذير الاهالي في كل مرة بأنهم سيلقون مصير دير ياسين اذا لم يخلوا الأمكنة.

ثم إن خبر الإبادة الجماعية انتشر في يافا مثل النار في الهشيم كما انتشر في بقية انحاء البلاد. لا بل ان وسائل الاعلام الصهيونية التي كانت تسعى الى ارهاب العرب زادته اذكاء وتضخيما، وكذلك ـ والحق احق ان يقال ـ فعل المحرضون الفلسطينيون الذين حسبوا انهم يعبئون بذلك الاهالي. فكانوا على سبيل المثال، يؤكدون على اغتصاب النساء في دير ياسين من قبل المهاجمين الصهاينة قبل ان يدعوا الفلسطينيين الى الدفاع عن اثمن ما لديهم، وأعني الدفاع عن أعراض زوجاتهم وبناتهم. الا ان استراتيجيتهم هذه اثارت في اغلب الحالات اثراً عكسياً في هذا المجتمع الذي كان لا يزال مجتمعاً تقليدياً للغاية، وعلى هذا فكثيراً ما كنت اسمع الناس يقولون "العرض قبل الارض" وان اول الاولويات هو

ان نقي نسوتنا من اعتداء العسكر الصهيوني.

وكان مما يجعل عزم غالبية سكان يافا _ المئة الف _ على السعي وراء ضمان ملتجأ مؤقت اكثر تبريراً وتسويغا، هو تمتع اليهود بتفوق عسكري ساحق. فقد كانوا بالتالي متقدمين على الفلسطينيين. ثم ان الخوف استولى على الاهالي حين اعلنت بريطانيا العظمى في نهاية عام ١٩٤٧، انها تخلت عن الانتداب على فلسطين وانها ستسحب قواتها منها قبل ١٥ ايار ١٩٤٨ فلم يبق في وسعنا الاعتماد على حماية الجيوش البريطانية حتى ولو كانت حماية مشكوكا فيها اصلا. ثم استبد الرعب بيافا عندما شرعت القوات الصهيونية، بعد مجزرة دير ياسين، بدك المدينة مستهدفة على نحو خاص المرفأ واحياء العمال. وكان في حسبان الناس ان خنق المدينة اقتصادياً هو مقدمة لغزوها ومن ثم ارتكاب مذابح فظيعة فيها بدون ادنى ريب.

ولو قيل لي ابان سني حداثتي ان اليهود سيطردوننا ذات يوم من وطننا لكنت اول الناس استغرابا بل استنكارا. ذلك انه كانت تصل افراد عائلتي افضل العلاقات باليهود، وكان لهم الكثير من الاصدقاء فيما بينهم. فجدي الشيخ عبدالله وهو رجل دين من غزة، ربى اطفاله بروح متسامحة. وقد تزوج احد ابنائه من يهودية، كما لم يكن من النادر ان اسمع من يفوقونني سنا يذكرون اتصال حبل الغرام او انقطاعه بين هذا القريب او ذاك من ذوي قرابتنا وبين فتاة يهودية.

كان والدي يتحدث العبرية التي تعلمها عبر ممارسته اليومية بطلاقة. ففي عام ١٩٢٠، غادر غزة التي تعاقب فيها عشرة اجيال من عائلته، ليقيم في حي بمواجهة البحر في يافا يدعى "الحمام المحروق". واذ عمل بادئا كموظف في السجل العقاري، فانه اتيح له ان يتآلف مع الاهالي اليهود. وعندما استقال من الوظيفة العامة عام ١٩٤٠ افتتح بقالة متواضعة في الكرمل، الحي المختلط القريب من تل ابيب. وكان الموردون له شأن زبائنه، يهودا في نصفهم، يقدرونه ويقيمون علاقات ممتازة معه. ووفقا للتقاليد في هذا الجزء من العالم فان اهلي كانوا يتبادلون الزيارات الودية مع جيرانهم واصدقائهم اليهود بمناسبة الاعياد اليهودية والاسلامية.

وفي ساعة الغداء، ثم لدى مغادرة الصفوف الدراسية بعد الظهر، كنا، شقيقي عبدالله الذي يكبرني بثلاث سنوات وانا، نذهب الى محل البقالة لنتيح لوالدنا ان يرتاح بضع ساعات. وقد تعلمت المحادثة البسيطة باللغة العبرية من خلال خدمة الزبائن اليهود. وبرغم اني كنت ارتاد مدرسة موقوفة على العرب هي مدرسة المروانية، فقد عقدت صداقات عديدة مع طلاب المؤسسات اليهودية الذين كنت اتحدث اليهم بالعبرية او بالعربية بلا فرق. ولما كان اصدقائي في معظمهم مولودين في فلسطين او متحدرين من عائلات تعود اصولها الى البلدان العربية، والى اليمن بخاصة فقد كانوا يتكلمون لغتي بأفضل مما اتكلم انا لغتهم. كانت اذواقنا هي اذواق الاطفال، ولا زلت أذكر بوضوح العابنا في ساحة تل ابيب ونزهاتنا الطويلة التي كنا نتحدث خلالها عن كل شيء الا عن المشكلة التي لن تلبث ان تلقي بنا في معسكرين متناحرين.

ولقد وعيت النزاع الصهيوني ــ العربي قبيل نهاية الحرب العالمية الاخيرة وانا ذاهب ذات يوم لزيارة اقارب حميمين لي في "العميل"، وهي بلدة عربية تقع في منطقة تل ابيب، فعلى منعطف الطريق، شاهدت من بعيد شبابا على رابية يتدربون على استخدام السلاح. وحين انقضت صدمة الوهلة الاولى، لاحظت وانا مأخوذ، شباباً وبناتا تتراوح اعمارهم بين ١٦ و ٢٥ سنة تقريبا وهم يستجيبون لاوامر تعطى لهم بالعبرية، ويقومون بتمارين مختلفة بانضباط كامل. وكان في المشهد ما يقلق ويؤثر في الطفل ذي الاحد عشر عاما الذي كنته، اذ لماذا يستعد هؤلاء الاحداث اليهود للحرب...؟ ومن تراهم سيقاتلون؟ والى اية تشكيلة ينتمون...؟ واجابني احد اساتذة مدرستي: "الهاغاناه". وكانت تلك اول مرة اسمع فيها اسم جيش الوكالة اليهودية "الرسمي" والمرة الاولى ايضا التي افهم فيها اننا ماضون نحو الصدام.

كانت هناك منظمة فلسطينية شبه عسكرية قد ولدت حديثاً في تلك الحقبة. لمقاومة الهاغاناة، هي "النجادة" التي كان يقوها محمد الهواري والذي كان مدير مدرستي، رشاد الدباغ، احد اعضائها المؤسسين فشجعني على الانتساب الى فرع الاحداث او "الاشبال" فيها. وهكذا، فقد بدأت مع بعض رفاقي حياتنا النضالية. كان بعض اساتذتنا يجدّون في تزويدنا باعداد سياسي. فيحدثوننا عن تاريخ فلسطين وعن بلفور وعن الاستيطان الصهيوني وعن الثورة الشعبية في سنوات

١٩٣٦-١٩٣٩. ويقولون لنا ان واجبنا هو ان نتابع الكفاح لكي تستقل فلسطين بنفس الطريقة التي استقلت بها بقية الدول العربية في المنطقة.

وبدأت الاهتمام بالمشاكل التي كانت تثير الرأي العام حينذاك اي بمطالبة الصهاينة بالحق في الهجرة غير المحدود وبشرائهم الكثيف للاراضي العربية، وبدفق الاسلحة التي كانوا يتلقونها من الخارج بالتواطؤ الفعال او السلبي من قبل السلطات البريطانية.

الا ان انهيار قوات المحور، الذي سرعان ما افضى الى معاودة اثارة القضية الفلسطينية، وضع نهاية للصداقة الجميلة التي كانت تربطنا برفاقنا اليهود.

وقد استمرينا في التعاشر، سرا احيانا، برغم النصائح التي كنا نتلقاها، نحن وهم، ممن يفوقوننا سناً، إلا ان نقاشاتنا كانت تتخذ شكل المناظرة العنيفة احيانا.

وثمة حدث كان على قدر خاص من الصعوبة، ولا زلت اذكره جيدا، جرى لي في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥. فقد جرى تبادل كلام حاد بيننا وبين رفاقنا اليهود، وكنا نحوا من عشرين صبيا من كلا الجانبين تحول الى معركة تقاتلنا خلالها بالحجارة. وبعد هذا الحادث، قررت في الغداة ان ازور عائلتي في "العميل". كان ابي قد قدم لي دراجة فكنت سعيدا وفخورا باستخدامها لقطع الكيلومترات العشرة من الطريق. وبينما كنت اجتاز تل ابيب لابلغ "العميل" اذ بأربعة او خمسة صبيان اكبر مني بقليل، يسارعون بغتة الى مطاردتي، وهم مهتاجون بصورة بادية ويصرخون بأعلى صوتهم "عربيت عربيت" (اي عربي بالعبرية) ثم لحقوا بي وطرحوني ارضاً وشرعوا يكيلون لي الضربات على وجهي وبطني وظهري. ولما لم يكن قد سبق لي ان شاهدت مهاجمي هؤلاء قبلا، فاني لم اعرف سبب احتدامهم الشرس هذا. ووجدتني مأخوذا ومرعوبا وغير قادر على الدفاع عن نفسي، ولكني لم ابدأ الولولة الا حين رأيت اثنين منهم ينكبان على عجلتي بضراوة لتحطيمها. ثم اسرع اثنان من المارة لتخليصي من ايدي المعتدين الذين افلحوا في الفرار. وساعدني احد المنقذين وهو رجل مسن، على النهوض وقادني الى صيدلية قريبة لتضميد جروحي.

باتت دراجتي لا تصلح لاي استعمال. فتركتها وانا كسير الفؤاد على قارعة

الطريق وركبت الاوتوبيس الى يافا، حيث عدت الى البيت وانا لا ألوى على شيء. واذ كنت متألما يستنفذني الامتحان الذي تعرضت له فانني سريعا ما نمت. وبعد ذلك بساعات، ايقظتنا في منتصف الليل طرقات امرأة على الباب. وازاء تساؤل والدي القلق، فقد اجابنا صوت جهير: "بوليس".

كان منزلنا مؤلفا من ثلاث غرف يتراكم فيها افراد عائلتنا السبعة، مما يجعله أضيق من ان يستقبل عشرة افراد من الشرطة العرب وحفنة الضباط الذين كانوا في معظمهم انكليزاً والذين كنا نستطيع تمييزهم عبر اطار الباب. وتقدم احدهم من والدي وأظهر له مذكرة توقيف بحقي. وكان المطلوب ان اتبعه الى مقر دوائر الامن العام لاجل الاستجواب.

ولم يسبق لافراد عائلتي ان تنازعوا مع البوليس ابداً. كان ابي دقيقاً في نزاهته، محترماً للقوانين السارية وتأبى عليه النخوة كما يفهمها ان يرتكب اية مخالفة، ولهذا فان مجرد اقتحام قوات الامن لمنزلنا في ساعة متأخرة بحد ذاته، قد صدمه. اذ ما ترى الجيران قائلين...؟ واية جريمة ارتكبت انا لاستحق مثل هذا العرض للقوات...؟

ولكأني انظر اليه الان وهو منفعل ويطرح الاسئلة على الضابط فيجيب بجفاء بأنه لا يعلم شيئا. ولقد تعرفنا جميعنا على محدث ابي. انه الحباب. الذي كان برغم انتمائه الى المخابرات "السرية". معروفاً تماما في يافا. فهو فلسطيني ومدافع مطواع عن السلطة الاستعمارية، وكان مكلفا من قبل رؤسائه الانكليز بمكافحة "التخريب". فكان الناس يخشونه ويحتقرونه في آن معا، ذلك انه كان يبذل كل الحماس في مراقبة مواطنيه وفي قمع كل ما قد يؤدي الى اضطراب الامن قمعاً لئيما شرسا.

واحتج ابي بحداثة سني، وصاح "انكم لا تستطيعون اقتياد طفل في الثانية عشرة من عمره في هزيع الليل..." اني اعدكم بأن اقتاده الى مكتبكم في الساعة الاولى من صباح غد. اني اعلم ان ابني بريء، واتوسل اليكم ان تصبروا... "الا ان الحباب بقي جامدا. فهو لن يغادر المكان بدوني" واخيرا وافق على ان يرافقني والدي. وبدأ الاستجواب فور وصولنا الى مقر الامن العام. وسرعان ما سألني الحباب وهو جالس وراء مكتبه عن مصدر الكدمات الظاهرة على وجهي. وما ان

انهيت سرد ما وقع لي في تل ابيب حتى وصفني بالكذاب، ثم، اذا بشرطي يدخل علينا وهو يلبس ثياباً مدنية، فيتهمني بطعن حدث يهودي في قدمه خلال مشاجرة حدثت في اليوم ذاته في يافا. فاوضحت له انه لا يمكنني ان اكون القائم بهذا الاعتداء لاني كنت انا نفسي لحظة ذاك، اتعرض لهجوم في تل ابيب. وعند ذاك ادخل الحباب الى المكتب اثنين من رفاقي اليهود ممن كنت اعدهم بين اصدقائي الحميمين. فأكدوا على رواية الشرطي مضيفين انني كنت رئيس العصابة التي هاجمت فريق الطلاب اليهود.

كنت مذهولا وغاضباً من موقفهما الظالم تماما، وحين سألتهما عما اذا كانا شاهداني بأعينهما اشترك في الشجار... اجابا: نعم. ولم تنفعني احتجاجاتي بشيء لاني لم اكن استطيع تقديم شهود مضادين.

وعندما انتهت المواجهة، طرد ابي، الذي كان لا يزال يصر على اعادتي الى البيت بقوة السلاح. كنت مهاناً عاجزاً، اصر اسناني والدموع في عيني وبعض الرعناء يدفعون ابي بشراسة بينما كان يصيح بأني بريء ويناشد الحباب العدل. ثم حبست في زنزانة معدة للاحداث من الجانحين، فلم استطع ان اغمض عيني بقية الليل.

وفي صبيحة اليوم التالي، حاول الحباب ان ينتزع مني اعترافاً، فراح يضربني بمسطرة على اصابعي. ثم ان سكوتي الذي اعتبره عجرفة، كلفني مضاعفة الضربات. وفي النهاية قال لي: "انك لا تريد ان تعترف... حسنا سوف تحال الى المحكمة". ثم اقتدت تحت الحراسة الى طابق الاحداث. وهناك طرح علي رئيس المحكمة وهو انكليزي يتكلم عربية ركيكة، بعض الاسئلة. فأعدت مرة اخرى سرد ما الم بي، الا ان ذلك لم يترك في نفسه ببديهة الحال اي تأثير. ثم اقتدت مجددا الى طابق الحباب الذي ابقاني واقفا عشر ساعات الى ان ابلغني في ساعة متقدمة من الليل وبحضور والدي نص الحكم. انه حكم بالادانة وبابقائي سنة في الاقامة تحت المراقبة، يكون علي خلالها ان اكفر عن سيرتي السابقة، واقوم، من جملة ما اقوم به بالمثول مرة في الأسبوع امام الحباب لاقدم له تقريراً عن حركاتي وسكناتي.

ولأول مرة في حياتي استشعر الاحباط والحقد . الحقد على الانكليز الذين

يقهرون شعبي، والحقد على من وضعوا انفسهم من مواطني في خدمتهم، والحقد على الصهيونية التي حفرت هوة بين الفلسطينيين واليهود. غير ان اليأس الذي استشعرته اثر الظلم الذي لاقيته، جرى التعويض عنه جزئياً بالعطف الذي اظهره محيطي، حيث كنت اعتبر بطلا بأكثر مما كنت اعتبر ضحية. افلم اصمد في وجه المتعسفين وجهازهم القمعي..؟ وسرعان ما منحني مدير المدرسة رشاد الدباغ عطلة اسبوعية لاتعافى من جراحي ومن تجربتي المؤذية. وحين عدت الى الصف احتفى بي رفاقي، ثم اصبحت، واكثر من اي وقت مضى، الرئيس غير المنازع بين «أشبال النجادة».

اما اهلي، فانه بدا لي ان حنوهم علي قد تعاظم. وقليلا ما علق ابي على الامتحان الذي تعرضنا له سوية. الا انني كنت اعرف عمق وطنيته، فكنت اعلم ان في وسعي الاعتماد على مناصرته. فقد وافق كما وافقت والدتي، على انتسابي للنجادة، برغم انه هو لم يكن عضواً في اية منظمة عسكرية او سياسية ومع هذا فانه كان يتصرف في الاشهر التي تلت توقيفي بصورة غريبة. فقد لاحظنا، اخي عبدالله وانا، بأنه يقفل بالمفتاح احدى الخزانات فلا يستطيع فتحها احد سواه. وكان يعتزل من حين الى آخر في احدى غرف منزلنا التي توجد فيها هذه الخزانة بالذات. ثم يخرج منها بدون ان ينبس بكلمة. فقررنا ذات يوم، بعد ان اثار ذلك فضولنا، ان نراقبه من ثقب الباب. وكم كانت دهشتنا حين رأيناه يتجه نحو الخزانة ويخرج منها رشاشاً بديعاً. فأبي، الذي كان على ما هو عليه من الرقة والوداعة، كان يزيل الشحم عن سلاحه وينظفه بدقة ويربت عليه بعطف. كان السلاح باهظ الثمن بالنسبة لحانوتي مكد كوالدي. وحسبنا انه لا بد ان يكون بالتأكيد مقاتلا تابعاً لتشكيل سري...

غير ان الحقيقة لم تكن تطابق توهماتنا. فبعد ذلك بسنة، اي في مطلع عام ١٩٤٧، وعندما جرؤنا اخيراً على ان نعترف بسر فضولنا، فان والدي باح لنا بأنه اشترى رشاشه بماله الخاص. فليس من المستبعد، كما قال لنا، من ان يسحب الانكليز جيوشهم من فلسطين، فينبغي لنا اذ ذاك ان نكون مستعدين للدفاع عن انفسنا ضد اليهود الذين يتسلحون الى ابعد حد. ثم ان غالبية سكان الاحياء العربية في يافا الواقعة على مقربة من التجمعات اليهودية فعلت الامر نفسه. ولما لم يكن في وسعهم الاعتماد على احد في الدفاع عنهم، فانهم بدأوا يترقبون بخشية

اليوم الذي يصيرون فيه تحت رحمة المقاتلين الصهاينة.

اما المنظمات الفلسطينية فكان يعوزها السلاح الذي لم يكن متاحاً فمنظمة النجادة التي كنت انتمي اليها، كانت تدرب اعضاءها باستخدام البنادق الخشبية وهكذا فانه لم تتح لي مطلقا فرصة ان ألامس او حتى ان أرى سلاحا حقيقياً، غير ذلك الذي رأيته بين يدي والدي. فكان قوام تدريبنا هو التمارين البدينة والمحاضرات النظرية على فن حرب العصابات التي كان يلقيها علينا العسكريون القدامى الذين قاتلوا في الحرب العالمية الثانية في صفوف الجيش البريطاني.

ولم يكن للحركة الوطنية الفلسطينية اي وجود منظم. فانهيار الثورة الشعبية لاعوام ٣٦-١٩٣٩ الدامية أباد صفوفها وبعثر الاحياء من قادتها، فكانوا في معظمهم معتقلين في سجون الانكليز او مكرهين على المنفى. وفي تلك الفترة سمعت كثيرا بالحاج امين الحسيني مفتي القدس وزعيم الحركة الفلسطينية، ولكني كنت اعلم القليل عنه، اللهم الا نفوره من النجادة التي كانت تزعم أنها تريد الحفاظ على استقلاليتها الكاملة إزاء "الرؤساء التاريخيين". واتذكر عودة جمال الحسيني ابن عم المفتي، من المنفى، والاجتماع الشعبيي الكبير الذي حشد على شرفه في ساحة الساعة بيافا. كنت احد آلاف المتظاهرين الذين يصيحون معربين عن ارادتهم بالكفاح من اجل فلسطين عربية ومستقلة.

كان جمال الحسيني احد الرؤساء لاحدى المنظمات الفلسطينية العديدة التي كانت قائمة حينذاك، الا وهي منظمة الفتوة. وبعيد مروره بيافا بدأت المحاولات الرامية لتشجيع دمج الفتوة بالنجادة. واوفدت الجامعة العربية لهذا الغرض ضابطا مصريا يدعى محمود لبيب، اشتهر بروابطه بالاخوان المسلمين. ومع ان مهمته كانت شاقة الا انها تكللت بالنجاح ظاهرا على الاقل ذلك ان الفصيلين اندمجا في تشكيل جديد اتخذ اسم "منظمة الشباب". الا ان هذه العملية بدلا من ان تزود الحركة بدفعة جديدة، فانها اغرقت مناضلي المنظمتين الموحدتين توحيداً اصطناعياً، في الفوضى ثم اصابتهم بالتالي بالشلل. فقد اوقف زعيم النجادة محمد الهواري كل نشاط تعبيرا عن احتجاجه ضد هذا المشروع الذي كان يعارضه حتى من حيث المبدأ ثم ان الهواري اسهم، وهو الخطيب المؤثر والقائد الموهوب، والقومي المتقد، في تثبيط عدد من المعجبين به ومن محازبيه عندما انزلق من السلبية الى التعاون مع العدو. واضعاً نفسه في خدمة اسرائيل منذ احتلال القوات

الصهيونية ليافا. واما "منظمة الشباب" فقد ماتت رغم انفها في ذات الحقبة.

ويقيني ان الانكليز ليسوا غرباء عن اجهاض هذا المشروع. فقد كانوا يعملون، بين جملة ما يعملونه، بواسطة عملائهم داخل الجامعة العربية فلا يتوقفون عن الدسيسة والكيد لاضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية، ان باثارة الانقسامات داخلها، و ان بجعلها غير فاعلة، كما حدث في حالة تحييد النجادة والفتوة.

كان الفلسطينيون مجمعين على المطالبة بانهاء الانتداب البريطاني وبايصال بلدهم الى وضع الدولة الكاملة السيادة. واذ ذاك فان السلطات الاستعمارية ضاعفت الاجراءات والمبادرات من اجل تبرير وتمديد وجود سلطانها. ومن اجل هذا فانه كان لا بد لها ان ترعى الانشقاقات في فلسطين وان تثير اليهود والعرب وان تشعل المواجهات المسلحة بينهم عند اقتضاء الحاجة. وفي ربيع عام ١٩٤٦، الغت حكومة لندن ضمنا كافة احكام وتدابير "الكتاب الابيض" لعام ١٩٣٩ عندما اذنت بقبول مئة الف مهاجر يهودي الى فلسطين وبشراء الصهاينة للاراضي العربية. معلنة ان بريطانيا العظمى ستستمر في ممارسة انتدابها على فلسطين طالما ظلت الظروف لا تسمح ببلوغ هذا البلد الاستقلال.

وفي بداية عام ١٩٤٧ شاهدت بأم عيني كيف كان الانكليز يسعون وراء جعل حضورهم أمراً لا غنى عنه، والبرهنة على ان انسحابهم سيفضي الى حمام دم في فلسطين. فقد لاحظنا ــ رفاقي وانا ــ وفي عدة مناسبات دبابة خفيفة ترابط في يافا وتطلق النار على الاحياء اليهودية في تل ابيب. وعندها ظن اليهود ان العرب فتحوا النار عليهم وردوا بالمثل. ثم ان الانكليز قاموا بالعملية ذاتها وبوجهة معاكسة مطلقين النار من تل ابيب على يافا. وهكذا فقد راحت المناوشات، ثم المعارك من بعد، تتضاعف بين فريقي السكان، وذلك حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها عندما لاحظت الجمعية العامة للامم المتحدة ان التعايش بين العرب واليهود بات غير ممكن فقررت تقسيم فلسطين الى دولتين.

وقد اتخذت السلطات الاستعمارية موقفا واضح الانحياز لصالح الصهاينة لاضعاف الغلبة التي تتمتع بها الاكثرية العربية. فبينما كانت تمارس على العرب قمعا لا رأفة فيه، فانها كانت تعامل الارهابيين اليهود، برغم قيامهم بجرائم فظيعة ضد الانكليز، بتسامح يتجاوز الادراك. كانت سلطات الامن تغمض عينيها

عن الدفق الكثيف من الاسلحة التي تتلقاها الهاغاناه والمنظمات الاخرى من الخارج، في حين انها لم تكن تتردد في سجن اي عربي يحوز سلاحا ناريا، وتحظر علينا ان نقتني حتى الخنجر، وتعتبر حمله جنحة يعاقب عليها بالسجن مدة ستة اشهر. وهكذا فان نسبة القوى التي كانت تبدو في صالحنا في أول سنتين بعد الحرب، انقلبت لصالح الصهاينة غير انه من الصحيح ان هؤلاء كانوا يتمتعون بدعم وتواطؤ من الخارج، لم نكن نتمتع به. فالدول العربية كانت تظهر لنا تعاطفا بالغ "العذرية" والافلاطونية، فتعد بالكثير ولا تزودنا عمليا الا بمعونة شبه رمزية. ولم يكن الفلسطينيون يتمتعون بمنظمة شبيهة بالوكالة اليهودية التي كانت تستقطب الاموال والوسائل التي لا غنى عنها لشراء ونقل الأسلحة. كما كانوا محرومين من القيادة السياسية والعسكرية، التي بوسعها، فيما لو وجدت، ان تنظم مقاومتهم.

واذ سلموا الى قدرهم، وهم يخشون حدوث مجازر شبيهة بمجزرة دير ياسين، فان مئات الالاف من الفلسطينيين قرروا مغادرة وطنهم تحرزا، لا سيما وان بعض "اللجان الوطنية" المؤلفة من مناضلين قوميين، وخاصة في يافا، كانت تطمئن من يريدون المغادرة بأن منفاهم سيدوم قليلا، فما هي الا بضعة اسابيع او بضعة اشهر، اي الوقت اللازم لتجمع الجيوش العربية حتى تقهر القوات الصهيونية. ذلك ان القرار الذي اعلنته البلدان العربية بمقاومة انشاء دولة اسرائيل بالسلاح، اثار آملا كبيرا لدى الفلسطينيين.

وحين استرجع ذلك، فاني اعتقد ان مواطني اخطأوا حين راهنوا على الأنظمة العربية، كما اخطأوا على اية حال، حين تركوا الميدان خاليا للمستوطنين اليهود. كان عليهم الصمود مهما كلف الامر. فما كان في مستطاع الصهاينة ان يبيدوهم حتى اخر رجل. وعلى اية حال، فقد كان المنفى بالنسبة لكثيرين بيننا أسوأ من الموت.

واذا كانوا يجهلون ما ينتظرهم، فان اهلي قرروا خلاف ذلك. فهم في نهاية الامر، يلتجئون الى غزة، المدينة التي ولد ابي فيها. ثم انهم لاستئمانهم، خلفوا وراءهم اثاثهم وممتلكاتهم حاملين معهم الامتعة الشخصية ذات الضرورة

القصوى، ولكاني انظر الان الى ابي وهو يمسك بيده مفاتيح مسكننا ويقول لنا مطمئنا اننا لن نلبث ان نعود اليه. ولكن قدر لي الا ارى بعد ذلك المنزل الذي ولدت فيه، فقد مرت على ذلك الحين ثلاثون من السنين و لا زلت اجهل ما اذا كان قد دمر ام لا. والحق هو اني افضل الا اعرف.

الفصل الثاني

سنوات الحمل

كانت السنوات التي عشناها في غزة من أكثر سني حداثتي كآبة. انها سنوات ريبة ويأس وبؤس. رغم اننا لم نكن في عداد الاكثر حرماناً. ففي حين كان اللاجئون محشورين في مخيمات كيفما اتفق الحال. ويسكنون في خيام أو أكواخ صفيحية فانه كان لنا حظ القدرة على الاعتماد على عائلتنا المقيمة في المدينة. فقد آوانا احد أعمامي وهو رب عائلة كبيرة ورجل متواضع الحال يصنع هياكل خشبية (طوبار) لأغراض البناء. وأسكننا في غرفة محاذية فرش فيها سبع فرشات لينام عليها أبواي وأطفالهما الخمسة. كان المكان كافيا بالضبط لنتمدد. واذا كان أبي يعيش على أمل لا يقاوم بالعودة في وقت قريب الى يافا، فانه راح يمدد اقامتنا في مسكن عمي شهراً بعد شهر. وعلى أية حال فانه لم يكن يملك الوسائل التي تمكنه من الاقامة في مكان آخر. فعشنا سنتين في اختلاط خانق الى أن جاء اليوم الذي أفهم فيه عمي والدي انه بات لشديد أسفه مكرها على انهاء ضيافتنا (فقد لاحظ أن أخي البكر عبدالله بات رجلاً ولم يعد يليق أن نسكن بصورة مشتركة بالنظر الى أن بناته هو أيضاً بتن صبايا).

وثمة مشكلة ثانية طرحت منذ وصولنا الى غزة. فبالنظر الى ضآلة عدد المدارس المتوفرة والى تدفق اللاجئين، فانه لم تكن ثمة مؤسسة تستطيع استقبالنا. وقد استلزم الأمر من أبي قضاء عدة أشهر في المساعي والتضرعات والمداخلات قبل أن يفلح في أن يرتب دخول أطفاله الخمسة إلى المدارس. ومن الصحيح كذلك ان السلطات المصرية لجأت خلال ذلك الى وسيلة لتشجيع امتصاص كافة الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة: كان الاساتذة يتناوبون، بعضهم في الصباح وبعضهم الآخر بعد الظهر، لتوفير التعليم للصفوف المختلفة. فكنا، عبدالله وأنا، مسجلين في الدورة الصباحية التي تبدأ في الساعة السابعة. واذ لم تكن لدينا الوسائل لاستخدام النقل العام فاننا كنا نذهب الى المدرسة التي تقع على بعد ثلاثة أو أربعة كيلو مترات عن منزلنا سيرا على الأقدام. ولذا فقد كنا نستيقظ قبيل الفجر ونبدأ بالسير في الخامسة والنصف صباحاً، برفقة الاطفال الآخرين الذين يسكنون في مخيم اللاجئين الذي يقع في جوار منزلنا.

وذات ليلة من ليالي شتاء عام ٤٨ ـ ١٩٤٩، استيقظنا عبدالله وأنا، على وشوشات محادثة بين أبوينا. كان أبي يشكو ويتأوه. فقد ذهبت جهوده لإيجاد وظيفة، أية وظيفة كانت ، هباء . ذلك أن البطالة في غزة كانت على مدى من

الاتساع [illegible] كسب معيشته. وكانت المدخرات التي حملها من يافا على وشك النفاذ فكيف تراه سيعيل أبناءه الخمسة؟ أما والدتي فراحت تحاول تطمينه بدون كبير اقتناع.

وفي طريقنا الى المدرسة في صبيحة اليوم التالي، اتخذنا ـ عبدالله وأنا ـ قرارا بأن نعمل للمساهمة في نفقات المنزل. فما دمنا نغادر صفوفنا ظهرا، فاننا نستطيع العمل بعد الظهر. ولما كنا نعلم كبرياء والدنا، فانه لن يقبل مطلقا بأن ينصرف ولداه القاصران الى عمل مأجور، فاننا قررنا ان نخفي عن والدينا حقيقة الاعمال التي نقوم بها بعد الدراسة. ومن ثم فقد قمنا سرا بمساع لدى اثنين من ابناء عمومتنا. فكان ان استخدم احدهما، وهو نجار حرفي شقيقي ككاتب، في حين استخدمني الاخر وهو صانع يصنع كراسي من السوحر (وهو نوع من القضبان قريب من الصفصاف) كمتمرن فكدت اجن من الفرح.. ذلك أن أجري الشهري كان يبلغ جنيهين مصريين، وهو مبلغ كان له شأنه في تلك الحقبة، بالنظر الى أن أجر المسكن على سبيل المثال كان يومها في حدود أربعة أو خمسة جنيهات. ثم ان والدتي انتهت بحكم الاحوال، الى التكهن بما نقوم به. وكنا نسلمها ما نكسبه فتستخدمه في تأمين نفقات البيت دون أن يعلم والدي بذلك.

وفي تلك السنة رسب اخي في الامتحان وترك المدرسة ليصبح ميكانيكيا ويمارس المهنة التي طالما رغب في ممارستها. ولم يطلع والدي على هذا الامر الذي كان سيعتبره مأساة. فقد كان يتحدر من عائلة متعلمين، أو من عائلة مثقفين كما يقال في هذه الايام.فوالده الشيخ عبدالله وهو رجل دين موقر في غزة، أكمل دراسته العليا في جامعة الأزهر بالقاهرة. أما والدي نفسه فلم تتوفر له امكانية متابعة ذات السبيل بسبب العراقيل التي كانت تقيمها السلطات العثمانية لتمنع تعلم العرب، والفلسطينيين منهم بخاصة. ولهذا فان والدي ـ الذي كان ملما مجرد المام بالقراءة والكتابة، ولم ينس نقص تعليمه ـ كان أحرص بكثير من سواه على أن يكمل اولاده دراساتهم. ثم ان الفلسطينيين عامة. ولا سيما فلسطينيي المنفى يولون تعليم أولادهم أهمية من الدرجة الاولى، وغالبا ما يرتضون من أجل ذلك القيام بتضحيات جليلة عن طيب نفس. فتلك طريقتهم في ضمان بقائهم داخل وسط غير ودود. وليس من قبيل الصدفة أن يكون في وسع الفلسطينيين المفاخرة بأن لديهم ارفع نسبة من المتعلمين بين كافة الشعوب العربية.

ولم يكن أبي يتذمر من شيء فيما يعنيني. فقد كان يراني ادرس حتى ساعة متأخرة من الليل، كما ان ورقة علاماتي في نهاية السنة المدرسية الاولى كانت تشهد بنجاحي في الامتحانات. الا انه كان يجهل ما كلفتني ترقيتي من الصف من جهود. فالعمل الذي كنت أقوم به لدى ابن عمي صانع الكراسي، كان صعبا بقدر ما كان منهكا. ثم اني لاحظت، من جهة ثانية ان أجري كان يظهر غير كاف كلما كانت وسائل ابي المالية تتضاءل.

ولما لم أكن استطيع ان أكاشف أبي، فاني رحت ذات يوم أطلب مشورة ابن عم لي كنت اكن له عاطفة خاصة. كان يملك مقهى كبيرا يدعى مقهى الكمال، فتلقاني بقبول وتعاطف. وبعد ان أصغى الى سردي لصعوباتنا المالية، فانه عرض علي أن أعمل عنده بأجر يبلغ عشرة جنيهات شهريا، أي خمسة أضعاف ما كنت أكسبه في ذلك الحين، وكان قوام مهمتي هو أن أجلس وراء الحاسبة لاراقب الطلبات بواسطة البطاقات أو "الفيش" التي يعطيني اياها صبيان مؤسسته. وكان يأذن لي في أن احمل معي كتبا مدرسية لكي استطيع الدراسة أثناء الساعات التي يخف فيها العمل.

كان العرض أكثر من مغر، لكن هل أملك الحق بقبوله ... فالعمل في مقهى، وفقا للتقاليد العائلية، هو عمل مشين وممجوج، شأن العمل في بيت دعارة. واذا كان لابد لي من قبول هذه الوظيفة، فهل سأستطيع أن أخفي عملي الشائن هذا عن أهلي طويلا ..؟ فمقهى الكمال يقع في وسط المدينة ورواده كثيرون ولن يطول بي الحال حتى يتعرف على هذا الصديق أو ذاك من أصدقاء أبي. وقررت أن اخاطر، فقد كانت المخاطرة محدودة لأني كنت أعلم انه لم يسبق لأبي ان وضع قدمه في مقهى.

كانت أسابيع عملي الاولى في وظيفتي الجديدة صعبة. كنت أمضي ست أو سبع ساعات وانا اترصد زبائن "الكمال" محاولا ان لا يشاهدني مشاهد عندما كنت أرى وجها مألوفا. على أن والدتي انتبهت وهي الدقيقة الملاحظة الى أن هناك شيئا غريبا في حياتي. وانتهى بي الأمر بعد ان اخضعتني لاستنطاق حسب الأصول، الى الاعتراف لها بالحقيقة. فكانت بادئ ذي بدء كمن مستها الصاعقة فبدأت تبكي وتتوسل الي لكي أترك هذه الوظيفة فوراً فهي تستطيع الاستغناء

عن اجري كما قالت، بأن تبيع أساورها، والمال الذي أكسبه لا يعوض مطلقا الصدمة التي سيتعرض لها أبي اذا قدر له سوء الحظ أن يعرف بالعار الذي أوقعته به. الا انني صمدت. وفسرت لها بأنه لم يبق يفصلني سوى بضعة اشهر عن اجتياز امتحانات البكالوريا، فابحث بعد ذلك عن وظيفة أخرى. فكان ان أذعنت والدتي على غير اقتناع، ووعدتني برغم عدم اقتناعها هذا بالا تقول لوالدي شيئا. وعندما كان هذا الاخير يدهش لليسر النسبي الذي كنا نعيش فيه ـ بسبب أجري ـ فان والدتي كانت تزعم بأنها تنفق من ثمن مبيع احدى اساورها. وبعيد ذلك بقليل، غادرنا منزل عمي لنقيم في مسكن استأجرناه. فبتنا أخيراً في دارنا.

وفي يوم من أيام شباط فبراير ١٩٥٠، وكانت قد مضت ستة أشهر على عملي في مقهى الكمال، حدث الأمر العجيب الذي لم يكن في الحسبان. فقد رأيت أبي وهو يدخل المقهى، ويمر بمحاذاة الحاسبة التي كنت أجلس وراءها دون أن يراني، ثم يتجه نحو طاولة تقع في الطرف الثاني من المقهى الرحب. وبقي جالسا هناك ساعة بدت لي وكأنها دهر كامل. كانت هذه الساعة احدى اكثر ساعات حياتي قلقا بحيث انني كنت مشلولاً من الخوف، فلا أجرؤ ان اتحرك مخافة ان يسترعي ذلك انتباه أبي. ثم انه نهض أخيرا، وبينما كان يهبط درجات السلم الذي يفضي به الى المخرج سمع أحد صبيان المقهى يناديني باسمي. فتوقف في مكانه، ثم استدار، ثم صعد بضع درجات وشاهدني. والتقت نظراتنا لبضع ثوان عاد بعدها الى الهبوط وهو رابط الجأش لا يهتز له بنان.

وأسرعت الى ابن عمي صاحب المقهى أقص عليه ما جرى لي واطلب اليه أن يشفع لي عند ابي. فرفض رفضا قاطعا محتجا بأنه ليس في وضع يمكنه من الاضطلاع بهذه المهمة لأن ذنبه هو ـ في نظر والدي ـ أعظم من ذنبي. فكان علي أن أواجه وحدي العاصفة التي تنذر بالوقوع.

ووجدت والدتي تنتظرني عند عتبة الباب وهي ترتجف بكل اعضائها. كانت تود تحذيري بأن أبي "في حالة سعار مجنون من الغضب. فليكن الله في عونك.." اما اخوتي واخواتي فكانوا خائفين منكفئين على انفسهم في زاوية من زوايا غرفة الجلوس. واما أبي الذي كان راكعا يصلي فقد تجاهلني. ثم بعد ان فرغ من صلاته سألني بلهجة صارمة : "هل تعلم ان سلوكك هو سلوك شائن ..؟" فاجبته

بأني قبلت العمل في مقهى الكمال لأساعد عائلتي ليس الا. وكشفت له اني استمعت الى حديثه مع والدتي قبل سنتين حول مصاعبه المالية، ثم قلت له كم ان همومه اشجتني. فقاطعني قائلا: "كنت أفضل الموت جوعا على ان اراك تعمل في مقهى". ولست أذكر بعد بما أجبته به تماما، ولكنه اهتاج فجأة ثم وجه الي ركلة حلت في صدري واحسست ان الارض تتهاوى تحت قدمي، وان كل شيء حولي ينهار. فها هو أبي الذي لم يسبق له ان انتهرني في حياته كلها، يضربني. وهو يضربني ظالما، لاني كنت أعتقد اني تصرفت بوحي ضميري ولخير العائلة كلها. وشعرت بأن كبريائي جرحت، وان الاهانة اصابتني في اعمق أعماقي. فكانت تلك أول مرة أبكي فيها في حياتي. وبينما كانت دموعي تنهمر، كنت أرقى درجات السلم المفضي الى سطح المنزل ثم القي نفسي في الخلاء.

واعتقد لدى تذكر هذه الحادثة، اني لم اكن اسعى حقا الى الانتحار. والقفزة التي قمت بها لم تكن خطرة على نحو خاص. فبالنظر الى أن منزلنا كان مؤلفا من طابق أرضي يعلو قليلا عن سطح الارض، فان المسافة التي كانت تفصل السطح عن الارض لم تكن تزيد عن مترين أو ثلاثة، كما ان الارض الرملية التي القيت بنفسي عليها كانت رخوة بعض الشيء، وبخلاف ذلك فاني اتخذت حيطة بالسقوط على قدمي (الامر الذي تسبب لي بآلام مزمنة في الظهر تعود الى التواء في العمود الفقري) ولكن سلوكي هذا كان تعبيرا عن الغضب وطريقة في الاحتجاج ضد المعاملة الظالمة التي عوملت بها بأكثر مما كان فعلا يائساً.

على أن سقطتي لم تكن أمرا هينا بالكامل. فقد فقدت الوعي بتأثير الصدمة. وعندما أفقت، رأيت والدتي واخوتي واخواتي من حولي وهم مضطربون مشفقون على حالتي، وينتظرون سيارة الاسعاف التي ستنقلني الى المستشفى الانكليزي الذي كان أحد أفضل مستشفيات غزة. وسرعان ما لاحظت غياب أبي! فهو لم يأت لزيارتي في المستشفى حيث ظللت أعالج عشرة أيام من الرضات، وبدا لي سلوكه، وهو المحب الشفوق الرؤوف البالغ الطيبة، على قدر لا تفسير له من القسوة. ولكني فهمت ردة فعله بعد ذلك. فهو رجل مشبوب العاطفة على انكماش، حساس وعنيد في آن معا، ولذا فانه تأثر تأثرا شديدا من استخفافي بتقاليد وسطنا وبما كان يعتبره شرف العائلة وحسن احدوثتها، وهي أفكار كان يرتبط بها بكافة أوتار وجوده. وفوق هذا كله، فانه اعتبر سلوكي تحدياً وقحاً للسلطة الأبوية

التي هي مقدسة كذلك عنده.

ثم عقد لدى خروجي من المستشفى مجلسا للعائلة وأعرب عن حزنه ثم طلب مني التخلي عن عملي في مقهى الكمال. أما والدتي فانها من جهتها، أخرجت من حافظتها رزمة أوراق نقدية ـ تزيد على المئة جنيه ـ وهي مبلغ ضخم لم تتح لي فرصة رؤيته قبل ذلك. فقد باعت كافة مجوهراتها كما قالت لي، وسوف تستخدم الثمن لتلبية حاجات المنزل، للفترة المتبقية من السنة المدرسية التي ينبغي لي أن انال في نهايتها شهادة البكالوريا. ثم أضافت: وبما أن العائلة باتت بمنأى عن الحاجة فانه لم يبق ثمة داع يدعوني لممارسة عمل مأجور. ثم أن أعمامي وأبناءهم ممن كانوا مدعوين الى الاجتماع، أكدوا لي، واحدهم بعد الاخر، بأن في وسعي الاعتماد على دعمهم لاتابع دراساتي العليا اذا كنت راغباً فيها. وقد هزني هذا التضامن الحار فأعلنت على الفور عزوفي عن وظيفة مقهى الكمال.

وسجل عام ١٩٥١ منعطفا جديدا في حياتي. فبعد ثلاث سنوات من خروجنا، غادرت الى القاهرة بقصد الانتساب الى الجامعة. ووفقا لما وعدوا به، فان أقاربي راحوا يفون بالوعد، كل حسب طاقته، ليزودوني بما أعيش به. وبخلاف مباركة أبي، فاني تلقيت مبلغ خمسين جنيها ينبغي لها أن تفي بمعاشي ابان الاشهر الاولى. ثم أن ابي أوصى بي أحد ابناء عمومته، ويدعى الشيخ يوسف، كان يتابع دروسا في الفقه في جامعة الازهر الاسلامية. وجاء الشيخ يوسف الى محطة القاهرة برغم عماه، يسعى في طلبي، وعرض علي، المبيت في منامة الجامعة. وكانت منامة الجامعة عبارة عن رواق واسع تصطف فيه الأسرة بمحاذاة بعضها فلا يفصل السرير عن الآخر سوى منضدة صغيرة. ولما كان أحد زملاء الشيخ يوسف غائباً. فانه كان بوسعي أن أشغل سريره بضعة أيام الى أن أعثر على مأوى دائم. وقبلت عرض ابن عمي هذا بطيب خاطر رغم أن المنامة الوسخة والتي كانت تنبعث منها رائحة بشعة كانت تنفرني.

ثم اني علقت قميصي ولباسي الذي دسست في جيبه الخمسين جنيها التي أعطتني إياها عائلتي، بمسمار. وعندما فتحت عيني في صبيحة اليوم التالي لاحظت أن ثيابي اختفت. واذ استولى علي الذعر، فاني هززت الشيخ يوسف الذي كان لا يزال نائما لاستوضحه عما حل بها. الا انه لم يكن يعلم أكثر مما اعلم،

ثم لم يطل بنا الأمر لندرك ان امتعتي سرقت. فكان من البديهي ان مؤسسة الأزهر الموقرة ـ خلافا لما يتبادر الى الذهن ـ لم تكن موئل النزاهة الأسمى.

ووجدتني منهكا مدحورا. فلازمت سريري ملازمة شبه كاملة طوال عشرة أيام. كنت لا أملك مليماً واحداً وليس لدي ما أقتات به، أو أسكن فيه أو ألبسه. ولم يكن عندي بخلاف ثيابي المسروقة سوى "دشداشة"، وما كنت ألبسها على أية حال، الا في البيت. فبدا لي مستقبلي حينها كأحلك ما يكون. فلم يكن في الوارد ان استطيع متابعة دراستي. ذلك ان مجانية التعليم لم تكن قد ادخلت الى الجامعات المصرية بعد. ولسوء حظي، فان المساعدات التي كانت تصرفها الجامعة العربية للطلاب الفلسطينيين قد اوقفت لأسباب اقتصادية.

كان أبي قد أشار علي بأن أقصد السيد الكاشف وهو أحد أقاربه الأقربين، وتاجر ثري من قرية "العميل" (في منطقة تل ابيب) وهاجر قبلنا ببضعة أشهر. وكان يسكن مع عائلته في حي من أحياء القاهرة السكنية. إلا أني امتنعت عن زيارته في لحظة الحاجة والعوز، بدواعي الكبرياء. ولكن قدر لي بعد ذلك بسنوات وبعد أن اصبحت مدرسا، أن أتزوج ابنته.

وعرض علي الشيخ يوسف حينذاك الالتحاق بجامعة الأزهر التي كانت توزع معونات على الطلبة المحتاجين من الأموال التي كانت تضعها المؤسسات الخيرية بتصرفها. كان هو نفسه يسكن بالمجان وينال مخصصا شهريا بقيمة أربعة جنيهات شهريا. فأبيت عرضه هذا بأدب. دون أن أقول له كم كنت أنفر من التعليم ذي الطابع الطائفي. ولكنني من جهة أخرى اقتنعت بتقديم طلب للحصول على منحة من دار العلوم، وهي من دور المعلمين العليا. ويقينا أن دار العلوم لم تكن تستجيب للمثال العلماني الذي ارتضيته لنفسي لأنها كانت وثيقة الصلة بالأزهر، الا انها كانت تشتمل على دروس أخرى أشغف بها غير الفقه:كاللغة والأدب العربي والفلسفة وعلم النفس. كانت المنحة المتمناة تبلغ أربعة جنيهات، وهو مبلغ متواضع الا أنه كان يتيح لي أن أعيش وان أواصل دراستي.

غير أن دار العلوم لم تكن تقبل كل من يتمنى الدخول اليها. فكان علي أن أجتاز اختباراً معروفاً بقسوته، وكان الامتحان في مادة الأدب العربي. وهو ميدان كان شبه مجهول ضمنيا بالنسبة لي. ومع هذا فقد قررت أن أجرب حظي. وهكذا

فقد مثلت أمام اللجنة الفاحصة شأن ٥٠٠ مرشح آخرين. وبدأ رئيس اللجنة، وهو شيخ من جامعة الأزهر بمسائلتي حول ديواني شاعرين شهيرين كنت أجهل ـ كما اعترفت له ـ حتى اسميهما. ثم قررت امام ذهول الممتحنين ان العب اوراقي كاملة. فقلت له: "لك ان تسقطني، ولكن اسمح لي بادئا ان أعرض لك معتقدي في جامعة الأزهر التي تمثلها هنا". ثم سردت عليه قصة سرقة نقودي وثيابي ثم انهيت حديثي بهذه الكلمات "انه لم يبق لدي ما افقده سوى الدشداشة التي ألبسها".

وتركت مقالتي المسهبة هذه الشيخ وهو فاغر فاه. وبعد صمت بدا لي وكأنه لن ينتهي، سألني أحد زميليه الآخرين الدكتور حسن جاد ـ الذي لا يمكن أن أنسى العمر اسمه لشدة ما انا مدين له وقال بلهجة المتواطيء معي: "ولكنني مقتنع بانك تعرف الكثير عن الشعر الفلسطيني". فتلقفت رميته وبدأت أنشد ثم أحلل اشعار معين بسيسو الذي سيفرض نفسه بعد ذلك كأحد أفضل شعراء المقاومة، وربحت. كانت وجوه الممتحنين الطلقة المنفرجة تشير الى اني سأقبل في دار العلوم. وبعد ذلك بأيام غادرت منامة الأزهر المشؤومة جذلانا.. وقايضت الدشداشة بقميص وبنطلون. كان دخلي الشهري لا يسمح لي بأن استأجر غرفة، ولكن اصدقاء فلسطينيين دعوني الى مشاركتهم مسكنهم بدون مقابل. فالتضامن ليس كلمة لا طائل فيها لدى فلسطينيي المنفى. وحيث أنني لم اتلق أية معونة من اهلي، فاني عشت على هذه الحال سنتين لدى أصدقاء اصبح بعضهم فيما بعد ذلك بسنوات مناضلين في فتح. وذات يوم، تلقيت حوالة بريدية من أبي. كان المبلغ هائلا. فقد عثر على عمل في العربية السعودية، بعد أن استخدمه مقاول كبير هناك، هو حامد أبو ستة الذي كان عضوا في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، فأرسل إلي أجر أول شهر عمله عنده.

وعام ١٩٥١ لم يكن عام الانفصال عن العائلة وبدايات حياة الطالب وحسب بل كان ذلك نقطة المنطلق في عملي النضالي الذي لم يتوقف عن التطور والنمو منذ ربع قرن. ولا ريب في أن انتسابي الى "اشبال" النجادة في يافا، يشكل صيغة التزام سياسي، الا ان الظروف وحداثة سني منعتني من أن أشارك مشاركة فعالة متواصلة في المعارك التي كان من يفوقوني سنا يخوضونها. أما في غزة، فاني لم انقطع برغم الصعوبات المادية والهموم العائلية، عن الاهتمام اهتماما شديدا بتطور

المشكلة الفلسطينية. غير أن الحركة الوطنية كانت قد خمدت ضمنا تحت تأثير الانحدار العربي واليأس الذي تلاه ولم يبق سوى بضعة زعماء تقليديين يحاولون بعثها تحت كنف الجامعة العربية! كان الاحتقار والغضب كارادة التمرد والنهوض ضد النظام القائم تعتمل في نفسي. ولم تلبث الفرصة ان واتت حين أثار قرار الجامعة العربية في خريف عام ١٩٥١ بإلغاء المخصصات التي تدفع للمحتاجين من الطلبة الفلسطينيين، غضباً ماحقاً بين هؤلاء الطلاب. وسرعان ما رميت بنفسي في المعترك وشاركت بالمظاهرة التي نظمت امام مقر الجامعة العربية الذي احتللناه. واقتحمنا عنوة مكتب أحمد الشقيري الذي كان يشغل حينذاك منصب الامين العام المساعد المكلف بالشؤون الفلسطينية، واتلفناه، وقد تكلل عملنا هذا بالنجاح. وأعيدت معونة الطلاب الى سابق ما كانت عليه. غير ان البوليس أوقف قادة المظاهرة وأودعهم سجن عابدين القريب من قصر الملك فاروق. وكان من الوارد تماما ان يتم ابعادي الى غزة، الا أن الأزمة التي كان يجتازها النظام الملكي جعلت السلطات تعدل عن مشروعها، فأفرج عني بعد ٤٩ يوما.

وفي هذه الحقبة التقيت للمرة الأولى بطالب يدرس في كلية الهندسة عمره ٢٢ سنة، ويكبرني بأربع سنوات ويتمتع بطاقة ونشاط وحماس وروحية مغامرة، أسرتني اليه: انه ياسر عرفات، الذي سيتعرف عليه الرأي العام العالمي بعد ذلك بخمس عشرة سنة باسمه الحركي: أبو عمار. كان ياسر يومها مسؤولا عن التدريب العسكري لطلاب الهندسة الراغبين في الاشتراك بالاعمال الفدائية ضد البريطانيين في منطقة قنال السويس. وبخلاف ذلك فانه كان يناضل، شأني أنا، داخل اتحاد الطلاب الفلسطينيين الذي كان يضم زملاءنا الطلبة ممن ينتمون الى كافة الاتجاهات السياسية: الاخوان المسلمون، الشيوعيون، البعثيون، القوميون العرب (أي الحزب الذي يعتبر جورج حبش أبرز مؤسسيه) الخ.

وبصورة أعم، فإن الفلسطينيين كانوا يتعاطفون مع الأحزاب العروبية ـ يمينية كانت أم يسارية ـ ويعقدون عليها آمالهم كلها نظرا لأنه لم يكن في مستطاعهم الاعتماد على حزب أو تشكيلة محض وطنية تقف نفسها على تحرير فلسطين، فلم تكن مختلف الايديولوجيات التي اعتنقوها بالنسبة اليهم ـ سواء وعوا ذلك أم لم يعوه ـ الا ناقلة ينبغي أن تصل بهم في نهاية المطاف الى الهدف المشترك.

الا انني، شأن ياسر عرفات، لم التحق بأي حزب سياسي. كنت اتعاطف بلا

ريب مع الاخوان المسلمين الذين سبق لي ان رأيتهم يعملون في غزة. فقد كان بينهم وعاظ يعتمدون على العكس من العلماء التقليديين، لغة نضالية متحمسة يسهل تناولها بالنسبة لعامة الناس. فكانوا يدعون المؤمنين الى الكفاح، رافعين من معنوياتهم في لحظة كانوا احوج ما يكونون فيها الى ذلك. وكان مما يزيد في اجتذاب التعاطف معهم، هو ان كثيرا من محازبيهم كانوا مطاردين مضطهدين وسجناء لدى السلطات المصرية. وكانوا يعرفون كيف يموتون من اجل مثلهم، فقد استشهد عدد منهم في السنوات الممتدة بين ١٩٥٠ و ١٩٥٣ بينما كانوا يخوضون أعمالاً فدائية ضد قوات الاحتلال البريطاني في منطقة قنال السويس.

الا انني ـ بالرغم من كل هذا، لم التحق بصفوفهم. صحيح انني كنت حفيد شيخ، وأن أبي مسلم لا يقطع فريضة، الا ان تسامح وسطي وبيئتي، العميق، أبعدني عن ايديولوجية الاخوان المسلمين. وبخلاف ذلك، فان ميولي الطبيعية كانت تحملني على أن انضم الى ركب قومية علمانية لا يزال علينا أن نوضح شكلها وجوهرها.

ولم تكن لدينا أفكار مسبقة بهذا الصدد، لا ياسر عرفات ولا أنا، الا اننا كنا نعلم على الأقل ما هو مضر بالقضية الفلسطينية. كان تقديرنا هو أنه ليس لأبناء وطننا أن ينتظروا شيئا من الأنظمة العربية، وانهم يخطئون بالمراهنة على الاحزاب السياسية القائمة في المنطقة. وكنا نعتقد كذلك ان على الفلسطينيين الا يعتمدوا أساسا الا على أنفسهم. وهكذا فقد قررنا عام ١٩٥٣ مباشرة هذه الفكرة الاساسية بتقديم ترشيحنا الى قيادة اتحاد الطلاب الفلسطينيين، وهو الهيئة الوحيدة التي كانت تمارس في داخلها انتخابات ديمقراطية. وعلى هذا، فان اتحاد الطلاب الفلسطينيين كان التشكيل الوحيد الذي يسعه ان يدعي انه يمثل قطاعا ما من الرأي العام الفلسطيني.

كان مشروعنا يشتمل على مخاطر بينة. فمعظم الطلبة كانوا اعضاء أو متعاطفين مع الاحزاب السياسية التي لم نكن غير منتمين اليها وحسب، بل كنا نأباها. وهكذا فقد وجهنا ما يشبه التحدي الى كافة المرشحين الذين يمثلون احزاباً وتشكيلات تتمتع، وبدرجات متفاوتة، بقدر من المهابة والوسائل المادية والنفوذ.

الا انه من الصحيح كذلك انه لم تكن تعوزنا نحن أيضا الاوراق الرابحة ذلك

اننا أفلحنا، ياسر عرفات وأنا، في اقامة علاقات جيدة مع كافة الطلاب بدون تمييز لانتماءاتهم السياسية، فقد كنا أبدا على رأس معاركهم، مستعدين لكافة التضحيات.

ولم نقدم انفسنا كخصوم للأحزاب، بل كانصار "الاتحاد الطلابي" وهو الاسم الذي اطلقناه على لائحة مرشحينا التي كانت تشتمل على تسعة أسماء مرشحة لملء المقاعد التسعة في اللجنة التنفيذية. كان ستة منهم ينتمون الى فريقنا (منهم عرفات وأنا) أما المقاعد الباقية فقد اسندناها الى الفئات الأخرى: واحد من الاخوان المسلمين، وآخر شيوعي، وثالث بعثي. وبهذا اظهرنا روحيتنا الديمقراطية والوحدوية.

وتبين ان حساباتنا كانت صحيحة، اذ ان لائحتنا انتخبت بأغلبية ساحقة من الأصوات. وظهر أن الطلاب يتطلعون قبل كل شيء، وبرغم معتقداتهم الايديولوجية، الى عمل وحدوي. وقد احتفظ ياسر عرفات الذي عين رئيسا لاتحاد الطلاب الفلسطينيين، بمنصبه هذا الى حين انهائه دراسته الجامعية عام ١٩٥٦، فكان ان خلفته على رأس التجمع بعد ان ظللت مساعده طيلة أربع سنوات.

وبعد انتخابي بشهرين، أي في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢. ثار النزاع مع الجامعة العربية مجددا، بعد ان قررت الجامعة مرة اخرى الغاء المساعدات التي كانت تدفعها للطلاب الفلسطينيين. فكان ان بدأنا، كما في الخريف السابق، اضرابا عاما، في حين أن كثيرين منا احتلوا مقر الجامعة. غير ان المسؤولين هذه المرة لم يتراجعوا واستدعوا قوات الأمن التي لجأت في طردنا الى استخدام العنف. وبينما تم توقيف تسعة عشر فردا منا، فانني أفلحت مع كثيرين في الافلات. وبعد ذلك بقليل أبلغ الأمن اتحاد الطلاب الفلسطينيين بأنه لن يطلق سراح رفاقنا الا اذا استسلمت أنا للعدالة، وهو ما فعلته بناء على نصائح ياسر عرفات الذي كنت قد التجأت الى شقته في ضاحية مصر الجديدة. كان الأمن يسعى إلى ان يذل "المغامر" الذي كنته في نظره: فحجزت في قسم المومسات بسجن عابدين، ثم اطلق سراحي بعد ذلك بـ ٣٥ يوما بناء على تدخل شخصي من احمد الشقيري.

وقد حاول الشقيري أن "يسترجعني الى الحظيرة" بأن رتب مقابلة بيني وبين

صلاح سالم، احد اعضاء مجلس قيادة الثورة التي كانت استولت على السلطة قبل ذلك بأربعة أشهر. ومع ان مقابلتي مع صلاح سالم اطرتني الا انها لم تنل شيئاً من ارادتي في متابعة المعركة ولا من ارادة السلطات الناصرية في تحطيم ارادتي.

كانت الشراسة التي تحملها السلطات لي تظهر أحيانا في مناسبات مختلفة ففي شهر تموز (يوليو) ١٩٥٤ كنت عضوا في الوفد الذي يرأسه ياسر عرفات، والذي كان ينبغي ان يسافر الى فرصوفيا لحضور مهرجان للاتحاد الدولي للطلاب، الا انني أوقفت قبيل مغادرة الوفد بساعات. كانوا يرون انني "خطر جداً" وأخطر من ان يأذنوا لي بمغادرة البلاد. فكان أن تظاهر العديد من الطلاب الفلسطينيين مثيرين الكثير من الضجيج ضد التعسف مطالبين باعادة تأشيرة الخروج لي، ولكن ذلك ذهب عبثا. ولم يطلق سراحي الا بعد ذلك بسبعة وثلاثين يوما، وبعد عودة الوفد الى القاهرة.

ولم أكن في تلك الحقبة أكن من التعاطف مع جمال عبدالناصر الا القليل كنت أشارك الاخوان المسلمين والشيوعين الحذر الذي يبدونه ازاءه في بدايات نظامه. وكنت آخذ عليه انه لم يفعل شيئا من اجل القضية الفلسطينية فالغارة الاسرائيلية التي شنت على غزة بتاريخ ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٥٥ وذهب ضحيتها بضع عشرات من الاشخاص أثارت غضبا عظيما بين كافة الفلسطينيين الساخطين على سلبية الجيش المصري وعجزه عن الدفاع عن السكان أو عن الرد بنفس الضخامة. وتدفقت حشود المتظاهرين تطالب بالسلاح. اما الطلاب الفلسطينيون في القاهرة، فانهم نظموا اضرابات ومظاهرات تدعو الى سقوط النظام علنا. واحتللنا مقر اتحاد الطلاب الفلسطينيين، وتقدمنا ونحن مضربون عن الطعام الى السلطات بثلاثة مطالب هي: الغاء نظام التأشيرات المفروضة على الفلسطينيين لدى الدخول الى غزة أو الخروج منها، اعادة المواصلات الحديدية بين القاهرة وغزة (بعد أن قطعت في بداية المظاهرات) اقامة تدريب عسكري اجباري يتيح للفلسطينيين الدفاع عن أنفسهم ضد الهجمات الاسرائيلية. ثم طلبنا بين جملة ما طلبناه ان يقوم عبدالناصر بزيارتنا شخصيا لمناقشة شكوانا.

وبعد مرور يومين على الاضراب، جرى ابلاغنا بأن عبدالناصر مستعد لاستقبال الوفد الذي نعينه. فرفضنا وقلنا بأنه اما ان يجري الاجتماع بحضور كافة المضربين ـ وكانوا في حدود المئتين ـ واما ان لا يكون . فكان أن وافق

عبدالناصر ودعانا الى مكتبه في مجلس الوزراء. وعلى عتبة المبنى تلقتنا قوات ضخمة وجرى تفتيشنا بدقة قبل السماح لنا بالدخول.

وبدأ عبدالناصر حديثه بالتأكيد لنا بأنه يعترف بصحة مطالبنا كلها وأنه سيلبيها بالكامل. والواقع انه أصدر اوامره في اليوم نفسه برفع كافة القيود المفروضة على تنقل الفلسطينيين بين مصر وغزة، وبفتح معسكرات تدريب لاعداد فدائيين (الا انه لم يف بوعده بالنسبة لهذه النقطة الاخيرة وحسب ما قدر لنا أن نلاحظ على مر السنين، الا بصورة شكلية).

ما كان لنا ان نتمنى بعد..! وعلى هذا فان الجو لم يلبث ان انفرج واتخذت الاحاديث المتبادلة طابعا وديا. وفي نهاية الاجتماع، اعرب عبدالناصر بينما كنا نهم بالخروج، عن تمنيه مواصلة النقاش مع أربعة منا، فكان ان جرى تسمية عبدالحميد الطايع (بعثي) وعزت عودة (شيوعي) وفؤاد احمد(من حركة القوميين العرب)وأنا، للقيام بهذا الحوار الثاني. واستبقى عبدالناصر الى جانبيه لطفي واكد ـ وهو احد كبار معاونيه ـ وكمال الدين حسين، الذي عمل وزيرا عدة مرات، وعلي صبري رئيس مجلس الوزراء. كان رئيس الدولة المصرية يريد أن يعرف المزيد حول اتحاد الطلاب الفلسطينيين، وحول مشاعرنا وتطلعاتنا. وكان سؤاله الاول هو: "هل تنتمون الى أحزاب سياسية". فكان سؤالا غير حصيف، بل سؤالا خطراً في بلد فرض الحظر فيه على كافة الاحزاب والتشكيلات، واستبدلت بحزب واحد. وسرعان ما فهم خطأه حين اجبناه غير مترددين بأننا لسنا سوى طلبة فلسطينيين. ثم دار نقاش اخاذ. ولم نلبث أن أسرنا سحر هذا الرجل الذي تبين أنه وطني كبير. وخلال هذه المحادثة، كشف لنا عن نيته في الالتفاف على الحظر الانتقامي الذي تفرضه عليه القوى الغربية في ميدان التسلح بالتوجه الى مكان آخر "الى الشيطان نفسه اذا اقتضى الأمر"، لتأمين الدفاع عن مصر ضد الاعتداءات الاسرائيلية. وبعد ذلك بشهور أثار حماسا شعبيا عارما عندما عقد صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا، (التي استخدمت كواجهة للاتحاد السوفياتي). وغادرنا عبدالناصر في ذلك اليوم ونحن نؤكد له دعمنا، برغم ان البعض منا لم يفقدوا حذرهم كله ازاءه.

على ان المنعطف الحقيقي، حدث في تموز (يوليو) ١٩٥٦، عندما اعلن عبدالناصر تأميم شركة قنال السويس. فكان ان انفجرت الفرحة لدى الفلسطينيين،

الذين أصبح "الريس" بعدها بالنسبة اليهم بطل الصراع ضد الامبريالية. ولقد تأثر العرب جميعا من المحيط الى الخليج، تأثرا عميقا بالجرأة وبالتحدي الذي وجهه عبدالناصر الى انكلترا وفرنسا. فبفضل الاشراف الذي كانت تمارسه هاتان الدولتان العظيمتان على القنال، كانتا تستغلان مصر بصورة وقحة، منتهكتين في الوقت نفسه سيادتها. وهكذا فان عبدالناصر اعاد الى شعبه حقا ثابتا لا يجوز التفريط به، معيدا الى العرب بل الى شعوب العالم الثالث كرامتهم وثقتهم بأنفسهم. بات كل شيء ممكناً، بما في ذلك تحرير فلسطين! وحين عبأنا أنفسنا للدفاع عن مصر ضد العدوان الذي شنته عليها اسرائيل وانكلترا وفرنسا بعد تأميم القنال بثلاثة أشهر، فاننا فعلنا ذلك بحماس. وشكلنا كتيبة كوماندوز، لنقوم بمقاومة العدوان الثلاثي الى جانب المتطوعين المصريين. اما ياسر عرفات الذي كان يومها ضابط احتياط، فانه ارسل الى بورسعيد حيث ساهم في اطار سلاح الهندسة في عمليات نزع الالغام. أما أنا فقد تطوعت من جهتي في قوى المقاومة الشعبية، وكنت مستعدا للقتال، لكن السلطات لم تسمح لي بالذهاب الى جبهة قنال السويس. فكان علي أن اكتفي بالقيام بمهمات دفاعية، كالقيام بالحراسة امام جسور القاهرة.

وفي غزة، كانت مقاومة المحتل الاسرائيلي تنتظم تحت رعاية الجبهة التي كان قد جرى تشكيلها حديثا. فقد ائتلف الاخوان المسلمون والشيوعيون العرب والبعثيون والناصريون على أساس برنامج عمل مشترك. وقد تبين في البداية ان الاتفاق مع الشيوعيين صعب لانهم كانوا يريدون ادخال بند بصدد التعاون مع التقدميين الاسرائيليين وعلى رأسهم الشيوعيون الاسرائيليون لانهم يعارضون هم أيضا العدوان الثلاثي: غير ان الاذهان لم تكن ناضجة لمثل هذا الاخاء. ذلك انه كان ينظر الى الاسرائيلي ـ كائنا ما كانت ايديولوجيته وقناعاته، كعدو. ثم انتهى شيوعيو غزة الى تهذيب نصهم وتشذيبه مسهلين بذلك الوصول الى اتفاق.

وقد ساعدتنا هذه الجبهة في حدود امكاناتنا المتواضعة. فكنا ندخل سرا الى المدينة المحتلة المال، وبعض السلاح. والكثير من المناشير. بدأنا الالتفات خلال هذه الفترة التي أثارت فينا من الاحباط أكثر ما اثارت من الرضى بالتطلع ـ رفاقي وانا ـ الى مشروع كان يبدو لنا حتى الساعة من قبيل الاحلام. فالوطنيون الجزائريون كانوا قد شكلوا منظمة تخوض الصراع ضد الجيش الفرنسي منذ

سنتين، فكانت المعركة البطولية التي كنا نتابعها عن كثب، تذهلنا وتملأ نفوسنا اعجابا. وطوال سهرات طويلة كنا نطرح على أنفسنا مسألة ما اذا لم يكن في وسعنا نحن كذلك ان ننشيء حركة واسعة تكون ضربا من الجبهة التي تضم الفلسطينيين من جميع الاتجاهات، وينتمون اليها بصفة فردية، بغرض اشعال الكفاح المسلح في فلسطين.

ففي سنتي ٥٤ ـ ١٩٥٥ جرت بعض غارات الكوماندوز ضد اسرائيل الا انها كانت تقاد جميعها تقريبا من قبل مصالح استخبارات البلدان المجاورة لاسرائيل .. فالمخابرات المصرية شكلت هذه المجموعات اساسا من اجل القيام بعمليات تجسس. فكانت تعمل في غزة والاردن تحت قيادة مصطفى حافظ الذي قتل بعد ذلك بواسطة طرد ملغوم ارسلته له المخابرات الاسرائيلية (الموساد). وكذلك كان الامر في سوريا. كنا نشعر بأنفسنا معنيين قليلا بالمشروعات التي تمليها مصلحة دولة لا المصلحة الفلسطينية، والتي لا يمكن ان تكون الا مشروعات عارضة. ولما كنا نرتاب في كافة الأنظمة العربية، المحافظة منها والتقدمية، فان تقديرنا كان بأن الكفاح المسلح الذي يستحق هذه التسمية، هو كفاح ينبغي أن يعده وينظمه ويخوضه الفلسطينيون الى غايته بدون ان يكون لهم أي ارتباط بغير شعبهم. وقد كان أساس ريبتنا وحذرنا هو التجربة. فرفيقنا أبو جهاد مثلا (خليل الوزير) وهو أحد مؤسسي فتح، وعضو لجنتها المركزية، نظم عام ١٩٥٤، غارة ضد اسرائيل انطلقت من غزة، فكان أن اوقفه الأمن المصري فوراً.

واذن، فقد كنا متفقين على المبادئ العامة التي ينبغي لها أن تحكم حركة احلامنا. وبانتظار ان نطور هذه المبادئ ونعقلنها، فاننا قررنا ان ننشرها في وسطنا عامدين في الحين ذاته الى تجنيد الاطر والكوادر التي ستضعها ذات يوم موضع الممارسة. فانشاء حركة شعبية واسعة وجيش تحرير وطني حقيقي، كان لا يزال في فترة حرب السويس عام ١٩٥٦، افكارا غائمة، سوف تتبلور في أهداف واضحة خلال السنتين التاليتين. ثم اننا تبعثرنا خلال الاشهر الاولى من عام ١٩٥٧. فياسر عرفات وابو جهاد ذهبا للعمل في الكويت، ولم يلبث فاروق القدومي (ابو اللطف) الرئيس الحالي للدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية وعضو اللجنة المركزية في فتح، ان يلحق بهما بعد ذلك. واما محمد يوسف النجار وكمال

عدوان وأبو مازن، فقد أقاموا في قطر. واما انا فقد قررت من جهتي ان اناضل في غزة. كنت مجازا في الفلسفة وعلم النفس من دار العلوم، وفرغت لتوي من الحصول على دبلوم التربية من جامعة عين شمس. فكان في وسعي اذن السعي وراء وظيفة في التعليم.

الا ان سلطات الامن فهمت ان سعيي وراء العمل في غزة ليس خاليا من الأفكار المسبقة. فقد جرت العادة على ان يسعى الموظفون في غزة الى الانتقال منها ــ لا العكس ــ الى القاهرة أو الى أية مدينة مصرية كبيرة اخرى لتحسين أوضاعهم غير أنني امام عظيم دهشتي، عينت استاذاً في مدرسة بنات ــ وهو اجراء استثنائي يتخذ بصورة عامة على سبيل العقاب. فليس ثمة ما هو أكثر ازعاجاً بالنسبة لرجل في مجتمع اسلامي تقليدي، من العمل في وسط نسائي.

ولفت نظر مدير التربية الوطنية، الى ان تعييني مخالف للقاعدة المتبعة التي توصي بالا يعلم في مدارس البنات الا الرجل المتزوج. فأجابني مبتسما بأن لكل قاعدة شواذها. ففهمت انهم يحاولون منعي من القيام بنشاط سياسي وذلك بعزلي داخل وسط أكون فيه ضمنيا كمنبوذ.

غير أن مدرسة "الزهراء" بحد ذاتها لم تكن كريهة، ولكنهم أوكلوا الي صفوف الطالبات المعيدات، وهن في الغالب بنات مدللات مزاجيات غير منضبطات. الا ان عزيمتي لم تثبط. وقررت استغلال الوظيفة التي اشغلها لأقوم بالدعوة السياسية. وماذا تراني سأخسر!؟ وبرغم انني كنت أعلم اللغة العربية وعلم النفس فقد دعوت طالبات صفوفي لتشكيل مجموعات تجمعات مدنية كنت أطلق عليها اسم "اللجان الوطنية" وكن مكلفات بعرض موضوعات للنقاش على مجموع الصف. وبعد ذلك بستة أشهر، أبلغتني مديرة المؤسسة بنقلي الى ثانوية للبنين.

وبرغم ان ثانوية خالد بن الوليد لم تكن جذابة ولا مريحة، الا انني هللت فرحاً. فهي تقع في وسط الصحراء خارج غزة ويرتادها اطفال اللاجئين الفلسطينيين المقيمين في المخيمات القريبة. واما الصفوف فكانت ضيقة متهاوية ومكتظة يحشر فيها ٦٠ الى ٧٠ طالبا في الصف الواحد. فكنا نرتعد من البرد في الشتاء بينما ينفذ المطر الينا عبر السقف الهش، وبالمقابل، فقد كان كل شيء هناك مؤاتيا للنشاطات السياسية التي كنت اعتزم القيام بها. فطلابي المتحدرون

من أوساط بالغة التواضع ويعيشون في ظروف يرثى لها، ويعانون كنويهم من النفي، كانوا يظهرون كما بدا لي ذكاء وحساسية تزيد عن المتوسط. ولا زلت اذكر حادثة هزتني، فبعد ان شكلنا لجنة معونة للثورة الجزائرية، طلبت اليهم المساهمة، كل حسب امكانياته، في جمع المال. فكان ان استجابوا جميعا للنداء برغم بؤسهم، في غداة اليوم التالي، راحوا يمرون بالتتابع امام مكتبي، فيضع عليه البعض قرشا والبعض الاخر قرشين أو ثلاثة. وهي وان كانت مبالغ زهيدة، الا انها تمثل تضحيات كبرى من جانبهم. وأخيرا، فقد جاء صبي حدث وهو بادي الانزعاج، ليضع قميصه الذي لا يملك سواه على مكتبي. واكتفى بأن قال: "لعله يفيد طفلا جزائريا".

وفي تلك الفترة (١٩٥٨) كتبت مسرحية اسميتها "أيام مجيدة" تقوم حبكتها على رحيل عام ١٩٤٨. وكان النص يقوم أساسا على ذكرياتي الخاصة، حول رحيل عائلتي في المركب وكذلك بالطبع على النهاية المأساوية للزوجين اللذين القيا بنفسيهما في البحر لاسترجاع ابنهما المتروك في يافا. وقد لاقت المسرحية نجاحا كبيرا ومثلت على مدى عدة أشهر في كافة مخيمات اللاجئين في غزة، قبل أن يتم اخراجها في العديد من بلدان الخليج العربية.

وكنت بصدد كتابة مسرحية أخرى ايضا في تلك الفترة، الا انها كانت أكثر تبعة وخطورة. كان هدفي التنديد بموقف كافة الأنظمة العربية بما في ذلك نظام عبدالناصر ازاء القضية الفلسطينية. فعمدت الى مختلف أنواع الحيل مخادعة مني لتشدد الرقابة. واخترت للدور المركزي شخص عباس المهداوي، وهو فوكيي تانفل(١) النظام العراقي الذي كان قد قام لتوه في بغداد. كان المهداوي يرئس محكمة "شعبية" مكلفة بارسال المعارضين الى المشنقة، اما في النص الذي كتبته، فان المتهمين الماثلين امام المحكمة. كانوا رؤساء الدول العربية، الذين كان المهداوي يعدد "جرائمهم" باللغة الطريفة التي اشهرته. كانت المسرحية مكتوبة بأسلوب نقدي وتسخر من المهداوي في نفس الوقت الذي تقول فيه حقائق تدركها حساسية الفلسطينيين. وما كان يمكن اتهامي بتعاطي التخريب، لان الكلمات التي يقولها بطلي، كانت استشهادات حقيقية مختارة من مسهبات المهداوي الحقيقي.

(١) هو انطوان كانتاك: "ومهداوي الثورة الفرنسية الكبرى ورمز الافراط فيها." ومات بموجب حكم اعدام في عام ١٧٩٥.

ثم اني اتخذت احتياطات اخرى: فقد عرضت على وكيل دائرة دير البلح المسؤول عن القطاع الذي تقع فيه مدرستي ، ان يتولى اخراج المسرحية . ولما كان الرجل مولعا بالمسرح فانه قبل العرض بحماس. واخيرا دعوت حاكم غزة العسكري لحضور الافتتاح فكان مسرورا من المسرحية التي لم يتبين ازدواجيتها وتضمين معانيها، فأرسل لي بعد ذلك بثلاثة أيام رسالة رسمية يهنئني فيها على جودة النص.

غير انني تلقيت في اليوم نفسه دعوة عاجلة من العقيد كمال حسين المسؤول عن دائرة الأمن في غزة. كان قد شاهد هو أيضا المسرحية، الا انه فهم لثاقب بصره ومعرفته الجيدة بآرائي، الطابع النضالي للمسرحية. فكان ظاهر التصميم جعلني أدفيعي ثمن وقاحتي. فاحتججت وادليت بحسن نيتي وذكرته على سبيل البرهان، برعاية وكيل الدائرة للمسرحية، وبامتداح الحاكم العسكري لها، ثم باجازتها من قبل المراقبين. ثم رحت اتعجب وانا اتصنع السخط واقول "أفيكون هؤلاء جميعا حمقى اغبياء ...؟" فصر العقيد كمال حسين اسنانه ثم قال لي بلهجة قارصة: "صلاح. انت مراوغ مكار. ولكني سانال منك وتستطيع الوثوق بي في هذا الصدد".

لكنه كان يجهل أسوأ ما في الموضوع، فممارساتي الادبية لم تكن سوى الجزء الطافي من جبل الجليد، اما الجانب الرئيسي من نشاطاتي خارج التعليم، والذي كان قوامه تجنيد وتنظيم مجموعات من المناضلين، فكان سريا. وطبقت في هذا النطاق نفس الطرق المتبعة من قبل رفاقي الموزعين في بلدان الخليج. كنا نختار المرشح للتنظيم وفق معايير اخلاقية وسياسية، كنا نعتبرها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها: فكان ينبغي للمرشح ان يكون حرا من كل رابط حزبي وان يتمتع في حياته الخاصة بسلوك لا مأخذ عليه، ثم اننا كنا نطلب كضمان لجديته ووقاره ان يمتنع عن شرب الكحول. وكنا نوفر له خلال فترة الاختبار اعدادا سياسيا ونزوده بين جملة ما نزوده به بالكتب والمقالات.

ثم اننا زيادة في الأمن، اخترنا نمط التنظيم "العمودي" فكان كل واحد منا يربط بمناضل واحد، يجند هو بدوره مناضلا آخر، وهكذا. فقد كانت "السلسلة" التي تتكون على هذا النحو، تبدو لنا اقل عطبا من الخلية التي تضم عدة اعضاء في آن معا. كانت اجتماعاتنا تتم عموما في المقاهي (كان مقهاي المفضل

هو مقهى الكمال الذي عملت فيه أثناء مراهقتي) فكنا نلعب بالنرد والدومينوو ونحن نتحدث بصوت خفيض.

وكنا نحرر ونطبع منشورات كلما اقتضى الظرف للتنديد بهذا الاجراء القمعي أو ذاك من الاجراءات التي تتخذها السلطات المصرية. ولكننا كنا نتلافى على وجه العموم ان نلفت الانتباه الى وجودنا. فمرحلة اعداد الكوادر تقتضي الانكفاء على الذات والتروي الى أقصى الحدود. وكنا ـ زيادة في الحذر ـ نوقع على كل منشور باسم مختلف، "كشباب الاصلاح" أو "شباب الثأر" مثلاً. على أننا كنا متفقين ـ رفاقي المقيمين في بلدان الخليج وأنا ـ على التسمية التي سنطلقها على الحركة التي نريد تأسيسها منذ عام ١٩٥٨: فتح (حركة تحرير فلسطين) التي تصبح الاحرف الاولى منها ح. ت. ف. اذا ما قلبت تصبح "فتح". ولكننا كنا عازمين على الا نستخدم هذا الاسم طالما لم نزود الحركة بالبنى والأنظمة والقيادة المركزية، وهي مهمة سوف نستكملها في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٥٩.

وفي مطلع عام ١٩٥٩، طلب مني عرفات ان أبحث لنفسي عن وظيفة مجزية في بلد عربي نفطي. فراتبي كاستاذ في غزة لا يكفي لتلبية حاجاتي المعيشية الا بجهد جهيد، في حين أن الحركة بحاجة ماسة ملحة الى المال ومن جهة أخرى، فان في وسعنا أن نناضل بحرية أعظم في دول الخليج حيث مؤسسات الأمن أقل تطوراً، وحيث قادة هذه البلاد أكثر تهيؤاً ازاءنا مما هو الحال في البلدان المحاذية لاسرائيل.

وهكذا فقد قدمت ترشيحي لشغل وظيفة في دائرة التعليم في قطر. ولكن بعد ان تلقيت جوابا ايجابيا، ابلغت بأن الوظيفة لم تعد شاغرة. وقد بلغتني معلومات عبر أحد رفاقنا ـ ابو مازن ـ الذي يشغل وظيفة ادارية داخل هذه الدوائر، بأن مصالح الأمن المصرية حذرت سلطات قطر من أني كنت "شيوعياً خطراً".

غير انه لم يمض زمن طويل بعد ذلك، حتى جاء عبدالعزيز حسين، مدير التعليم في الكويت، الى غزة على رأس بعثة مكلفة باستقدام معلمين. واثر اجرائه مقابلة معي قبل بتشغيلي دون أن يعتد بتقرير الشرطة الذي تلقاه عني، والشبيه بذلك الذي ابلغ لقطر.

ولما كنت متزوجا منذ فترة قريبة، فانني قررت مغادرة غزة مع زوجتي الشابة. وعشية سفرنا، جاءني ضابط الى منزلي ثم وضع اصفاده في يدي دون أن يقدم لي أية تفسيرات. وبرغم احتجاجاتي فانه رافقني حتى مطار القاهرة، ولم يوافق على نزع الاصفاد الا عند سلم الطائرة التي ستأخذني الى الكويت.

انه عدوي القديم، العقيد كمال حسين، رئيس ادارة الأمن في غزة، فهو لم يفلح في توقيفي أو في منعي من مغادرة البلاد، فكان حريصاً حرصاً ظاهراً على طيب ذكراي.

الفصل الثالث

انفجـار التيار

كنا في العاشر من شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٩، بضعة اشخاص مجتمعين في منزل سرى في الكويت لايقاف منظمة فتح على قدميها. وسيتلو اجتماعنا هذا، انعقاد عدد آخر من الاجتماعات في الايام التالية يحضرها مشاركون آخرون (اقل من عشرين شخصا بالاجمال) وبسرية كاملة دائما وابدا. وعلى هذا فان ممثلي المجموعات السرية القادمين من مختلف البلدان العربية، او من امكنة اخرى، كانوا يتشاورون فيما بينهم للمرة الاولى بهدف مركزة نشاطاتهم ومحورتها. وفي هذا المؤتمر الضيق جري التأسيس الشكلي لما سيصبح في اقل من عشر سنوات، اقوى منظمة تحرر وطني عرفتها فلسطين غير ان مجموع تعداد المناضلين الممثلين في هذا المؤتمر الضيق لم يكن يبلغ الخمسماية شخص.

وقد تم يومها اعداد عدة وثائق، وجرت الموافقة عليها خلال اجتماعات تشرين الاول هذه. وتدور هذه الوثائق حول بنى الحركة ونظامها الداخلي واستراتيجيتها وتكتيكها ووسائل عمل وتمويل الثورة التي سنكون القابلة التي تولدها. وتوضحت مهمات مختلف اجهزة فتح، واتضحت معها الكيفية التي سيجري تجنيد واعداد الاطر والكوادر على اساسها. اما البرنامج السياسي، والذي يحدد الخيارات الكبرى للحركة فكانت الموافقة عليه قد تمت في مطلع عام ١٩٥٨. فبعد ان قامت لجنة تكونت لهذا الغرض بتحرير هذه الوثيقة، جرت مناقشتها وتعديلها ثم الموافقة عليها خلال اتصالات شخصية او بواسطة المراسلات التي تبادلناها.

كانت الوثيقة تعكس الاجماع الذي كنا قد توصلنا اليه في المحادثات العديدة والمناقشات التي اجريناها خلال سنوات الخمسين في القاهرة وغزة، الا انها كانت مبنية كذلك على تجارب من سبقونا في الحركة الوطنية.

وبالرغم من اننا لم نقم في تلك الفترة بدراسة منهجية او بتفكير جماعي حول هذا الموضوع، الا ان كل واحد منا كان قد استخلص عبر قراءاته الخاصة دروس الماضي وعبره. كانت النتائج التي خلصنا اليها واحدة برغم ان ادراكاتنا وتحليلاتنا للاحداث التي وسمت تاريخ فلسطين يمكن ان تكون غير متماثلة. ثم ان تقديراتنا ستتطور على كل حال وستتضح على مدى السنين.

وفيما يعنيني انا ، فان تقديري هو أنه ليس من العدل ، اصدار حكم اجمالي

سلبي على عمل من سبقونا فهم اولا، لم يكونوا يشكلون كتلة متراصة. كان بينهم كبار البرجوازيين كما كان بينهم اناس متحدرون من اوساط شعبية. وكان بينهم الوطنيون كما ان بينهم الخونة، وكان بينهم صائبو النظر كما كان بينهم من يخطئون احيانا. وكيف يمكن ـ أيا ما كان الأمر ـ الا يؤخذ بعين الاعتبار سياق حقبتهم، والذهنية السائدة فيها والصعوبات الموضوعية، الحاسمة احيانا ـ التي كان عليهم ان يواجهوها بدون ان يكونوا حائزين على التجربة الضرورية... ثم ان كثيرين منهم ارتضوا القيام بتضحيات باهظة، دافعين في كثير من الاحيان حياتهم ثمنا لفشلهم وتلك امور لا يمكن ان نعزوها الى الوضع الدولي غير المؤاتي والى قدرة العدو ومكره وحقده. فثمة اخطاء جسيمة ارتكبت. فكان كشف هذه الاخطاء وتحليلها تلافيا لارتكابها مجددا، هو احدى المهمات التي اضطلعنا بها.

ولا ريب في انه لم تكن لمن سبقونا الاهمية التي تمتلكها منظمة تتمتع ببنى متينة. فقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية، حتى ظهور فتح، حركة تقودها شخصيات تتحدر من العائلات الكبرى وخاصة عائلتي الحسيني والنشاشيبي وغالبا ما كانت في حالة شلل وكثيرا ما تسود بينها المنافسة او المواجهة عندما لا تتفق على السلوك الذي ينبغي اتباعه. اما المنظمة او التنظيم فانه غالبا ما يكون ـ اذا وجد ـ هشا ولا يضرب بجذوره في الفئات الشعبية، فكان يضمحل اضمحلالا تلقائيا عندما يختفي الزعيم لان الزعيم هو روحه وركيزته. اما الشعب، فانه كان يتبع القادة، او يسبقهم في بعض الاحيان. ويمارس بفضل اللجان المحلية الناشئة عفويا، مختلف انواع الصراع كالاضرابات والمظاهرات، بل وكحرب العصابات. فعصيانات اعوام ١٩١٩ و ١٩٢٢ و ١٩٢٨ و ١٩٣٣ و ١٩٣٦ و ١٩٣٨ تشهد بروح الاهالي الكفاحية، ولكنها تشهد كذلك بعقم المعركة التي لا يشنها ويقودها ويدعمها جهاز مركزي دائم يتمتع ببنية متينة.

ومن هنا كانت الاهمية الاولية التي اعطاها مؤسسو فتح، لاقامة منظمة شعبية حقا، تكون قادرة على الاستمرار مهما حدث، وكائنا ما كان مصير هذا القائد او ذاك.

وثمة خطأ آخر ارتكبه من سبقونا: فهم لم يقدروا اهمية ضم بعض اليهود الى الحركة الوطنية، حق قدرها. فقادة ما قبل الحرب العالمية الثانية كانوا واعين انهم يخوضون المعركة اساسا ضد المحتل البريطانـي ، فكانوا يطالبون دائما وابدا،

ومنذ ذلك الحين، بانسحاب القوات الانكليزية، وباعلان استقلال وسيادة الدولة الفلسطينية. وكانوا يتهمون حكومة لندن ـ محقين ـ باثارة النزاع بين العرب واليهود، باعلانها عام ١٩١٧ لوعد بلفور القاضي باعطاء اليهود وطنا قومياً في فلسطين، وبتغذية هذا النزاع بمختلف الوسائل، لتبرير وضمان دوام سلطتها الاستعمارية. فكان واضحا انه لا يمكن لهذه السياسة الا ان تلحق الضرر بجميع السكان عربا ويهودا.

ولا ريب في انه كان لمفتي القدس الحاج امين الحسيني، قائد المقاومة الرئيسي لما بين الحربين بلا منازع الفضل في اقتلاع كل اثر للطائفية بين العرب. فقد افلح في الجمع بين المسلمين والمسيحيين في نفس المعركة ضد الامبريالية. فلماذا لم يحاول ان يقنع اليهود الفلسطينيين بأن مصلحتهم، اذا ما فهموها حق فهمها، تدفعهم الى التحول عن الاوهام الصهيونية، والتفاهم مع العرب. ولماذا لم تقم النقابات الفلسطينية من جهتها بتشكيل جبهة مشتركة مع العمال اليهود؟ لا ريب في انه كان من الصعب على ضحايا الاستيطان الصهيوني، وخاصة اولئك الذين فقدوا اراضيهم ومصادر رزقهم لصالح المهاجرين الجدد، ان يميزوا بين اليهود الذين يحاولون التعايش مع الفلسطينيين، وبين زعمائهم الصهاينة. الا انه كان على القادة الفلسطينيين، ان يواظبوا على مهمة تبديد الغموض وسوء التفاهم اللذين يعيقان الوفاق اليهودي ـ العربي.

وهكذا فان مؤسسي فتح استشفوا منذ البداية، امكانية اقامة دولة ديمقراطية في كامل فلسطين يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون كمواطنين متساوين. غير ان عوامل ذات طابع سياسي كانت تمنعنا من المجاهرة قبل عام ١٩٦٨، بالعرض الذي ينبغي لنا ان نقدمه لليهود الاسرائيليين.

وكذلك فان من سبقونا ارتكبوا غلطة الحاق الحركة الوطنية الفلسطينية بارادة الانظمة العربية خالطين بين بواعثها ودوافعها الانانية وبين دوافع الشعوب العربية البريئة من الاغراض. كانت غالبية حكومات المنطقة في تلك الحقبة خاضعة لسطوة انكلترا او لنفوذها بحيث انه لم يكن بالامكان ـ بسبب طبيعتها ـ ان تكون حليفة صادقة لحركة تحرير تناضل ضد الاستعمار البريطاني بالذات. فقد استشهد الشيخ عزالدين القسام، وهو مناضل حقيقي من اجل الحرية، قام بتنظيم الفئات الدنيا من الفلسطينيين قبل ان يبدأ المقاومة السرية عام ١٩٣٢ وقضي

ببطولة لانه لم يستطع الحصول على أدنى دعم من أي بلد "شقيق". وإذا كان القسام قد لقي مصرعه عام ١٩٣٥، اثر معركة خاسرة سلفا، على يد الانكليز بالتأكيد، الا أن موته يعزى بخاصة الى المتواطئين العرب مع السلطات البريطانية.

وكذلك فان اي نظام عربي لم يهب لنجدة الشعب الفلسطيني اثناء عصيان عام ١٩٣٦ الشعبي. وانتهت الاضرابات العامة ـ التي دام احدها ستة اشهر ـ والمظاهرات ومعارك المواجهة التي تتالت حتى عشية الحرب العالمية الثانية، الى حمامات دم. فلم تكتف الدول العربية بأنها لم تفعل شيئا لوقف المذابح وحسب. ولم تكتف بالامتناع عن تقديم معونة مادية لشعب اعزل يواجه المدافع والدبابات الانكليزية، بل انها وجهت نداء علنيا الى الشعب الفلسطيني تدعوه فيه الى وقف المعارك ضد ـ وبالحرف ـ "حليفتنا العظمى انكلترا". وحاولوا بالمناسبة نفسها حرف الثورة وتضليلها بالاشارة الى اليهود على انهم العدو الذي يجب خوض الصراع ضده.

وفيما بعد الحرب واصلت الدول العربية رفضها لمد الفلسطينيين بالوسائل التي يدافعون بها عن انفسهم، في حين كان الصهاينة يتلقون كميات مذهلة من الاسلحة بفضل تواطؤ الانكليز السلبي او الفعال، في ذات الحين الذي كان فيه ميزان القوى ينقلب بصورة خطيرة لصالح الهاغاناه، وفي نفس الوقت الذي كانت هذه الاخيرة تواصل في الاشهر الاولى من عام ١٩٤٨ غزوها للاراضي. ولكنهم انقاذا للمظاهر ارسلوا بضع مئات من البنادق لاجل عشرات الالاف ممن كان يمكن تعبئتهم من بيننا لخوض المعركة وكانوا يحتجون على سبيل التبرير، بأنهم قد الزموا انفسهم بأن يضطلعوا هم بتحرير فلسطين. ومن المعلوم الان، الى ماذا افضت مغامرتهم التي تدعو للرثاء. فلم تكن جيوشهم التي اجتاحت فلسطين في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ قادرة حتى على ان تطبق على ارض المعركة، مشروع التقسيم الذي تبنته الجمعية العامة للامم المتحدة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧.

وما كان من الاردن الا ان سارع الى ضم اراضي الضفة الغربية في حين وضعت مصر غزة تحت ادارتها. اما الحكومة التي تشكلت في غزة برئاسة احمد حلمي باشا، فماتت في يوم ولادتها، بعد ان امتنعت كافة العواصم العربية عن المخاطرة بدعمها. فالدول العربية يسرت وساعدت، عمليا، على تدعيم الامر الواقع

الذي هو انشاء دولة اسرائيل، متيحة لهذه الاخيرة ان توسع مساحة الاراضي التي خصصتها لها هيئة الأمم المتحدة.

ونستطيع ان نطرح الكثير من الامثلة التي تشهد بصحة المثل الشعبي القائل: "كل الثورات التي تولد في فلسطين، تجهض في العواصم العربية". فقد اثبتت التجربة ان كافة انظمة المنطقة ـ الرجعية منها والتقدمية ـ تعاملنا في نهاية الامر بنفس الطريقة مقدمة مصالحها على مصالح الشعب الفلسطيني.

وعلى هذا فان مؤسسي فتح اقسموا اليمين على التصدي لكل محاولة لاخضاع الحركة الوطنية الفلسطينية لاشراف حكومة عربية كائنا ما كانت هذه الحكومة، وعلى السهر على الا يستعبدها اي بلد "شقيق" الى حظيرته. فقد كان في تقديرنا، انه بهذا الثمن وحده، نستطيع ان نضمن استمرار مشروعنا، ومن ثم نجاحه في وقت لاحق. فاذا تجاوزنا عن هذا، فاننا كنا نفسر لمناضلينا، ثم لمحاورينا العتيدين، اننا لسنا فقط غير انفصاليين، بل اننا نطمح الى ان نصبح ابطال الوحدة العربية. خاصة واننا كنا مقتنعين بأن الفلسطينيين لا يستطيعون بمفردهم تحرير وطنهم، طالما بقي ميزان القوى المحلي والعالمي على ما هو عليه. ووضعنا لانفسنا كهدف، ان نصبح الوسيط والحافز لقوة عربية وحدوية ثورية، ورأس حربة لجبهة عريضة تستطيع هي وحدها ان تعيد للفلسطينيين حقوقهم. هكذا كانت استراتيجيتنا ولا تزال. وبانتظار ان تفضي الى المأمول، فانها لا تستبعد، بل على العكس تشجع قيام تحالفات تكتيكية مع حكومات عربية وغير عربية، تتلاقى مصالحها ومصالحنا.

وقد طبق الحاج امين الحسيني هذا المبدأ تطبيقا خاطئا، حين انضم اثناء الحرب العالمية الثانية الى المانيا الهتلرية مرتكبا بذلك خطأ ندينه جميعا بأقصى ما يمكن من شدة. بعد هذا يبقى من الضروري ان نضع سلوكه هذا في سياقه الحقيقي. فالدعاية الصهيونية تقدم الحاج امين، لاسباب لا تخفى، كمتعاطف مع النازية. لكن كافة من عرفوه ـ وانا منهم ـ يستطيعون ان يشهدوا بالعكس، كان الحاج امين وطنياً ـ محافظاً بالتأكيد ـ ولكنه كان صادقا وينبغي لي ان اقول، ابراء له، انه برغم عقليته وبرغم التباينات الجدية التي كانت تفصلنا، فانه لم ينتقد فتح وقادتها في العلن مطلقا. وقد التقيت به في اخر مرة عام ١٩٧٤ قبل وفاته بثلاثة اشهر . وحين اخذت عليه ربطه لمصيره بالمانيا فانه فسر لي

دوافعه. فهو لسخطه على دور واساليب انكلترا في فلسطين ولمطاردة السلطات الانتدابية له، فانه التحق تلقائيا بالمعسكر المناوىء.

ثم انه شأن كثيرين آخرين من القوميين العرب، لا سيما في مصر والعراق، اعتقد ان قوى المحور ستربح الحرب وستمنح فلسطين الاستقلال، عرفانا منها بجميل كافة الذين دعموها في النزاع. وقد لفت نظره الى ان مثل هذه الاوهام كانت تستند الى حسابات ساذجة، خاصة عندما تتذكر ان هتلر كان يضع العرب في المرتبة الرابعة عشرة، بعد اليهود، في سلسلة مراتب جودة "الاعراق" على سطح كوكبنا. ولو ربحت المانيا الحرب، لفرضت على العرب الفلسطينيين احتلالا اشد شراسة من ذلك الذي عرفوه تحت الانتداب البريطاني.

قلت اذا ان الحاج امين لم يكن نازيا، كما لم يكن القادة الفلسطينيون الذين دعموا انكلترا خلال الحرب عملاء للاستعمار. ذلك ان هؤلاء الاخيرين، وبكل بساطة، راهنوا على انتصار الحلفاء، آملين ان ينتزعوا بذلك استقلال وطنهم، الذي هو الهدف الاول المقدس لكافة صراعات الشعب الفلسطيني منذ الحرب العالمية الاولى.

ان الذين حاولوا تأكيد الاطروحة القائلة بأن الوطنيين الفلسطينيين قد وضعوا انفسهم في خدمة المانيا الهتلرية، انما يتجاهلون بأن الالاف من مواطنينا قاتلوا في صفوف الجيش البريطاني، وانه تم اعداد افضل مدربينا العسكريين اي اولئك الذين ساهموا بتدريب الفدائيين، على يد القوات الانكليزية. لا بل ان سخرية القدر شاءت ان يكون اول قائد لجيش التحرير الفلسطيني الذي تشكل عام ١٩٦٥، وهو اللواء وجيه المدني، خريج نفس الدورة التي تخرج منها موشي دايان، في مدرسة عسكرية بريطانية في فلسطين... وليست تجارب من سبقونا واخطاؤهم وحدها هي التي ساهمت في توجيه خططنا الاولى. فحرب العصابات التي اندلعت في الجزائر قبل تأسيس فتح بخمس سنوات، قد افادتنا افادة عميقة. كنا مأخوذين بمسيرة الوطنيين الجزائريين الذين استطاعوا ان يشكلوا جبهة صلبة وان يخوضوا المعركة ضد جيش قوى، يفوق جيشهم الف مرة، وان يحصلوا على معونة متعددة الاشكال من مختلف البلدان العربية التي كانت في بعض الاحيان تنتمي الى معسكرات متناحرة ، وان يفلحوا في الوقت نفسه في عدم

الوقوع بالتبعية لاي منها. فكانوا رمزا، اذا صح القول للنجاح الذي كنا نحلم به.

ولما لم تكن لنا علاقات مع ممثلي جبهة التحرير الوطني الجزائري، فاننا رحنا نتزود بالوثائق حول الحركة الجزائرية مما كان ينشر في الصحف والكتب. كانت ثقافتي السياسية تعاني من الكثير، وكنت كطالب في الفلسفة قد ألفت هيغل وماركس ولينين بعض الالفة بحكم وطبيعة الاشياء، الا ان قراءاتي ظلت انتقائية تذهب من ميشيل عفلق (مؤسس البعث) وسيد قطب احد اصحاب المذهب في (حركة الاخوان المسلمين) الى قصص المغامرات والكتب البوليسية. وقد بدأت اهتم على نحو خاص بالثورات، جميع الثورات، بعد عودتي الى غزة عام ١٩٥٧.

والتهمت مؤلفات لينين. كنت معجباً بشجاعته وتفاؤله العميق حتى في الفترة التي كان يعيش فيها كمنفي سياسي في الخارج. ثم ان في استيلاء البلاشفة على السلطة والصعوبات التي واجهوها تعاليم عديدة كانت تبدو لي ذات فائدة كلية عامة. الا انني كنت اشعر بنفسي اقرب الى ماوتسي تونغ الذي كان حسه الاخلاقي اقرب فيما يبدو لي الى الاسلام منه الى مادية لينين المحضة ثم ان "المسيرة الطويلة" مسيرة العشرة آلاف كيلومتر، استحوذت قبل هذا كله على خيالي وجعلتني احلم فاتمثل الشعب الفلسطيني حاملا السلاح عائدا الى بلاده ليطرد المحتلين.

وقد كتب فرانز فانون الذي كان احد كتابي المفضلين في كتاب "معذبو الارض" الذي قرأته واعدت قراءته عدة مرات انه ليس سوى الشعب الذي لا يخشى مدافع ودبابات العدو يستطيع ان يخوض الثورة الى منتهاها. فكان يعني ان الوطنيين الجزائريين ما كانوا سيباشرون اي امر، لو انهم اخذوا بعين الاعتبار ميزان القوى السائد في اللحظة التي اشعلوا فيها انتفاضتهم. كان في وسعنا ان نلاحظ في تلك الحقبة كم كان فانون مصيبا. فقد كانت الشعوب من اقصى العالم الثالث الى اقصاه، تمتشق السلاح، برغم انها عزلاء مجردة، لتأخذ حريتها واستقلالها غلابا.

كان مؤسسو فتح، يقدرون تماما تفوق اسرائيل العسكري، ومدى وسائلها وقوة حلفائها، الا انهم حددوا لانفسهم برغم ذلك، كهدف اساسي، إشعال الكفاح المسلح.

ليس لاننا كنا نتعلل بوهم القدرة على التغلب على الدولة الصهيونية برغم كل شيء، بل لانه لم تكن لدينا وسيلة اخرى لجذب انتباه الرأي العام العالمي الى القضية الفلسطينية، ثم وبشكل خاص لتجميع جماهير شعبنا داخل الحركة الشعبية التي نسعى لانشائها.

كنا نأخذ بعين الاعتبار ـ من هذه الناحية ـ عاملين اثنين:

عقلية الفلسطينيين وتوزعهم على مختلف الاحزاب السياسية العربية. ونحن لم نكن نستطيع منافسة هذه الاحزاب على الصعيد الايديولوجي، فلم يكن لدينا ما نقدمه افضل مما لدى الاخوان المسلمين والشيوعيين والقوميين العرب او البعثيين كل في مجاله. والحق هو اننا كنا نعتقد ان هذه الاحزاب هي تشكيلات سلبية، بمقدار ما كانت تطرح تحرير فلسطين وتجعله في المستوى الثاني، ثم لأنها تقسم الفلسطينيين.

كان الكفاح المسلح وحده قادرا على التسامي على التباينات الايديولوجية وان يصبح بالتالي حافزا او وسيطا للوحدة. وبالفعل، فقد كنا بدأنا نلاحظ ان كثيرين من ابناء وطننا ممن اوسعتهم الاحزاب ورجال السياسة العرب خطابات واشبعتهم وعودا، بدأوا يصابون بالاعياء من هذه المماحكة العقيمة ويتساءلون عما اذا لم تكن الدعوة الاسلامية والعروبية والشيوعية تشكل تحولات منفرة، او ما هو اسوأ من ذلك، اي بدائل تحل محل الهدف الذي يشغف افئدتهم، اعني هدف استعادة وطنهم.

وقد تمكنا ان نعرض عقيدتنا امام الجمهور الواسع بواسطة مجلة بدأنا نحررها ونطبعها بصورة سرية منذ عام ١٩٥٩ تحت اسم "فلسطيننا" فكانت تظهر بصورة غير منتظمة وبحسب ما تتيحه وسائلنا وامكانياتنا وهي تشتمل على معلومات واراء ومقالات موقعة بأسماء مستعارة ونعالج فيها بعبارات بسيطة في متناول العامة، مبادىء اساسية يمكن ايجازها كما يلي: ان العنف الثوري هو الطريق الوحيد المؤدي الى تحرير الوطن، ولا بد من ان يمارس، في المرحلة الاولى على الاقل من قبل الجماهير الفلسطينية نفسها بقيادة مستقلة عن الاحزاب والدول، غير ان دعم العالم العربي الفعال، هو أمر لا غنى عنه لنجاح المشروع، على أن يحتفظ الشعب الفلسطيني بسلطة التقرير وبدور الطليعة.

كانت فتح تناقض اطروحات قومية عربية كانت تسود في تلك الحقبة وهي تعلن ان "الوحدة العربية تمر بتحرير فلسطين" وليس العكس. وكانت هذه المواقف مواقف جسورة في لحظة بلغت فيها الناصرية اوج قمتها، وبدت فيها ولادة الجمهورية العربية المتحدة التي جمعت بين مصر وسوريا، كنقطة انطلاق لتيار سيكتسح دولة اسرائيل.

غير ان مهمتنا الرئسية في خريف عام ١٩٥٩، لم تكن كسب قطاعات واسعة من الرأي العام لوجهات نظرنا، وانما انهاض المنظمة التي ستتيح لنا شن الكفاح المسلح وان نصبح حركة جماهيرية.

وابتكرنا فكرة جهازين احدهما عسكري والاخر سياسي على النمط الهرمي. فكانت هناك خلايا القاعدة ولجان فروع، ولجان مناطق ومجلس ثورة ينبغي له ان يعمل تحت الرقابة العليا للجنة مركزية تستمد سلطتها من مؤتمر وطني، وهو مثل البرلمان الذي يضم ممثلي كافة فئات الشعب الفلسطيني: التجار والموظفين والعمال الحرفيين، وأصحاب المهن الحرة والمثقفين الذين ينبغي لاعضائنا ان يناضلوا بينهم كمستقلين.

وخلال المرحلة المسماة بمرحلة اعداد الاطر والكوادر والتي تمتد من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦٤، أوجدنا مئات الخلايا على اطراف دولة اسرائيل، في الضفة الغربية، وغزة وفي مخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان، وكذلك داخل التجمعات الفلسطينية في البلدان العربية الاخرى وفي أفريقيا واوروبا وحتى في الامريكيتين الشمالية والجنوبية، وكان مناضولونا يتوصلون، دون ان يكشفوا انتماءهم لفتح الى الفوز في الانتخابات لمراكز القيادة في النقابات والنوادي والتجمعات الحرفية والمجالس البلدية. كما ان من يملكون كفاءات خاصة منا، كانوا يجدون أنفسهم وقد عهد اليهم بوظائف هامة في هذا البلد العربي او ذاك.

كانت السرية المطلقة هي القاعدة في كافة نشاطاتنا. وكانت كل خلية تضم ثلاثة اعضاء على الاكثر ولا يعرفون بعضهم بعضا الا باسمائهم الحركية التي كانت تتغير بين الحين والاخر، كاجراء أمن اضافي. وكانت امكنة اجتماعهم المفضلة هي المؤسسات العامة او الامكنة التي يكونون فيها على مرأى من الناس وذلك بمناسبة نزهات وهمية ينظمونها لهذا الغرض . اما الاتصالات الهاتفية

والمراسلات فكانت ممنوعة بحيث ان الاتصالات كانت تتم شفويا، وحتى لو كان على القيادة ان ترسل موفدين الى بلدان اخرى تتمتع تنظيماتنا فيها باستقلال ذاتي كبير.

وقد امتنعنا اثناء هذه المرحلة، وفاء منا لمبدئنا في الاستقلال عن ان نطلب ادنى معونة مالية من اية دولة في المنطقة، رغم ان حاجاتنا كانت هامة. فلم يكن علينا ان نؤمن عمل فتح ونموها وحسب، وانما كان يجب أن نغذى كذلك مختلف الصناديق المالية التي كان احدها مخصصا لشراء الاسلحة. فبدأنا منذ ذلك الوقت نطلب تضحيات جساما من مناضلينا الذين كانوا يدفعون جزءا هاما من اجرهم او من راتبهم ـ يزيد احيانا على النصف ـ الى فتح. ومن جهة اخرى فان اثرياء فلسطينيين، من فلسطينيي المنفى كانوا اعضاء في حركتنا او متعاطفين معها، راحوا يغذون هذا الصندوق بكرم بالغ. وعلى مدى السنين بدأ جامعو التبرعات لنا يشكلون شبكة واسعة من المتبرعين المنظمين او المنضمين الى لجان الدعم.

وعرفت فتح اول انطلاقة لها اعتبارا من عام ١٩٦١. وثمة حدثان ساهما في توسيع صفوف الحركة. كان الاول هو نجاحنا في توحيد معظم الخمس وثلاثين او الاربعين منظمة فلسطينية من تلك التي كانت قد نشأت بصورة عفوية في الكويت. صحيح انه لم يكن لكثير منها سوى وجود كسيح ولا تضم الواحدة سوى مجموعة او مجموعتين من الشباب المتحمس. الا انه يظل صحيحا كذلك ان دخولها الى فتح وضع حدا لتبعثر الارادات الطيبة، كما كان يحمل الينا في بعض الحالات عناصر ديناميكية وكفؤة.

اما ما كان اهم من ذلك فهو الاندماج الذي تفاوضنا عليه مع المنظمة التي كان يذكيها في قطر وفي العربية السعودية، ثلاثة رجال سيلعبون بعد ذلك ادوارا من المقام الاول: هم ابو يوسف النجار وكمال عدوان "اللذين استشهدا على يد مجموعة مغاوير اسرائيلية في بيروت في شهر نيسان ـ ابريل ـ ١٩٧٣ وابو مازن، وهو حاليا عضو اللجنة المركزية في فتح. كانت افكارهم متقاربة جدا مع افكارنا، فكان ان تم اتفاق الوحدة بيننا دون صعوبات. كما كان بينهم الشهيد الاول للجنة المركزية المهندس عبد الفتاح حمود (ابو صلاح).

والحقيقة هي ان انفراط عقد الجمهورية العربية المتحدة في ايلول ـ سبتمبر ـ ١٩٦١، سجل بداية استمالتنا الى حركة جماهيرية. فالخيبة التي اثارها فشل الوحدة المصرية السورية، التي كانت بحجم الامل الشاسع الذي ثار لدى اعلانها تحت كنف عبد الناصر قبل ذلك بثلاث سنوات، حثت العديد من الفلسطينيين على الفرار من تنظيماتهم الخاصة والالتحاق بفتح، وسيسوء حكم القارئ على تعجل الفلسطينيين وعيلان صبرهم ازاء استعادة وطنهم، اذا لم يقدر مدى ضنكهم. فالمنفى بحد ذاته، هو الم لا يستطيع فهمه سوى اولئك الذين عانوه. ثم ان الشقاء والتعاسة يكونان اعظم عندما يلي فقدان الدار، الانفصال عمن نحبهم. فقليلة هي العائلات الفلسطينية التي لم تذهب اشلاء بتبعثرها بسبب الحاجة في مختلف البلدان، العربية وغير العربية، وفي اجزاء تبلغ في البعد مبلغ الولايات المتحدة او امريكا الجنوبية.

وعلى هذا فان المصير الذي آلت اليه عائلتي من هذه الناحية ليس مصيرا استثنائيا. فأخي البكر عبدالله، عمل كعامل ميكانيكي في العربية السعودية قبل ان يصبح تقنيا يعمل في حقل تكييف الهواء في الكويت. اما اخي الاصغر الذي يليه سنا، احمد، فهو استاذ ادب انكليزي في قطر، الا انه عاش قبل ذلك في باكستان ومصر وانكلترا. واما شقيقاتي سلوى وانصاف، فإنهما وإن كانتا مقيمتين في العربية السعودية، الا ان الاولى تعمل في جدة بينما استقرت الثانية في الرياض حيث تزوجت من موظف يعمل في وزارة الدفاع. وهكذا فاننا لم نفلح خلال ربع قرن، في ان نجتمع سوى مرة واحدة عام ١٩٧٧ وذلك بمناسبة عملية جراحية خطيرة اجريت لشقيقي عبدالله في الكويت. وغاب عن اجتماع العائلة المشهود هذا، غائب واحد: هو والدي الذي توفي قبل ذلك بسنة في القاهرة.

وحين غادر الفلسطينيون فلسطين عام ١٩٤٨، ظنوا انهم سيلقون في البلاد العربية عطف الاشقاء. وكم كان ذهولهم عظيما حين لاحظوا انهم يعاملون كأجانب في افضل الاحوال، او كأشخاص غير مرغوب بهم في غالبية الدول. ففي لبنان، وهو الارض المضيافة، اتيحت لهم الاقامة وتم الاعتناء بهم، ولكن مخيمات اللاجئين التي نصبت فيه، لم تلبث ان تحولت الى مراكز "تحجير" (غيتو) بحيث لا يمكن الدخول اليها او الخروج منها الا باجازة.

اما في سوريا ، فان شروط الحياة كانت اقل قسوة ، ولكن السلطات كانت

تطالب ضيوفها بالمقابل، بامتثال كامل، والتحاق غير مشروط بالنظام القائم، يساريا كان ام يمينيا، "انفصاليا" او عروبيا. كما ان مشكلة الاستخدام كانت هي نفسها من اقصى العالم العربي الى اقصاه: فابناء البلاد يتمتعون بالاولوية في تقلد الوظائف، اما الفلسطينيون فكان عليهم الاقتناع عند الضرورة بالوظائف الثانوية الشاقة او الزهيدة الاجر. وعلى اي حال، فانه كان عليهم ان "يؤدوا ما عليهم" ازاء مصالح الامن، التي كان في مقدورها ان تقضي بالبطالة على كل فلسطيني تشتبه "باخلاصه" او تظن فيه "التخريب".

كانت الكويت احد الاستثناءات القليلة على القاعدة. فطالما ابدى شعب وحكومة هذه الدولة الصغيرة تعاطفا ودعما ازاء الفلسطينيين الذين ساهموا، والحق يقال، في نمو ورفاهية هذه الامارة، ان باعدادهم وان بنوعيتهم، وذلك قبل ان تغرقها مداخيل النفط.

وتضم الجالية الفلسطينية التي تمثل حوالي ٢٠ بالمئة من سكان الكويت عددا من المعلمين والمهندسين والاطباء وكبار الموظفين. فضلا عن جمهور واسع من العمال المؤهلين.

فليس من قبيل الصدفة ان تكون فتح كبرت ونمت وترعرعت في الكويت فالكثيرون كانوا يشغلون مناصب ممتازة هناك: فياسر عرفات كان مهندسا يتمتع بكثير من التقدير والاحترام في وزارة الاشغال العامة، وفاروق القدومي (ابو اللطف) كان يدير دائرة في وزارة الصحة العامة، وخالد الحسن وعبد المحسن القطان كانا من كبار اداريي الدولة. واما خليل الوزير (ابو جهاد) وانا فكنا استاذين في مدارس ثانوية. ونمر صالح (ابو صالح) كان عاملا فنيا هناك وله شعبية خاصة بين العمال.

وهكذا فاننا كنا، بالنسبة الى الفلسطينيين الذين يعيشون في بلدان عربية اخرى بمثابة اصحاب امتيازات. فبالرغم من اننا كنا نقوم بنشاطات سرية واسعة، الا اننا لم نكن نلاحق او نضطهد. وكانت دروس اللغة العربية والفلسفة وعلم النفس التي كنت اتولاها تتيح لي ان اعرض افكار فتح بكل طمأنينة على طلابي الذين كنت اجند من بينهم افضل العناصر.

وبالمقابل فاننا كنا نشاطر كافة الفلسطينيين قدرهم لجهة القيود المفروضة على

تنقلاتنا. فبرغم اننا كنا نحمل جوازات سفر صادرة عن هذه الدولة العربية او تلك، فاننا كنا مطالبين بالحصول على تأشيرات خروج ودخول، كانت تعطى لنا بشح وتقتير، وبعد الكثير من المساعي المضنية.

كان لنا ان نكون رعايا لدول عربية، الا ان سلطات اوطاننا بالتبني ظلت تعاملنا كاجانب، فضلا عن معاملتنا كمشبوهين. فالفلسطيني المزود بوثيقة سفر مصرية مثلا، لا يستطيع الخروج من البلاد او الدخول اليها، دون اذن خاص.

ولما كنت اتولى مسؤوليات تنظيمية داخل فتح، فاني كنت مجبرا من جهتي على ان اكثر من ارتياد مختلف البلاد العربية. فكانت تضاف الى ازعاجات التأشيرات، الصعوبات الادارية في الحصول خلال السنة المدرسية على عطل غير نظامية، فكنت اتلافى القيام برحلات لا تكون ضرورية للغاية. الا انني واجهت ظرفا قاهرا في آذار ـ مارس ـ ١٩٦٣ عندما علمت ان شقيق زوجتي البكر، وهو مهندس يقيم في القاهرة، قد توفي بحادث. فكان ان اثارت التفسيرات التي قدمتها لاطلب الاذن بالغياب، تشكك وكيل وزارة التربية يعقوب الغنيم الذي انتهى الى الارتياب بأني اتعاطى نشاطات غامضة. والغنيم رجل مرهف يملك حس دعابة حادا، وقد قال لي وهو يضحك، لقد تذرعت، تبريرا لسفراتك الكثيرة في هذه السنوات الاخيرة، بوفاة والدك، ثلاث مرات على الاقل، وبوفاة والدتك اربع مرات وكذلك بموت اشقائك وشقيقاتك. افتظن انك تستطيع ان تقنعني اليوم بوفاة شقيق زوجتك المأساوية". ولست ادري اذا كنت افلحت باقناعه بحسن نيتي. لكن يعقوب الغنيم الذي سيصبح فيما بعد احد افضل اصدقائي وافق على منحي الاذن بالسفر. فاصطحبت زوجتي وابنتي ايمان التي كانت في الثالثة من عمرها، ثم صعدنا الى طائرة متجهة الى بيروت حيث كان ينبغي لنا ان نمضي الليلة قبل ان نأخذ الطائرة الى القاهرة. ولكننا اصطدمنا برفض السلطات اللبنانية اعطاءنا تأشيرة دخول مؤقت (ترانزيت) لاربع وعشرين ساعة، ودعينا لتمضية الليل في مطار بيروت في غرفة صغيرة لا نستطيع حتى ان نتمدد فيها، فرحت اترافع لصالح زوجتي وابنتي، عارضا ان ابقى في المطار بينما تمضيان هما الليلة في فندق بالعاصمة. ولكن عبثا، اذ ان ضابط الامن لم يتزحزح عن موقفه.

وفي اثناء ذلك، تم ادخال كلب الى الغرفة التي كنا محتجزين فيها، اذ لم يكن باستطاعته هو الاخر ان يدخل الى البلاد ، لانه لا يحوز على شهادة صحية

نظامية. كنت بدأت اتعزى بفكرة انه ليس ثمة تمييز يفصل بين الفلسطينيين والكلاب، عندما جاء من يسعى وراء صاحبنا العاثر الحظ، بعد ان نال اعفاء استثنائيا بسبب "تدخل رفيع المستوى" تم لصالحه.

وقد ظل هذا الحادث، الذي يرمز الى المصير الذي ينتظر الفلسطينيين، محفورا في ذاكرتي. بحيث اني بعد ذلك بعشر سنوات، رويته لشخصية لبنانية تشغل منصبا هاما داخل حزب الكتائب، لادلل له على قدر الفلسطينيين البائس وعلى معنى كفاحنا. فشزرني ببرود وقال لي بلهجة ازدراء: ان حركتك التحريرية لم تدرك اي هدف من اهدافها ولا تزالون غرباء غير مرغوب فيهم ولن تحصلوا مطلقا على حق الدخول الى البلدان العربية. والنتيجة الملموسة الوحيدة لوجودكم في لبنان، هو انكم ساهمتم بدعواكم في حقل الاجور، الى رفع الاجرة التي ندفعها لخدمنا."

فصررت اسناني وكظمت غيظي ولم اجب، كان علي ان اضبط اعصابي في لحظة كنت احاول فيها المفاوضة على اتفاق يهدف الى تجنيب اللبنانيين حربا اهلية مدمرة وتجنيب المقاتلين الفلسطينيين محنة جديدة قاسية في بلد يشكل بالنسبة اليهم آخر ملاذ لهم في العالم العربي غير ان زوجة محدثي التي كانت شاهدة على محادثاتنا لم تستطع ان تكبح سخطها على مثل هذه الصلافة. فقالت له بحدة: لو كنت مكان ابو اياد، لقتلتك في الحال..." غير ان محدثي لم يخطىء في نقطة واحدة. فنحن برغم صراعاتنا وانتصاراتنا، وبرغم الآلاف من شهدائنا، بما في ذلك الذين ضحينا بهم في ميدان المعارك العربية، لا نزال ابدا نعامل كالموبوئين بالطاعون.

واريد ان اذكر بهذا الصدد، حالة قريبة العهد بين كثير من الحالات الاخرى، هي تلك التي حدثت للمدعو احمد الاسطل الذي يحمل جواز سفر مصري حسب الاصول، ولكنه وجد نفسه ذات يوم في عام ١٩٧٦ ممنوعا من دخول مطار القاهرة. ووضعته السلطات المصرية في طائرة متجهة الى دمشق حيث ما لبث ان ابعد باتجاه الكويت. وهناك وضعوه في طائرة متجهة الى عمان التي رفضت قبوله. وهكذا فقد قام بجولة حول مختلف البلدان العربية، ولمدة اسابيع، قبل ان يتمكن بعد مداخلات كثيرة، من ان يجد ملاذا. والاسطل حسب علمي، لم يرتكب اي عمل يستحق العقاب ، لكن تقريرا ما من تقارير الشرطة مبنيا على اشاعات ،

يكفي لتجريم أي فلسطيني.

ان شعبا بلا وطن، هو شعب بلا حول وبالتالي بلا دفاع. امن العجيب بعد هذا، اذا بحثنا عن انعكاس هويتنا، بل وجودنا في رموز مثل جواز السفر او العلم. ومن بداية سنوات الستين، راح الاستياء ينتشر بين الفلسطينيين بسبب اللامبالاة التي كانت تظهرها ازاءهم مختلف الانظمة العربية. فكانت الحاجة الى منظمة قتالية محض فلسطينية تزداد الحاحا. لا سيما بعد الحملة التي خضناها في مجلة "فلسطيننا". وكان التقدير السائد لدى العديد من الحكومات العربية، هو انه يجب ملء هذا "الفراغ" بانشاء حركة تأخذ على عاتقها الغضب المتزايد الذي يهدد بأن ينقلب ضدها. فكان لا بد لها من ان تجد الرجل القادر على تنظيم الفلسطينيين تحت كنفه وعلى اعادة الثقة اليهم. ويقينا ان الحاج امين الحسيني الذي كانت مهابته لا تزال عظيمة ان لم نقل سليمة كاملة لدى قطاع واسع من الرأي العام، كان لا يزال جاهزا. غير ان عبد الناصر لم يكن شغوفا بمفتي القدس السابق. فقد منحه حق اللجوء السياسي الى مصر ولكنه منعه من القيام بأي نشاط عام. كان تقدير "الريس" ان الزعيم الفلسطيني الهرم يرمز الى ماض ولى الى الابد، وانه على كل حال، افقد نفسه الاعتبار بتعاونه مع المانيا النازية. فكان يفضل عليه احمد الشقيري وهو محام محترف ومحدث لبق وخطيب مجيد، كما انه اكتسب فوق ذلك تجربة من الحياة الدولية بتمثيله العربية السعودية في الامم المتحدة.

وهكذا فقد جرى تكليف احمد الشقيري في شهر ايلول (سبتمر) ١٩٦٣، بالبحث عن وسائل تأكيد وجود "كيان فلسطيني" فكان عليه ان يتشاور مع الحكومات العربية لهذا الغرض، بهدف عقد مؤتمر فلسطيني يؤسس منظمة تمثيلية.

وما لبثت منظمة فتح ان اكتشفت المناورة وقدرت خطورة هذه المؤسسة التي تشكلها وتحركها وتشرف عليها الانظمة العربية، على الحركة الوطنية الفلسطينية. وقد سبق لنا، ياسر عرفات، وانا، ان عرفنا الشقيري جيدا في مطلع سنوات الخمسين في الفترة التي كنا نقود فيها اتحاد الطلاب الفلسطينيين. فقررنا الاتصال به لاقناعه بالتعاون معنا. وخلال محادثة اولى معه، في القاهرة، حاولت ان افسر له لماذا نعتقد ان منظمة تشكل "من فوق" ستكون منظمة غير فعالة اذا

لم تتمتع بدعم "القاعدة" الفعال. وعرضت عليه التنسيق السري بين نشاطاته العلنية وبين عمل نخوضه بصورة سرية. وبهذا تصبح منظمة التحرير الفلسطينية التي ستعهد اليه اول قمة عربية بتشكيلها في كانون الثاني (يناير) ضربا من الوكالة اليهودية -كما قلت له- ونوعا من الواجهة الشرعية للكفاح المسلح الذي يقوم به مناضلونا على ان يتم تأمين الاتصال بيننا وبين منظمة التحرير عبر بعض اطرنا (كوادرنا) ويستطيع الشقيري تعيين بعضنا في عضوية اللجنة التنفيذية للمنظمة.

اصغى الي احمد الشقيري ـ الذي لا يزال يجهل كل شيء عن فتح ـ بكثير من الانتباه والتعاطف كما بدا لي. ثم طلب مهلة للتفكير. وخلال جولته في العواصم العربية تحدث اليه بعض الرفاق المكلفين بذات المهمة المناطة بي، بلغة مماثلة. الا ان جوابه كان سلبيا. وابلغني ان وظائفه وعلاقاته مع الانظمة العربية وواجبه في عدم الاضرار باستراتيجية الجامعة، التي كان قوامها في تلك الحقبة، منع اسرائيل من تحويل مياه نهر الاردن لصالحها، تمنعه من عقد مثل هذا التحالف معنا. وبعد ذلك بعدة سنوات، اي بعد ان ابعد عن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، راح يبرر موقفه السلبي بالقاء المسؤولية على عبد الناصر وعلى قادة اخرين. والواقع هو ان تفسيراته المتأخرة ليست مقنعة. اذ لماذا كان عليه ان يستشعر الحاجة الى الحصول على موافقة رؤساء الدول العربية ما دمنا عرضنا عليه اقامة علاقات سرية بيننا؟! لكن الشقيري بدلا من ان يساعدنا كما وعد، فانه راح بعد ذلك يحاربنا بأقصى ما لديه من طاقة.

وقد دعي اول مؤتمر وطني فلسطيني الى الانعقاد في ٢٨ ايار (مايو) ١٩٦٤. فكانت المسألة المطروحة عليناحينذاك هي مسألة ما اذا كان ينبغي لنا ان نقاطعه ام لا. فطبيعة رعايته، وتركيبته والهدف الذي ينزع اليه وغير ذلك من العوامل، كانت تدفعنا الى التغيب عنه. غير ان اسبابا اخرى كانت على العكس من ذلك، تحث على مشاركتنا فيه: منها ضرورة عدم الانقطاع عن الحياة السياسية الفلسطينية، ومنها الضرورة الاخرى الاكثر الحاحا، الا وهي ضرورة التسرب الى داخل منظمة غنية وقوية، ولديها الكثير من الوسائل التي تتمتع بها. فقد كان يمكن فعلا ان تستخدم استخداماً مفيداً كواجهة لنشاطاتنا السرية. وهكذا فان عددا من رفاقنا (منهم ابو جهاد ومحمد النجار وكمال عدوان وخالد الحسن)

شاركوا في المؤتمر واستغلوا مشاركتهم للدفاع عن اطروحات فتح الرئيسية، ولا سيما اطروحة الكفاح المسلح. كنا نحاول ان نفتح طريق حرب العصابات التي كنا نعد لها اعدادا محموما بحسب وسائلنا المتواضعة. ولما كنا لا نتمتع بدعم مالي من قبل اية حكومة كانت، فاننا رحنا نشتري من سوق السلاح اسلحة خفيفة بكميات ضئيلة، ومن نوعيات سيئة الجودة، في غالب الاحيان. على ان اصعب مشكلة واجهناها، كانت مشكلة اعداد فدائيينا العتيدين، وهم اكثر من الف ممن نظمناهم في خلايا. كنا نستطيع عند الضرورة ان نشرك عسكريين قدامى ممن خدموا في مختلف الجيوش العربية او في القوات البريطانية اثناء الحرب العالمية الثانية. الا انه لا بد من تهيئة اماكن آمنة لاغراض التدريب.

كان النظام العربي الوحيد الذي يؤيدنا عام ١٩٦٤، هو نظام بن بيلا الذي رخص لنا باقامة ممثلية في الجزائر. غير ان بن بيلا، الذي كان وثيق الصلة بعبد الناصر، كان يرفض اعطاءنا اية معونة مادية. ولكننا تسلمنا اول شحنة من السلاح من الجزائر، عام ١٩٦٥، بعد تسلم بو مدين مقاليد السلطة، وعلى كل، فقد كان ذلك بفضل اللواء حافظ الاسد، رئيس الجمهورية السورية الحالي، الذي كانت لنا معه علاقات طيبة منذ عام ١٩٦٤.

كان الاسد في تلك الاثناء قائدا لسلاح الطيران. فكان يستلم الاسلحة المرسلة لنا بالطريق الجوي على سبيل الوديعة، ثم يسلمها لنا بدون علم حكومته و دون علم حزب البعث الذي ينتمي اليه. والواقع هو ان النظام السوري كان معاديا لنا. ولكننا كنا نتمتع بتواطؤ رجلين يشغلان مناصب حساسة: الاسد واللواء احمد السويداني رئيس الاستخبارات العسكرية الذي سيرقى فيما بعد الى منصب رئيس الاركان العامة. وهكذا فقد استطعنا ان نمتلك منذ مطلع عام ١٩٦٤، معسكرين للتدريب في سوريا. وفي موضع آخر، كان فدائيونا يقومون بتمارين على اطلاق النار في مناطق صحراوية، واحيانا في وسط بدوي. وكانوا حين يعوزهم ذلك، ينخرطون في جيش التحرير الفلسطيني الذي بدأ احمد الشقيري بتكوينه تحت اشراف منظمة التحرير الفلسطينية.

كان جيش التحرير الفلسطيني طعما وخديعة. اذ انه لم يكن مرصودا لمحاربة اسرائيل الامر الذي كانت كافة الانظمة العربية تتلافاه بأي ثمن -وانما لتحويل الفلسطينيين عن محاولة خوض كفاح مسلح مستقل. ولم تكن هذه الحسابات دون

اساس، وكان من واجبنا ان نحبطها، وكان لا بد لنا من البدء بالعمل بلا ابطاء. وهكذا فقد عقدت قيادة فتح اجتماعا في الكويت في بداية خريف عام ١٩٦٤، لمناقشة المسألة. فكانت المناقشة حامية بين ممثلي منحيين متباينين. فبعض رفاقنا ممن سنشير اليهم بعد ذلك باسم "المتعقلين" وقفوا ضد ما اعتبروه محاولة سابقة لاوانها بصورة خطيرة. وراحوا يؤكدون ان شن حرب العصابات، لا يزال امرا مبكرا للغاية خاصة واننا كنا قليلي او سيئي التجهيز، وان عدد مناضلينا لا يزال ضئيلا نسبيا. ثم خلصوا الى القول بأنه اولى بنا ان ننتظر الى ان تصبح فتح حركة جماهيرية تتمتع بقوات اساسية قبل ان نقذف بأنفسنا في مشروع قد يثير ضدنا مجمل العالم العربي.

وكنا بضعة اشخاص بينهم ــ ياسر عرفات وانا وابو جهاد ومحمد النجار وابو مازن وفاروق القدومي وخالد الحسن وسليم الزعنون ومحمد غنيم وسواهم نداقع عن وجهة النظر المقابلة تماما. قلنا ان الوضع ناضج بالنسبة للكفاح المسلح، فالجماهير الفلسطينية لم تسممها بعد ديماغوجية الشقيري ولن تلبث ان تتأثر وتؤخذ بجديتنا وعزمنا على العمل. وقلنا ان فتح ستنمو وتتطور الى حركة جماهيرية، بممارسة الكفاح المسلح وليس عبر السياق المعاكس. فكان ان استحققنا بسبب هذه الاطروحة التي اعتبرت متهورة وصف "المغامرين".

وقد دفعنا المأزق الذي افضينا اليه، الى عقد اجتماع موسع في دمشق في تشرين اول ١٩٦٤، لكوادر فتح القيادية في البلدان المحاذية لاسرائيل وخاصة لاطر الضفة الغربية وغزة، اي تحديداً، الاراضي التي ستنطلق منها اولى غارات الفدائيين. فانقسم الاجتماع وفقا للشرخ نفسه الذي حدث في الكويت، ولكن نقاشات طويلة افضت هذه المرة الى موقف اجماعي على مشروع "المغامرين" وبعد ذلك بأيام جرى توقيت ميعاد اول عملية عسكرية ضد اسرائيل، فكان يوم ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٦٤.

وفي هذا اليوم ستعبر مجموعات من المغاوير المكونة في الضفة الغربية وغزة ولبنان، الحدود الاسرائيلية سرا لتقوم بغارات على عدة مواضع ضد اهداف عسكرية واقتصادية، ولا سيما ضد المنشآت المرصودة لتحويل مياه الاردن الى الدولة اليهودية. غير انه جرى توقيف فريق غزة بالكامل من قبل دوائر الامن المصرية قبل موعد العملية بأسبوع . فالواقع هو ان عميلين ناصريين افلحا في

التسرب الى داخل الفريق. بيد ان المحافظة على السر تمت بصورة افضل في الضفة الغربية ولبنان، حيث تمكن فدائيونا من انجاز مهماتهم ـ وقاموا بحوالي عشر عمليات ـ بنجاح.

ولم يوقعوا خسائر هامة بالعدو، فذلك لم يكن على اية حال هدفنا الاساسي. كنا نسعى الى اخراج عمل صارخ منذهل يصعق مخيلة الاسرائيليين الذين كنا نريد ان نبلغهم وندلل لهم على وجودنا كفلسطينيين يسعون الى تدعيم ارادة الصراع بصورة مستقلة استقلالا ذاتيا عن الانظمة العربية التي تقذفنا في وجهها هذا التحدي، واخيرا تدعيمها امام الرأي العام العالمي الذي كان يجهل او يتجاهل قدر ومصير شعبنا.

تم تحضير عملية ٣١ كانون الاول ١٩٦٤ بصورة دقيقة وعلى مدى اكثر من شهرين. واعطينا الفدائيين امرا، بين جملة ما اعطيناهم من اوامر، بألا يحدثوا خسائر في ارواح السكان المدنيين الاسرائيليين كائنا ما كانت الذريعة فقد كانت تلك هي ارادتنا في البدء. الا ان اسلوب السلطات الاسرائيلية اضطرنا بعد ذلك، لسوء الحظ، ان نخالف القاعدة التي اقمناها. فالغارات الانتقامية الاسرائيلية، توقع بصورة عامة العديد من الضحايا بين الفلسطينيين وخاصة عندما تدك مخيمات اللاجئين بصورة همجية عمياء. فمن الطبيعي ان نرد نحن بصورة مطابقة، لردع العدو عن مواصلة المجزرة ضد الابرياء. فالعقيدة الصهيونية ذات الجوهر العنصري معروفة تماما فهي تقوم على تبرير ابادة عشرات بل مئات الفلسطينيين واحيانا على تدمير مناطق بكاملها تدميرا تاما، رداً على موت اسرائيلي واحد.

وبطبيعة الحال، فان سلطات تل ابيب فوجئت بعمليتنا التي تمت في ٣١ كانون الاول. كنت يومها في مهمة مراقبة في بيروت فرحت اصغى بدون انقطاع الى الاذاعة الاسرائيلية التي كانت تذيع بلاغات مشوبة بالتشوش. كانت البيانات تنسب غارات الفدائيين الى منظمات بأسماء نجهلها بالكامل. وقد وعى المسؤولون الصهاينة طبيعة وابعاد المشروع بعد ان نشرنا بلاغنا العسكري الاول في اول كانون الثاني (يناير) موقعا باسم "العاصفة" لاننا كنا لا نعرف مقدما، ما اذا كان مشروعنا سينجح ام لا. ولما كنا لا نريد توريط فتح، فقد اخترنا اسم العاصفة كاجراء احترازي. ولن نشير الى ان العاصفة ليست سوى الجناح العسكري

من حركتنا الا بعد ذلك بكثير.

اما بالنسبة لوسائل الاعلام العربية، فقد اصابنا منها، بعد بضعة ايام من الصمت المذهل، سيل من القدح والسباب. فنحن بالنسبة لمصر لا يمكن ان نكون الا اخوانا مسلمين متعصبين من عملاء الاستعمار. فصحيفة الانوار اليومية الموالية للناصرية، والتي تصدر في بيروت خصصت صدر صفحتها الاولى لعنوان يوحي بأننا عملاء لوكالة المخابرات المركزية الامريكية (السي‌آي‌آي). اما السعوديون فكان رأيهم اننا عملاء للشيوعية الدولية. واما الاردنيون من جهتهم فصنفونا في خانة معسكر الثوريين العروبيين.

لا بل ان وطنيين فلسطينيين لا ينتمون لفتح، لم يعفوا عنا هم ايضا. فقد انتقدنا وطنيون من امثال غسان كنفاني ـ الذي سيغتاله الاسرائيليون عام ١٩٧٢ ـ بمقالات ملتهبة نشرت في صحيفة المحرر اليومية. وقد اجبت على مقالاتهم على اعمدة الصحيفة ذاتها، باسم مستعار. اما احمد الشقيري فراح يندد بنا باسم منظمة التحرير الفلسطينية كاعداء لحركة التحرير الفلسطينية. ثم ما لبث ان واظب على مهمة انشاء منظمات وهمية حتى لا تنفرد "فتح" في الساحة وحدها.

والحقيقة هي ان احمد الشقيري لم يكن سوى اداة للجامعة العربية التي كانت تسعى لتدميرنا، فالفريق المصري علي علي عامر، الذي كان يشغل في تلك الحقبة منصب قائد القوات العربية الموحدة، وجه مذكرة الى كافة الحكومات العربية طالبا اليها قمع نشاطاتنا بشدة لعدم "أعطاء اسرائيل ذريعة لمهاجمة البلدان العربية". فكان ان اغتنم الاردن ولبنان ذلك، ليمنعا الصحافة حتى من ذكر اسم العاصفة. بحيث ان بعض الصحف التي حظر عليها نشر بلاغاتنا، كانت تلتف على حظر الرقابة، بأن تنقل تصريحات الناطقين الاسرائيليين الذين كانوا يشيرون الى العاصفة وصنائعها.

وفي ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ نشرنا اول بيان سياسي مهرناه باسم العاصفة واعلنا فيه ارتباطنا وتعلقنا بالامة العربية ونضالاتها. ولكننا وجهنا اليها نداء ندعوها فيه الى دعمنا في كفاحنا المسلح الذي شرعنا به لوضع حد للامر الواقع الاسرائيلي . ثم خلصنا الى القول "بأننا لن نضع السلاح طالما لم تتحرر

فلسطين ولم تحتل المكانة التي تستحقها في قلب الامة العربية".

لكن الانظمة العربية اصمت آذانها عن هذا النداء، مكثفة في الآن ذاته حملة القمع.

غير اننا كنا مبتهجين لان بلدين على الاقل، كانا يشذان عن هذه القاعدة ففي الكويت تبنت دوائر الامن ازاءنا موقفا محايدا، وفقا لتقاليدها في الحكمة والتسامح، وكذلك بسبب تعاطفها مع حركة تحرر لا تهدد سلطة واستقرار النظام القائم. اما في سوريا فكان الوضع اكثر تعقيدا. فالحكومة السورية وحزب البعث كانا يعتبراننا "انفصاليين" وذلك بالقدر الذي كنا لا نشاطرهم فيه تصوراتهم العروبية، ولكن عددا من المناضلين البعثيين كانوا يقدمون لنا المساعدة، تقديرا منهم بأن كفاحنا هو على كل حال، اهل للدعم.

غير ان سلطات دمشق عمدت، بدون ان تحاربنا، الى مناورات مختلفة لاحتوائنا بل وللسيطرة علينا. فراحت تعمل بالاتفاق مع مناوئينا "المتعقلين" داخل قيادة فتح"، محاولة التسرب الى منظمتنا والسيطرة عليها بادخال عناصر مؤيدة لها، الى داخلها. كانت هذه حالة يوسف العرابي ومحمد حشمت، وكلاهما فلسطينيان ذوي نزعة بعثية واعداد عسكري، تطوعا في صفوف العاصفة. كنا نعتبرهما كمقاتلين مخلصين لقضيتنا، الى ان قتلا في نهاية شهر شباط -فبراير ١٩٦٦ برصاصات مسدس ولم يتضح لنا حتى اليوم كيف قتلا؟

وما لبثت السلطات البعثية ان ارتابت في ان نكون قمنا بتصفيتهما. وهكذا فقد جرى توقيف قادة فتح الذين كانوا موجودين في دمشق حينها ـ ياسر عرفات، ابو جهاد، ابو علي اياد، وابو صبري، وكذلك سبعة اعضاء آخرين اقل اهمية ـ وجرموا بالاغتيال.

وعلى الفور غادرنا، فاروق القدومي ومحمد يوسف النجار وانا، الكويت متجهين الى دمشق بغرض تأمين الافراج عن رفاقنا. وهناك راح العقيد صلاح جديد، الرجل القوي في النظام الذي كان قد اقامه لتوه بعد ان اقصى الشريحة "اليمينية" في البعث، يصغي الينا بكثير من الادب والمجاملة. وبعد محادثة طويلة فهمنا ان القضية بين يدي حافظ الاسد الذي تمت ترقيته منذ فترة بسيطة الى منصب وزير الدفاع ، فبدت لنا محاولتنا وكأنها بدأت بداية حسنة. فمع اني

لم التق بالاسد مطلقا، الا اني كنت اعرف العلاقات الوثيقة التي اقامها منذ سنتين مع ياسر عرفات وابي جهاد. وقلت في نفسي اننا لن نجد مشقة في اقناعه ببراءتهم لا سيما وانهم اضربوا عن الطعام منذ ما يقرب الشهر وان حياتهم في خطر.

وكانت اول مفاجأة هي ان حافظ الاسد جعلنا ننتظر ثلاثة ايام قبل ان يحدد لنا موعدا، وكان موضوع الاستغراب الثاني الذي زاد من قلقنا هو انه تلقانا قرب عتبة مكتبه بوزارة الدفاع وهو يسألنا بجفاء عما نريد. ثم قاطع العرض الذي كنت اقدمه له ليبلغني بأن رفاقنا المسجونين مذنبون وان شيئا او احدا لا يستطيع ان يقنعه بالعكس. فنشب بيننا جدال عنيف. وعندما بلغ مني الحنق مداه، قلت له "ان موقفكم يؤكد شكوكنا بأنكم تسعون في الواقع الى خنق الكفاح المسلح الذي بدأناه، في المهد. وعلى اي حال فانا اشكركم على استقبالكم، ولكن فلتعلموا انكم تتحملون امام التاريخ المسؤولية في انكم وجهتم ضربة شديدة الى حركة التحرير الفلسطينية.

وسكت حافظ الاسد، ثم بعد لحظة تأمل، دعانا في اللحظة التي كنا نتظاهر فيها باننا نهم بالانسحاب، للدخول الى مكتبه ودار نقاش دام اكثر من ثلاث ساعات. وطرح علينا الف سؤال حول فتح وايديولوجيتها واهدافها ثم وبخاصة حول عرفات (الذي كان يعرف حينها باسمه القتالي رؤوف) الذي كانت شخصيته تحيره. مع ان ياسر لم يكن مجهولا بالنسبة للسلطات السورية فقد اوقفته سلطات دمشق في نهاية عام ١٩٦٥، لاشتباهها بضلوعه في تخريب خط انابيب التابلاين، ثم افرجت عنه بعد ذلك ببضعة ايام لعدم توفر ادلة ضده.

وخلص حافظ الاسد الى القول وهو ظاهر الرضى: اذهبوا لتوكم الى سجن المزة، فسوف تغادرونه مصحوبين برفاقكم المسجونين وسأعطي الاوامر اللازمة للافراج عنهم" وقد وفى بوعده فيما يتعلق بعشرة من المتهمين. اما الحادي عشر، وهو مناضل بسيط من فتح فلا يزال الى اليوم في السجن برغم انه بريء من التهمة الموجهة اليه.

واتخذت قيادة فتح قرارا "بتجميد" نشاطات الاشخاص المفرج عنهم كبادرة حسن نية ازاء السلطات السورية ، وتكفيرا عن الاخطاء التي ارتكبوها الا ان

عرفات لم يكن يحتمل هذا الامر الذي شعر به حينها وكأنه عقاب. فهو بطبيعته لا يستطيع ان يظل ساكنا، فكان ان عرض علينا الصفقة التالية: مقابل الغاء الاجراء المتخذ بحقه فانه سيقوم بعملية هامة في اسرائيل، قد تكلفه حياته اذا ما فشلت، ولكنها ستكون مفيدة للحركة افادة خاصة، اذا ما تكللت بالنجاح، فقبلنا عرضه.

وعلى هذا فانه انطلق مع مجموعة من الفدائيين باتجاه الحدود اللبنانية الاسرائيلية. غير ان دوائر الامن في بيروت، اعترضته لسوء حظه، وراح اثنان من ضباط المكتب الثاني يتبادلان استجوابه. فكان احدهما، وهو سامي الخطيب، الذي اصبح فيما بعد قائداً لقوات الردع العربية، يحاول ان يتحرى عن هوية رفيقنا الذي ارتاب في انتمائه الى مخابرات عبد الناصر. غير ان عرفات الذي يتقن اللهجة المصرية لم يحاول تبديد هذا الخطأ. ولكنه في النهاية كشف اسمه الحقيقي بدون ان يشير الى كونه عضوا في اللجنة المركزية لحركة فتح وقائدا لقوات العاصفة. بيد ان الشكوك التي تحوم حوله بدت وكأنها تتأكد حين تدخل المكتب الثاني السوري بناء لطلبنا، لصالحه، ذلك ان السلطات اللبنانية لم تكن تجهل بأن ثمة تعاونا وثيقا في تلك الحقبة كان يربط دوائر الاستخبارات المصرية والسورية. اما نحن، فاننا ابلغنا من جهتنا حكومة بيروت، بأننا سنقوم، اذا لم يجر الافراج عن عرفات ورفاقه، بسلسلة عمليات في لبنان على سبيل الانتقام. وتحت التأثير المزدوج لهذا التهديد ولضغوط دمشق، فان مسؤولي بيروت اطلقوا سراح عرفات وبقية الفدائيين من سجن الرمل بعد ثلاثة اسابيع من الحبس.

كان من الواضح اننا لن نستطيع مواصلة مهمتنا، الا اذا اعدنا العلاقات مع الانظمة العربية الى طبيعتها. فاتخذنا عدة اجراءات تهدف الى تطمين الحكومة السورية وكلفنا ياسر عرفات وفاروق القدومي باجراء اتصالات مع السلطات المصرية التي كنا نعرف بالتجربة ان لها تأثيرا حاسما على عدد من البلدان الاخرى في المنطقة.

وتلقى رئيس المخابرات المصرية صلاح نصر، مندوبينا المطلقي الصلاحية في ظروف غريبة للغاية. فقد بدأ باصدار اوامره بحضورهم، بالهاتف، لكي تحجز لهم مقصورة فاخرة في فندق عمر الخيام الذي كان حينذاك احد افخم المؤسسات الفندقية في العاصمة المصرية . ثم طلب بعد ذلك الى معاونيه ان يضعوا انفسهم

بتصرف ضيوفه وان يزودوهم بما يشاؤون ثم اضاف موضحا، "بما في ذلك اجمل نساء القاهرة".

كان صلاح نصر الذي سيوقفه عبد الناصر ويحاكمه غداة هزيمة يونيو ـ حزيران ١٩٦٧ بتهمة الفساد والتآمر ضد امن الدولة ـ يتصرف عامة على هذا النحو مع من يحاول افسادهم. غير ان سلوكه صدم رفيقينا الى اقصى الحدود. فكان ان رد عليه فاروق القدومي بجفاء. فظ قائلا: اننا ممثلو حركة ثورية يربط بها مصير شعب بكامله. لذلك فانك لن تفلح في اقامة علاقات معنا اذا كنت تسعى الى تأسيس هذه العلاقات باسلوب الحظوة والغانيات.

وتفاجأ صلاح نصر بادىء الامر، ثم عاد فتمالك نفسه واكد انه لم يقصد ذلك مطلقا. كان يريد ان يعرف فقط ومقدما، ما هي حركتنا بالضبط وكيف تعمل... وكم تضم. وفي اية بلدان تتواجد... ومن اين نستمد مواردنا المالية وكيف نشتري اسلحتنا... وهل بالامكان اخيرا، معرفة اسماء الاشخاص الذين يشكلون قيادة فتح.

وقد ادهشت اسئلته ياسر عرفات وفاروق القدومي، ولكنهما بطبيعة الحال رفضا الاجابة على اي سؤال من هذه الاسئلة وبات من البديهي انه لا طائل في مواصلة الحديث مع رجل يتصرف بعقل بوليسي، في حين انهما كانا يعتقدان ان باستطاعتهما التفاوض على تعاون سياسي. وعلى ذلك فان رفيقينا عادا من القاهرة بخيبة امل عميقة واشمئزاز.

وبعد ذلك ببضعة اشهر، اي في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ او كانون الاول ديسمبر ١٩٦٦ على ما اعتقد، قررنا القيام بمحاولة جديدة لاقامة علاقات مع النظام الناصري، ولكن على اسس خاصة محددة. فعرضنا على وزير الدفاع المصري شمس بدران (الذي سجن هو ايضا بعد حرب ١٩٦٧) ان يساعدنا في تشكيل خلايا فدائية في النقب تكون مهمتها انهاك الجيش الاسرائيلي في زمن السلم، وكذلك في حالة اندلاع الحرب بين مصر والدولة اليهودية، على ان نتكفل نحن من جهتنا بوضع ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فدائي في القسم الصحراوي من النقب بينما يقدم لهم المصريون دعما لوجستيكيا (اي لجهة نقلهم وايوائهم وتغذيتهم).

كان شمس بدران يصغي بصمت المتعجرف المتعاظم . ثـم اعلن لنا بشيء من

السخرية بأن مشروعنا "مثير للاهتمام بالتأكيد" ولكنه لا يرى كيف يسعه الاشتراك فيه دون ان يعرف مقدما ما هي فتح ومن هم قادتها. كانت عقليته لا تختلف بشيء عن عقلية محدثنا السابق رئيس المخابرات. وقد اقتضى الامر ان تحدث هزيمة الجيش المصري في حزيران ١٩٦٧، وان تجري عملية تطهير النظام التي تلت ذلك، لكي نستطيع اخيرا ان نمد جسرا بين الحركة الفلسطينية وبين اقوى الدول العربية.

وبرغم ضآلة الدعم الخارجي الذي كنا نتمتع به، فان فتح زادت من جاهزيتها وتماسكها، فغداة عملية ٣١ كانون الاول ـ ديسمبر ـ ١٩٦٤ زاد مناوئو الكفاح المسلح داخل القيادة أي "المتعقلون" من ضغوطهم بغرض تحييد "المغامرين" كما كانوا يصفوننا. فاستخدموا كافة الوسائل للبرهنة على ان مشروعنا قد اضر بالحركة. فاذا اتهمتنا الصحافة بأننا عملاء وكالة الاستخبارات المركزية، (السي آي اي). فاننا اذا لم نعد الرأي العام بشكل لحرب العصابات التي بدأنا بشنها في رأيهم، ولم نجند عسكريين محترفين... وان الانظمة العربية تحمل علينا وتشنع. ان في ذلك دليلاً على ان مشروعنا سابق لاوانه.

كان الجدال في اوجه حين اسقط مناوئونا اقنعتهم وكشفوها بمناسبة اتهام ياسر عرفات وصحبه بقتل ضابطي العاصفة فقد ارتكب "المتعقلون" خطأ التحلل من رفاقنا المسجونين. ثم ان الافراج عن هؤلاء الاخرين مبرئين من كل اتهام، اعلن نهاية رفاقنا هؤلاء الذين لم يلبثوا بعد ذلك بقليل ان انسحبوا من قيادة فتح التي عادت متجانسة.

ومنذ ذلك الحين، بتنا قادرين على مواصلة وتطوير حرب العصابات ومن عام ١٩٦٥ حتى عشية حرب الايام الستة، قام فدائيونا بحوالي مائتي غارة تقريبا. ولا ريب في ان معظمها جاء على نطاق متواضع بحيث انه لم يكن يعرض امن واستقرار الدولة الصهيونية للخطر، ولكن هذه العمليات ساهمت في زيادة التوتر بين اسرائيل والبلدان العربية التي كانت اسرائيل -ويا لسخرية القدر- تتهمها بتشجيع ودعم الحركة الفدائية؟

وفي الخامس من حزيران يونيه ١٩٦٧، علمت من الاذاعة بأن اسرائيل شنت هجمة جوية صاعقة ضد مصر . كانت العطل المدرسية قد بدأت فغادرت الكويت

في اليوم ذاته الى دمشق. وانتهت بذلك مرحلة من حياتي كمناضل ذلك انني سأصبح منذ ذلك الحين، ما يدعى "بالثوري المتفرغ" فالحرب التي بدأت لتوها، ستسجل كذلك منعطفا رئيسيا في تاريخ الحركة الفلسطينية.

الفصل الرابع

المـــد

كانت السيارة الصغيرة التي تكدسنا فيها خمستنا، تسير بأقصى سرعتها في الطريق من الكويت الى بغداد. وقد اخترنا هذا الانعطاف الى الشمال لتلافي الطريق التي سارت فيها ارتال الجيش الاسرائيلي المدرعة المتجهة نحو الجنوب اي نحو الاردن. ولم نكن نبالي ببهاء الصحراء العاري وهي تمتد على مرمى النظر ولا بالحرارة الخانقة المنبعثة من اشعة الشمس ولا بضوء النهار الذي يعمي الابصار ولا بالظلمة الداكنة الباردة التي تحيط بنا في الليل. فقد كانت ثمة فكرة واحدة تستحوذ علينا وهي الوصول بأسرع ما يمكن الى دمشق، حيث ياسر عرفات وابو جهاد وابو علي اياد وابو صبري، اي "متفرغو" قيادة فتح. كان علينا ان نجتمع لنحدد السلوك الذي ينبغي لنا اتباعه على ضوء الحرب التي اندلعت لتوها في ٥ حزيران ـ يونيه ـ ١٩٦٧.

كانت الطريق طويلة وصعبة بحيث اننا تهنا في الرمال اكثر من مرة وكنا نتعاقب على القيادة ليلا نهارا، لكن عقلنا كان في مكان اخر. وكنا أصحابي الاربعة ـ وهم كوادر في الحركة ـ وانا، نصغي الى الاذاعة دون انقطاع. وقد حيرنا التفاوت في نشرات الاخبار، بالصورة التي كانت تبث بها من القاهرة وتل ابيب ولندن في بادىء الامر، ذلك اننا كنا نثق بقدرة وقوة الجيش المصري. فتصلب عبد الناصر في المواقف التي اتخذها في الاسابيع التي سبقت الحرب، وخطبه المتلهبة والتحديات التي قام بها خاصة حين اقفل خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية، يجعل المرء يعتقد، ليس بأن "الريس" لا يخشى المواجهة وحسب، بل انه يتمناها. غير ان الريبة بدأت تتسرب منذ الساعات الاولى من النزاع. والروايات المتباينة عن تطور المعارك، بدأت تصير صريحة التناقض، ولم تلبث اخبار اذاعة القاهرة المتناقضة مع لهجة تل ابيب المتوازنة المصبوغة بصبغة الثقة والاطمئنان، ان زادت في اضطرابنا. ولم يكن سير المعارك على الجبهات الثلاث المصرية والسورية والاردنية يسير ببديهة الحال، لصالحنا. وقلنا في انفسنا: اين الحقيقة؟ فالحرب لا تزال في بداياتها، ولم يتح للعالم العربي بعد ان يعبىء موارده كلها. ووصلنا الى مقصدنا في مساء السادس من حزيران متأخرين عشر ساعات عن الاجل المضروب. وبالرغم من اني كنت منهكا، الا انني ذهبت على الفور الى مكتب فتح حيث علمت انه لم يبق في دمشق اي عضو من رفاقنا اعضاء القيادة . فقد التحقوا بقاعدة الهامـــة التي قدمتها لنا السلطات السورية

لتدريب حوالي ٤٠٠ او ٥٠٠ فدائي. غير ان معظم هؤلاء قد تسربوا بقيادة ياسر عرفات وراء خطوط العدو حيث كانوا يحاولون اعاقة تقدم القوات الاسرائيلية. وخلال اليومين التاليين، بدا ان النكسات التي لحقت بالجيوش العربية امر لا ريب فيه، شأنها في ذلك شأن الهزيمة المحتملة. على اني كنت اتوقع كل شيء، الا الهزيمة المذلة التي اعلنها عبد الناصر في الكلمة التي اذاعها يوم ٩ حزيران ـ يونيه. ولا احسب اني حزنت عليه في اي يوم بقدر ما حزنت في ذلك اليوم. واذا فان الامر العجب كان امرا حقا: والطائرات المصرية دمرت على الارض في الساعات الاولى من النزاع، ومشاة الجيش تشتتوا في سيناء، والجيش الصهيوني يعسكر على طول قنال السويس. وعبد الناصر يستسلم! من كان سيتخيل ذلك. واذا فان زعيم الامة العربية العظيم، رجل القدر، ذاك الذي سيساعدنا على تحرير جزء على الاقل من وطننا المحتل، قد القى بنفسه في مغامرة دون ان يعد لها الحد الادنى من الاعداد. كانت المرارة تختلط بالغضب. والجيوش العربية، كل الجيوش العربية، لم تكن قادرة على ان تصد الجيش الاسرائيلي الصغير. بل الامر اسوأ من ذلك، فقد تخلت عن المزيد من الاراضي للصهاينة.

وبلغ الاندحار الذي احسسنا به، رفاقي وانا، بعد ان كان ياسر عرفات والقادة الاخرون قد عادوا مسرعين الى دمشق، ذروته بعد ان سمعنا عبد الناصر يعلن استقالته في نهاية خطابه في ٩ حزيران. فشعرنا بأننا تلقينا هزيمة مزدوجة، عسكرية وسياسية. واقول هزيمة سياسية لان سقوط عبد الناصر كان يعني بالنسبة الينا نهاية كل امل. اذ ان "الريس" يبقى برغم كل شيء، رمزا لرفض الامر الواقع وللمقاومة التي يجب في نظرنا ان يشتعل فتيلها.

ولم يكن رد الفعل هذا خاصا بنا وحدنا. فقد اندلعت مظاهرات كثيفة عفوية مؤثرة من اقصى العالم العربي الى اقصاه. كانت الجموع تعبر عن المها بالعويل مطالبة في الحين نفسه، الرجل الذي قادها الى الهزيمة ان يبقى في مقر قيادته. فالفرح العارم الذي تلقى به الاسرائيليون استقالة عبد الناصر اقنعنا بأن علينا ان نؤيده في المحنة. وخلال ساعات، استحال الحقد الذي كنا نشعر به ازاء "الريس" الى تحدي. ثم ان ارادتنا في المقاومة الى جانبه تعززت في الايام التالية عندما ادركنا الى اي حد كانت البرجوازيات والانظمة الرجعية تشارك الاسرائيليين فرحتهم ازاء انهيار النظام الناصري.

وما ان سحب عبد الناصر استقالته حتى انعقد مؤتمر لفتح في دمشق في ١٢ حزيران ـ يونيه، لمناقشة جدوى وملاءمة استئناف الكفاح المسلح. وانقسم المجتمعون ـ مثلما فعلوا في خريف عام ١٩٦٤ يوم كان علينا ان نقرر الشروع بحرب العصابات ـ الى معسكرين بين انصار ومناوئي العمل الفوري. وكنا نحاول يوما بعد يوم واجتماعا بعد اجتماع، ان نجيب على المسائل الملحة المطروحة: فهل سنواجه المنتصرين بالسلاح. وهل لدينا ادنى حظ او فرصة لاحباط قدرة اسرائيل العسكرية. اولا نخاطر باستثارة انتقامات رهيبة توقع على اهالي الضفة الغربية. واذا كنا سنمتنع عن القيام بأي عمل، افلا تلحقنا الجماهير الفلسطينية بالمهزومين وتحتقرنا احتقارها لهم. كان كلا الترأيين الماثلين امامنا، يشتملان على مخاطر جسيمة بالنسبة لمستقبلنا. وقد افضت مناقشاتنا التي دارت في جو محموم شبيه بذلك الذي كان سائدا في خريف عام ١٩٦٤، الى سلسلة من الاجراءات الرئيسية:

١-جرى تعيين عدد من الاطر والكوادر العليا منهم محمد النجار وعبد الفتاح حمود وانا، ليصبحوا متفرغين بالكامل لمهمة تنظيم الحركة في المرحلة الجديدة التي بدأت.

٢-جرى توجيه نداء الى كافة المناضلين لجمع السلاح الذي تركته الجيوش العربية في ساحات المعركة او في مخازن السلاح. وبموازاة ذلك، فانه سيباشر بشراء السلاح وبكافة الوسائل من الاسواق المحلية او الدولية بواسطة المتاجرين به والمهربين الخ.

٣-جرى شن حملة جمع تبرعات وخاصة بين الاثرياء من فلسطينيي المنفى وتلقى محمد النجار وكمال عدوان وابو مازن وخالد الحسن الاشارة بدق النفير لاصدقائنا والمتعاطفين معنا. كما تم تكليف اخرين بالتماس المعونة من البلدان النفطية. فالواقع هو اننا لم نعد نخشى من فقدان استقلاليتنا المالية الذاتية، التي دافعنا عنها حتى الان دفاعا حريصاً. فقد كان تقديرنا هو ان الوضع المأساوي الذي يجد عدد من الانظمة العربية نفسه فيه، لا يسمح لهذه الانظمة بأن تضع شروطا سياسية على المعونة التي تقدمها لنا.

٤-اجيز لعدد من الاطر، على رأسهم ياسر عرفات: بأن يذهبوا الى الاراضي المحتلة ـ في الضفة الغربية وغزة ـ خلسة لتدعيم وتوسيع جهاز فتح السري

بهدف استئناف الاعمال الفدائية. على ان المناضلين الذين اختيروا لهذه المهمة التي تفوق كافة المهمات في دقتها، كانوا من ابناء الاراضي المحتلة بحيث يستطيعون التنقل هناك تنقل "السمك في الماء".

٥-اتخذ عدد من التدابير لاقامة قواعد فدائية على طول خطوط وقف اطلاق النار وعلى طول نهر الاردن وفي جنوب لبنان خاصة.

٦-ارسلت وفود الى اربعة بلدان عربية هي مصر وسوريا والعراق والجزائر بهدف اجراء مشاورات معها حول استئناف الاعمال الفدائية الفلسطينية.

وحدد المشتركون بمؤتمر ١٢ حزيران -يونيه- لانفسهم مهلة شهرين لانجاز هذه المهمات الست، ثم تتم الدعوة بعد ذلك لمؤتمر جديد بهدف اتخاذ قرار نهائي بصدد البدء في العمليات. وقد تم بلوغ الاهداف التي رسمناها لانفسنا تماما، كما انها تجاوزت بعض الاحيان ما كنا نأمل به. فتراخي سلطة الدولة في "بلدان المواجهة" سهل علينا الاستيلاء على مخزونات هامة من السلاح راكمناها في ترساناتنا. والتبرعات النقدية التي جمعناها من الاثرياء الفلسطينيين كانت عديدة وسخية وان ظلت غير كافية بالنظر الى حاجاتنا.

وقد اظهر الملك فيصل لدى استقباله لابي جهاد في جنيف حسن الاستعداد ازاءنا. فهو على معرفة بوجود فتح منذ مطلع سنوات الستين، عبر زكي اليماني وزير النفط، الذي كانت تربطه علاقات صداقة مع احد اعضاء منظمتنا. وقد طمأن ابو جهاد العاهل السعودي الى ان فتح لا ترتبط بأي حزب وان مبدأها هو عدم التدخل بالشؤون الداخلية للبلدان العربية. واما الملك فيصل فانه اشار من جانبه الى انه يؤيد وجهات نظر والده الملك السابق عبد العزيز الذي كان يعتبر ان تحرير فلسطين لا يمكن ان يتم الا على ايدي ابنائها، وهي قناعة ادت به الى عدم الموافقة على تدخل الجيوش العربية عام ١٩٤٨. اذا فان العاهل السعودي كان يؤيد حصول الفلسطينيين على الوسائل المالية وغير المالية اللازمة لهم لمواصلة كفاحهم.

اما الاتصال بالقادة الليبيين فكان اقل يسرا نسبيا. فقد ذهبنا _ فاروق القدومي وانا _ الى البيضاء، حيث يقيم الملك السنوسي. ولكن العاهل العجوز الذي لا يستقبل الزوار الاجانب الا نادرا ، احالنا على رئيس وزرائه عبد الحميد

بكوش الذي تلقانا بعداء فظ. فقبل ان ندخل مكتبه، وقبل ان يدعونا الى الجلوس، راح يقول لنا بخشونة بأنه يرتاب بنا بقدر ما يرتاب بحركتنا، وانه لا يؤمن بجدية الثورة التي نريد خوضها وان هذه الثورة لن تؤدي على كل حال، الى اي شيء ذي قيمة. ثم اضاف: "واذا كنت استقبلكم اليوم فلأنه لا يسعني ان أفعل غير ذلك، لانكم تتمتعون بتعاطف شعبي واسع فالليبيون لسوء الحظ شعب من الحمقى...".

واجبته: "شعب من الحمقى. حسنا ايها السيد الرئيس اننا ذاهبون لتونا لننيع في الناس هذا الحكم الغريب الذي تصدرونه على شعبكم. فانا لم اعد ارى فائدة في الشروع في حوار معكم".

واما فاروق القدومي وقد صدم بمثل ما صدمت، فانه استطرد يقول بلهجة احد: انكم لا تفهمون شيئا عن قضيتنا، وتحتقرون شعبكم رغم انكم كنتم ابان سنواتكم الجامعية مناضلا شيوعيا. ان الرأي العام لا يجهل انكم غطستم في صفقات سلاح مريبة. ان شعبكم سيحاكمكم ذات يوم...".

اصبح عبد الحميد بكوش مضطربا وقلقا، فغير لفوره لهجته وحديثه. ثم دعانا بلطف الى الجلوس والى شرب فنجان قهوة بصحبته. وقال اننا أسأنا فهمه. فهو يدعم الثورة الفلسطينية بكل تأكيد، وهو يقر بالمبدأ ويريد استقبالنا مرة أخرى ولكن في مكتبه في طرابلس هذه المرة؟

كانت المهلة مواتية لنا لنشن حملة جمع تبرعات مع "اللجنة الشعبية" التي كان ممثلونا قد شكلوها في كل انحاء البلاد ابتداء من مطلع سنوات الستين. كان لدينا الكثير من المتعاطفين ولا سيما من اثرياء التجار الذين طالما ساعدونا بكرم وسخاء. وقد اعدت لنا لجنة مدينة بنغازي استقبالا حارا على نحو خاص. وعلى اثر اجتماع عقد على شرفنا، اعلن لنا رئيس المجموعة انه تم جمع مبلغ عشرة آلاف دينار وانه يتمنى ان يقسمه مناصفة بين فتح والعاصفة. كان يجهل ــ شأن كافة الناس ــ ان هاتين المنظمتين ليستا سوى منظمة واحدة. فشكرته ثم اشرت له بأقصى ما يمكن من جد، الى ان فاروق القدومي ينتمي الى العاصفة، في حين انني امثل من جهتي منظمة فتح.

وبعد ذلك بأيام استقبلنا رئيس الوزراء في طرابلس ، في جو مختلف بالكامل

عن جو لقائنا السابق في الدار البيضاء. كان عبد الحميد بكوش ودودا حار النبرة لا يتردد امام كل ما نطلبه منه. وغادرنا ليبيا نحمل في جيوبنا نحوا من ثلاثين الف دينار، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لماليتنا في ذلك الحين.

وفي حوارنا مع رئيس الوزراء الليبي تجنبنا اثارة مسألة استئناف الكفاح المسلح. فقد كنا لا نريد إخافته كما كان من السابق لاوانه من جهة ثانية ان نتحدث عن ذلك، لاننا لم نفرغ بعد من مشاوراتنا مع البلدان العربية الاخرى.

وقد ايد بلدان من هذه البلدان بدون تحفظ شن الاعمال الفدائية الفلسطينية فورا. وهذان البلدان هما الجزائر، بطبيعة الحال، وبسبب تجربتها الخاصة ابان حرب الاستقلال، ومصر.

صحيح ان عبد الناصر امتنع عن استقبال موفدينا المطلقي الصلاحية فاروق القدومي وخالد الحسن، الا انهما استقبلا بالمقابل من قبل وزير الخارجية محمود رياض ورئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل. وبرغم ان نجي عبد الناصر ومؤتمنه كان يؤيد العمل الذي تعتزمه فتح، الا انه لم يكن يخفي تحفظاته ازاءنا. فقد قال "اننا نعرف القليل عنكم. والملف الذي فتحته مخابراتنا حول العاصفة، فارغ عمليا. والقناع الذي تتقنعون به يحيرنا. وعلى اي حال فان قدرتكم على التكتم والتخفي، هي مؤشر على جديتكم".

بقي ان نستشير السوريين والعراقيين. كان العراقيون يتخبطون بحيث ان رئيس الدولة العراقية عبد الرحمن عارف انهى محادثته مع ممثلينا وهو يعلن: لسنا مع مشروعكم ولسنا ضده. وبصراحة فاننا لا ندري ماذا نقول فيه، ولكم ان تتخذوا القرار الذي تجدونه حكيما.

اما الرئيس نور الدين الاتاسي فكان قاطعا من جانبه. فقد حذرنا بقوة من القيام بأعمال فدائية ضد اسرائيل بقوله: "انكم ستخسرون وستجروننا جميعا معكم الى الكارثة". ثم راح يتوسل موفدي فتح قائلا "اعطونا الوقت لنسترد انفاسنا".

خلال ذلك تلقينا تقارير من ياسر عرفات الذي كان يعيش مختفياً في الاراضي المحتلة. وكذلك فان الرفاق الذين كانوا ينجزون مهمة مماثلة لمهمته لاحظوا بفرح كما لاحظ هو، بأن الهزيمة العربية لم توهن عزيمة اهالي الضفة الغربية وغزة، وانهم يؤيدون متابعة النضال بكافة الوسائل. وبالرغم من ان عرفات

كان يخفي هويته الحقيقية، الا انه كان يستقبل بأذرع مفتوحة ويؤوى ويلقى الحماية. ولم يجد اية صعوبة، شأن اصحابه، في التنقل من مكان الى مكان، بل انه استطاع ان يدخل اكثر من مرة الى مسقط رأسه ـ القدس ـ والى تل ابيب.

كان في وسعنا ان نمضي، مؤيدين بثقة شعبنا، الى الامام برغم موقف الدول العربية ازاءنا. وعندما اجتمعنا في ٢٠ آب ـ اغسطس لنتخذ قرارنا النهائي، كان عرفات لا يزال في الارض المحتلة، فعاد مسرعاً بناء على طلبنا ليشارك في النقاش الذي كان حادا لان بعض الكوادر كانوا لا يزالون معادين للقيام بعمل يعتبرونه سابقا لاوانه. غير ان الاجتماع انتهى الى اجماع والى قرار راسخ: ففي ٣١ آب ـ اغسطس سينطلق فدائيونا لمهاجمة القلعة الصهيونية.

وقد اتخذت عملياتنا في الاراضي المحتلة اشكالا متنوعة: زرع الغام، كمائن، هجمات بالقنابل اليدوية وغير اليدوية، طلقات بازوكا وقذائف صاروخية. كانت اهدافنا متواضعة: رفع معنويات الجماهير العربية ومناوشة العدو وابقاؤه في حالة تيقظ، وفي افضل الاحوال، ارباك الاقتصاد الاسرائيلي. ولم نفكر في اية لحظة من اللحظات ان عملنا سيضع امن الدولة اليهودية في خطر. ولكن وسائل الاعلام العربية، واحيانا الاجنبية، هي التي ضخمت محمل ومدى عملياتنا، تضخيما خارج القياس مثيرة ذلك الوهم الخطير القائل بأنه سيكون بوسعنا تحرير فلسطين، واعتقد ان هذه المبالغات كانت محسوبة في بعض الاحيان وتهدف الى الاضرار بنا. بحيث اذا حان الحين، جرى اظهار "عجزنا" كفشل بهدف افقادنا الثقة امام شعبنا وامام الجماهير العربية.

يبقى ان الاسرائيليين ردوا على نشاطاتنا بقمع شديد. وقاموا بموجات من الاعتقالات حرمتنا من مئات المناضلين والانصار. وتعزى خسائرنا الى عاملين على الاقل: قدرة المخابرات الاسرائيلية وتهور مقاتلينا. كان حماسهم وقلة تجربتهم يقودانهم الى تحدي سلطات الاحتلال بصورة مكشوفة والمخاطرة بمخاطرات لا جدوى منها.

وببديهة الحال، فقد كان لدينا ثغرة يجب سدها. فانشأنا دائرة مكافحة جاسوسية تولى قيادتها فاروق القدومي قبل ان تسند الي في نهاية عام ١٩٦٧. وتلقى بعض الكوادر الذين انتخبناهم بدقة اعدادا سريعا في مصر وسواها قبل ان

ينتشروا في الاراضي المحتلة والبلدان العربية المجاورة.

ثم ان عددا من المخربين الذين عملوا لصالح البوليس الاسرائيلي تقدموا الينا معترفين بذنبهم. فأعطيناهم بصورة عامة، بعد اجراء استجوابات كثيفة معهم، امكانية التكفير وذلك اما الحاقهم بمخابراتنا الخاصة واما عبر قيامهم بمهمات ذات خطورة خاصة. وكانوا يسجلون قبل الانطلاق في العملية تصريحا حول نشاطاتهم السابقة لصالح اسرائيل ثم يعرضون اسباب تحولهم. وكنا نحتفظ بحق نشر تصريحاتهم في حالة موتهم او اذا ما تبين انهم عملاء مزدوجون، الامر الذي لم يحدث أبدا.

وقد طبقنا منذ البداية قاعدة عدم المعاقبة على الخيانة بالاعدام. كنا نعدم فقط اولئك الذين ادى تعاونهم مع العدو الى خسارة بشرية في صفوفنا. لكن هذه الحالات الاخيرة كانت نادرة نسبيا، ذلك ان عدد الذين اعدموا خلال عشر سنوات كانوا في حدود عشرين من الوشاة فقط.

اما المتعاونون مع العدو من امثال الشيخ الجعبري، عمدة الخليل السابق، فلم نكن نتخذ ضدهم بصورة عامة اي عقاب، كان تقديرنا في الواقع هو ان من الاولى تحييدهم بعزلهم سياسيا، عن الاهالي. وقد اخذ علينا بعض اصدقائنا في العالم الثالث احيانا اننا لم نصف جسديا. بحيث اننا اسهمنا بذلك في تغذية الانقسامات والتشوش في الحركة الوطنية الفلسطينية. الا ان قادة فتح كانوا يعتبرون دائما وابدا ان الحوار الديمقراطي هو الطريقة الصحيحة الوحيدة ـ والمجزية على المدى الطويل ـ من اجل امتصاص الاختلافات.

ومهما يكن من امر، فاننا كنا في الاشهر الاولى التي تلت حرب عام ١٩٦٧، نواجه العدو وحدنا، واسلحتنا في يدنا، في حين ان المنظمات الاخرى التي ستشكل بعد ذلك ببضع سنوات "جبهة الرفض" لم تكن قد ظهرت بعد على المسرح، او انها لم تكن قد اتخذت قرارها بعد بخوض الكفاح المسلح. كانت فتح افضل منها تحضيرا واستعدادا لشن الاعمال الفدائية على المدى القصير. فبخلاف التجربة التي اكتسبناها منذ قيامنا بأول عملية في ٣١ كانون اول ـ ديسمبر ١٩٦٤ فاننا كنا نتمتع بدعم سوريا والجزائر اللوجستيكي كما ان الجزائر كانت قد وافقت عام ١٩٦٦ على تأمين تدريب رجالنا تدريبا عسكريا.

وقد فتحت هزيمة الايام الستة افاقا جديدة امام نمونا وتطورنا. وافرج الملك حسين عن مئات الفلسطينيين كما انه اغمض عينيه عنا حين عمدنا الى اقامة قواعد على طول نهر الاردن لتكون بمثابة نقاط اسناد لفدائيينا.

ثم ان المؤازرة لم تكن تعوزنا لا بين السكان المحليين ولا داخل القوات الاردنية التي اقمنا معها علاقات ممتازة. كان الضباط الاردنيو الاصل يسهلون لنا مهمتنا تسهيلا عظيما. وكذلك كان الامر بالنسبة للوحدات العراقية التي وصلت متأخرة جدا الى الجبهة للمشاركة في القتال والتي كانت لا تزال ترابط قرب خطوط وقف اطلاق النار. فقد اعطانا ضباط بغداد ــ ياسر عرفات وانا ــ اوراقا ثبوتية مزورة تتيح لنا التجول بحرية. وكان مما يزيدنا شعورا بالراحة هو اننا اقمنا قواعد فدائية قرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يوفرون حماية مثلى لنشاطاتنا. وجعلنا من احدى القواعد القريبة من تجمع الكرامة مقر قيادة عملياتنا العام. وبما انها كانت تقع بين تلال تبعد اربعة كيلومترات عن نهر الاردن، فانها كانت تحتل موقعا استراتيجيا نفيسا.

وفي يوم الاثنين ١٨ آذار ــ مارس حدثنا اللواء عامر خماش رئيس الأركان العامة الأردني بان اسرائيل ستشن هجوما واسع النطاق على قواعدنا المقامة على طول نهر الاردن. واخبرنا ان الهجمة الاسرائيلية ستتم خلال الايام الثلاثة المقبلة، وان الحكمة تقضي بأن يتلافى الفدائيون اية مواجهة وان ينسحبوا الى داخل الاراضي الاردنية. ثم الح قائلا بأن قيادة فتح ترتكب خطأ جسيما اذا ما عرضت نفسها لضربات العدو. وانه انما ينبغي لنا ان نقي انفسنا ذلك بأسرع ما يمكن.

كان اللواء خماش محقا، في المطلق. فالفدائيون ــ بحكم قانون حرب العصابات ــ لا يخوضون معركة مع جيش نظامي. وفعاليتهم رهن بقدرتهم على الحركة. الا ان اعتبارات سياسية دفعتنا الى ان نخالف نصائح محدثنا. وقلنا له مفسرين، ان الفلسطينيين، ثم ان العرب بصورة اعم، لن يفهموا ان نخلي الساحة حرة مرة اخرى امام الاسرائيليين. ان واجبنا هو ان نعطي الامثولة وان نبرهن على ان العرب اهل للشجاعة والكرامة. اننا سنقوض وسندمر، اذا ما امكن، اسطورة الجيش اليهودي الذي لا يقهر. وامام تصميمنا، ويأسه من اقناعنا، فان اللواء خماش اقترح علينا ان نطلب مقابلة الملك. فاعتذرنا بأدب محتجين بقلة ما تبقى لدينا من وقت لكي نستعد للدفاع عن قواعدنا على طول نهر الاردن.

ولدى عودتنا الى الكرامة في اليوم نفسه، استدعينا كافة المسؤولين العسكريين في المنطقة لنعلمهم بالهجوم الاسرائيلي الوشيك ولنطلب اليهم ان يقرروا ما اذا كان ينبغي تلافي المواجهة ام لا. ولم نشأ ـ عرفات وانا ـ ان نؤثر في الحكم الذي ينبغي لهم ان يصدروه. ولذلك فاننا قررنا الا نطلعهم على الرأي الذي ابديناه بحضور اللواء خماش. كان النقاش مختصرا. فالجميع مجمعون على انه لا ينبغي للفدائيين بأي حال من الاحوال، ان يتراجعوا امام العدو، ولكن على اعضاء القيادة، بالمقابل، ان يغادروا الامكنة كاجراء امني. الا ان عرفات وفاروق القدومي وابو صبري وانا ـ قررنا ان نشترك في المعركة. وتوزعنا في مختلف قطاعات الكرامة واستقر كل منا في مغارة على خاصرة التلال المحيطة بها.

وفي ٢١ آذار ـ مارس، اي بعد ثلاثة ايام من تحذير اللواء خماش، ايقظني احد الفدائيين عند الفجر ليعلمني ببدء الهجوم الاسرائيلي. كان في وسع المرء ان يميز ارتال مصفحات الجيش الصهيوني وهي تجتاز نهر الاردن تتبعها تشكيلات من المشاة. وبدأت المدفعية بالقصف بينما راحت الطائرات المروحية (الهيلوكبتر) تلقي بالمظليين خلف خطوطنا. وهكذا فقد راح حوالي خمسة عشر الف رجل يندفعون في هجومهم على قواعدنا على جبهة تمتد ثمانين كيلومترا تقريبا. الا انه كان باديا ان الهجوم الرئيسي يتجه نحو الكرامة التي كان علينا ان ندافع عنها بأقل من ٣٠٠ رجل. وقد أصدر مسؤول المنطقة، اللواء مشهور حديثه، امره الى المدفعية الاردنية بالرد. واستقبلت الدبابات الاسرائيلية في الكرامة باطلاق نار غزير من بنادق الآربي‌جي. وبوابل من القنابل اليدوية. وهبط الفدائيون من التلال ليخوضوا المعركة مجابهة وجسما لجسم احيانا وبالسلاح الابيض. وابدى بعض منهم بطولة انتحارية. فقد رأيت مثلا احد شبابنا من رجال الكوماندوز وهو يدمر دبابة بأن يلقي بنفسه تحت زردها (جنزيرها) وقد لف نفسه بحزام محشو بالمتفجرات.

اما انا فاني نجوت من الموت مرتين. كان احد الفدائيين الذين اقودهم ـ ويدعى جورج ـ قد غادر المغارة التي احل فيها بحثا عن ذخيرة. ولست ادري اي توجس غامض دفعني الى مغادرة المكان لاستقر وراء صخرة تقع فوق المغارة بما يقرب من مئة متر. فبعد ذلك بقليل شاهدت جورج يتقدم نحو المغارة رافعا ذراعيه تتبعه مجموعـــة من الجنود الاسرائيليين . ثم قذف هؤلاء بقنبلة مسيلة

للدموع داخل مخبئي السابق قبل ان يقتحموه.

ولما كنت اعاني من آلام في ظهري، فانني لم استطع اللحاق برجالي الذين تسلقوا التلال ليحتلوا مواقع اكثر امانا. وحين بقيت وحيدا، فانني شاهدت مجموعة اخرى من الجنود الاسرائيليين تتجه نحوي واصابعهم على زناد رشاشاتهم وهم يبحثون بصورة بادية عن مرمى. فبقيت جامدا بلا حراك حتى اللحظة التي لم يعد يفصلهم فيها عن الصخرة التي اقبع خلفها الا بضعة امتار. واخرجت مسدسي ببطء، وهو جاهز للاطلاق. لم يكن فيه (في مشطه) سوى خمس رصاصات، كنت ادخر اخيرتها لنفسي. الا ان الجنود الاسرائيليين توجهوا بغتة وجهة اخرى مخلفينني وراءهم. وبعيد ذلك بقليل جاءت مجموعة فدائية تبحث عني وتساعدني على تسلق التلال لايوائي في مكان اقل تعرضا للخطر.

وتواصلت المعارك حتى المغيب، وبعدها شرعت القوات الاسرائيلية بلم موتاها وجرحاها كمقدمة للانسحاب. لقد دمروا ثلاثة ارباع مباني الكرامة، الا انهم كانوا راجعين في الحقيقة بخفي حنين. فخسائرهم كانت مرتفعة: ثلاثون قتيلا ومئة جريح بحسب بياناتهم، واكثر من ذلك بحسب تقديراتنا. ثم انهم بخاصة لم يفلحوا في التغلب على المقاومة الضارية التي ابداها فريق صغيرمن الرجال قر عزمهم على ان يموتوا قبل ان يستسلموا.

واحتفى العالم العربي كله بمعركة الكرامة واعتبرها نصرا باهرا. وحيكت الاساطير حول مأثرتنا هذه. وتدفقت عشرات الآلاف من الاشخاص وكبار شخصيات المملكة الاردنية، عسكريين ومدنيين، الى المدينة لينحنوا امام رفاة شهدائنا الذين ينوفون على المئة والذين صففناهم في سرادق.

واستبد الحماس بالجماهير الفلسطينية التي امتلأت فخرا بانتصار الكرامة، بعد عقود الاهانة والمذلة، ورأت فيه بداية تحررها. وبدأ الآلاف وعشرات الالاف من الشباب والشيوخ يسعون الى الانتساب لفتح. كان طلبة المدارس الثانوية وطلبة الجامعة يتركون دراستهم ليلتحقوا بصفوفنا. لكن طاقاتنا على الامتصاص كانت برغم كل شيء، محدودة، فكنا مجبرين على القيام بعملية انتخاب قاسية. فلم نجند، على سبيل المثال من الخمسة آلاف مرشح الذين تقدموا الينا في الثماني والاربعين ساعة التي تلت معركة الكرامة سوى تسعمائة فقط.

وعرفت الحركة الفدائية انطلاقة لا سابق لها. وبدأ مغاويرنا يكثفون عملياتهم مستفيدين من تعاطف اهالي الاراضي المحتلة الفعال. وزادت العمليات من معدل ١٢ عملية شهريا عام ١٩٦٧ الى معدل ٥٢ عملية شهريا عام ١٩٦٨ الى ١٩٩ عملية عام ١٩٦٩ الى ٢٧٩ عملية شهريا في الاشهر الاولى من عام ١٩٧٠. فمن القاء القنابل على المتاجر الكبرى ومواقف سيارات الاوتوبيس في اسرائيل الى اطلاق القذائف الصاروخية على التجمعات الحدودية الى المناوشات على خطوط وقف اطلاق النار، الى الهجمات على ثكنات الجيش اليهودي. بحيث ان مناضلينا لم يتركوا سلطات الاحتلال تتوقف او ترتاح.

ثم ان الجرأة ونكران الذات اللذين اظهرتهما النسوة الكثيرات اللاتي التحقن بالمقاومة، تنتزع اعجاب الجميع بما في ذلك اولئك الذين كانت لهم احكامهم المسبقة ازاءهن. وادى عدد من النسوة مهمات دقيقة وقمن بتأمين الاتصالات السرية ونقل الاسلحة. فأما من جرى توقيفهن فانهن اظهرن شجاعة ادهشت حتى سجانيهن. فقد وضعت احداهن حملها في السجن وتحملت المخاض برباطة جأش . وتعرضت ثانية حين رفضت الاعتراف للاغتصاب على يد الجلادين في سجن غزة. وقد تقدم عدة فلسطينيين بطلب يدها، ناقضين العقلية المحافظة التي تسود في مجتمع محافظ كمجتمعنا. بل ان هذا الحادث الذي لا سابق له، تكرر مرات عدة في حالات مشابهة. فقد كان من شأن المقاومة واثرها انها شجعت تحرير المرأة وانعتاق الرجال من التقاليد المتحجرة.

ثم انه تولد عن نمو فتح وتطورها بضع مشكلات تنظيمية حاولنا ان نحلها بصورة جماعية. وقد طرحت احدى المشكلات نفسها بصورة غير متوقعة، واقتضت قرارا عاجلا، فكان علي ان اتخذ القرار بدون التشاور مع اعضاء اللجنة المركزية الآخرين. ذلك اني تلقيت بعد مرور ثلاثة اسابيع على معركة الكرامة تقريرا سريا، بصفتي رئيس استخبارات فتح -يفيد بأن احد اعضائنا يستعد للمناداة بنفسه قائداً لقوات العاصفة، الجناح العسكري من فتح. كانت خطته هذه تهدد باثارة ازمة داخل الحركة وتشويشا خطيرا في الرأي العام، سيما وان تركيب قيادة فتح كان لا يزال في ذلك الحين سريا، فكان في وسع اي كان ان يدعي العضوية فيها. وكان المذكور سيبث اعلانه في الساعات التالية. واذ وجدت نفسي وحيدا في دمشق لا استطيع الاتصال على وجه السرعة برفاقي في اللجنة المركزية ، الذين كانوا في

غالبيتهم متوزعين بين القاهرة وعمان وبيروت فاني اتخذت المبادرة لوضع حد لهذا الشذوذ. وهكذا فقد اعطيت الصحافة في ١٥ نيسان ـ ابريل ١٩٦٨ بيانا يعلن تعيين ياسر عرفات ناطقا باسم فتح (وبالتالي باسم العاصفة) موضحا بأنه الشخص الوحيد الذي يحق له الكلام باسم الحركة. كما نشرت كذلك تصريحا قصيرا باسم عرفات ـ حررته كذلك بدون علمه ـ يعلن فيه قبوله لمسؤولياته الجديدة مضيفا ان قيادة فتح تظل قيادة جماعية.

وقد علم عرفات بالخبر من الاذاعة فكان اول المندهشين غير انه لتواضعه عارض تعيينه هذا خلال اجتماع عقد بعد ذلك في دمشق مؤكدا ان ثمة من هم اجدر منه واحق بهذا المنصب. لكن بقية اعضاء القيادة الاخرين، وافقوا كما توقعت على اختياري. فعرفات لم يكن احد اقدم مناضلي الحركة وحسب بل انه كان ثمة اجماع بيننا على احترامه وتقديره. بيد ان المهم هو ان فتح باتت ممهورة بالنسبة للمرحلة الجديدة، بوجه بارز جدير بتمثيلها امام الرأي العام وامام المؤسسات الدولية.

ثم ان مهابتنا بلغت الذروة، بفضل انطلاقة الاعمال الفدائية، فقررنا الاستفادة من هذا الوضع لنقيم علاقات وثيقة مع كافة الانظمة العربية المستعدة لمساعدتنا.

وقررنا ان نقوم بجولة منظمة على البلدان العربية الرئيسية بادئين بأكبرها، واعني مصر. ولما كانت تجاربنا مع مخابرات عبد الناصر تجارب مخيبة للامل، فاننا طلبنا ـ فاروق القدومي وانا ـ اجراء محادثة مع رئيس تحرير الاهرام محمد حسنين هيكل الذي استقبلنا بطيب خاطر. وكان الانطباع الذي تركه للوهلة الاولى في نفسي نجي "الريس" ومؤتمنه النافذ، انطباعا سيئا وبدا لي في لباسه المتأنق وسيجاره الكبير القابع بين شفتيه واطمئنانه الواضح لدى الكلام، وكأنه يتحدث الينا من قبيل التنازل. وقلت في نفسي انه لا يمكن ان يكون لدى هذا الرجل ادنى تعاطف مع القضية الفلسطينية. الا انني لم ألبث ان اكتشفت اني اخطأت في الحكم عليه. وعلى كل حال فانه عاد واصبح احد افضل اصدقاء المقاومة.

كانت اول محادثة بيننا وبين هيكل قصيرة نسبيا. وبعد ان أبلغنا بأنه يرجو كل الخير من عمل حركتنا ، فانه اكد لنا ان النظام المصري يود اقامة علاقات

"على ارفع مستوى" مع فتح. ثم عرض علينا ان يصطحبنا لتونا الى الامين العام للاتحاد الاشتراكي العربي ـ الحزب الوحيد في مصر ـ علي صبري. وفي الطريق طرح علينا بينما كان يقود سيارته بنفسه سؤالا مدهشا، وقال "هل انتم مسلحون؟" ثم بدا ان جوابنا بالنفي لم يرضه، لانه اعاد تكرار السؤال. وقد بدأنا نفهم قلقه عندما وصلنا ـ ويا لدهشتنا العظمى ـ ليس الى مقر الاتحاد الاشتراكي العربي وانما الى مقر عبد الناصر. ذلك ان هيكل ـ الذي يحب عمليات الاخراج المسرحي حبا جما ـ كان قد اخذ لنا في الحقيقة موعدا مع الرئيس المصري.

وتلقانا عبد الناصر على الطريقة العربية، بأن احتضننا بين ذراعيه. وما ان جلسنا حتى سألنا بلهجة بادية الجد وهو يشير بأصبعه الى حافظة الوثائق التي يحملها فاوق القدومي "أصحيح انكم تحملون هنا متفجرات لقتلي؟" ثم اضاف "اطمئنوا فأنا امزح. فقد تلقيت من المخابرات تقريرا يحذرني بأنكم ستحاولون اغتيالي. ومزقت هذا التقرير السخيف كما عارضت اقتراح هيكل بتفتيشكم على مدخل مقري". وكانت مناسبة بالنسبة لي لاهاجم المخابرات التي اضطهدتنا في سنوات الخمسين (كان عبد الناصر لا يتذكر الطالب الذي كنته عام ١٩٥٥ والذي تحاور معه غداة الغارة على غزة). كما رويت له كيف ان رئيس مخابراته حاول ان يفسد ممثلينا عام ١٩٦٦ وقد اجابني عبد الناصر بأنه اجرى تغييرا عميقا في المخابرات غداة حرب ١٩٦٧ ثم الح وهو يحلل لنا اسباب الهزيمة بأنه كان عشية النزاع لا يسيطر على المفاصل الرئيسية في الدولة وفي الجيش خاصة. وهكذا فانه ترك نفسه كما قال ينقاد الى حرب كان يريد تلافيها. الا انه برغم كل شيء اكد بأنه يتحمل المسؤولية الكاملة في الهزيمة.

ثم ان صراحته شجعتنا على ان نحدثه بمنتهى الحرية عن فتح. وراح هو يسائلنا على مدى اكثر من ساعتين حول تأسيس منظمتنا وايديولوجيتها ومصادر تمويلها ونشاطاتها. كان يريد ان يعرف كيف استطعنا ان نصمد امام الاسرائيليين في الكرامة وما هي القيمة التقنية لبنادقنا ـ الرشاشة الآربي.جي. وبعد ان اصغى الينا باهتمام كبير تناول مسألة توجهنا السياسي الذي كان يبدو انه يقلقه. اصحيح ان بيننا الكثير من الاخوان المسلمين - تلك الحركة التي يخشاها اكثر من أي شيء آخر ؟ السنا معادين للناصرية ؟ وعندما طمأناه

بأجوبتنا، فانه راح يسائلنا حول شخصية ياسر عرفات. فشرحنا له ان عرفات الذي يود على اي حال لقاءه، يشكل جزءا من قيادة جماعية تماما.

وافضت هذه المباحثات التي دامت اكثر من خمس ساعات، الى نتائج ملموسة. فقد عبر لنا عبد الناصر عن رغبته في اقامة علاقات مباشرة مع فتح بدون المرور بالمخابرات (الامر الذي كنا نرفضه على كل حال) واتفقنا على ان يكون هيكل، مختصا بالمشكلات السياسية واللواء صادق (رئيس المكتب الثاني) مختصا بالمسائل ذات النطاق العسكري في المباحثات معنا.

ووعدنا عبد الناصر بأن يقدم لنا الاسلحة وان يؤمن تدريب الفدائيين. ثم اضاف: انه ليس لدى مصر الوسائل لتزويدنا بمعونة مالية واوصانا بأن نعمد الى الملك فيصل فيما يختص بهذا الموضوع، الامر الذي كنا نعتزم القيام به على اي حال.

واستقبلني العاهل الوهابي في ذات اليوم الذي وصلت فيه الى العربية السعودية التي كنت اعرفها قليلا بالنظر الى اني اقمت فيها في شهر تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٥٢ كعضو في وفد اتحاد الطلاب الفلسطينيين. كما خصنا الملك السابق سعود باستقبال حار وسلمنا قبل الانصراف ما يوازي ٣٠٠٠٠ دولار وهو مبلغ ضخم استخدمناه في تمويل نشاطات اتحاد الطلاب الفلسطينيين.

وقد اظهر الملك فيصل، الذي استبقاني طيلة اربع ساعات عطفا حادا على الحركة الفلسطينية، وان عرض مطولا شكاواه من العناصر اليسارية والماركسيين "المندسين" في رأيه بين الفدائيين. وامتنع وهو الرجل المرهف عن ان يذكر اسماء او ان ينتقد هذا النظام العربي او ذاك. الا انه لم يكن ببديهة الحال، يكن، اية ثقة بالنظام السوري الذي كان يسيطر عليه حينذاك صلاح جديد، ولا كان يحب عبد الناصر.

وكان تقديره هو ان علينا ان لا نتشابه او نتماثل مع اي نظام عربي. وعلى هذا فان العربية السعودية ستساعدنا بقدر ما يمكن ان تفعل. ثم راح يلح قائلا "ونحن لا ننتظر منكم مديحا ولا انتقادا". كما وافق بناء على اقتراحي، على السماح بانشاء "لجان دعم" في المملكة تكلف بجمع الهبات وبأن تحسم تلقائيا نسبة تصل الى سبعة بالمئة من رواتب الفلسطينيين المقيمين في العربية السعودية،

وهي مبالغ تستخدم في تغذية صندوق فتح. ثم اضاف بأنه سيدفع لحركتنا مبلغا مكافئا لكامل الاموال التي تجمع من الافراد.

وكذلك فإن زيارتي للسودان ـ وهي المرحلة الثالثة في الجولة التي قمت بها في صيف عام ١٩٦٨ ـ كانت مثمرة على نحو خاص. كان يصحبني هذه المرة فاروق القدومي وابو صالح، وقد تأثرنا جميعا بالروح الديمقراطية والتسامح والمروءة والكرم لدى السودانيين ـ فغداة وصولنا، نظمت احزاب المعارضة بما في ذلك الشيوعيون والاخوان المسلمون، اجتماعا شعبيا كبيرا على عتبة الفندق الذي نقيم فيه. فكان الخطباء يهاجمون رئيس الحكومة محجوب الواقف الى جانبنا مذكرين بأنه يدعم منظمة التحرير الفلسطينية (التي كان لا يزال يرئسها الشقيري) ماليا وليس فتح، فتهتف الحشود "محجوب خائن". ووجدتني محرجا، فأخذت الكلام لاعلان ان ثمة مفاوضات جارية بيننا وانني مقتنع بأن محجوب لن يرفض معونة حركتنا.

وفي ذات المساء، كان رئيس الحكومة وزعماء المعارضة، اي نفس اولئك الذين هاجموه قبل ساعات، يحضرون حفل استقبال على شرفنا، وكم كانت دهشتي حين رأيتهم يتبادلون احاديثا حبية بل ودية. وحتى الاخوان المسلمون والشيوعيون كانوا يبدون على ما يرام. فهؤلاء الاخيرون كانوا يحترمون معتقدات مواطنيهم الدينية بكثير من الدقة، الى حد انهم قطعوا محادثة خاصة مع وفدنا ليدعونا لاداء الصلاة في المسجد. اقول ذلك لادلل الى اي حد وجدتني مدهوشا ومصدوما لدى اندلاع الحرب الاهلية في السودان بعد ذلك بثلاث سنوات تماما والتي كانت حصيلتها اعدام قادة الحزب الشيوعي الرئيسيين.

وثمة حدث اخر استرعى انتباهي لدى مكوثي في السودان. فخلال اجتماع عام نظمه اتحاد النساء السودانيات، وقفت احدى المناضلات المكلفات بجمع ثياب صوفية للفدائيين، لتطرح علي السؤال التالي: "الا تظنون انه لن يكون ثمة طائل في هذه الثياب في الشتاء المقبل اذا صح انكم ستكونوا قد حررتم فلسطين؟" وقد اتاح لي هذا السؤال ان اقيس مدى الاسطورة التي انشأتها الصحافة العربية حول امكانياتنا. لكنه بدا لي في ذلك اليوم انه من غير اللائق ان اعرض علنا نقائص وقصور ـ كي لا اقول خيانات ـ بعض الانظمة العربية ازاء القضية الفلسطينية. اذ كيف لي تفسير رعاية حلفائنا الطبيعيين لموازين قوى تميل بصورة ساطعة

لصالح اسرائيل. ولذا فقد اكتفيت بأن اجيب بالقول انه لا ينبغي اليأس من حدوث نصر قريب.

ثم ان علاقاتنا بمختلف الحكومات العربية تحسنت بصورة واضحة، فلم يعد علينا ان نجعل من منظمة التحرير الفلسطينية اداة بروزنا على المسرح السياسي. كان احمد الشقيري قد استقال، على كره، من منصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٧ وحل محله بالوكالة يحيى حموده. وقد كان الشقيري يحاول ان يحصل مجددا على ثقة الرؤساء العرب الذين كان من المقرر ان يعقدوا اجتماعا لهم في نهاية شهر آب-اغسطس في الخرطوم. الا ان الرياح جرت بعكس ما اشتهت سفنه، اذ انه تعرض لهجوم عنيف من الكثيرين منهم، كما اسلمه حاميه عبد الناصر الى قدره.

ومنذ ذلك الحين واظب "الريس" المصري على محاولة اصطياد عصفورين بحجر: فهو بتشجيعه دمج الحركة الفدائية بمنظمة التحرير، فانه كان يسعى الى وضع حد لازدواجية السلطة ـ السلطة الشكلية التي تمثلها منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الشرعية التي نمثلها نحن ـ ثم ان يقيم من جهة ثانية اطارا مناسبا لتوحيد المقاومة. فالواقع هو ان عدة منظمات منافسة لفتح ظهرت بعد حرب عام ١٩٦٧ وكانت تشكل، بالرغم من انها اقليات، قوى ينبغي تجميعها بصورة او بأخرى.

ولم نكن في البداية مجمعين على ارادة الحلول محل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية. كان بعض منا يخشى على الحركة ان تنالها البيروقراطية وان يضعف نقاؤها الثوري نتيجة لذلك. ووضعنا عدة شروط بدت لنا ضرورية ولا غنى عنها لقيامنا بالتعاون في هذا المجال. فلا بد من ان تحوز المنظمات الفدائية على اغلبية المقاعد في داخل المجلس الوطني الفلسطيني، وهو برلمان منظمة التحرير الفلسطينية. ثم افلحنا على اثر مساومات شاقة، في الحصول في منتصف حزيران ـ يونيه ١٩٦٨ على قرابة نصف المقاعد. ولم يغير المجلس الوطني الفلسطيني الرابع الذي انعقد في القاهرة في الشهر التالي، شيئا في تركيبة اللجنة التنفيذية ـ الجهاز الاعلى في منظمة التحرير ـ ولكنه تبنى قرارات تسير في وجهتنا السياسية. وجرى تعديل الميثاق الوطني الذي جرى تبنيه في اول مجلس عقد في

القدس عام ١٩٦٤ برئاسة الشقيري، لادراج وتوضيح "ان الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد المؤدي الى تحرير فلسطين".

ولم تقبض المنظمات الفدائية على زمام منظمة التحرير الا في شباط ـ فبراير ١٩٦٩، خلال دورة المجلس الوطني الفلسطيني الخامس بعد ان كانت امنت لنفسها خلال ذلك الأغلبية المطلقة في المقاعد. ثم عينت اللجنة التنفيذية الجديدة ياسر عرفات رئيساً لها، وقد بكى عرفات انفعالا امام ضخامة المسؤوليات التي بات عليه الاضطلاع بها. وخلال هذه الدورة اخذ المجلس الوطني الفلسطيني على عاتقه هدف فتح الاستراتيجي والذي عرضته في ١٠ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٦٨ خلال مؤتمر صحفي ـ الا وهو انشاء دولة ديمقراطية في فلسطين يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مساواة تامة وتكافؤ كامل.

ثم ان كافة البلدان العربية، بما في ذلك تلك التي كانت ولا تزال تحاذر منظمات اقصى اليسار الفدائية، تلقت بارتياح ورضى تولي المقاومة منظمة التحرير الفلسطينية. والسبب الرئيسي لهذا الارتياح، هو ان فتح التي كانت تتمتع بثقة الغالبية من هذه البلدان، قد امنت لنفسها، وكما ينبغي ان يكون نفوذا راجحا، ان في داخل المجلس الوطني الفلسطيني وان في داخل اللجنة التنفيذية.

واتاح لنا هذا التكريس الذي حصلنا عليه على مستوى العالم العربي ان نخوض عملا يهدف الى تأمين مرتكزات دولية للحركة. وما كان يمكن لهذا العمل الا ان يتوجه باتجاه البلدان الاشتراكية بالنظر الى العداء واللامبالاة التي كانت الدول العظمى الغربية ومن يدور في فلكها، تظهره ازاءنا. فقد افقدتنا الممارسة اليومية تدريجيا، بأكثر مما افقدتنا قراءاتنا، الاحكام المسبقة التي كنا نتعلل بها في مطلع سنوات الخمسين ازاء الماركسية والبلدان الاشتراكية غير ان الصحيح كذلك ان علاقاتنا بالاتحاد السوفياتي ظلت متباعدة ومشوبة بالحذر. فقد ابطأ القادة السوفيات في ادراك معنى كفاحنا، ربما لانهم تأثروا بالاحزاب الشيوعية العربية التي كانت تواصل التنديد بروح المغامرة لدينا وتتهمنا بأننا اخوان مسلمون ورجعيون. وعلى هذا فقد تلقينا بارتياح الدعوات التي تسلمناها في مطلع عام ١٩٧٠، لزيارة الصين الشعبية وفيتنام.

كان قد سبق لياسر عرفات ان زار بكين مرتين في عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦

وكانت الزيارة الاولى ناجحة بحذر، بينما تمخضت الثانية عن وعود بالمعونة تجسدت بعد حرب الايام الستة. والواقع هو ان عدة مجموعات من الفدائيين تلقت اعتبارا من عام ١٩٦٨ اعدادا عسكريا في معسكرات التدريب في الصين. الا انه بقي علينا ان ننمي ونعزز هذه العلاقات. وقد كان هذا الهدف في بالنا حين سلكنا، ياسر عرفات وانا، طريق بكين في شهر شباط ـ فبراير ١٩٧٠.

وكانت الدواعي السياسية والامنية توجب ان تظل هذه الرحلة سرية. وامعانا في التمويه، فاننا سلكنا طرقا مختلفة لنلتقي في باكستان حيث نستقل الطائرة من هناك. وحاولنا ان لا نسترعي الانتباه. فكان عرفات مثلا يلبس طقما رسميا مستبدلا غطاء رأسه التقليدي ـ الكوفيه والعقال ـ بقبعة لينة محترمة. لكنها كانت احتياطات لا طائل فيها. اذ ما كدنا نجلس في الطائرة حتى وجدنا انفسنا وجها لوجه مع عبد السلام جلود. وبدا لنا جلود ـ الشخصية الثانية في ليبيا ـ غريبا. فقد كان خافض الرأس بادي الاحراج، وحيانا بقليل من الملاطفة ثم لزم الصمت طوال الرحلة. وعرفنا بعد ذلك انه كان يقوم هو ايضا بزيارة سرية للصين، هي اول زيارة يقوم بها منذ قيام الثورة الليبية في اول ايلول ـ سبتمبر ١٩٦٩.

وقد لقينا لدى توقفنا في شنغهاي، ما لقيناه في مطار بكين من استقبال رسمي وشعبي حار وانزلونا في قصر قديم كان لسفارة فرنسا قديما قبل ان يصطحبوننا لزيارة مختلف المصانع والمؤسسات الشعبية. وذات يوم باغتناهم بطلب زيارة كومونة. فقد كان ثمة حملة صحفية عارمة في تلك الاثناء تهاجم هذا الشكل من وحدات الانتاج، فكان الفضول يستبد بنا لمعرفة الكيفية التي تعمل بها في الواقع. واستجاب مضيفونا للطلب بكثير من اللطف. ووضعوا طائرة بتصرفنا اقلتنا خلال ست ساعات الى كومونة في داخل البلاد. وانتهت المنشآت التي زرناها والاحاديث الطويلة التي اجريناها مع السكان والمسؤولين المحليين والتوضيحات التي قدموها لنا، الى اقناعنا بالدور الايجابي الذي تلعبه الكومونات في اقتصاد البلاد.

ثم ان جدية الصينيين اثرت في نفسي. فهم منصرفون الى الكد اليدوي او المهني ويكرسون اوقات فراغهم لنشاطات بسيطة سليمة. واسترعاني نمط حياتهم المشوب بالتقشف والنقاء.

وسحرنا شو ان لاى، الذي اجرينا معه محادثات ودية طويلة، بذكائه الحاد ورهافته وسعة ثقافته. ثم ان الاسئلة التي طرحها علينا نمت، ليس عن عميق تعاطف ازاء الشعب الفلسطيني وحسب، وانما عن عميق معرفته كذلك بالمشكلة وسياقها المحلي والدولي. وكان يتذكر بالتفصيل، وهو ذو الذاكرة الفريدة، الاجوبة التي حصل عليها من زوار فلسطينيين آخرين على ذات الاسئلة التي وجهها الينا. الامر الذي كان يتيح له ان يستخلص نتائجه الخاصة.

وعندما تعرضنا لمسألة موقفنا من الاتحاد السوفياتي، وهي ادق المسائل على الاطلاق فاننا شرحنا له اننا نريد اقامة علاقات ودية مع موسكو. واضفنا بأننا نأمل في ان لا تنال مثل هذه العلاقات من تعاوننا مع الصين الشعبية. كان من البديهي، ان النظام الصيني يريد، كما يظهر من الشعارات التي تغطي جدران بكين، تعبئة السكان ضد "امبريالية الاتحاد السوفياتي الاشتراكية".

واصغى الينا شو ان لاى برصانة ثم اجابنا، امام عظيم دهشتنا، بأنه يفهم شواغلنا. "فانتم تمثلون حركة تحرر وطني، ومن الطبيعي ان تحاولوا تأمين الأزر والمساعدة حيثما وسعكم الحصول على ذلك."

ووعدنا بدعم الصين الكامل ودعانا الى توضيح حاجاتنا بدقة. ثم حدد لنا موعدا لموافاته في اليوم التالي في وزارة الدفاع، حيث اعلمونا فوراً بأن طلباتنا العسكرية والمدنية قد قبلت.

وغادرنا الصين الى فيتنام الشمالية على متن طائرة عسكرية صينية. كنت منفعلا ازاء هذا الاحتكاك الذي سأحتكه مع شعب اعجب بعناده وصلابته وبطولته. فكل ما قرأته وسمعته عن مقاومة الفيتناميين للاحتلال الفرنسي اولا، ثم للعدوان الامريكي بعد ذلك، كان يشكل بالنسبة لي مصدر امل وكنت اقول في نفسي ان الشعب الفلسطيني شعب صغير وفقير بالموارد، هو الآخر وسيكون في طاقته ان يواجه اقوياء هذا العالم وان ينال حقه في الاستقلال والحرية. كان كل ما سأراه واسمعه في فيتنام الشمالية مصدر اثراء وحماس متزايد بالنسبة لي.

ووجدنا باطن مطار هانوى، حيث استقبلنا اعضاء المكتب السياسي في حزب العمل (الشيوعي) خيرا من ظاهر. فابعاده متواضعة، ومظهره مقفر، يشهد بأن البلاد في حالة حرب : فمدرجاته المحفوفة بالمدافع المضادة للطائرات تحتلها في

غالبها الطائرات المروحية وطائرات الميغ ١٧ و ١٩.

واتصل الحديث الذي خضناه مع مضيفينا في احد صالونات المطار اكثر من ثلاث ساعات. وعندما عبرت عن دهشتي لهذا الانتظار الطويل، فانهم اجابوني بدون ادنى حرج بأن السلطات لا تزال تبحث عن بيت لايوائنا وسيارة لتقلنا. ولم يقدر لي ان ارى خلال الاسبوعين اللذين اقمتهما هناك سوى خمس عشرة سيارة خاصة تتجول في المدينة.

ولاحظت ان بؤس الفيتناميين كان متقدما في بعض النواحي على بؤس الفلسطينيين وان ظروف الحياة في هانوى، اسوأ من تلك التي يعانيها مواطني منذ ثلاثين سنة في مخيمات اللاجئين. فغالبية مباني العاصمة الفيتنامية كانت اما مصابة بالقذائف واما في حالة تداعي متقدمة. بينما يتحمل الاهالي صعوبات الحياة اليومية، بما في ذلك النقص في المواد الغذائية الضرورية جدا، بصبر ورباطة جأش عظيمين.

واسترعاني الدور الذي تلعبه النساء الفيتناميات. كن يعملن بنشاط في كل مكان: في المصانع والمكاتب والمدارس وكذلك في ورش البناء. وحتى في ميادين المعركة. فكافة مزالق اطلاق صواريخ سام، التي قدر لي زيارتها، كان يتولى تشغيلها فتيات ما فتئت هشاشتهن تدهشني. ومما يزيد من تقديري لانعتاق المرأة الفيتنامية، هو انها ظلت طيلة قرون، بل وحتى فترة متأخرة، خاضعة لنظام تمييز وقهر، شرس. فكان من "الطبيعي" مثلا، ان يبيع الاب بناته لمن يدفع الثمن الاعلى، تلبية لحاجات عائلته.

وكانت الزيارات التي قمنا بها للقواعد العسكرية ومخيمات التدريب ذات فائدة عظمى لنا ذلك انه اتيحت لنا فرصة دراسة اساليب تنظيم واعداد مقاتلي حرب العصابات، التي نستطيع تكييفها على تشكيلاتنا الفدائية. ولاحظنا باهتمام وجود مفوضين سياسيين، شبيهين بمفوضينا، لم تكن مهمتهم اغناء وتكثيف بواعث المقاتلين وحسب، بل القيام بدور صلة الوصل بين الحزب والجيش.

وقد اثر فينا الجنرال جياب الى ابعد الحدود، سواء بما يتعلق بمعارفه العسكرية، او بثقافته السياسية، او بتواضعه ورهافته. وبدأ وزير الدفاع اول محادثة بيننا بذكر آية من القرآن تؤكد على ان القوة امر ضروري لمواجهة العدو

(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ثم استطرد محذرا ايانا من الانسياق وراء الاوهام التي يمكن ان تتولد عن افكار رائجة مثل "الحرب الشعبية" و"السلطة عند فوهة البندقية". ثم اضاف وهو يستشهد ابدا بالتجربة الفيتنامية: ذلك ان الامور ليست بمثل هذه البساطة. فلا ريب في ان البندقية هامة، الا انها لا تكفي لتأمين الانتصار. ولا بد ان يضاف اليها المدفع والصاروخ وكافة مجموعات الاسلحة التي يتمتع بها المعتدي.

وواصل الجنرال جياب حديثه قائلا: ولا ريب في ان لدى الفيتناميين والفلسطينيين كشعبين يعانيان من نفس الشر، الكثير من الامور المشتركة بينهما. ولكن كفاحنا يتمتع بمزايا كثيرة تفوق ما يتمع به كفاحكم بكثير. فنحن بخلاف الفلسطينيين الذين يعيشون في وسط معاد وغير ودود، فاننا نتمتع من جهتنا بداخل ودي وبالبر الصيني الذي يقدم لنا عمقا استراتيجيا لا يقدر بثمن، اضافة الى المعونة المتدة الاشكال التي تقدمها البلدان الاشتراكية." ثم خلص الى القول ان ثمة ثلاثة مقومات لا غنى عنها لانتصار حرب شعبية: الاسلحة البالغة التطور، والايديولوجية المعبئة، والتنظيم القادر على لم شمل الجماهير وتأليبها وقيادتها.

وحول هذا الموضوع الاخير، شرح لنا الجنرال جياب كيف توصل حزب العمل الى انشاء وبعث الحياة في الجبهة الوطنية التي افلحت في اجتذاب كافة الفئات الاجتماعية او الدينية من السكان من بوذيين ومسيحيين ومسلمين ومن العمال والفلاحين بطبيعة الحال، وكذلك ـ ويا لعظيم اندهاشنا ـ من الطبقات الوسطى والصناع والتجار والصناعيين الذين تأذت مصالحهم من قبل الامبريالية الامريكية. وبدا لنا برنامج الجبهة الوطنية ـ الذي اتيح لنا ان نقرأه خلال اقامتنا ـ مثيرا للخيبة للوهلة الاولى. فهو مكتوب بعبارات بسيطة لا تثير، كما ان الاهداف التي يرسمها للحركة كانت تبدو لنا بديهية بل وجيزة مجملة: الوحدة الوطنية، تحرير الوطن، الديمقراطية الخ. الا اننا ادركنا لدى امعان التفكير، بأنه توخي في تصميم النص وتصوره ان يستجيب لحاجات السكان كافة وبدون استثناء.

ولم استطع عند ذاك ان امنع نفسي من التفكير بالسفسطة التي تسود العالم العربي، وبالالف شعار وشعار من تلك الشعارات التي كنا نطلقها بدون ان يكون

في مقدورنا ان نضع ولو واحدا منها موضع التطبيق، وبالمزايدات الديماغوجية التي هي اهل لتنفير افضل الارادات واجود النوايا. وقلت لنفسي ان لدى الاحزاب والحركات السياسية العربية الكثير مما يجب ان تتعلمه من تواضع وتكتم وواقعية القادة الفيتناميين.

ودفعتنا مباحثاتنا مع اعضاء المكتب السياسي في حزب العمل الى التفكير تفكيرا اعظم ببرنامجنا. كنا قد صنعنا في تلك الحقبة هدفنا الاستراتيجي الذي كان قوامه انشاء دولة ديمقراطية اتحادية في مجمل فلسطين. ولكننا لم نحسب حساب اية مرحلة انتقالية ولا اي تسوية مؤقتة. ودون ان يشيروا الى فتح او الى منظمة التحرير الفلسطينية صراحة، فان محادثينا من اعضاء المكتب السياسي قدموا لنا عرضا مطولا لمختلف مراحل نضال الشعب الفيتنامي. موضحين لنا انهم اضطروا الى للخضوع الى تنازلات مختلفة، كان بعضها احيانا في حجم تقسيم البلاد الى دولتين مستقلتين.

كما انهم اعطوا مثالا آخر على روحيتهم الشديدة الواقعية لدى تركيز صيغة البيان المشترك الذي كان ينبغي نشره لدى نهاية زيارتنا. فقد لاحظت كعضو في اللجنة المكلفة بتحرير النص، تردد زملائي الفيتناميين امام اقتراحاتنا المتعلقة بالتنديد باسرائيل والصهيونية. وقال لي احد هؤلاء الزملاء، هو عضو في المكتب السياسي، بأنه يود لو نلجأ الى عبارات اكثر اعتدالا، بل الى عبارات غامضة، من اجل عدم تكدير اليهود الامريكيين الذين يناضل كثير منهم في الولايات المتحدة في الحركة المؤيدة لفيتنام. وهنأت محدثي على صراحته وعلى ترويه بخاصة، ووافقت لفوري على الصيغة المخففة فيما عنى المقطع المتعلق باسرائيل. وبالمقابل فان البيان اعلن دعم فيتنام لحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. وهنا ايضا دار في خلدي ان علينا ان نتعلم الكثير من رفاقنا الفيتناميين الذين لا يترددون بالتضحية بالثانوي محافظة على الاساسي.

اما على الصعيد العملي، فاننا حصلنا من مضيفينا على موافقة بمنحنا تسهيلات واسعة لتدريب مغاويرنا في معسكراتهم. ولما كنا نعلم محدودية وسائلهم، فاننا لم نطلب اليهم اية معونة اخرى.

وها قد مضى ما يقارب التسع سنوات على تلك الزيارة المشهودة ، ولا يزال

احد اعز اماني، هو ان اعود الى هناك ـ بمجرد ان تتيح لي التزاماتي ذلك ـ لاشاهد التحولات التي حدثت منذ ان حقق الشعب الفيتنامي انتصاره التاريخي ووحد وطنه.

وبعيد عودتي من فيتنام بقليل، تلقيت في ربيع عام ١٩٧٠، دعوة لحضور الاحتفالات التي ستجري في شهر تموز- يوليو في كوبا بمناسبة ذكرى الثورة الكاسترويه. ولما كنت منشغلا بتطور الموقف في الشرق الاوسط وخاصة في الاردن حيث كان التوتر يتنامى بين الجيش وبين منظمة التحرير الفلسطينية، فانني لم اقرر اعطاء رد ايجابي على الدعوة، الا قبل الموعد المحدد ببضعة ايام. والواقع هو انني وافقت على الذهاب الى كوبا لاتلافي حضور الاجتماعات التي كانت الحكومة المصرية تنظمها في ذات الاسبوع بمناسبة الذكرى الثامنة عشرة لسقوط الملكية. فوفقا للمعلومات السرية التي وصلت الي، فان عبد الناصر كان يعتزم ان يعلن، في الخطاب الذي سيلقيه بهذه المناسبة، قبوله بمخطط روجرز حول تسوية مصرية اسرائيلية وكنا معادين عداء شديدا لمثل هذا الاتفاق، ولم اكن اتمنى بطبيعة الحال ان اكون حاضرا حين يعلن عبد الناصر انضمامه الى المشروع الامريكي. وبرغم الالحاح، المشبوه في نظري، الذي ابداه محمد حسنين هيكل، صديق عبد الناصر ومؤتمن سره، فاني دفعت الدعوة متذرعا باستحالة رفض دعوة فيدل كاسترو.

كانت الرحلة التي قمت بها من القاهرة الى كوبا عن طريق مدريد، احد انهك الرحلات التي قمت بها في حياتي. فبعد انتظار طويل في مطار العاصمة الاسبانية، حيث تولى الحرس الكوبي المرافق (الغورلية) امرنا، اقلع الوفد الفلسطيني الذي كنت اقوده على متن طائرة متواضعة تابعة للشركة الوطنية الكوبية. واستمرت الرحلة اكثر من خمس عشرة ساعة، وضمن اوضاع تذكرني باوضاع "الترام" العامل في الريف المصري. كانت الطائرة المكتظة بعدد من الركاب يزيد على عدد مقاعدها، والمزدحمة بالحقائب والصرر التي تعيق المرور، تبدو وكأنها تطير كيفما كان.

ووجدتني جالسا الى جانب امين الهويدي، كبير مسؤولي المخابرات المصرية وكان يشكو مثلي من ضيق المقاعد ومن الحرارة. وقال لي وهو يمسح العرق عن جبهته: واذا فانكم تعتزمون محاربـــة مخطط روجرز وعبـــد الناصر" فأوضحت له

اننا نعارض اي مشروع يضر بالحقوق الوطنية الفلسطينية، فأجابني بأنه ينبغي لنا ان نثق بعبد الناصر ووطنيته وامانته للقضية الفلسطينية.

وفي مطار هافانا، استقبلني نظيري الكوبي، رئيس المخابرات الكوبية، وهو رجل يتمتع بحس دعابة عظيم، واصبح فيما بعد صديقا لي. وما ان استقر بي المقام في منزل بسيط حتى قدموا لي برنامج مباحثات بدا لي مفرطا. اذ كان علي ان استقبل ممثلي حركات التحرر الوطني في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية. وكان مما يزيد اللائحة طولا، هو انها كانت تضم ممثلين عن عدة تنظيمات متنافسة في كل بلد من بلدان امريكا اللاتينية. بحيث ان الانقسامات داخل منظمة التحرير الفلسطينية بدت لي امرأ صغيرا بالنسبة الى التفتت الذي يسود هذه الحركات. وكان ان تعديت على قواعد اللياقة، مخاطرا باسقاط عدد من الفصائل الصغيرة وطلبت من مضيفي ان يقصروا لقاءاتي مع التشكيلات الرئيسية في كل بلد من البلدان المعنية.

وهكذا، فان الوقت الذي تمكنت من اكتسابه بهذه الطريقة، اتاح لي الانصراف الى مختلف النشاطات الاخرى. وحضرت بخاصة، الاجتماع الذي عقدته على شرفي الجالية الفلسطينية التي تبلغ نحوا من خمسين عائلة هاجرت الى كوبا منذ عهد بعيد. كان الاحداث الذين ولدوا في البلاد لا يتكلمون الا الاسبانية، واحيانا الانكليزية. واما الكهول فينطقون بعربية تقريبية. لكن اللقاء كان مؤثرا برغم كل هذا. فقد رأيت الدموع وهي تنهمر على وجوه عدة، وانا اعرض اهداف النضال الذي شرعنا به.

وفي يوم آخر، دعاني فيديل كاسترو لازور بصحبته مزارع قصب السكر. وقد تعرفت الى هذه القوة الطبيعية لدى هذا الرجل الصريح الخشن المرح، خلال هذه الجولة الريفية التي قمنا بها في سيارته التي كان يقودها بنفسه. وقد اظهر خلال مناقشاتنا ذات الطابع السياسي، معرفة عميقة بنزاع الشرق الاوسط عامة وبالقضية الفلسطينية بصورة خاصة. فهو يعتبر اسرائيل كما قال لي، حجر شطرنج بيد الامبريالية الامريكية. ولكنه شأن القادة الفيتناميين رغب الينا في الا يشتمل البيان المشترك على عبارات مهينة للدولة الصهيونية. وفسر لي ذلك بقوله ان كوبا على علاقة بأوساط عمالية يهودية نافذة بسبب تجارتها الخارجية كما

انها تقيم من جهة ثانية علاقات دبلوماسية مع اسرائيل لا يريد ان ينال منها. ثم اضاف ولكن "ثق اني سأتخذ الاجراءات المناسبة حين يحين الحين".

وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات، ومن على منبر مؤتمر دول عدم الانحياز الذي انعقد في شهر ايلول ـ سبتمبر من عام ١٩٧٣ في الجزائر، اعلن فيديل كاسترو بصورة باهرة قراره بقطع العلاقات مع اسرائيل. فكنت احد اوائل الذين اخذوه بالاحضان تهنئة له.

والحق، هو ان كلامه المتروي في تموز ـ يوليو ١٩٧٠ لم يكدرني قط سيما وانه اولاني، من باب التعويض، حرية في التعبير عما اشاء، وفتح لي اعمدة الصحف واضعا بمعنى من المعاني موجات الاذاعة والتلفزيون الكوبي تحت تصرفي. فاستغللت ذلك وافدت منه افادة واسعة لاقدم عدة تصريحات ومقابلات. لكن ذلك لم يكن المكسب الوحيد الذي تحقق من الزيارة. فقد برهن فيديل كاسترو عمليا عن دعمه لكفاح الشعب الفلسطيني المسلح، عندما قدم لنا معونة عسكرية هامة، وخاصة على شكل امدادات وتدريب للفدائيين في كوبا. ولم نثر مطلقا مسألة ارسال متطوعين كوبيين الى الشرق الاوسط ذلك اننا لا نعاني نقصا في المقاتلين، بل ان العكس هو الصحيح.

شكل الخطاب الذي القاه فيديل كاسترو في ٢٦ تموز ـ يوليو ١٩٧٠، امام مئات الالوف من الاشخاص، بالنسبة الي احد اكثر المشاهد الخارقة التي قدر لي ان احضرها. فالرئيس الكوبي هو بلا ريب احد اعظم خطباء عصرنا اذ انه يمسك بأنفاس المستمعين اليه على مدى ست ساعات متكلما بنبرة الغضب حينا، وبلهجة ساخرة حينا آخر، مستشهدا بيسر ووضوح بتواريخ وارقام تدليلا على احاديثه الاخاذة شأن صوته، بحيث انه غالبا ما يضع المستمعين المصفقين له تصفيقا حادا في حالة هيجان.

وعندما اخذ مدعويه الاجانب الذين كنت بينهم بأيديهم رافعا ذراعيه على الطريقة الكوبية لتجري تحيتنا واحدا بعد الآخر، فاني شعرت بالانفعال الشديد حين سمعت الحشود تزأر بصوت واحد: فلسطين! فلسطين!". كنت فخورا سعيدا ومتأثرا.

كان اسم بلادي كما هتف به مئات ألوف الكويتيين لا يزال يدوي في اذني حين صعدت الى الطائرة ـ التي كانت تابعة هذه المرة للشركة الوطنية المغربية ـ لاعود الى الشرق الاوسط.

الفصل الخامس

الجــذور

دقدت معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة في الأردن. فعلى مدى الأيام الخمسة الممتدة بين ١٣ و١٧ تموز ـ يوليو ١٩٧١، راح نحو ثلاثة آلاف فدائي متحصنين في الغابات والهضاب المكسوة بالأشجار في هاتين الناحيتين الواقعتين في شمال المملكة يقاتلون حتى الطلقة الأخيرة ضد قوات الجيش الاردني .

وقد رفض القائد المحلي، أبو علي اياد، عضو اللجنة المركزية في فتح ان يستسلم. لكنه أسر على اثر عملية مطاردة هائلة، ووقع حوالي الفي فدائي في الأسر وسلموا في وقت لاحق الى سلطات دمشق، وأفلح نحو من مئة في اللجوء الى سوريا.

وهكذا انطوت احدى صفحات المقاومة، وهكذا ايضا انتهى عصر زهو الحركة الفلسطينية، الذي كان انتصار الكرامة في آذار ـ مارس ١٩٦٨ أحد ذراه بلا نزاع.

وبدأت علاقاتنا مع الحكم في الأردن تتوتر في منتصف شهر تشرين أول ـ اكتوبر ١٩٦٨ بعد مصرع رفيقنا عبدالفتاح حمود ـ الذي كان احد أوائل قادة فتح ـ بحادث سيارة. كنت انا وثيق الصلة بحمود منذ مطلع سنوات الخمسين. فقد انتخب في ذات الوقت الذي انتخبنا فيه، ياسر عرفات وانا، في قيادة اتحاد الطلبة الفلسطينيين، فلم ينقطع عن النضال الى جانبنا، في القاهرة اولا ثم قطر حيث شغل مناصب هامة كمهندس. وبرغم انه والد سبعة أطفال، فانه عرض غداة حرب الأيام الستة أن يترك وظيفته المجزية جدا ليصبح "متفرغا" في الحركة. وكان في اليوم الذي قضي فيه نحبه، على موعد مع عرفات ومعي في احدى النواحي الأردنية القريبة من الحدود السورية. ولعلمي بدقته في مواعيده فان القلق بدأ يعتريني عندما لم يأت في الساعة المتفق عليها. ولم ألبث ان انبئت بأن حادثاً خطيراً قد وقع على الطريق على مسافة غير بعيدة من البيت الذي كنا سنلتقي فيه. ولتوجسي ما هو أسوأ، وخشية مني لان أكون شاهداً لمشهد لا طاقة لي باحتماله، فاني طلبت الى عرفات أن يذهب بمفرده الى مكان الحادث. وعاد عرفات باكياً. كان عبدالفتاح حمود الذي لم يكد يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر، قد لقي مصرعه وراء مقود سيارته.

وقررنا أن تسير جنازته في عمان، حيث ظهرنا فيها للمرة الأولى. وهناك القيت

امام عشرات الألوف من الأشخاص النين جاؤوا ليودعوه الوداع الأخير، خطابا يثني على صنيعه وصنيع المقاومة.

وبعد مرور شهر على جنازة عبدالفتاح حمود، في تشرين ثاني ــ نوفمبر ١٩٦٨، جرى اختطاف ضابط من الحرس الملكي الأردني على يد منظمة سرية تدعي أنها فلسطينية، ولكننا لم نسمع بها من قبل ذلك مطلقاً.
وقد وضع الجيش في حالة استنفار وهدد باقتحام مخيمات اللاجئين لالقاء القبض على الخاطفين وتحرير رهينتهم. فكان ان طلب فريق من قادة مختلف المنظمات الفدائية ــ بينهم ياسر عرفات ويحيى حمود وبهجت أبو غربية وحامد أبو ستة وانا ــ مقابلة الملك لبحث الموضوع. وكانت تلك أول مرة أقابل الملك فيها شخصياً.

وقد أفادتني المحادثة ــ التي ظللت صامتاً خلالها لأعاينه معاينة افضل ــ افادة بالغة حول شخصية الملك حسين.

كان الملك غاضباً فأكدنا له براءتنا، وأوضحنا له اننا نجهل كل شيء عن المنظمة التي تدعي القيام بهذه المحاولة التي ندينها نحن على أي حال بمنتهى الشدة والحزم. ثم اكدنا له مجددا على ارادتنا في الحفاظ على علاقات جيدة مع السلطات الاردنية. وفي النهاية وافق الملك وأصدر أوامره للجيش برفع الحصار عن المخيمات.

وكان بعض هؤلاء يشغلون في هذه المنظمات مناصب ذات تبعات كما سنكشف ذلك فيما بعد، ففي حزيران ــ يونيه ١٩٧٠ مثلاً، استدعاني عبدالمنعم الرفاعي ــ وهو رجل نزيه للغاية ــ الى مكتبه بعيد تشكيله الحكومة، وراح يسمعني تسجيلا لخطاب القاه عشية ذلك اليوم، أبو الرائد عضو المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يرأسها الدكتور جورج حبش. كان أبو الرائد يهاجم في خطابه بعبارات مبهمة، لا الملك وحسب، وانما أفراد أسرته أيضاً. وكان الخطاب من البذاءة بحيث انني لم أطق الاصغاء للتسجيل الى آخره.

ثم أطلعني عبدالمنعم الرفاعي على رسالة من الملك يطلب فيها من رئيس وزرائه ان يقفل كافة مكاتب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والا عهد للجيش

بذلك. فأسرعت الى القصر الملكي لأوضح للملك بأننا مضطرون برغم التقزز الذي يثيره أبو الرائد، ان ندافع شأننا في ذلك شأن الجماهير الفلسطينية، عن حق الجبهة الشعبية في الوجود، امام هجوم قوات الأمن. ومرة أخرى تفهم الملك موقفنا.

ومن جهة ثانية، فان الانقسامات داخل المقاومة، كانت ضارة فبعد مرور بضعة أشهر على حرب الأيام الستة، ظهرت الى حيز الوجود عدة منظمات فدائية، غالبا ما كان هدفها الوحيد، هو اختطاف قيادة الحركة من فتح. كما أن بعضا منها لم يكن سوى انبثاق وتعبير عن الانظمة العربية التي كانت تسعى الى نقل خصوماتها وصراعاتها الى المسرح الفلسطيني.

واذ ذاك باتت المواقف الديماغوجية والمزايدات امرأ محتوما. وبات كل فريق يحاول ان يظهر انه أشد "ثورية" من جاره. ولا زلت أذكر ان ممثلي بعض المنظمات الفدائية لم يكونوا يترددون، في بعض اجتماعات العمل المعقودة مع الملك، في ان يستشيطوا غضبا ويضربوا الطاولة بقبضتهم. فكنت أجهد في مثل هذه الحالات بأن اعيد رفاقي الى جادة الصواب موضحا بأن سلوكهم لا يمكن ان يخدم قضيتنا.

وكان من الصعب في بعض الأحيان تمييز التطرف السياسي، من الاستفزاز. فازدهار الشعارات اليسارية ـ شأن ذلك الشعار الذي يدعو الجماهير الى ايلاء "كل السلطة للمقاومة" ـ وتوزيع صور لينين في شوارع عمان وحتى داخل المساجد، والدعوات الى الثورة واقامة نظام اشتراكي، كل ذلك كان ينم عن عدم وعي . كان المتطرفون يتنافسون في الخلط بين معركة التحرر الوطني التي تقصر فتح دعوتها عليها، وبين الصراع الطبقي.

ومن الصحيح كذلك ان سلوكنا نحن لم يكن غاية في التماسك. فبرغم اننا كنا نسعى وراء الحصول على دعم كافة السكان، بدون تمييز لأصلهم،الا اننا كنا ننحو منحى اهمال الاردني الاصل، لصالح الفلسطينيين. ثم ان الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم ومآثرهم، كثيرا ما اظهروا شعورا بالتفوق، وأحيانا بالغطرسة بدون ان يأخذوا حساسيات ومصالح الأردنيين بعين الاعتبار. والأخطر من ذلك كله ، هو موقفهم ازاء الجيش الأردني الذي كان يعامل بأكثر مما

يعامل كحليف ممكن.

وبلغ التوتر اوجه في شهر تموز ـ يوليو ١٩٧٠، عندما دعونا لعقد دورة استثنائية لمجلس المقاومة المركزي الذي يضم ممثلي اثنتي عشرة منظمة. وفور انعقاد الاجتماع، طرحت على رفاقي سؤالين: هل ترغبون بالاستيلاء على السلطة في عمان؟ واذا كنتم ترغبون في ذلك، فهل تقدرون ان نسبة القوى تتيح لنا الظفر؟ وأجابوا في غالبيتهم بالنفي على كلا السؤالين. فهم يعتقدون من جهة أولى، ان على المقاومة ان تتلافى الوقوع في شرك مسؤوليات الدولة والبيروقراطية، كما انهم من الجهة الثانية مقتنعون بتفوق الجيش الساحق.

وبهذا، فانهم اكدوا اقتناعي بأن التكتيك يحل لدى غالبية اعضاء المجلس المركزي محل الاستراتيجية. ومن هنا كان الغموض الخطر في سياستهم التي كانت تقودنا وفق قناعتي، الى الكارثة مباشرة. والحال هو ان الملك، كما اوضحت حينذاك، لن يتحمل طويلاً السلطة الموازية التي أقمناها في الأردن. فكان لا بد لنا من ان نختار خياراً واضحاً يتفق مع تحليلنا ومع استراتيجيتنا. فاذا كان من الصحيح اننا لا نريد قلب النظام، وانه على أية حال اعصى من ان يقهر في اللحظة الحالية، فانه يكون من الواجب الملح علينا كما رحت أؤكد، ان نعيد علاقاتنا مع الملك الى طبيعتها قبل ان يفوت الأوان.

وبعد ان انهيت عرضي، توجهت نحو بوابة الخروج وأنا أقول للمجتمعين: "من كانت تهمهم مصلحة الشعب الفلسطيني فليتبعوني فنذهب معا لنتفاوض مع القصر على نمط تعايش!" فبقيت الأغلبية مسمرة بينما غادرت قبضة من مندوبي مختلف المنظمات الأخرى غير فتح، قاعة الاجتماع برفقتي.

ولن يفهم تهافت وتناقض غالبية مجلس المقاومة المركزي، ان لم اضف انهم مقتنعين بأن الجيش لن يجرؤ على مهاجمة الفدائيين المنتشرين في العاصمة وفي البلاد.

ومما زادني قلقا على قلق، هو ان النظام كا يبدو في نهاية شهر آب ـ أغسطس واثقا من نفسه ثقة لها ما يبررها. فبعد ان التحق، شأن مصر، بمشروع التسوية مع اسرائيل، الذي قدمه وزير الخارجية الأمريكية ويليام روجرز، فانه بات يتمتع بدعم قوي على المسرح الدولي، وبخاصة، في العالم العربي. وفي ٧ آب ـ

أغسطس، أي بعد مرور اسبوعين على دخول وقف اطلاق النار ـ الذي انهى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ـ الاسرائيلية بين البلدين ـ حيز التنفيذ، ذهب الملك الى الاسكندرية، حيث حظي باستقبال حار من قبل عبدالناصر. ولدى عودته الى عمان، أُشيع، أنه اتفق مع الرئيس المصري على انهاء الحركة الفلسطينية التي وقفت بالاجماع ضد مخطط روجرز وقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي يرتكز المخطط عليه.

غير ان مجلس القاومة المركزي كان منقسما بشأن الموقف الذي ينبغي اتخاذه من عبدالناصر. فهل ينبغي ان نتصادم مع النظام المصري؟ وأجابت الغالبية التي تؤيد السياسة المغامرة على هذا السؤال بالايجاب. أما فتح، ومعها منظمة الصاعقة الموالية لسوريا وبعض المستقلين، فكانت على العكس من ذلك، مصممة على عدم قطع الجسور مع مصر. ومنذ ذاك فاننا قررنا ارسال مندوبين الى عبدالناصر سعيا وراء نمط تعايشي.

وثمة أسباب عديدة كانت تدفعنا الى القيام بهذا المسعى. فمن الناحية التكتيكية، كان الهجوم على "الريس" عملاً انتحاريا من قبلنا في ذلك الظرف. كما انه لم يكن في وسعنا من الناحية الاستراتيجية، ان نسمح لأنفسنا بقطع علاقاتنا مع أقوى البلدان العربية، والتي كان وزنها الدولي والمحلي ثمينا بالنسبة الينا. ثم اننا كنا، فضلا عن ذلك، نثق بوطنية عبدالناصر. وكنا نعرف انه لن يخوننا لأنه سبق له وأعلن جهارا بأنه يفهم موقف المقاومة من القرار ٢٤٢ ورفضها لذلك النص الذي لا يستجيب بأية صورة من الصور الى تطلعات الشعب الفلسطيني.

كان الوفد الذي ذهب الى الاسكندرية يضم ياسر عرفات وفاروق القدومي وهايل عبدالحميد وأنا (عن اللجنة المركزية في فتح) وضافي جمعاني (عن الصاعقة) وابراهيم بكر (مستقل). واستقبلنا عبدالناصر ببعض الفتور ثم قال لنا مباشرة " لقد تنزهت في حديقتي طوال ساعة لأتمالك غضبي وأنا أستقبلكم". كان غاضبا من الهجمات التي كان يتعرض لها في منشورات فتح والتي اظهر لنا بعض نماذج منها كانت مبعثرة على مكتبه. ثم أضاف انه لا يحق لنا ان ننتقده قبل أن نعرف البواعث التي دفعته الى قبول مخطط روجرز.

وأشار خلال المحادثة التي دامت اكثر من سبع ساعات الى أن هناك امكانية بنسبة واحد بالألف في أن يتحقق مشروع السلام الأمريكي لأنه يعلم مقدما انه ليست لدى اسرائيل النية مطلقا في احترام التزاماتها واعادة الاراضي المحتلة بكاملها. ولكنه سيواصل برغم ذلك جهوده للتوصل الى تسوية سلمية. وبانتظار ذلك فانه لا بد من كسب الوقت ليستعد للحرب التي تبدو له في الوهلة الأولى أمرا لا مناص منه. وأضاف انه خلال زيارته الاخيرة لموسكو طالب بتسليم مصر صواريخ سام ٧، وحصل عليها بعد أن هدد بالاستقالة. ثم أفضى لنا بأنه "سوف نستغل وقف اطلاق النار الساري حاليا، لنضع هذه الصواريخ على طول قنال السويس".

وروى لنا ان القادة السوفيات اندهشوا في بادئ الامر من انضوائه تحت راية مشروع أميركي وعرضوا عليه كبديل مشروعا تقدمه موسكو وواشنطن سوية. فرفض المشروع موضحا لمحادثيه بأنه يريد أن "يحرج" الولايات المتحدة التي التزمت لأول مرة منذ حرب حزيران ـ يونيه ١٩٦٧، بجلاء اسرائيل الكامل تقريبا عن الاراضي التي احتلتها. وأضاف: ان ميزة القرار٢٤٢، هو انه صدق على حق العرب في استعادة أرضهم المفقودة، باقرار دولي.

ثم استطرد عبدالناصر يقول بلهجة ساخرة وهو يلتفت نحو ياسر عرفات: "كم تظن انه يلزمكم من السنين كي تدمروا الدولة الصهيونية وتبنوا دولة موحدة ديمقراطية على كامل فلسطين المحررة؟" واخذ علينا ممارستنا لسياسة غير "واقعية" وقال ان دويلة في الضفة الغربية وغزة، هي خير من لا شيء.

دارت المحادثة في جو حبي اولا ثم ودي بعد ذلك وبدأ عبدالناصر مرتاحا ودعانا على العشاء على مائدته. ثم أبدى لنا قلقه من الوضع في الاردن.

وغادرنا الاسكندرية ونحن نصف مطننين. وكان الجيش الاردني يدك مراكز المقاومة. وانتهت المعارك المتفرقة وشبه اليومية، والريبة المخيمة، بأن أرهقت الرأي العام الذي بدأ تبرمه بالفدائيين الذين بات يعتبرهم مسؤولين عن الصدامات. وفي مناخ الأزمة هذا، عمدت الجبهة الشعبية في ٦ أيلول ـ سبتمبر الى اختطاف أربع طائرات، وقادتها الى مدرج هبوط في الاردن بعد أن عمدته باسم "مطار الثورة" معلنة بذلك تحديا جديدا للملك.

وبدت لنا العملية على أرفع قدر من الشبهة، شأن قرار رئيس الجبهة الشعبية، الدكتور جورج حبش، بمغادرة الاردن قبل ذلك بشهر وفي وسط الأزمة، ليقوم ... "بزيارة ودية" الى كوريا الشمالية. كانت ضربة قاسية تضع المقاومة بمجملها في منصة الاتهام. فحتى العراق الذي كان مؤيداً لنا من حيث المبدأ، وجه نوعاً من الانذار لفتح طالباً توقيف قراصنة الجو واطلاق سراح الرهائن. ذلك انهم كانوا يعزون الينا سلطانا ما كنا نملكه في الواقع. ولم يفلح ياسر عرفات في الحصول الا على "تعليق" عضوية الجبهة الشعبية في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، لكن هذا الاجراء بدا قميئا بصورة مثيرة للسخرية بعد تدمير الطائرات المخطومة بالديناميت، واحتجاز بضع عشرات من المسافرين بينهم نساء واطفال.

وعمت المعارك شمال الاردن حيث راحت المدفعية الاردنية تقصف مكاتبنا قصفا منتظما. كان علينا ان نرد وأن نسرع في الرد. والغريب هو ان العراق كان يحرضنا على الاستيلاء على السلطة. فقد جرى تقديم عرض ملموس لنا بهذا المعنى قبل اختطاف الجبهة الشعبية للطائرات ببضعة أشهر. فخلال زيارة رسمية لعمان، التقى وفد يمثل نظام بغداد ويضم ثلاثة من أبرز اعضائه نفوذا هم: عبدالخالق السامرائي وزيد حيدر ــ عضوا القيادة في حزب البعث ــ ومهدي عماش وزير الداخلية، مع ياسر عرفات ومعي في شهر ايار ــ مايو بقاعدة الحبانية. وقال لنا موفدو بغداد: "نظموا محاولة انقلاب، فستدعمكم الوحدات العراقية المرابطة في الأردن لقلب النظام واقامة سلطة شعبية" وكان في مشروعهم ان تحتل هذه الوحدات الزرقاء واربد في الشمال بينما يستولي الفدائيون على عمان.

كان شعور عرفات وشعوري هو ان العرض تعوزه الجدية. واقترحنا على محادثينا الحصول بادئا على تأييد سوريا، واذا امكن مشاركتها في المشروع وكنا نعلم ان التفاهم بين بغداد ودمشق امر مستبعد عمليا بالنظر الى المنافسات والخصومات بين العاصمتين. ثم تبين ان ريبتنا كانت في موضعها عندما لاحظنا سلبية الجيش العراقي أثناء الحرب التي ستندلع بعد ذلك بأيام بين الفدائيين والقوات الاردنية. وهكذا فقد حاولنا كل ما تمكن محاولته في الأسبوعين الأولين من أيلول ــ سبتمبر لنتلافى المواجـهة . فدخلنا في مفاوضات

مضنية دارت تحت رعاية وسيط من الجامعة العربية هو الوزير السوداني السابق أمين الشبلي. وكنا لا نزال في ١٤ ايلول نتردد في الانضمام الى اتفاق تسوية كان يبدو لنا جائرا متعسفا، حين خابرني عبدالمنعم الرفاعي بالهاتف. كان صوته في الطرف الآخر من الخط عصبيا قلقا. وقال لي رئيس الوزراء "وقعوا الاتفاق بالغا ما بلغت الكلفة" دون أن يقدم أية تفسيرات، ثم أقفل الخط.

في صبيحة اليوم التالي أقيلت حكومة الرفاعي، وكلف اللواء محمد داود، الفلسطيني الأصل، بتشكيل حكومة حرب كان كامل اعضائها من العسكريين. وفي اليوم ذاته، شنت وسائل الاعلام ولا سيما الاذاعة والتلفزيون حملة مقذعة ضد المقاومة. وفي ١٦ ايلول ــ سبتمبر وجه ياسر عرفات نداء استغاثة الى كافة رؤساء الدول العربية. لكن كان الأوان قد فات. ففي غداة اليوم التالي شنت القوات الاردنية هجوما عاما ضد الفدائيين.

وهكذا ومهما بلغت الغرابة في ذلك، الا اننا لم نكن مستعدين لمواجهة هذا الامتحان برغم انه كان متوقعا منذ بضعة أشهر: كان عدد من مسؤولي المقاومة يعتقدون اعتقادا راسخا لا حدود له بأن النظام لن يفعل ذلك. وقد تشكلت قيادة موحدة من مختلف التنظيمات الفدائية قبيل بدء المعارك ببضع ساعات. الا ان الجيش احتل مقر قيادة فتح العسكرية العامة، خلال دقائق. وكنا قد أقمنا مقر القيادة هذا في جبل الحسين. وهو حي سهل الاتيان على نحو خاص، في حين انه كان بوسعنا ان نقيمه في حي الاشرفية الذي يعصى عمليا على كل اقتحام.

وذهبت الى مقر العمليات العسكرية، الذي كان يقع هو الاخر في جبل الحسين، ولكنه لم يسقط بيد القوات الاردنية. ووجدت هناك ياسر عرفات الذي كان يحاول يائسا الاتصال بالملك بالهاتف، في حين ان القذائف كانت تتساقط حولنا كالمطر.

كنا اقل تنظيما مما كان حالنا يوم معركة الكرامة. فلم نعد اي مخطط للمعركة ولم نكن نستطيع ان نتصل ببعض القيادات العسكرية ولم نعد مخابئ لأعضاء القيادة. وكان خمسة منا موجودين في ذلك الصباح في دائرة العمليات العسكرية. وكان ينبغي لنا أن نتفرق بسرعة. واقترحت على عرفات ان يتحصن في جبل اللويبدة ، بينما غادرت أنا المكان بصحبة فاروق القدومي وابراهيم بكر

وبهجت ابو غربية لنتجه نحو مقر الاستخبارات العامة للمقاومة.

وما كدنا نصل الى طرف الشارع، حتى رأينا أربع أو خمس دبابات من الجيش تخرج وتتقدم نحونا وهي تطلق النار في كافة الاتجاهات. فأسرعنا نحو أقرب منزل حيث وجدنا أردنياً من الطائفة المسيحية عرض علينا ضيافته. ولم نكن نعلم اننا سنضطر لأن نمضي خمسة أيام دراماتيكية في ضيافته تم بعدها اعتقالنا.

كنا لا نزال نجهل بأن وحدات سورية عبرت الحدود لتساعد الفدائيين، مثلما كنا نجهل أن ضغوطا سوفياتية ومصرية كانت تمارس على دمشق لسحب قواتها تلافيا لتدخل عسكري اسرائيلي ـ اميركي. وانما عرفنا فيما بعد، بأن الجيش السوري انسحب بعد دخوله بأربعة أيام. اما الوحدات العراقية فانها ظلت سلبية كما توقعنا تماما.

وباختصار، فان كافة الاصداء التي كانت تتناهى الينا من خارج سجننا لم تكن أخبارا مفرحة. وذات مساء جاءتنا ثلاث شخصيات أردنية بينها رئيس الأركان العامة ورئيس الاستخبارات للتباحث معنا. فعرضت عليهم مشروع اتفاق لوقف اطلاق النار لا يدخل حيز التنفيذ الا بعد موافقة ياسر عرفات وبقية اعضاء القيادة. وألحيت برغم اعتراضات فاروق القدومي وابراهيم بكر ـ بأن يعرض المشروع على الملك على مسؤوليتي وحدي. كان تفكيري هو التالي: اذا كان الفدائيون على وشك الهزيمة، فانني أكون قد قدمت لهم مخرجا مشرفا، ووفرت حياة كثيرين، أما اذا كان الظرف لصالحهم فانني أكون المتورط الوحيد بالمبادرة.

وكان المشروع الذي حررته بحضور محادثي الأردنيين يتضمن أربع نقاط: عودة الجيش الى ثكناته، اخلاء الفدائيين لعمان، الشروع في مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، اقامة قواعد فدائية على طول الخط الفاصل عن الاراضي التي تحتلها اسرائيل.

وبناء على اقتراح الشخصيات الأردنية المطلقة الصلاحية هذه، فانني قرأت النص بصوت عال فسجلوه بدون علمي ونقلوه للملك. وكان الاتفاق بيننا هو ان نذهب رفاقي وأنا الى سفارة مصر حيث نتصل بعرفات بالراديو لأخذ موافقته.

وبعيد وصولنا الى مدخل القصر الملكي ، جاء الملك حسين ليرحب بنا .

وعانقني بحرارة وقال لي بلهجة اللائم: "أأنت راضٍ عن المأساة التي نعيشها؟" وأجبته: "يا صاحب الجلالة: لقد فعلنا كل ما فيِّ وسعنا لتلافي هذه الكارثة، وأنتم لا تجهلون ذلك". وأخذني الملك من ذراعي ومضى الى داخل القصر مؤكداً لي انه سيفتح تحقيقا بهذا الموضوع.

دارت المحادثة التي جرت بيننا وبين أعضاء الوفد العربي بحضور الملك حسين، حول وسائل الاتصال بعرفات لفرض وقف اطلاق النار بأسرع ما يمكن، كان الجو متوتراً، وانسحبت مع بعض أفراد البطانة الملكية الى الطابق الأرضي من القصر. وبينما كنت أتحادث مع رئيس الوزراء السابق أحمد طوقان، فانني طلبت بعض الماء لأشرب. فرماني مرافق عسكري شاب كان يقف الى جانبنا بعبارة شتيمة مضيفاً أنه يفضل أن يراني "أموت عطشاً". وذهب أحمد طوقان ليبلغ الحادث الى الملك الذي ما لبث ان جاء بعد بضع دقائق وفي يده كوب ماء.

وقرر الوفد العربي ان يعود مساء اليوم نفسه الى القاهرة ووافق الملك حسين على أن يطلق سراح أصحابي الثلاثة.

وفي ٢٨ سبتمبر ـ أيلول، غداة توقيع اتفاق وقف اطلاق النار بين الملك حسين وياسر عرفات، كنا ـ فاروق القدومي وانا ـ لدى أصدقاء في القاهرة حين توقفت الاذاعة فجأة، وبدأت تبث آيات قرآنية. وخالجنا شعور بأن مصيبة حلت بعبدالناصر، ثم لم يلبث بعض الصحفيين الأصدقاء أن أكدوا لنا النبأ الرهيب: لقد مات الرجل الذي أنقذنا.

وبرغم ألمي الذي لا يطاق، فإنني حررت باسم فتح رسالة تعزية الى أنور السادات، بصفته نائب رئيس الجمهورية. كان النص ينبع من قلبي وكنت واثقا أن كل كلمة فيه، تعبر عن أعمق مشاعر الفلسطينيين كافة. وجاء في الرسالة ما فحواه، ان عبدالناصر الذي يجسد تطلعات وأحلام الأمة العربية كلها، قد سقط في ساحة الشرف، وستظل أفكاره محفورة في ذاكرة الأجيال المقبلة من الشعب الفلسطيني الذي أعاد اليه كما أعاد لكافة الشعوب العربية الأخرى، الكرامة والأمل .. وعلم عرفات وأبو جهاد وأبو مازن الذين كانوا يتجولون ذلك المساء في سيارة بدمشق، بالنبأ من الاذاعة التي بثت النبأ كما بثت نص برقيتي. وانفجر الثلاثة بالبكاء. وعندما رأيت عرفات الذي عاد مسرعا الى القاهرة كانت الدموع

لا تزال تنهمر من عينيه.

وقد يدهش البعض من عمق حزننا، معللين دهشتهم بالخلافات وأحيانا بالمصادمات التي جرت بيننا وبين عبدالناصر. ان هؤلاء لن يفهموا كذلك أسى الشعب المصري الذي راح يندب ويولول بالملايين في جنازته، مثلما نادى به في ٩ و ١٠ حزيران ـ يونيه، بعد حرب الأيام الستة. كان عبدالناصر أبا لنا جميعا وهاديا، حتى ولو كان يحدث له أن يخطيء. وقد أدى كوطني، خدمات جلى للشعب المصري، وقدم، كقومي عربي، معونة لا تقدر للشعب الفلسطيني. ذلك أنه كا يحبنا حبا صادقا.

وظل وفيا للالتزامات التي قطعها لنا منذ لقائنا الرسمي الأول عام ١٩٦٨ وكان كثيرا ما يستقبلنا دون أن يحسب حساب الوقت الذي يوليه لنا. فكانت محادثاتنا تتصف بالصراحة وتنتهي دائما بنتائج ملموسة. ولا زلت أذكر محادثة أجريناها معه ـ عرفات وانا ـ في تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩٦٩ بحضور أنور السادات. فقد حرص على أن يوصلنا الى درج مدخل منزله، ثم راح يتتبعنا بعينيه ونحن نتجه نحو سيارتنا. ورأيت نظرته، كانت نظرة مشرقة مليئة بالحنو الأبوي وبالرضى. وهمس السادات الذي كان يسير الى جانبنا يقول: "ان الريس يحبكما كثيراً أنتما الأثنين، وهو يسعد كثيراً عندما يراكما متحدين في الكفاح، فأيداه بلا قصور، فانه يحتاج الى ذلك".

وعندما عدت الى عمان في نهاية شهر تشرين الأول ـ اكتوبر، خصصت زيارتي الأولى للقاضي الذي آوانا بشجاعة، أصحابي المنكودي الحظ الثلاثة وأنا. وبطبيعة الحال، فقد حافظت على سره ولم تفلح المخابرات في. ورحنا نمرح ونثير حول مائدته العامرة، بعض الفصول المأساوية ـ الكوميدية في محنتنا المشتركة. وأجريت عدة مباحثات مع الملك حسين ووصفي التل، تهدف الى تركيز اطار علاقاتنا المستقبلية.

عندما عقدت القيادة اول اجتماع بكامل هيئتها في شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٧١ قررنا تعزيز قواعدنا في لبنان كما وكيفا، للعودة الى شن الهجمات الفدائية ضد اسرائيل انطلاقا من الجنوب. وأخيرا فقد تقرر أن تجري الدعوة لعقد مؤتمر استثنائي في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر من السنة التالية لتجديد الوسائل

اللازمة لاعطاء الحركة اندفاعا جديدا.

كان مؤتمر فتح الذي انعقد في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧١، أحد أهم المؤتمرات التي شهدتها منظمتنا ابان وجودها كله. فقد بدأ تنفيذ مبادئ المركزية الديمقراطية،: ولأول مرة يجري تعيين اعضاء المؤتمر (حوالي ثلاثماية) وأعضاء القيادة (تسعة) بالانتخاب. وأظهرت اعادة انتخابي لعضوية اللجنة المركزية بأغلبية ساحقة مدى الثقة التي كنت لا أزال اتمتع بها لدى "القاعدة" وجرى تعديل الانظمة الداخلية واعتمد خط سياسي جديد. وكان احد البنود البارزة هو ذلك الذي ينص على أن حرب العصابات هي احدى الوسائل (الوسيلة الوحيدة) التي نملكها لخوض نضالنا التحرري.

ولأنه لم يعد في الوسع خوض حرب فدائية تقليدية عبر الحدود الاسرائيلية. فان شبيبة فتح كانوا حريصين على ممارسة عنف ثوري من نوع آخر، أي من ذلك النوع الذي يطلق عليه عادة في مواضع أخرى اسم "الارهاب". وتلافيا لان يتخذ هذا العنف شكلا فوضريا، فانه لم يكن ثمة سبيل آخر أمامنا سوى تحويل موجة الغضب واعطائها بنية وذلك بأن نزودها بمحتوى سياسي.

الفصل السادس

شــرارة اكــتوبــر

كانت المرة الاولى التي سمعنا فيها كلاما عن الحرب الوشيكة التي لم ينفك السادات يعلن عنها منذ شهور. ففي شهر آذار ـ مارس، اي قبل غارة المغاوير الاسرائيليين على بيروت بحوالي شهر. كنا اربعة حين استقبلنا رئيس الدولة المصري: ياسر عرفات ويوسف النجار وابو جهاد وانا. وقبل المحادثة، افضى لنا ضباط كبار في الجيش، ان موعد المعارك قد تحدد في شهر ايار ـ مايو. غير ان السادات تحدث الينا بلغة اخرى تماما. فهو لم يكتف بعدم اثارة احتمال قيام نزاع بل انه راح يشتكي مطولا من تردد الاتحاد السوفياتي في شحن الاسلحة ذات الاهمية الحاسمة. ثم كرس جزءا هاما من المحادثة لاستعراض تاريخ العلاقات المصرية السوفياتية والعداوة التي يوليها له قادة الكرملين في رأيه.

وفي اواسط شهر آب ـ اغسطس، طلبنا ـ فاروق القدومي وانا ـ مقابلة الرئيس المصري لمناقشة بعض القضايا الراهنة معه، فاجابنا بأنه مستعد للتحادث مع واحد منا فقط على انفراد. واذ اثار ذلك استغرابنا فاننا الحينا على الا ننفصل، موضحين ان احدنا لا يكتم عن الاخر سرا. وهكذا، فقد دعانا السادات الى مقابلته في قصره برج العرب الواقع على الطريق من الاسكندرية الى الحدود الليبية على بعد بضعة كيلومترات عن شاطىء المتوسط. واستقبلنا رئيس الدولة المصري وهو بلباس صيفي وبوجه هادىء، تحت شرفة مقره وبدأ حديثه معنا بترهات، ثم اتبع ذلك بطرح اسئلة حول وضع المقاومة الفلسطينية العام. الا انه بدا لنا شارد اللب، يولي اجوبتنا اهتماما ضئيلا. ولم نلبث ان عرفنا سبب ذلك. ذلك انه غير الموضوع فجأة واعلن علينا بلا مواربة، انه سيشن الحرب ضد اسرائيل "قبل نهاية هذه السنة". ثم اشار ضمنا الى الموعد التقريبي عندما اضاف انه سيبلغنا بصورة اوفى بالموعد، بعد "قمة" البلدان غير المنحازة الذي سوف يعقد في مطلع ايلول ـ سبتمبر "اي قبل بدء الاشتباكات بقليل". وانه قد اطلق اسم "الشرارة" على هذه العملية التي سوف تخاض بالاشتراك مع سوريا. ثم بادر مضيفا: وهذه الحرب لن تكون كاملة، بل سيكون هدفها اخراج المشكلة العربية الاسرائيلية من المأزق. ثم اضاف بكل هدوء، وكما لو ان المسألة بديهية: "بعد هذا نذهب معا الى مؤتمر السلام".

واعترف اننا لم نول كثيرا من الانتباه، لا القدومي ولا انا، لهذا التأكيد الاخير، ذلك ان فكرة الحرب ضد اسرائيل كانت تثير لدينا حماسا بالغا . فمصر

وسوريا، بلدا ساحة المعركة الرئيسيان، قد فهمتنا اخيرا ضرورة الكفاح المسلح! وبطبيعة الحال فاننا اكدنا للسادات تضامننا الكامل وسألناه عما يتوقعه من جانبنا. فاجابنا بأنه يتمنى ان يكون في وسعه التصرف بأكبر عدد ممكن من الفدائيين ومن وحدات جيش التحرير الفلسطيني لتشترك في المعركة. ثم طلب الينا ان نتكتم بأقصى قدر ممكن، حتى في محادثاتنا مع الرئيس السوري حافظ الاسد الذي لا ينبغي ان يطلع على هذه المحادثة. ثم استدعى بعد ذلك عبد السلام توفيق، الذي كان تعين لتوه على رأس المكتب الثاني، وطلب اليه ان يستقبلنا لتسوية المسائل العملية التي تطرحها مشاركتنا في المعركة.

وحسب الاتفاق، فان السادات استقبلنا ــ عرفات والقدومي وانا ــ غداة مؤتمر الدول غير المنحازة، وبالتحديد في ٩ ايلول ــ سبتمبر، عشية الاجتماع الذي كان سيعقد بين الاسد والملك حسين الذي لم يبح له الرئيس المصري بأية كلمة حول مشروعه بصدد الحرب. فالهدف الرئيسي لهذه القمة، هو اعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وسوريا وبين الاردن، بعد ان كانت قطعت. فمن شأن هذه العودة بالعلاقات الى طبيعتها، ان توجد اوضاعا اكثر مؤاتاة على الجبهة الشرقية خلال المعارك المقبلة.

وقدم لنا السادات ابان محادثاتنا معه في ٩ ايلول ــ سبتمبر، عرضا مفصلا لمشروعه، الا انه الح هذه المرة، على مرحلة ما بعد الحرب. واشار الى انه هو نفسه سيدعو الى عقد مؤتمر سلام. ولم يسم جنيف كمكان للاجتماع ولكنه عدد البلدان التي ستتمثل فيه، فكانت تقريبا نفس البلدان التي شاركت في اجتماع المدينة السويسرية في شهر كانون الاول ــ ديسمبر من السنة نفسها: اي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي واسرائيل ومصر وسوريا والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وعندما سألنا نحن بدورنا السادات بأي صفة سوف يدعى الاردن الى الاجتماع، فانه قدم لنا تفسيرات لا تقنع كثيرا. واما بصدد مشاركتنا الخاصة فيه، فاننا لم نعرب له عن اي رأي، لان علينا ان نعود في هذه المسألة الى الهيئات القيادية في المقاومة. فالمسألة الاساسية القوية بالنسبة لنا: هي مسألة تحديد الشروط والاوضاع التي سنشارك من خلالها بالمعركة.

وفي ١٢ ايلول ــ سبتمبر استقبل السادات لهذا الغرض، عرفات حيث اكد لرفيقنا قبل ان يفترقا، بأنه سيبلغه بالموعد المحدد للاشتباكات في حينه.

ولدى عودتنا الى بيروت، عقدنا على التوالي اجتماعين للقيادة الفلسطينية لاطلاعها على نوايا القادة المصريين وذلك بأقصى ما يمكن من ابهام في الكلام وغموض في التعابير. الا ان ذلك لم يترك اثرا على غالبية رفاقنا بسبب ان الريبة والتشكك كانا يخيمان في تلك الحقبة على جدية التهديدات التي كان رئيس الدولة المصرية يطلقها علنا.

وفي ٣٠ ايلول ــ سبتمبر، اي قبل اندلاع المعارك بستة ايام، تلقيت رسالة من سفارة مصر في بيروت تطلب مني ان اسافر الى القاهرة على عجل. وابلغت ممثلي مختلف المنظمات الفدائية الذين كنت مجتمعا معهم موضحا بأني اعتقد ان لهذه الدعوة علاقة بالحرب الوشيكة. فأثارت ملاحظتي قهقهات صاخبة. وقال لي ابو ماهر اليماني من الجبهة الشعبية (جورج حبش): اراهنك على خروف كامل بأن السادات لن يحارب! فقبلت الرهان. الا انني لما كنت لا اعتقد ان النزاع قريب الحدوث، فانني لم اغادر بيروت الى القاهرة الا يوم الخميس ٤ تشرين الاول ــ اكتوبر حيث وصلتها مساء.

ووجدتني امام حدث غير اعتيادي، ذلك ان ضابطا كبيرا كان ينتظرني في المطار. وما لبث ان قادني الى وزير الحربية المشير احمد اسماعيل علي الذي قال لي:سنهاجم بعد غد. لقد تأخرت في المجيء، ولا بد من اخطار ياسر عرفات فورا. ولم اشأ من قبيل التروي والحكمة، ان ارسل رسالة "بالشيفرة" بل كان لا بد من العهدة بالرسالة الى موفد، الا انه لم يكن ثمة طائرة تطير الى بيروت في ذلك المساء. وهكذا فقد حررت مذكرة واضحة وضعتها في ظرف مختوم وسلمتها في صباح اليوم التالي الى احد افراد المقاومة وطلبت منه اتلافها في حال اختطاف الطائرة الى اسرائيل او سواها. واندهش الرسول. اذ لماذا كل هذه الاسرار والاحتياطات. فاخترعت له على البداهة تفسيرا، بدا له لحسن الحظ مقبولا: فالمغلف الذي سيوصله الى عرفات يدا بيدا، يتضمن كتاب استقالتي من الحركة، التي لا اريد ان افشيها قبل ان تقبل.

وليس من السهل في العادة الاتصال بعرفات في اجل قصير ، وعلى هذا فان

حامل الرسالة لم يستطع ان يسلمها له الا في ساعة متأخرة من مساء الجمعة، وبعيد ذلك بساعات كانت كافة قوات المقاومة قد وضعت في حالة استنفار. وفي الغداة ستنطلق القوات المصرية لغزو قنال السويس، في حين ان الجيش السوري سيقتحم سهول الجولان ثم مرتفعاته.

وفي يوم الهجوم، طلب الينا ـ فاروق القدومي وانا ـ ان لا نغادر منزلينا، اذ يجب ان نظل على اتصال بالرئيس السادات الذي يحرص على ان يرانا. وعرفنا بارتياح ببدء الاشتباكات في الساعة الرابعة عشرة من الاذاعة. وفي الساعة السابعة عشرة ابلغنا بأن رئيس الجمهورية سوف يستقبلنا في الساعة التاسعة عشرة تماما، في قصر الطاهرة بمنشية البكري في ضواحي القاهرة.

وبدا المقر الرئاسي الصغير نسبيا والمزخرف بذوق، على هيئة القلعة. فهو محاط بالمدرعات والرشاشات الثقيلة وبعدد وافر من الجند المسلحين بعد ان تحول الطابق الارضي منه الى ما يشبه مقر قيادة اركان عسكرية. واستقبلنا السادات في صالون مجاور ببزة مارشال (لانه بحكم الدستور، القائد الاعلى للقوات المسلحة). وعلى عتبة الباب راح يقول لنا بلهجة المنتصرين وبعينين تلتمعان من السرور: "ألم اقل لكم انني سأحارب؟ فهل تصدقونني الآن" ولم يسبق لي ان شاهدت السادات في مثل هذه الحالة من النشوة. فقد كان يشع بالرضا الذاتي ويفيض فرحا ويزخر حماسا: "لقد عطلنا خط بارليف عمليا، والجسور البرمائية قيد الانشاء. ثمة جسر واحد يسبب لنا بعض المتاعب لانه ليس صلبا بما فيه الكفاية". كان السادات يطلعنا على الوضع العسكري، اولا بأول ووفقا للرسائل التي تصل الى غرفة العمليات او على اثر تلقيه مكالمة هاتفية قصيرة. وقد راح يصيح وهو يزداد تهيجا وحماسا: "أول دباباتنا عبرت قنال السويس للتو والمدفعية تليها بعد قليل".

وحدثته عن الفرحة التي انفجرت في شوارع القاهرة لدى اعلان الهجوم واضفت ان الشعب المصري وكافة الشعوب العربية تأمل ان تمحو العار الذي اوقعته بها اسرائيل في حرب الايام الستة في حزيران ـ يونيه ١٩٦٧. واصغى الي السادات جذلا وقال لي: "يا لجمال القوة! نحن اقوياء! وسنربح!" وطوال ساعات ذلك المساء لم يتحدث الا عن العنف والفتح. وكانت تلك هي المرة الاولى والأخيرة التي لا اسمعه يلفظ فيها كلمة السلام او المفاوضات . واعترتنا الدهشة عندما صرح لنا

قائلا: "أن جيوشي ستندفع حتى ممري متلا والجدي (نقاط السيطرة على سيناء) ثم اترك بعد ذلك للفدائيين مهمة مواصلة حرب العصابات.

كانت النجاحات الاولى تغذي فيه التفاؤل. وبعيد عبور الجيش الثالث القنال في الساعة الحادية والعشرين والنصف، قال لنا: انه شيء خارق عجيب فقد توقعنا ان تكلفنا هذه المرحلة عدة آلاف من القتلى. وقد علمت لتوي اننا فقدنا اقل من مائتين. اليس رائعا".

وحوالي الساعة الثانية والعشرين والنصف، اوصلوا له برقية فاظلم وجهه فجأة. وقرأ الرسالة التي اعاد قراءتها وبدا ان الحزن والغضب يجتاحانه. وارتسمت عليه بادرة تبرم وقال لنا:اني لا اتمكن من التصديق. فالسوفيات يبلغونني ان حافظ الاسد طلب من سفيرهم في دمشق العمل للتوصل الى وقف لاطلاق النار". فجعلنا النبأ نتردى بدورنا في حيرة عظيمة. فالعقل لا يتصور ــ من جهة اولى ــ ان تكون موسكو اخترعت هذه القصة ولفقتها تلفيقا. ولماذا؟ ــ من الجهة الثانية ــ يطلب الأسد وقف المعارك في حين ان جيشه يمضي في الجولان من نصر الى نصر!

وفي هذه اللحظة التي كنا نطرح فيها هذا السؤال افلتت من السادات على غير ارادة منه، جملتان لم تنفكا تتسلطان علينا وتلاحقاننا منذ ذاك. فقد قال: "مع اننا اتفقنا انا والأسد مع فيصل (ملك العربية السعودية) على ان نواصل الحرب عشرة ايام على الاقل! لأنه يحتاج الى هذه المهلة على الأقل ليمهد الطريق امام حظر النفط".

وبقينا ــ القدومي وانا ــ فاغري الفاه امام جسامة هذا الاعلان. واذا فان هدف الحرب لم يكن تحرير سيناء وانما تسهيل ممارسة الضغوط الاقتصادية على الغرب. وعلى هذا فانها كانت محكومة بأن تكون جزئية حتى قبل ان تبدأ.

ولم يلبث السادات ان اطمأن. فبعيد تسليمه الرسالة السوفياتية، تلقى في حضورنا مكالمة هاتفية من الأسد عبر له فيها عن ارادته في مواصلة القتال. وراح يؤكد له بقوة: كلا لم اطلب وقف اطلاق النار من سفير الاتحاد السوفياتي في دمشق. ولم تسنح لي من جهتي الفرصة لأسأل اصدقاءنا السوفيات حول هذا الموضوع، الا ان في وسعي ان اعرض رواية الرئيس السوري كما ابلغني اياها في محادثة لي معه جرت في كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٨.

فقد سخط الأسد واستنكر عندما رويت له حديث السادات عن اتفاق سري معقود مع الملك فيصل. (وكذلك مع الولايات المتحدة، في رأيي، لأنها جنت من عدة نواحي مكاسب سياسية واقتصادية عظيمة من حرب تشرين ـ اكتوبر) وقال لي الرئيس السوري انه اتفق مع السادات، فقط على ان يطلبا وقف اطلاق النار معا بعد فتح الجولان وسيناء، حتى ممري متلا والجدى.

ثم راح يبدي التعجب قائلا: "ولو كنت أعلم ان الجيش المصري سيتوقف على مسافة بضعة كيلومترات وراء القنال، لحددت لجيشي أهدافا اكثر تواضعا فأوفر عليه خيبات الأمل التي حدثت له بخطأ السادات!" والواقع هو ان توقف الهجمة المصرية اتاح لاسرائيل ان تصرف قوات هامة وتوجهها الى الجبهة السورية.

وفهمت عندئذ لماذا طلب الينا السادات في آب ـ اغسطس الا نكرر على مسامع الأسد ما افضى لنا به حول الاهداف المحدودة للهجوم الذي يعتزم القيام به. فقد قال لنا حينها ليحضنا على التكتم ان الرئيس السوري يكرهنا، ويكره عرفات بخاصة، فلن يعجبه بالتالي ان نشرك بصورة وثيقة بمشروعهما المشترك. كانت حرب تشرين في نظر السادات "شرارة" فعلا كما أشار أمامنا في شهر آب وليست الحريق الكاسح الذي كان يأمله العالم العربي كله.

دامت محادثتنا مع السادات مساء ٦ تشرين الاول ـ اكتوبر اربع ساعات متتالية. وقد شعرنا بالضيق ـ فاروق القدومي وانا ـ لاستغلالنا وقت رئيس الدولة الثمين، خاصة وانه كان مستغرقا بمهمة عصيبة. الا انه كان يلح علينا كلما حاولنا الاستئذان والانصراف ان نبقى برفقته. ولم نفهم حينها مرد لياقته ازاءنا. وعندما استرجع ذلك الآن واعيد النظر فيه، يراودني الاعتقاد بأنه كان يسعى الى ضمان تأييد الفلسطينيين له حالة خسارته للحرب- الامر الذي كان كارثة بالنسبة لمستقبله السياسي ـ او في حالة ربحه لها. واعتقد، من منظار هذا الاحتمال الاخير، انه كان يأمل ان يكسب ثقتنا لكي يتمكن من جعلنا ننخرط في مسار السلام الذي ينوي السير فيه. ثم تركنا ننصرف في النهاية في الساعة الثالثة والعشرين عندما جاء من يعلن عليه زيارة اثنين من المقربين له: نائب رئيس الجمهورية السابق حسين الشافعي ورئيس مجلس الشعب (البرلمان) سيد مرعي.

ودارت حرب تشرين ـ اكتوبر دون ان نسمع كثيرا من الكلام عنا. فالبيانات العسكرية التي كانت تبثها القاهرة ودمشق كانت تذيع الانتصارات المصرية والسورية، ولكنها كانت تغفل في غالب الاحيان ان تشير الى صنائعنا او حتى حضورنا برغم انه كان فعالا على كافة الجبهات. فقد نقلت عدة وحدات من جيش التحرير الفلسطيني بالطائرات العمودية (الهليوكبتر) منذ اليوم الاول للقتال وانزلت وراء الخطوط الاسرائيلية، فاستولت على اربعة تلال من تلال القنيطرة بالجولان. وعبر مغاوير من الفدائيين الحدود اللبنانية القريبة وهاجموا مؤخرة الجيش الصهيوني في الجليل الاعلى. وقام آخرون بقصف عدة كيبوتزات فيما وراء الحدود اللبنانية. ومنذ اليوم السادس من تشرين الاول ـ اكتوبر، قام نحو من ٧٠٠٠٠ عامل فلسطيني في الضفة الغربية وغزة يعملون في مؤسسات اسرائيلية بالاضراب عن العمل. وبالاجمال فقد قمنا خلال الاسبوع الاول من الحرب ـ باعتراف غولدا مئير نفسها ـ بأكثر من مئة عملية.

بيد ان تاريخ حرب تشرين ـ اكتوبر، لم يكتب بعد، برغم ذلك العدد من المؤلفات الجيدة التي كرست له. فالواقع ان بعض الحقائق لا تزال في الظل، كما ان عددا اخر منها يشكل الغازا لم تفك رموزها بعد، واحد هذه الالغاز، وهي ليست اصغرها شأنا، هو بلا نزاع، عبور رجال الجنرال شارون قنال السويس بواسطة عملية اختراق ستقلب مجريات الاحداث وتنهي انتصار الجيش المصري.

فما زلت الى اليوم اجد في سلوك القيادة المصرية العليا، وفي سلوك السادات نفسه، ازاء محاولة الجنرال شارون امرا يستعصي على التصديق. وليحكم من يشاء على ما سأقول. ففي العشرين من تشرين الاول، اي قبل اربعة ايام من قيام وحدات المغاوير الاسرائيلية بعبور القنال عند نقطة، تعرف باسم الدفرسوار، قريبة من البحيرة المرة الكبرى (التمساح)، قام عملاء المخابرات المصرية المتنكرين بثياب بدوية، بارسال اشارة الى القاهرة (بواسطة اجهزة ارسال) تفيد بمرور جسور ودبابات برمائية في العريش. فطبيعة هذا العتاد نفسه، هي بحد ذاتها برهان على ان الجيش الصهيوني سيحاول اجتياز القنال وتطويق الجيش الثالث المرابط على الضفة الشرقية للقنال. كما ان قيادة الاركان في القاهرة تمتلك في ملفاتها عدة مخططات، اعدت منذ ايام عبد الناصر او منذ عهد قريب، بهدف تلافي حدوث عمليات اختراق في اربع نقاط ضعيفة على الاقل، بينها نقطة الدفرسوار بالتحديد.

واذن فانه ليس في الخطة الاسرائيلية شيء غير متوقع. فماذا فعلت القيادة المصرية العليا؟ لا شيء. كما ان المعلومات التي وردت من العريش في ١٠ تشرين الاول لم تبلغ في ظاهر الامر للسادات.

وبعيد ذلك بيومين، وبعد ان وصلت طليعة قوات الجنرال شارون الى منطقة الدفرسوار، جاء النفير الثاني، ولكن من جانب ممثلينا هذه المرة. فقد قام قادة جيش التحرير الفلسطيني ووحدات فتح المكلفة مع الجيش الكويتي بالدفاع عن الدفرسوار، بابلاغ القاهرة بالهجوم الاسرائيلي الوشيك. الا ان المسؤولين المصريين لم يقوموا بأي رد فعل ولم يرسلوا تعزيزات للدفاع عن هذه النقطة الحساسة. وفي يوم ١٤ تشرين الاول انتقل الجنرال شارون الى الهجوم وتمكن من تسريب بضع دبابات وراح يحاول توسيع الثغرة. فقاتل رجالنا ببطولة وسقطوا في ساحة الشرف بالعشرات. كان الوضع عصيبا ولكنه لم يكن يائسا. فلا يزال في الوقت فرصة لكي تتخذ القيادة المصرية العليا اجراءات ترد العدو على اعقابه. ولكنهم تركوا الامور تجري على هواها. اما السادات الذي القى في ١٦ تشرين الاول خطابا متلفزا تحدث فيه عن نجاحات جيشه، فانه لم ينبس بكلمة حول المعارك الجارية على ضفتي القنال. وهو لا يمكن الا ان يكون على علم بالكارثة لاني انا نفسي كنت على علم كامل بالوضع.

فكيف نفسر سكوت وسلبية قيادة جيشه العليا؟ ان السر لا يزال قائماً. ان العيب الرئيسي في حرب تشرين، هو ان السادات رسم لها اهدافا محددة، دون ان يدرك انها لا تستطيع بلوغ هذه الاهداف الا اذا مضى بهجمته الى غايتها. بيد انه برغم تحفظاتنا فقد دعمنا دعما كاملا هذا المشروع الذي ظهر طابعه الوطني عبر الحماس والتفاني اللذين اظهرهما الجنود المصريون والسوريون. فقد قاتلوا بشجاعة ومحوا الى الابد صورة الشعوب العاجزة عن السيطرة على التقنيات الحديثة، تلك الصورة التي ساهمت اسرائيل مساهمة واسعة في نشرها منذ قتال عام ١٩٦٧. فتقدم المدرعات السورية الصاعق في الجولان، وعبور الجيش المصري لخط بارليف، سيسجلان في رصيد الامة العربية الايجابي برغم النكسات التي تلقتها بعد ذلك.

ولكنه لا بد بالمقابل ان يسجل في رصيد الدول العربية السلبي، قصورها وعجزها عن استخدام سلاح النفط الذي تملكه استخداما كاملا. فبرغم الفوائد

المالية الهائلة التي جنتها من الحظر، الا انها انهته بصورة سابقة للاوان، وقبل بلوغ الهدف الذي رسمته لنفسها، وأعني تحقيق جلاء اسرائيل الكامل عن الاراضي المحتلة. فهل كانت مهددة بتدخل عسكري امريكي؟ ان هذا ممكن! وهل عقدوا صفقة تنقذ الولايات المتحدة بموجبها الجيش المصري الثالث المحاصر من قبل القوات الاسرائيلية على الضفة الشرقية وتحميه من التدمير، مقابل رفع الحظر؟ ان هذا معقول. ومهما يكن من امر، فان من المؤكد ان ضغوطا غربية شديدة -امريكية واوروبية- قد مورست، وان مصر وسوريا لم تستطيعا مقاومة هذه الضغوط. ثم ان السادات الذي سبق له ان اعلن في خطابه بتاريخ ١٦ تشرين الاول، عزمه على الا يفاوض على تسوية قبل جلاء اخر جندي اسرائيلي من الاراضي المحتلة، عاد فترك نفسه ينساق الى شرك المساومات الذي نصبه له وزير الخارجية الامريكي الدكتور هنري كيسنجر.

ولم تكد الحرب تنتهي، وبينما كان الجيش الثالث لا يزال محاصرا، حتى كان السادات يريد ان يبدأ التفاوض مع اسرائيل. وفي ٢٦ تشرين الاول، اي بعد مرور ثمانية واربعين ساعة على وقف اطلاق النار الثاني، حدد لنا محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الاهرام، الذي كان احد مستشاري الرئيس المصري المسموعين في تلك الحقبة، موعدا لمقابلة هذا الاخير في اليوم نفسه. واستقبلنا السادات في قصر الطاهرة. وقبل ان نتمكن من الجلوس _ فاروق القدومي وانا _ سألنا فجأة: واذا. هل تقبلون بالاشتراك في مؤتمر السلام؟.

كان السادات يبدو قلقا ونافذ الصبر في آن معا. ففي خطاب ١٦ تشرين الاول، اشار الى ان "الفلسطينيين" يجب ان يشركوا بالضرورة في عملية السلام. اما اليوم فانه يريد ان يعرف ما اذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية توافق على تمثيل الفلسطينيين حول الطاولة المستديرة. وقلت له اننا لا نستطيع الاجابة على سؤاله قبل ان نطلع اطلاعا واسعا على حيثيات الموضوع. ونحن نريد ان نعرف ماذا سيكون مؤتمر جنيف بالضبط، ووفق اية شروط سوف ندعى الى حضوره والمشاركة فيه. وقدم لنا الرئيس المصري بعض التوضيحات: فقد كتب الى الحكومتين الامريكية والسوفياتية ليعرض عليهما المشاركة في الاجتماع وليقترح مشاركة فرنسا وبريطانيا كذلك، الى جانب مصر وسوريا والاردن والفلسطينيين، ثم وبطبيعة الحال، اسرائيل. واضاف في رسالته ان المؤتمر يجب ان ينعقد تحت رعاية

الامم المتحدة في نيويورك او في جنيف حيث تملك الامم المتحدة مكانا لهذا الغرض. ثم اردف من باب طمأنتنا:واي سوء في هذا طالما ان الدبلوماسيين العرب يقابلون عادة ممثلي اسرائيل في مختلف محافل المنظمة الدولية.

واعترضنا قائلين ان منظمة الامم المتحدة مكلفة بتطبيق قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي جرى تبنيه في ٢٢ تشرين الثاني-نوفمبر عام ١٩٦٧، وهو القرار الذي نرفضه نحن لانه لا ينص على حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة ولهذا فان ذهابنا الى جنيف او الى نيويورك ضمن هذه الشروط، يعني اننا نقبل التفاوض على اعادة حقوق "اللاجئين" كما يشير اليهم القرار ٢٤٢. وراح السادات يحاول ابعاد اعتراضنا بالاعلان علينا: ليس عليكم الا ان تتجاهلوا هذا القرار. تعالوا واعرضوا وجهة نظركم واعرضوا مطالبكم، ايا كانت هذه المطالب. دافعوا اذا اردتم عن اطروحتكم حول ضرورة تفكيك دولة اسرائيل كمقدمة لاقامة فلسطين ديمقراطية متعددة الطوائف. فالامر الضروري هو ان تكونوا حاضرين في مؤتمر السلام".

فوعدناه بأن نعرض اقتراحه في اقصر مدة ممكنة على الهيئات العليا في المقاومة. وبانتظار ذلك، فاننا طرحنا عليه عدة اسئلة حول الوضع العسكري... لماذا قبل بوقف اطلاق النار بمثل هذه السهولة؟ هل كانت ثغرة الجنرال شارون بمثل هذا القدر من الخطورة والتهديد؟ وحاول السادات ان يقلل من اهمية الثغرة مؤكدا ان الجيش الثالث ليس مهددا بالابادة. غير انه ذكر بالمقابل قيام الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بشحنات من الاسلحة البالغة التطور خلال المرحلة الاخيرة من القتال، و "تخلي" الاتحاد السوفياتي الذي يرفض تزويده بالسلاح الضروري لمواصلة الحرب. وبدت لنا الحجة التي ادلى بها لاقناعنا بعجزه، حجة مشبوهة. فالقوات المصرية شنت القتال _ اولا _ بسلاح سوفياتي ذي كم وكيف، اكثر من كافيين. وثانيا _ لانني كنت انا نفسي اسكن قرب مطار الماظة الحربي (في احدى ضواحي القاهرة) وتمكنت ان الاحظ بعيني اتساع وكثافة شحنات الاسلحة السوفياتية طوال حرب تشرين. ووفقا للمعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن، وهو لا يمكن ان يتهم بمحبة السوفيات، فان الجسر الروسي الذي اقيم مع مصر وسوريا اشتمل على ٩٣٤ رحلة طيران ذهابا وايابا. هذا دون ان نحسب الشحنات التي تمت بطريق البحر وافرغت في الموانىء المصرية. ودون ان نتكلم عن

الموارد الالكترونية التي اشركتها موسكو في جمع المعلومات عن تحركات القوات الاسرائيلية. وفي يوم ٢٦ تشرين الاول، اي في ذات اليوم الذي اجرينا فيه المحادثة مع السادات، كشف هنري كيسنجر النقاب عن ان الاتحاد السوفياتي قد عزز تعزيزا عظيما اسطوله الحربي في المتوسط، ووضع عدة وحدات مجوقلة ـ محمولة جوا) في حالة استنفار. فكان الروس بذلك يريدون ردع اسرائيل عن مواصلة هجومها ضد الجيش المصري الثالث.

واشتكى السادات كذلك بمرارة من العقيد القذافي الذي اخذ عليه علنا السلوك الذي سلكه في الحرب والاهداف المحدودة التي رسمها لها. هذا مع ان الرئيس الليبي لم يدخر وسعا في تقديم معونته المالية والاقتصادية والعسكرية له، على الرغم من عدم اتفاقه معه. فهو لم يقدم لمصر عملات صعبة بالنقد السائل ونفطا وحسب، بل وكذلك طائرات "ميراج" اشتراها من فرنسا وسبعين طائرة ميغ ٢١، بينها ٢٦ طائرة اشتراها ابان الاشباكات وارسلت مباشرة من الاتحاد السوفياتي الى الجبهة المصرية. ومنذ الساعات الاولى للحرب، ارسل القذافي الى القاهرة عضوين من اعضاء مجلس الثورة هما الرائد عبد المنعم الهوني والرائد عمر المحيشي، وظلا هناك تحت تصرف السادات، تحسبا لحالة احتياجه اليهما. وكذلك فانهما اخطرا طرابلس "بثغرة" شارون موضحين ان هذه النكسة قد نالت كثيرا من الرئيس المصري. فما لبث الرائد عبد السلام جلود، رئيس الوزراء الليبي ان ركب الطائرة الى القاهرة وابلغ القذافي اثر محادثة مع السادات بأن هذا الاخير "منهار" معنويا.

وقام الرئيس الليبي بدروه بزيارة القاهرة حيث وجد السادات ملازما سريره ويعاني من اوجاع في المعدة وعاجزا، فيما يبدو، عن خوض محادثة متماسكة. وعرض القذافي وهو يتحرق تبرما وعيلان صبر، بأن يذهب بنفسه الى المقر العام للقوات المسلحة، لمتابعة تطورات المعارك. فرفض السادات رفضا قاطعا مؤكدا له ان جنرالاته اهل تماما للقيام بمسؤولياتهم. والحقيقة هي انه لم يكن يريد ان يتدخل بمشروع ندد به بشدة.

وواقع الامر هو انه لم يسلف للرجلين ان تفاهما تفاهما حسنا. فقد كان القذافي يكن لسلف السادات اعجابا لا حدود له. كما ان عبد الناصر كان يكن الكثير من المحبة لمنافسه الشاب . وقد قال لنا عبد الناصر ان لدى معمر كراهية

هاجسية للشيوعية. فقد استبد به ذات يوم حين ذهبنا معا الى الخرطوم، غضب مسعور وهو يرى المتظاهرين يرفعون الاعلام الحمراء! وروى لنا عبد الناصر ايضا وهو يتشكى هازلا من بخل القذافي، ان هذا الاخير طالب ان تدفع القاهرة اجرة القوات المصرية المرابطة في ليبيا بالعملة الصعبة. وقال عبد الناصر كذلك، ان الملك السابق ادريس كان يظهر كرما اكبر ويدفع لمصر المعونات كلما طلبتها منه.

وقد عرفت من جانبي الرئيس الليبي معرفة حسنة، وعلاقاتي معه وثيقة وتعود الى حين تسلمه السلطة. فقد كنت اشارك في المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة عندما علمنا في اول ايلول ـ سبتمبر بقلب ملكية السنوسيين على يد مجموعة من الضباط الشباب. وذهبنا ـ بضعة رفاق وانا ـ بعيد ذلك بأربعة ايام الى طرابلس حيث قابلت القذافي للمرة الاولى فاعطاني انطباعا جيدا برغم عدم معرفته بالمشاكل العربية. غير انه كان يظهر حماسا مفرحا للقضية الفلسطينية. افلم يختر ككلمة سر للثورة اسم القدس؟

وكان حماسه لرئيس الثورة المصرية يصل الى حد انه قال لي بعد ذلك بسنة، عندما علم بانضمام الرئيس الى مخطط روجرز من اجل تسوية سلمية مع اسرائيل: "لئن خان عبد الناصر القضية او لم يخنها، فانني باق الى جانبه ابدا". ولكنه تبنى موقفا مقابلا تماما ازاء السادات، معاكسا على وجه العموم المواقف التي يتخذها هذا الاخير الذي يعتبره غير جدير بخلافة عبد الناصر.

وثمة حكومات عربية اخرى شجعتنا على الانضمام الى مسيرة السلام. فوزير الخارجية الجزائرية عبد العزيز بوتفليقة مثلا، مرر لي ابان زيارته لي في منزلي بالقاهرة عندما مر بها في نهاية تشرين الاول ـ لاكتوبر ١٩٧٣ ان الحرب التي انتهت لتوها، ستشرع، ببديهة الحال، باب مرحلة دبلوماسية طويلة. واضاف ان هذه الحرب لن تكون ولا ريب آخر حرب عربية اسرائيلية، الا انه يبدو له أن من الضروري ان نحدد خلال ذلك مواقف واضحة من امكان قيام تسوية متفاوض عليها. ولم يقل شيئا صريحا، الا انني اعتقد انني فهمت انه كان يتمنى ان يرانا نتخذ موقفا مسؤولا ازاء مؤتمر السلام. وكان بو تفليقة يضيف دائما ـ شأن الرئيس بو مدين الذي قابلته في وقت لاحق بعد ذلك ـ بأن الجزائر ستظل الى جانب المقاومة الفلسطينية طالما واصلت الكفاح المسلح. ولا بد من القول ان مواقف القادة الجزائرين كانت دائما مطابقة لاقوالهم ازاءنا ووفاء منهم لمبدئهم في

عدم التدخل في شؤون الغير، يقومون بدعمنا كائنا ما كان خيارنا: الحرب او السلام.

وعندما عدنا الى بيروت غداة محادثتنا مع السادات في ٢٧ تشرين الاول ـ اكتوبر، كنا نعلم، ان الدول العربية كانت برغم منطلقاتها المختلفة وتبايناتها التكتيكية او الاستراتيجية، تؤيد بشكل عام انخراطنا في اللعبة الدبلوماسية التي كانت قد بدأت على المسرح الدولي.

كان علينا ان نحدد موقفا واضحا كما طلب منا الرئيس المصري. فدعونا الى اجتماع موسع لقادة فتح لهذا الغرض، في يوم وصولنا الى بيروت، ودار فيه نقاش طويل. ولم نلبث ان ادركنا ان السادات يضعنا في وضع صعب، ان لم نقل انه مستحيل. اولا: لان الدولتين العظميين ذاتهما لم تعطيا موافقتهما بعد على مشروع "الريس". وثانيا، وخاصة، لاننا لم نتلق دعوة لحضور المؤتمر بأية صورة، ووفق اية شروط سوف ندعي اذا ما دعينا. ونحن لا نستطيع ان نغض الطرف عن كون وقف اطلاق النار تم على اساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ والذي ـ اعود فاكرر ـ ينكر على الفلسطينيين ادنى حقوقهم البديهية.

واذا فقد اتخذنا قرارا بعدم الاجابة على مؤتمر السلام لا بنعم ولا بلا بانتظار ان نتلقى دعوة حسب الاصول. ولن يكون في وسعنا ان نحدد موقفنا بصورة واضحة دقيقة الا لدى استلام شيء ملموس.

وفي ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر، اي بعد مداولاتنا في قيادة فتح، باسبوعين بالضبط، استقبل السادات ياسر عرفات الذي كان مكلفا بأن ينقل اليه جوابنا على السؤال الذي طرحه علينا في ٢٦ تشرين. وقد دهش رئيس منظمة التحرير من موقف رئيس الدولة المصري. ذلك ان هذا الاخير بدا متحفظا نائيا، بل شبه لا مبال ازاء القرار الذي اتخذناه. وخرج عرفات بانطباع واضح بأن السادات لم يعد مهتما باشتراكنا باجتماع جنيف. فهو لم يثر حتى احتمال توجيه دعوة الينا في مرحلة مقبلة محتملة من مراحل السلام. ولم يفهم رفيقنا في تلك الفجاءة الامر الذي حدا بالرئيس المصري الى قلب موقفه خلال خمسة عشر يوما.

غير ان ثمة حدثين كانا قد وقعا خلال هذه الحقبة، يسعهما، على ضوء ما سوف يحدث بعد ذلك، ان يفسرا سلوك السادات الغريب: فعشية لقاء ١٢ تشرين

الثاني ــ نوفمبر، كان قد جرى توقيع اتفاق اسرائيلي ــ مصري اولي في الكيلومتر ١٠١ في سيناء. تحت رعاية هنري كيسنجر الذي تحادث قبل ذلك بخمسة ايام ــ اي في ٦ تشين الثاني- مع الرئيس المصري للمرة الاولى منذ نهاية الحرب. واذا، فانه بدأ سريان مفعول سياسة "الخطوة خطوة" و "الاتفاقات الجزئية المؤقتة" العزيزة على وزير الخارجية الامريكية. وبدأ يتضح تدريجيا وبجلاء ان كيسنجر اقنع رئيس الدولة المصري باستبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن مسيرة السلام التي لا تهدف الى تيسير تسوية شاملة في الشرق الاوسط، وانما الى خداع البلدان العربية المعنية بالحصول من اسرائيل على اعادة جزء فقط من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧.

ولم نكن بعد الا في بدايات "دبلوماسية المكوك" التي ستتيح لكيسنجر ان يضعف العالم العربي بتقسيمه وان يعد للصدامات الدامية في لبنان والتي تهدف الى شل المقاومة الفلسطينية، ثم بنهاية التحليل، الى خدمة ــ ان لم يكن مصالح الامبريالية الامريكية دائما ــ فالمطامع الامبريالية لدى الدولة الصهيونية على الاقل.

ولم تكن حرب تشرين بالنسبة الينا نحن الفلسطينيين، كما بالنسبة لمجمل الامة العربية، الا انقشاعة قصيرة الدوام. وبدلا من ان تشق طريق تحرير الاراضي المحتلة فانها عززت النفوذ الامريكي في الشرق الاوسط ويسرت مؤامرات تصفية المقاومة الفلسطينية. وبالمقابل فان الحرب ونتائجها اثارت في صفوفنا وعيا صحيا سيساعدنا على تكييف اهدافنا على الحقائق، وعلى اتخاذ قرارات جريئة تضع حدا نهائيا لسياسة "كل شيء او لا شيء".

الفصل السابع

تحدي السلام

القاعة مكتظة ساخنة متوترة تكاد تنفجر حماسا. والخطباء يتتالون ويلقون بمطولاتهم الملتهبة. وكلمات الكفاح المسلح، والثورة، والفتح والتحرير تتردد بلا انقطاع، وانا اتأمل اليافطات والملصقات التي تثير الابتسام ـ على جدران مدرج جامعة بيروت العربية من المنصة التي اجلس عليها، حيث سأكون الخطيب الرئيسي في هذه الندوة التي نظمتها الجامعة. فعلى كل راية وملصق ترتسم ذات الكلمة مكتوبة بحروف ضخمة: "لا" لا للتفاوض، لا للتسوية لا للاستسلام، لا للدولة الفلسطينية.

وقد نظمت الندوة خصيصا لمناقشة مزايا ومساوىء اشتراك المقاومة المحتمل في مسيرة السلام التي بدأت غداة حرب تشرين ـ اكتوبر. فدعوة السادات الى مؤتمر يضم الاسرائيليين والعرب بهدف التوصل الى تسوية نهائية شاملة مبنية على الاعتراف باسرائيل داخل حدود عام ١٩٤٨، صدمت الرأي العام الفلسطيني واضلته وقسمته. فمنذ اسابيع، والمجادلات المتقدة تدور في مخيمات اللاجئين وفي الصحافة. فمنظمات "جبهة الرفض" التي ستتكون في صيف عام ١٩٧٤ تندد بالموقف "الاستسلامي" بل "الخياني" الذي تقفه فتح والجبهة الديمقراطية التي يرئسها نايف حواتمة، المنظمتان المشبوهتان بتأييد مؤتمر جنيف وبتأييد تسوية تعطي الفلسطينيين "دويلة" في الضفة الغربية وغزة.

كان قادة مختلف التنظيمات الأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية مدعوين من قبل جامعة بيروت العربية، لعرض وجهات نظرهم خلال سلسلة اجتماعات متتالية. وكان جورج حبش من (الجبهة الشعبية) وجبريل من (القيادة العامة) ونايف حواتمة (الجبهة الديمقراطية) قد سبقوني الى الكلام. فكان علي في امسية العاشر من شباط ـ فبراير ١٩٧٤ هذه ان افسر وابرر موقف فتح.

كان رئيس الجلسة يجهل بصورة ظاهرة الخط الذي قررته قيادة فتح بالاجماع، او انه اشتبهت عليه وجهة نظري الشخصية. ذلك انه قدمني الى آلاف المناضلين المحتشدين في القاعة كـ "بطل الرفض"! حتى انني كنت سأعرض وفقا لدعواه، الاسباب التي ينبغي ان تدفع الفلسطينيين الى الاجابة "بلا قاطعة" على كافة "الشبهات" المعدة على جدران المدرج.

وحين نهضت لاخذ الكلام، استقبلـني الجمهور بهتافات "يسقط الحل السلمي"

و "يسقط سلام الاستسلام" "عاشت الثورة المسلحة حتى تحرير فلسطين"! وواجهت لفوري القاعة وانا ابتسم ابتسامة واسعة، واقول: "انني اوشك ان اخيب املكم" ثم اضفت: "ولعلي لن القى التصفيق". ولكنني خلافا لليافطات المحيطة بنا، اجيب "بنعم" على بعض المسائل المطروحة على المقاومة. وبدأت كلامي في قاعة يلفها صمت كصمت القبور.

وقلت ان حرب اكتوبر ـ كائنا ما كانت تحفظاتنا عليها، وانتقاداتنا لها، كانت حربا وطنية اساسا اوجدت وضعا جديدا في الشرق الاوسط يستدعي قرارات جديدة مبتكرة. ونحن نرتكب خطأ مأساويا اذا ادرنا عيوننا عن الحقائق التي نواجهها. ولكل من هذه الحقائق طبيعة مختلفة. فنجاحات الجيش المصري والسوري، والتضامن العربي المستجد والزلزال النفساني الذي هز اسرائيل، كل ذلك اسهم في وضع الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة في حزيران ـ يونيه ١٩٦٧ على جدول اعمال الساعة. وبين هذه الاراضي العربية المحتلة الضفة الغربية وغزة اللتان تعودان الى الشعب الفلسطيني بلا جدال.

والمسألة المطروحة اليوم، هي مسألة معرفة ما اذا كنا برفضنا لقبول اي شيء آخر غير تحرير فلسطين كاملة، مستعدين لان نترك جزءا من تركتنا الى فريق ثالث. وهل يحق لنا الا نبالي بمصير اهالي الضفة الغربية وغزة اللتين تعانيان من تنكيل المحتلين.

وتابعت اقول انه تستحيل علينا الاجابة على هذه الاسئلة دون ان نأخذ بعين الاعتبار ميزان القوى المحلي والدولي. فالحركة الفلسطينية لا تتطور في الخلاء. فلها في العالم اعداء واصدقاء. فلا بد لنا اذ ذاك من ان نقيس بدقة طاقتنا على التأثير على الاحداث بدون ان نخدع انفسنا. والحال هو ان كافة اصدقائنا تقريبا ومعهم عدد من الدول العربية، والمعسكر الاشتراكي ـ وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي- وبلدان العالم الثالث يحضوننا على التسوية او على الاقل على مراعاة المراحل. وبن غوريون والزعماء الصهاينة الاخرون قبلوا عام ١٩٤٨ باقامة دولة اسرائيل على جزء من فلسطين التي يطالبون بها كلها شأننا نحن. وقادة الثورة الفيتنامية قبلوا اثناء مؤتمر جنيف لعام ١٩٥٤ تقسيم وطنهم الى دولتين بانتظار ان يواتيهم ميزان القوى . وتلك ايضا هي حالة الكوريين الشماليين

والجنوبيين. ولينين نفسه ضحى بجزء كبير من الاراضي السوفياتية في معاهدة برست ليتفوسك، لينقذ ما هو اساسي، اي السلطة البلشفية.

مذ ذاك باتت الاسئلة التي اطرحها على المستمعين، اسئلة فظة في بساطتها هل ترانا سندعي اننا اكثر ثورية من القادة السوفيات والفيتناميين والكوريين او الالمان؟ وهل نوافق على ان نحرم انفسنا من هامش المرونة والمناورة الذي استأثرت به الحركة الصهيونية طوال تاريخها؟ وعلى اية حال فان علينا ان نميز بين التسوية والتفريط، وان نعرف ان نأخذ الى حين ما يقدم لنا دون ان نتخلى عن هدفنا الاستراتيجي، اي عن اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين، يعيش فيها العرب واليهود كمواطنين متساويين.

وصحت هاتفا: ينبغي ان ننتهي من سلبية ومزايدات الماضي! فالـ "لا" التقليدية في الحركة الفلسطينية ليست ثورية وجوبا، ولا الـ "نعم" شكل من اشكال الخيانة بالضرورة. بل قد يكون الرفض على العكس، طريقة في الهروب من المشاكل وفي التستر بزي النقاء العقائدي المنحول.

ثم ختمت كلمتي ـ التي كثيرا ما قوبلت بتصفيق حاد ـ بأن عددت القرارات التي اتخذتها قيادة فتح: عدم التخلي عن حقوق الشعب الفلسطيني القاطعة في حق تقرير المصير وفي تحرير وطنه. واقامة سلطة وطنية على كل جزء يتم تحريره من فلسطين.

والحقيقة هي ان هذه المواقف تشكل الخلاصة التي افضت اليها مسيرة طويلة وتفكير بدأ في مطلع سنوات النضال. ففي التحليل الذي قمنا به في سنوات الخمسين والستين لسلوك من سلفونا على رأس الحركة الفلسطينية ـ والذي قدمت خلاصته الاساسية في الفصل الثالث من هذا الكتاب ـ تبين لنا وجود نوع من السلبية اردنا ان نتلافاها في ممارستنا الخاصة. فقد ووجه اسلافنا بين عامي ١٩١٧ و ١٩٤٧ باقتراحات متتالية تهدف الى تسوية النزاع فاجهضوها جميعها، وبحق. ذلك انه لم يكن بينها اي اقتراح يستجيب الى معيار العدالة، والى تطلعات الشعب الفلسطيني. وكان خطؤهم هو انهم كانوا يرفضون اخذ اي شيء، اذا لم يحصلوا على كل شيء. فساهموا بذلك في تيسير المشروع الصهيوني، اي في الاستيطان السكاني الـذي سيؤدي على مر السنين الى حرمان الشعب الفلسطيني

من اراضيه ومن جزء يزداد اتساعا من وطنه. ويقينا ان مخطط التقسيم الذي اعدته الامم المتحدة، كان غير مقبول في مبدئه. لكن لماذا لم يقبل القادة الفلسطينيون حلا مؤقتا على غرار المسؤولين الصهاينة، يكون قوامه تأسيس دولة على جزء من الاقليم الوطني الذي اسندته اليهم الامم المتحدة.

وحين طرحت هذا السؤال على الحاج امين الحسيني قبل وفاته بثلاثة اشهر، قدم لي الزعيم الفلسطيني عدة اسباب برر بها عجزه، كما قال، عن انقاذ جزء على الاقل من تركتنا الوطنية. فالدول العربية المعنية اعاقت من تلقاء نفسها او تحت ضغط الانكليز ـ الذين كانون يكرهونه كرها خاصا كما ذكر ـ تأسيس دولة في الضفة الغربية وغزة، اي في الاراضي التي لم يفلح الجيش الصهيوني في احتلالها. وقد سمح الملك فاروق في ايلول ـ سبتمبر ١٩٤٨ بعقد مؤتمر فلسطيني في مدينة غزة، افضى الى تعيين حكومة يقودها احمد حلمي باشا، كان هدفها الرئيسي ـ وفق رأي الحاج امين الحسيني ـ اقامة السلطة الفعلية في غزة والضفة الغربية. غير ان الحكومة المصرية منعته حتى من الاقامة في غزة بحجة ان الجيش الاسرائيلي "سيستفز" بذلك وقد يحتل القطاع. وعلى هذا فانه بات على الحكومة الفلسطينية ان تقيم في القاهرة حيث راح رئيسها احمد حلمي باشا وهو مصرفي ممتهن ينصرف الى اعماله بأكثر مما ينصرف الى وزارته الوهمية. وقال الحاج امين، انه بعد ان خذلته الدول العربية، تخلت عنه غالبية القادة الفلسطينيين الذين انقسموا الى فريقين، واحد يوالي الاردن والثاني يوالي مصر.

وبالرغم من ان تبريرات الحاج امين تقبل التصديق، الا انها بدت لي غير مقنعة. ففي تلك الفترة كانت مصر والعربية السعودية معاديتان للاسرة الحاكمة في الاردن ولا توافقان على ضم الملك عبدالله للضفة الغربية. افلم يكن في وسعه الاعتماد على هاتين الدولتين العربيتين ضد ضم الضفة للاردن؟ واذا كان ذلك غير ممكن فلماذا لم يستغث بالعالم العربي كله، بل وبمنظمة الامم المتحدة التي قررت التقسيم، ليطالب بالضفة وغزة؟ وعلى اية حال فان اي وثيقة من وثائق المحفوظات الفلسطينية التي تفحصناها عن كثب، لا تعزز اطروحة الحاج امين الحسيني.

وباختصار فانه كان لهذا للاخير واصحابه حقا رؤية استراتيجية للمستقبل

الفلسطيني، الا انهم كانوا يفتقدون افتقادا طاغيا للصفات الضرورية من اجل القيام بتنازلات تكتيكية. وهذه بالضبط هي الثغرة التي حاولت فتح ان تسدها.

وخلافا للمظاهر وللقناعة العامة، فاننا لم نقرر اقامة دولتنا على جزء وحسب من فلسطين، غداة حرب تشرين ـ اكتوبر. فمنذ شهر تموز ـ يوليه عام ١٩٦٧، اي بعد شهرين من الهزيمة العربية او يكاد ـ تقدم فاروق القدومي من اللجنة المركزية في فتح بتقرير سياسي يعرض فيه الاستراتيجية والتكتيك اللذين يجب ان نتبناهما في حركتنا. وفي هذه الوثيقة الآنفة نجده يقترح علينا ان نعلن تأييدنا لقيام دويلة في الضفة الغربية وغزة في حال اعادة اسرائيل لهذه الاراضي التي كانت احتلتها لتوها. واكد ان هذا الهدف ليس مطابقا على المدى القصير والمتوسط لحق الشعب الفلسطيني في امتلاك اية قطعة من وطنه وحسب، وانما يستجيب كذلك لتحليل موضوعي للظروف. وبالفعل، فانه كان من البديهي، انه كائنا ما كانت انطلاقة وبأس حرب العصابات ضد الدولة الصهيونية، فانها تظل في المستقبل المنظور، دولة لا تقهر ولهذا فان عدم توقع المرور بمراحل مؤدية الى الهدف الاستراتيجي الذي هو اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين، يكون امرا من قبيل الوهم والخيال.

وبالرغم من واقعية تقرير القدومي وصفائه ـ وخاصة في الجزء المتعلق منه بالدويلة ـ فانه اصطدم بمعارضة حادة داخل الاجهزة القيادية في فتح. فلم تكن لدينا حينذاك قواعد شعبية على قدر من الاتساع تكفي لعرض الوثيقة على الاطر والكوادر الوسطى في الحركة، فضلا عن فتح نقاش عام حول موضوعها. وعلى هذا فقد قررنا احالة تقرير القدومي الى المحفوظات بانتظار مجيء ايام افضل.

ثم ان الهدف الاستراتيجي ـ اي هدف اقامة دولة ديمقراطية على كامل فلسطين ـ لم يحظ بموافقة الجميع. ولكن بعد سنة من المداولات والمناقشات، اتخذنا قرارا باعلانه لاننا لا نستطيع تأجيله اكثر من ذلك. فمن جهة اولى كان الصحفيون يلحون علينا بوابل من الاسئلة حول مغزى كفاحنا ودلالته، فكان من المضحك ان نجيب بالتملص والمداورة، ولا سيما بعد حرب عام ١٩٦٧. ومن جهة ثانية، كان الاسرائيليون يستغلون خرسنا لمصلحتهم مدعين بأن مقصدنا في "تحرير فلسطين من السيطرة الصهيونية" ليس الا تمويها لارادتنا في "رمي اليهود في

البحر" (في حين ان احدا منا لم يثر مثل هذا الاحتمال العبثي المتهافت، لا صراحة ولا ضمنا).

وبناء على تكليف القيادة لي بعرض وجهة نظرنا، فانني اعلنت خلال مؤتمر صحفي عقد في ١٠ تشرين الاول ـ أكتوبر ١٩٦٨، بأن هدفنا الاستراتيجي هو دعم انشاء دولة ديمقراطية على امتداد فلسطين التاريخية، يعيش فيها العرب واليهود في وفاق وكمواطنين على قدر كامل من التساوي. واوضحت انه ليس لدنيا اي اعتراض ـ بل بالعكس ـ على التعايش مع اليهود، الشعب الذي عانى من اضطهادات بشعة، الا اننا لما كنا غير مسؤولين عن هذه الالام، فانه ليست لدينا النية مطلقا في ان ندفع ثمنها. واذا فليس في نيتنا ان نتخلى عن جزء من فلسطين، او ان نقر بنظام صهيوني يستبعد العرب ويحرمهم من حقوقهم الطبيعية.

وسألني بعض الصحفيين الحاضرين في المؤتمر: مع اي الاسرائيليين نعتزم التعايش: مع مواليد البلاد؟ مع المهاجرين؟ ثم مع اي المهاجرين منهم، الجدد ام القدامى؟ فاجبت اجابة غامضة، ان على التساؤلات وان بصدد المحتوى الدقيق الذي سيكون للدولة الديقراطية. ومرد ذلك سببان: فمن جهة اولى كنا نعتقد انه ينبغي لنا ان ننتظر رد فعل الخصم قبل ان ندخل في التفاصيل ونتفاوض على تسوية. والحال هو انه لا اسرائيل ولا اية دولة اخرى صغرى او عظمى ابدت حتى هذا اليوم ادنى اهتمام بمشروعنا بأن طلبت الينا على سبيل المثال ان نوضحه. ومن جهة اخرى فان الاقتراح الذي عرضته اثار، على الرغم من غموض تعابيره، معارضة عامة ان في صفوف الحركة الفلسطينية بما في ذلك فتح وان بين الحكام العرب. فقد كان لا بد من كثير من الشجاعة بل من التهور لنغضي عن الجراح والاحباطات المتراكمة، وكذلك عن ذهنية سياسية تكونت عبر عدة عقود من السنين. ولكننا تغلبنا على عبء الماضي حين جعلنا المجلس الوطني الفلسطيني الخامس يتبنى بعد مرور اربعة اشهر على مؤتمري الصحفي (١-٤ شباط ـ فبراير ١٩٦٩) قرارا يؤكد هدفنا الاستراتيجي.

على ان ذلك لم يجعل قيادة فتح تستبعد من اهتماماتها سياسة المراحل التي تعتزم جعل المقاومة تقبل بها. وقد جاءت احداث الاردن المأساوية (١٩٧٠-١٩٧١) التي جاءت لتفتح اعين المناضلين على الحقائق. فقد كان من

البديهي بعد احداث عمان وجرش وعجلون، وخاصة بعد طرد آخر الفدائيين من الاردن، ان الثورة الفلسطينية لا تستطيع الاعتماد على اي بلد عربي لتضمن لنفسها ملاذا آمنا وقاعدة لعملياتها ضد اسرائيل. فلا بد لنا من اجل ان نمضي قدما نحو المجتمع الديمقراطي التعددي الذي نحلم به، ان نقيم دولتنا الخاصة حتى ولو على بوصة من فلسطين. وقد ازداد انتشار وتقدم هذه الفكرة لدى "قاعدة" الحركة، بعد ان اعلن الملك حسين في ١٥ آذار ــ مارس مشروعه الخاص "بالمملكة العربية المتحدة" الهادف الى خلق مملكة على ضفتي نهر الاردن ــ تشتمل على اقليمين متحدين هما الاردن وفلسطين. واذا فانه لا بد لنا ان نطالب بما يعود الينا. وهكذا فان قيادة فتح اتخذت في نهاية عام ١٩٧٣، بعد حرب تشرين ــ اكتوبر قرارا باعلان سياستها المرحلية وهدفها التكتيكي.

ما لبثت المنظمات الفدائية التي سوف تؤلف بعد ذلك "جبهة الرفض" ومنها الجبهة الشعبية التي يرئسها جورج حبش، ان شنت علينا حملة قدح. فاتهمنا البعض بالانهزامية، وندد بنا البعض الاخر كاستسلاميين. ووقفوا موقفا معاديا من اقامة "الدويلة" في الضفة الغربية وغزة، ومن الدولة الديمقراطية المستقلة ايضا. فالكفاح المسلح لا يمكن ان يكون في رأيهم الا متواصلا مطلقا ويمضي حتى غايته. اي انه ينبغي ان يستمر حتى تحرير فلسطين تحريرا كاملا. وحاولوا ان يمارسوا ارهابا ذهنيا بأن راحوا يندون بانصار التسوية كخونة. وعادت بي الذاكرة حينها الى قراءات شبابي والى النزاع الذي نشب بين لينين وتروتسكي، فتعززت قناعتي باننا على صواب.

الا اننا وفاء منا للقاعدة التي اسسناها منذ تأسيس فتح، امتنعنا عن الرد على الخطأ بالخطأ فقد لاحظنا بالفعل ان الثورة في امكنة اخرى من العالم، قامت بالتهام بنيتها وجرت تسويات حساب فيها تحت ذريعة التباينات الايديولوجية والسياسية، افضت في الغالب وباسم النقاء الثوري دائما، الى حمامات دم. وهكذا فاننا اقسمنا على الا نستخدم اسلحتنا ضد خصومنا داخل الحركة الفلسطينية. والا نحل الطعن والتجريح محل العرض التدليلي. وعلى اي حال فاننا نجحنا نجاحا واسعا في ادخال ما نسميه "الحوار الديمقراطي" الى عادات المقاومة.

وكان في عزمنا ان ندعو المجلس الفلسطيني (برلمان المقاومة) الى الانعقاد بعيد حرب تشرين ــ اكتوبر لمناقشة الدور الذي ينبغي ان نضطلع به في المرحلة

الدبلوماسية الجديدة البادئة. غير اننا فضلنا تأجيل الاجتماع للتوصل الى اجماع على برنامج مشترك بين كافة المنظمات الفدائية. كان نايف حواتمة، رئيس الجبهة الديمقراطية متفقا الى حد بعيد مع فتح ــ فهو احد اوائل الذين بشروا بانشاء "دويلة" في الضفة الغربية وغزة ــ فبدأنامشاوراتنا مع حبش زعيم الجبهة الشعبية. وكان مما يزيدنا ثقة بالحوار، هو اننا برغم تبايناتنا العميقة، نحافظ على علاقات جيدة معه. فخلال فترة "الجزر" التي تبعت احداث الاردن، قام بين منظمته ومنظمتنا تعاون وثيق في مختلف المجالات، ولا سيما في الاراضي المحتلة ولبنان. وحبش الذي اعرفه شخصيا حق المعرفة، شخص غريب. فهو في العلن دغمائي متصلب خارق في عنفه، ولا سيما حين يخطب ويطيل في الجماهير. ثم انه كخطيب متدفق يستولي على المستمعين اليه. اما في الحياة الخاصة، فانه هادىء رزين يصغي الى محادثيه بانتباه لا يعوزه التواضع، ويعرب عن افكار معقولة. وكثيرا ما التقيت به، ولكن خارج منزله الذي يتكتم حوله تكتما عظيما. وعلى اية حال فانه لم يعد يكثر من الظهور منذ ان اصيب بعارض في قلبه. وحبش انسان بالغ النزاهة ويدافع عن آرائه السياسية باقتناع، ولكن دون التعصب الذي يظهره بعض من رفاقه اعضاء المكتب السياسي في الجبهة الشعبية.

كانت المحادثة التي اجريناها ــ ياسر عرفات وابو صالح وانا ــ في مطلع عام ١٩٧٤ معه، على اكثر ما تكون من التشجيع، وبدا متفهما لاقتراحاتنا بل انه اقترح ان يعهد الى شخصيات فلسطينية تعيش في الاراضي المحتلة، بالمشاركة في المفاوضات الجارية من اجل ايجاد حل سياسي للنزاع العربي ــ الاسرائيلي. في حين يقتصر دورنا نحن على توجيههم ودعمهم سرا.

ولم يكن لدينا اي سبب يجعلنا نشك بصدقه او في اعتزامه اللجوء الى المناورة. فالجبهة الشعبية، شأن جبهة حواتمه، الديمقراطية، وبخلاف كافة المنظمات الاخرى، باستثناء فتح، هي حركة رفضت دائما وصاية اي بلد عربي عليها. فكانت تعقد التحالفات التكتيكية ثم تنهيها محتفظة باستقلالها الذاتي، برغم المعونة المالية والسياسية التي تتلقاها من الحليف الآني. وقد مرت فترة كان حبش وحواتمة يأخذان علينا فيها تعاوننا مع الانظمة المدعوة "بالبرجوازية الصغيرة"، الا ان التجربة قادتهما الى تبني موقف عملي (براغماتي) مماثل لموقفنا يقضي بالتعاون مع كل دولة مستعدة لدعمهما . غير انهما كانا يتمتعان في الحقل السياسي

بتعاطف فعال من قبل الدول التقدمية كالعراق وليبيا وجمهورية اليمن الديمقراطي (الجنوب) ثم بقدر اقل بتعاطف الجزائر.

ثم ان محادثاتنا خلال الاشهر الاولى من عام ١٩٧٤، مع قادة المنظمات الفدائية الاخرى، وخاصة مع الصاعقة (الموالية لسوريا) ومع جبهة التحرير العربية (العراقية الولاء) تكللت هي كذلك بالنجاح. وافضت مفاوضاتنا الى اعداد برنامج ذي عشر نقاط تبناه المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في القاهرة في شهر حزيران ـ يونيه من السنة ذاتها. وكان نجاحا غير مأمول، فقد اعلن ممثلو كافة الفدائيين، بالاجماع، ارادتهم في اقامة دولة مستقلة "على كل جزء او اية اراضي فلسطينية يتم تحريرها". مضيفين بعد ذلك "ان الهدف الاستراتيجي لمنظمة التحرير الفلسطينية يظل بناء دولة ديمقراطية على كامل الوطن الفلسطيني".

غير ان هذا الاجماع الرائع لم يدم، للاسف، الا قليلا! فما ان انتهت دورة المجلس حتى انفجرت المجادلات والمزايدات داخل مختلف المنظمات فاخذت العناصر الجذرية على رفاقها انها وافقت على نص "تصفوي" وبطبيعة الحال فان المتطرفين انتصروا على المعتدلين، مثلما هو الحال دائما في مثل هذه المناظرات. وباستثناء فتح والجبهة الديمقراطية والصاعقة -الجبهات اللواتي تتمتع بقيادات متجانسة- فان كافة الفصائل الاخرى قلبت مواقفها، وشنت حملة شعواء ضد "الدويلة" وبدأت الملصقات المعادية لسياستنا تظهر على جدران بيروت. ولا زلت اذكر ان احداها كانت تعرض خارطة فلسطين وقد اخترقتها عشر رصاصات، ترمز الى مواد البرنامج المشترك ذي النقاط العشر... وبعد ذلك بقليل تحالفت رسميا فيما بينها داخل "جبهة رفض" سيكون من شأنها ان تقسم المقاومة تقسيما خطيراً خلال السنوات القادمة.

وعلى هذا فانه بات لا بد من النزول الى الشارع للتصدي للدعاية المناوئة وتبين ان ذلك مهمة صعبة. فكم كانت دهشتي حين ذهبت الى مخيم اللاجئين في تل الزعتر ـ الذي سيتعرض سكانه بعد ذلك بسنتين الى مجزرة على يد المليشيات المسيحية ابان الحرب الاهلية اللبنانية ـ ورأيت هذا التجمع السكني البائس مغطى بشعارات معادية "للدويلة" الفلسطينية! وخلال المهرجان الشعبي الذي نظم لي، كان الحضور ببديهة الحال يؤيدون، او يؤيد قسم كبير منهم، على الاقل سياسة خصومنا المتصلبة. وبدأت كلمتي بتهنئة المستمعين الي على روحهم

الكفاحية، مضيفا اننا شعب لا يروض، ولكننا الى جانب ذلك شعب غريب. فمنذ خمس وعشرين سنة وانتم، كما قلت لهم، تعيشون في المنفى، انها خمس وعشرين سنة من الاحباط والمذلات والحرمان، ولكنكم تواصلون رفضكم لكل حل بالتسوية حتى ولو كان مؤقتا! اليس من العجيب الخارق انكم تفضلون العيش في ارض غريبة على الاقامة في منطقة محررة من وطنكم الاصلي؟

والحقيقة هي ان مستمعي الرافضين ابدوا اقليمية محلية ضيقة. فبما انهم ينتمون بأصولهم الى الجزء الفلسطيني الذي قامت عليه دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، فانهم كانوا يعتبرون انفسهم غرباء عن الضفة الغربية! ويشعرون انهم غير معنيين "بالدويلة" التي نقترحها! بحيث ان جبهة الرفض وجدت هناك ارضا خصبة لاطروحاتها "المتطرفة" ولسياسة كل شيء او لا شيء التي تنادي بها. غير ان جمهورها "الطبيعي" كان يمتد الى فئات اخرى من الاهالي، بل الغريب انه كان يصل الى الفلسطينيين الاثرياء او الميسورين من فلسطينيي المنفى، وخاصة أولئك المقيمون في بلدان بعيدة عن ساحات المعركة فهؤلاء لا يتعرضون لأية مخاطر طبيعية مادية، ويعيشون في ظروف اجتماعية مثالية لا يعوزهم فيها أي شيء، وبهذا فان بوسعهم أن يسمحوا لأنفسهم بترف التصلب دون أن يخشوا الوقوع في النفي الأزلي! وكذلك الأمر بالنسبة لبعض المثقفين الذين ينصرفون في صالوناتهم الى لذاذات التحاليل المتحذلقة المنقطعة عن الواقع والتي تفضي كلها الى سلبية محزنة.

وما انفكيت من جهتي عن القول أن رفض المتطرفين الفلسطينيين يلحق برفض الاسرائيليين الساعين الى استبعادنا عن كل عملية تسوية قبل أن يدمرونا. ثم أضفت بلا ملل ولا كلل بأن لدى أعدائنا عزما راسخا على ألا يتركوا حتى ولو بوصة من فلسطين التي يحتلونها، وأننا نخدع أنفسنا اذا اعتقدنا بأننا سنحصل دون اطلاق نار على "فلسطين الصغرى" موضوع مجادلاتنا المشبوبة المتقدة. وخلافا لكثير من رفاقنا، فانني كنت مقتنعا عام ١٩٧٤ ـ وقلت ذلك وكررته عامذاك ـ بأن التسوية المتفاوض عليها هي خارج البحث، وستظل كذلك طالما لم يتغير ميزان القوى بصورة ملحوظة لصالحنا.

وفي ربيع عام ١٩٧٦، أي بعد ذلك بسنتين تقريبا، وبينما كانت الحرب الأهلية تستعر في لبنان، والجيش السوري يستعد لشن هجمته على الفلسطينيين

زارني جورج حبش في بيروت ليقدم لي تعازيه بمناسبة وفاة والدي. وبعد أن تلافى اثارة خلافاتنا: طرح علي وهو يهم بالانصراف سؤالا يشي بحالته. فقد سألني "هل لا يزال هناك أمل؟" قالها ونظراته يشوبها حزن عميق...

ولم تكن منظمات الرفض المحارب الوحيد الذي يحاربنا عام ١٩٧٤. فقد كان علينا أن نواجه، فضلا عن اسرائيل، كيسنجر الذي كان يحتمي بظل دبلوماسيته السرية ليكيد لنا ويبعدنا عن المسرح السياسي، متلاعبا بالقيادات العربية.

وكان بعض رؤساء الدول العربية يأسف لتصويته لصالحنا في "قمة" الجزائر. التي تبنت قرارا يعترف لاول مرة بمنظمة التحرير الفلسطينية فبعيد ذلك ببضعة أشهر تعقد قمة مصرية ـ اردنية في الاسكندرية (في ١٨ تموز ـ يوليو)، تنتهي بالتوقيع على بيان مشترك يعترف بحق الحكومة الأردنية التحدث باسم الفلسطينيين المقيمين في المملكة الهاشمية (وينيف عددهم عن المليون). ثم اذا بالصحافة المصرية تفلت في الآن ذاته من عقالها، مندفعة ضد المقاومة وقادتها، حتى أن عددا من الصحف ستصفهم "بالمهربين". ولن يقف من بين كافة الرؤساء العرب سوى الرئيس بو مدين، الذي أجريت معه محادثة طويلة، فيلقي خطابا شديد اللهجة بمناسبة انعقاد مؤتمر طلابي في الجزائر، يندد فيه بالمؤامرة التي تحاك ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

واتضح الخطر عندما أعلن عن الاتفاق على "قمة" عربية في الرباط تعقد في ٢٦ تشرين الاول ـ اكتوبر التالي. وكان جدول الأعمال يتضمن بطبيعة الحال، مشكلة التمثيل الفلسطيني ـ وسريعا ما قررت مجموعة من المناضلين الشباب ـ دون علم من قادة فتح ـ بأن تنتقل الى العمل: فهم سيقتلون اي زعيم يستطيع اقناع نظرائه العرب بقلب الموقف الذي تبنوه خلال اجتماعهم السابق في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٣ ـ ضد المنظمة الفدائية الأم، أو "مقسم" الفدائيين كما يسمونها في المغرب. فمنظمة التحرير يجب أن تبقى "الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني" مهما كلف الأمر.

وقد تم وضع عدة مشاريع اغتيالات وأوكلت الى مجموعات مختلفة من المغاوير الذين سيتمركزون في مطار الوصول، وعلى الطريق التي سيمر بها العاهل

الأردني وعلى عتبة القاعة التي سينعقد فيها الاجتماع وفي امكنة اخرى.

ودخل الفدائيون الشباب بصورة افرادية وبمواقيت مختلفة. الى المملكة المغربية مزودين بجوازات سفر مزورة لا تحتاج الى تأشيرة مغربية ثم انتشروا في عدة مدن مترصدين الاشارة ليجتمعوا في الرباط. وكما كان الحال في العملية التي جرت ضد الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ، فان الخطة كانت تقضي بالا تسلم الاسلحة الا قبيل المحاولة بساعات.

كان التشكيل الفدائي قد بات في المغرب عندما التقى مسؤولان من المغاوير عرضا في احد فنادق الدار البيضاء قبل افتتاح القمة بشهر تقريبا، برجل اعمال ليبي يعرف احدهما، ويشتهر بأنه مناصر متحمس للمقاومة الفلسطينية، كما انه – فوق ذلك – يؤيد اعمال العنف. والواقع هو انه كان يعمل، بين جملة ما يعمله في المخابرات المغربية. وبعيد ذلك بساعات، اكتشف مناضلانا علامات غريبة تنم عن ان البوليس يراقبهما. فقررا مغادرة البلاد في الحال. الا انهما ما لبثا ان اوقفا، وحقق معهما وتعرضا للتعذيب. وخلال ذلك اقام عملاء الامن في غرفة الفندق التي نزلا بها "ليستقبلوا" الزوار المحتملين ويجيبوا على الهاتف. ولن يلبث مناضل ثالث مكلف بتسليم الاسلحة ان يخابر من طنجه معلنا عن وصوله في المساء نفسه محددا رقم الرحلة. ولانه تهور وخابر من فندقه، فان البوليس تمكن من الحصول على اسمه المستعار بسهولة، واوقفه لدى وصوله الى مطار الدار البيضاء. لكن مهمة الامن المغربي باتت اقل سهولة، عندما خابر مناضل رابع من غرفة هاتف عمومي في اغادير معلنا وصوله بطريق الجو. ولما لم يكن لدى البوليس اية وسيلة لتحديد هويته، فانه جرى حبس كافة مسافري الطائرة واخضاعهم خلال ثمانية واربعين ساعة لاستجواب صارم. ولكن صاحبنا الذي يحمل جوازا باكستانيا لم يلبث ان اكتشف امره عندما تبين المحققون انه لا يعرف كلمة من لغة "مسقط رأسه"... وباختصار فان الامن المغربي تمكن بواسطة حيل عدة، ان يعتقل اربعة عشر فدائيا من الفريق الذي دخل الى البلاد خلسة.

كان التقرير الذي تلقاه الملك الحسن الثاني من مخابراته مقلقا على نحو خاص. فقد علم من هذا التقرير – خطأ في الحقيقة – ان المؤامرة لا تقضي بأغتيال العاهل الأردني وحسب، وانما اغتياله هو ايضا، والملك فيصل ملك العربية السعودية والرئيس السادات ورئيس الدولة السودانية، اللواء جعفر النميري،

وبما انه لم يتم القبض على اي سلاح ـ كما يضيف التقرير ـ فان خطر قيام محاولات اغتيال يرتكبها شركاء لهؤلاء، لا يزالون احرارا، هو خطر لا يزال قائما.

وضع الحسن الثاني قوات الامن في حالة استنفار، واخطر بقية رؤساء الدول المعنيين بالمؤامرة، واستدعى ياسر عرفات على جناح السرعة ليطلب منه تفسيرا لذلك.وخلال المحادثة التي تمت في منتصف شهر تشرين الاول ـ اكتوبر، اتهمني العاهل الشريفي، بالاستناد الى تقرير مخابراته بأنني اقف على رأس المؤامرة التي احبطها. واعترض عرفات ودافع عني، واكد للملك ان قيادة فتح ـ بما في ذلك هو نفسه ـ تجهل كل شيء عن القضية. فعرض عليه الملك صور الفدائيين الموقوفين الاربعة عشر، فلم يتعرف الا على اثنين منهم.

خلال ذلك كان المسؤولون عن المحاولة المجهضة يسعون الى الحد من الاضرار. فالاسلحة المخصصة للفدائيين المعتقلين، كانت مموهة تمويها ممتازا في شاحنة تجتاز اسبانيا في طريقها الى جبل طارق، وبات من المفترض ان تسلم بين يوم وآخر في طنجة حيث تواجه خطر الوقوع بين يدي البوليس المغربي الذي سيصبح لديه والحالة هذه ادلة كافية لتجريم رفاقنا. وعلى ذلك فانه كان لا بدمن منع الشاحنة من الوصول الى مقصدها بأي ثمن. فكان ان ركب احد افراد مجموعة المغاوير، ممن لم يقعوا في الاعتقال. الطائرة الى مدريد ليزود هناك المخابرات الاسبانية، عبر مخابرة هاتفية مجهولة، بوصف مفصل للشاحنة وحمولتها وللطريق التي ستسير فيها. وهكذا فان البوليس الاسباني توصل الى اعتراض سبيل الشاحنة وتوقيف سائقها، وتوقيف مناضل اخر يرافقها. غير ان السلطات الاسبانية التي لم تكن تريد ان تتورط في قضية يتواجه فيها المغرب والفدائيون، اخمدت القضية وطردت الناقلين بعد ان صادرت الشاحنة والاسلحة الموجودة فيها.

وتم اجتماع مجلس وزراء الخارجية العرب الذي انعقد في الرباط قبيل "القمة" ببضعة ايام، في مناخ من الرعب. فالشائعات الت تخيف تملأ العاصمة المغربية: ووفقا لما ذكرته هذه الشائعات فان مئة ارهابي يستعدون للقيام بموجة من الاغتيالات، بل بمجزرة، ثم تستشهد بتقرير صادر عن هذه المخابرات او تلك ـ الامريكية، الفرنسية، الالمانية الغربية او الاردنية ـ لتتنبأ باهوال قيامية. ولاحظ اعضاء وفد منظمة التحرير المشاركون باعمال المجلس كيف ان القلق المتزايد راح يؤثر يوما بعد يوم على موقف الوزراء العرب : فحتى اولئك المعروفون منهم

بانحيازهم لصالح النظام الأردني، انتهوا بأن اصبحوا مدافعين مستيمتين عن منظمة التحرير الفلسطينية.

وشكلت قمة الرباط بالنسبة الينا، انتصارا ساطعا كما هو معلوم. ذلك ان كافة الرؤساء العرب، بما في ذلك العاهل الأردني، تبنوا سلسلة من القرارات لصالحنا، بينها قراران على الاقل يستحقان التذكير بهما: فقد اكدا مجددا "حق الشعب الفلسطيني في العودة الى وطنه" وكذلك على حقه "في اقامة سلطة وطنية مستقلة تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، على كل قطعة محررة من الاراضي الفلسطينية، وعلى ان البلاد العربية مطالبة بدعم هذه السلطة لدى اقامتها في كافة المجالات وعلى جميع المستويات".

واثار بيان "القمة" النهائي لدى نشره فرحا عارما لدى الفدائيين الاربعة عشر المعتقلين اذ اعتبروا وبحق، انهم بلغوا هدفهم. فهم لم يكونوا يسعون الى اراقة الدم، لان الامر الاساسي كان ان تعلن البلدان العربية اخيرا تأييدها الواضح لحقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وللصفة التمثيلية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكنت اشاطرهم فرحهم، الا ان ارتياحي ظل مشوبا بشائبة المصير الذي يعد لهم. فهم لا يعانون من شراسة اوضاع الاعتقال ولا من التعذيب اللانساني وحسب، وانما من تبرؤ الاصوات الرسمية في المقاومة منهم. بحيث باتوا عرضة للبقاء في زنزاناتهم طيلة حياتهم. وكانت الحملات الصحفية الموحى بها من قبل المخابرات المغربية ضدهم، تصورهم كلصوص متشردين. في حين انهم قدموا للقضية الفلسطينية خدمة لا تقدر بثمن، دون ان يريقوا نقطة دم واحدة. ولسخطي على ذلك واستنكاري له، فانني كنت اتحرق تعجلا وعيلان صبر لكي اقوم بالدفاع عنهم علانية، غير انه كان علي ان الزم الصمت حائرا يائسا.

ذلك ان الاوضاع السياسية ومصلحة المقاومة العليا، لا تسمح لي بأن اتصرف من وحي وجداني. فتبرير عملهم قبل "قمة" الرباط او اثناءها، كان سيثير ازمة كبرى بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين البلدان العربية تؤدي بهذه البلدان الى تبني موقف معاد ازاءنا، فاخرب بذلك الجهود التي بذلت لانتزاع اعتراف رؤساء الدول العربية الذي طالما تمنيناه.

وعندما انتهى اجتماع هؤلاء الرؤساء، تعرضت مجددا للالحاح لاسكت مرة اخرى كي لا الحق الضرر بالعمل الذي يقوم به اصدقاؤنا في الامم المتحدة من اجل ان تعترف المنظمة الدولية بمنظمة التحرير الفلسطينية. فهذا الهدف جوهري جدا بالنسبة لمستقبلنا.

وقد اصبت حين تمالكت نفسي. فبعد اسبوعين من "قمة" الرباط، استقبل ياسر عرفات في الجمعية العامة للامم المتحدة استقبال المنتصر. بحيث ان الترحيب الذي استقبله به ممثلو نحو من مئة واربعين امة وهم وقوف، في ١٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٧، كان احد اكثر اللحظات المؤثرة في تاريخ الشعب الفلسطيني. ذلك ان امم المعمورة كانت تحيي الصراعات التي خضناها والتضحيات التي بذلناها طوال اكثر من نصف قرن. شعرنا في ذلك اليوم اننا لم نعد في نظر الرأي العام العالمي مجرد شعب من اللاجئين والحفاة وانما جماعة وطنية، لا ريب في انها مغتصبة مهانة مذلة، الا انها فخورة ابدا ومستعدة لمواصلة معركتها.

وستتخذ الجمعية العامة للامم المتحدة بعد خطاب ياسر عرفات قرارين لا سابق لهما في تاريخ المنظمة الدولية. فهي لم تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وحسب، ولكنها اولت منظمتنا كذلك، وضع المراقب داخل الامم المتحدة، في الجلسات والاعمال التي بات ممثلونا بعد ذلك يدعون اليها. وبهذا فاننا نلنا الامتياز العظيم بأن نكون اول حركة تحرر وطني تشارك رسميا في المنظمة العالمية وتحظى بمركز مماثل مثلا لمركز سويسرا والكوريتين والفاتيكان الخ... وخلال ذلك اعترفت الجمعية العامة للامم المتحدة بحق الشعب الفلسطيني "بالسيادة والاستقلال الوطني".

وقد غمرنا هذا كله. ذلك اننا بلغنا على المسرح الدولي كافة اهدفنا ولم نعد خارجين على القانون "وعصابات ارهابيين" و "قتلة". وفي هذا الحين بالذات قررت ان ارفع صوتي دفاعا عن الاربعة عشر فدائيا المعتقلين ظلما في المغرب.

وانتهزت مناسبة انعقاد مهرجان شعبي في ١٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر في جامعة بيروت العربية، لادهش المستمعين الي، ليس بدفاعي عن هؤلاء الاخيرين وحسب، بل باعلاني تضامني مع المحاولة التي قاموا بها تضامنا كاملا . وبعد

ان اشرت الى الانتصارات الاخيرة التي حققها شعبنا، وخاصة في "قمة" الرباط وفي الامم المتحدة، اعلنت انه لا يمكن فصل هذه الانتصارات عن معارك ونضال مناضلينا. مضيفا ان المعتقلين الاربعة عشر في الرباط، انما قاموا بواجبهم. وخلافا لمزاعم الدعاية المغرضة، فانه لم تكن عندهم النية في مهاجمة كافة رؤساء الدول العربية، وانما واحدا منهم فقط.

ثم تعرضت اثر ذلك لمصير المعتقلين الاربعة عشر، فاعلنت تصميمي على التوصل للافراج عنهم. ونددت بالتعذيب الذي اوقعه البوليس المغربي بهم، ثم المحت الى انه اذا ما اصم الحسن الثاني اذنيه عن نداءاتي ـ وكنت ارسلت اليه قبل ذلك برسالة شفوية بواسطة شخصية تونسية ـ فان لدينا من الوسائل ما نجبر بها العاهل الشريفي على الاذعان.

وبينما كنت مندفعا في هجومي على الحسن الثاني، قاطعني احد معاوني ليسلمني رسالة. وجحظت عيناي وانا احملق في المذكرة الموجزة، ذلك اني قرأت فيها انه تم اطلاق سراح رفاقنا الاربعة عشر، وانهم سلموا الى مصر التي اودعتهم سجن القلعة بالقاهرة. واستأنفت كلمتي وانا في غاية الضيق لا ادري كيف سأعدل لهجة خطابي ومضمونه. وغمغمت قليلا ثم رحت اقول اني تسرعت قليلا في الهجوم على الحسن الثاني لانه في الحقيقة يتحسس مصالح المقاومة الفلسطينية. ثم اعلنت النبأ الذي تلقيته لتوي، ثم ما لبثت ان استطردت لاتعرض لموقف مصر الشائن التي تبيح لنفسها اعتقال رجال افادوا لتوهم من تساهل المغرب، وصحت بأي حق ينصب السادات نفسه قاضيا؟

ولم اكد انتقل من الجهوم على الحسن الثاني الى السادات حتى قوطعت مرة ثانية من قبل واحد من جمهور الحاضرين حين سلمني كلمة حررت بهذه العبارات تقريبا: ان السادات يدعوك لرؤيته فورا. فارجوك الا تنتقده قبل ان تستمع اليه". وكانت الكلمة موقعة بتوقيع احد افراد السفارة المصرية في بيروت ممن اعدهم من بين اصدقائي الخلص. فهو كضابط استخبارات سابق، قدم لنا خدمات كبرى في الاردن ابان مواجهة عام ١٩٧٠ مع الجيش فلم يكن امامي بديل على الموافقة على طلبه الملح.

واستأنفت خطابي وانا اكثر ارتباكا وبدأت اتعلثم واحاول البحث عن كلمات

تتيح لي ان انعطف بهدوء، عن السادات دون ان اناقض نفسي. واخيرا توصلت الى ان اقول للجمهور المتحير ان اصدقاءنا المصريين ابلغوني للتو انباء مطمئنة: فاعتقال الفدائيين الاربعة عشر "اجراء روتيني" وهم يلقون معاملة حسنة. ثم اوجزت حديثي وخلصت بكلام غامض التفاؤل.

وفي اليوم التالي ركبت الطائرة الى القاهرة... ووجدت في المطار ممثلا عن الرئيس السادات ينتظرني ليقودني مباشرة الى القصر، شأن ما كانت الحال معه عشية حرب تشرين ـ اكتوبر. واحتضنني رئيس الدولة المصري وهو يبتسم ويقول: "يبدو انك كنت تسعى الى اغتيالي؟" فلم احاول حتى ان اعترض، اذ ان الاتهام بدا لي عبيثا متهافتا. واستطرد السادات مطلعا اياي على التقارير التي تلقاها قبل "قمة" الرباط وعلى زيارة السفير المغربي له وتسليمه اياه نتائج التحقيق المقلقة المخيفة. غير انه اضاف متحببا بأنه ارتاب في هذه المعلومات وتشكك فيها. أليست عائلتي المقيمة في القاهرة تسكن بجوار مقره؟ أو لسنا اصدقاء قدامى؟

وعلى اية حال فان ضباط المخابرات المصرية الذين ارسلوا الى المغرب عادوا مقتنعين بأن العاهل الأردني هو المستهدف الوحيد بالعملية. وقد تباحثوا مطولا مع الفدائيين الموقوفين الذين يعرفون اربعة منهم لانهم يقيمون عادة في مصر.

وباختصار، فان السادات وفر علي عناء تقديم تفسيرات للماضي لا طائل فيها. وشكرته على الثقة التي يوليني اياها ثم قلت له بفظاظة: انه لا يليق به ان يجعل من نفسه سجان الوطنيين الفلسطينيين. واضفت اني سأشعر بخيبة عميقة اذا ظل مناضلونا ساعة واحدة بعد في سجن القلعة. فتوجه السادات الى الهاتف وطلب ممدوح سالم الذي كان حينها وزيرا للداخلية، وطلب منه الافراج عن المعتقلين الاربعة عشر فورا. وغادرت الرئيس وانا خلي القلب، لاعود الى زوجتي واولادي.

وبعيد ذلك بثمانية واربعين ساعة، اي في يوم ٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر تلقيت مخابرة هاتفية من اسماعيل فهمي، وزير الخارجية المصري الذي طلب الي بصوت مضطرب ان اوافيه في الحال. ثم اضاف بغموض ان القضية عاجلة وخطيرة. ووجدته في مكتبه بصحبة رئيس الوزراء ووزير الداخلية وبعض المساعدين فحدث لدي انطباع بأني امثل امام مجلس حرب. فالوجوه منطوية والجو متوتر. وابلغني

اسماعيل فهمي بالمشكلة بايجاز. فقد اختطفت طائرة بوينغ تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية، هذا اليوم الى تونس (بعد هبوط اضطراري في دبي) على يد مجموعة فلسطينية تطالب باطلاق سراح الفدائيين الخمسة عشر المعتقلين في مصر. وكان بين هؤلاء الاخيرين خمسة من الذين ارتكبوا محاولة مطار روما في ٥ نيسان-ابريل ١٩٧٣، كما كان بينهم ثمانية آخرون وهم المسؤولون عن عملية الخرطوم التي جرت في آذار ـ مارس ١٩٧٣ ضد سفارة المملكة العربية السعودية ، اما الاثنان الاخيران فكانا معتقلين في هولندا على اثر القيام بعملية فاشلة هناك. كان الرئيس بورقيبة يريد تلافي حدوث مأساة في مطار تونس ويلح على ان تلبي مطالب قراصنة الجو. وقال لي اسماعيل فهمي:"اننا لا نستطيع الاذعان للابتزاز"، ليسألني بعد هذا "هل تستطيع مساعدتنا. وان تتوصل الى تحرير الرهائن دون مقابل؟ وينبغي ان اعترف بأن الطلب بدا لي غريبا وصعب التلبية. ولكنني كنت اعتبر من جانبي ان قيام مجموعة مغاوير بالمطالبة باخلاء سبيل فدائيين سجنوا بناء على طلب منظمة التحرير، امر لا يطاق. فقد كانوا يزايدون علينا ويلقون في وجهنا بتحد لا بد لنا من الرد عليه.

وبينما كنت اتردد في ان اقوم بالعمل بنفسي، اتصل بي السادات هاتفيا والح علي بالذهاب الى تونس، ثم لم البث ان توجهت الى برج المراقبة حيث كان علي ان امضي ثلاثة ايام وليلتين في التفاوض على اطلاق سراح الرهائن. فكانت مهمة من اصعب واغرب المهمات التي قدر لي ان اقوم بها.

وفي برج المراقبة استقبلني وزير الداخلية التونسي طاهر بلخوجه الذي قابلته هناك لاول مرة واصبح بعد ذلك احد افضل اصدقائي. ثم اسمعني تسجيلا لاول مفاوضات اجراها مع قراصنة الجو. فقد كان هؤلاء منكفئين داخل الطائرة البريطانية ويهددون بقتل كافة رهائنهم. وعندما علموا اني جئت من القاهرة لاكلمهم غمروني بالشتائم وغمروا معي ياسر عرفات وسائر قادة منظمة التحرير الفلسطينية ورؤساء الدول العربية منددين "بخياناتهم".

كان المسؤولون عن العملية ينتمون "لمجموعة الشهيد احمد عبد الغفور" واحمد عبد الغفور كان احد مناضلي فتح قبل ان يلتحق عام ١٩٧٢ بمعسكر "جبهة الرفض"، وقبل ان يقتل في بيروت في ظروف غامضة عام ١٩٧٤. كان متطرفا سياسيا ونصيرا من عتاة انصار العنـف . وبعد ان جمع حوله عددا من المعجبين

حصل على دعم ابي نضال، وهو منشق آخر لاجىء في العراق. وهكذا فانه نظم محاولات دموية مختلفة ولا سيما في روما واثينا، قبل ان يقتل نفسه. واذا فاني كنت اواجه خصوماً عنيدين ويرفضون فوق ذلك بعناد ان يخوضوا اي حوار معي.

وبالرغم من ذلك فاني استخدمت جهاز الارسال في جهاز المراقبة، وتوجهت اليهم وانا احضهم على الاصغاء الي. فذكرت العلاقات الممتازة التي كانت تربطني بأحمد عبد الغفور قبل ان ينفصل عن فتح. واكدت لهم ان السلطات التونسية، وانا نفسي، قد اتخذنا قرارا للفور بعدم اللجوء الى القوة وان همنا الاول هو انقاذ الرهائن والحفاظ على سمعة المقاومة والاستجابة لمطالبهم. واوضحت انه ليس في الوارد ان نسلمهم فدائيي عملية الخرطوم الثمانية. وبالمقابل فانني اعد بأن اقوم بكل ما يسعني القيام به للتوصل الى تحرير الفدائيين السبعة الاخرين الذين يطالبون بهم. ثم اسمعتهم اثر ذلك تسجيلا لمؤتمر صحفي عقده ناطق باسم مجموعة الخرطوم في النهار ذاته، والذي يعلن فيه انه هو ورفاقه لا يريدون ان يبادلوا برهائن طائرة تونس. ثم خلصت الى القول لمحادثيي المغيبين "فكروا، وتعقلوا واعطوني جوابا ايجابيا!" ثم تولى بلخوجة الكلام وعرض بدء المفاوضات. وتناهي صوت اجش يقول: "اننا لا نثق بأبي اياد. فنحن نعلم انه رجل ماكر". فراح الوزير التونسي يلح عليهم ويقول لهم ان بوسعهم الوثوق بنا لاننا لا نخون عهدا مقطوعا. وطلبوا منا مهلة نصف ساعة للتفكير. لكن الانتظار طال واستغرق الليل كله ونحن يلفنا صمت كصمت المقابر. وكنا بدأنا نيأس، حين دوى في الصباح صوت رئيس المجموعة ويدعى مروان، وهو يطلب الكلام مع "الاخ ابو اياد" وتنهدت تنهيدة ارتياح، فقد ربحنا نصف المعركة طالما انهم يدعونني وللمرة الاولى باسم الاخ...

وبدون ان اضيع الوقت اتصلت بالحكومتين المصرية والهولندية لاطلب اليهما ان ترسلا في اليوم ذاته الفدائيين الخمسة من مصر والفدائيين من هولندا. وكانت الطائرة القادمة من لاهاي اول الطائرتين وصولا، الا ان القنصل الهولندي ابلغني ان الفدائيين لن يغادروا الطائرة الا بعد تحرير كافة ركاب الطائرة البريطانية. اما قراصنة الجو الذين كانوا يريدون ان تسير العملية على العكس تماما، فانهم ظنوا اننا ننصب لهم في الواقع شركا، فغضبوا وهددوا بالبدء باعدام سجنائهم واحدا واحدا. فدعوتهم الى الصبر وشرعت في مفاوضة مملة لاكسب الوقت، حتى يصل

الفدائيون الخمسة الاخرون من القاهرة.

ولدى وصول هؤلاء، بات في وسعي ان اعرض صيغة تسوية يمكن ان يكون لها حظ من النجاح: قوامها ان تذهب المجموعة القادمة من مصر لتلحق "بمجموعة احمد عبد الغفور" التي تطلق بدورها سراح كافة ركاب الطائرة، وبعد ذلك يغادر الفلسطينيان الموجودان تحت رقابة البوليس الهولندي طائرتهما ليصعدا الى الطائرة البريطانية. ثم يقوم طاقم الطائرة – وهم سبعة – يحملون جميعا الجنسية البريطانية بايصال قراصنة الجو ورفاقهم الى البلد الذي يختارونه بعد استعادة حريتهم.

وقبل ان يصعد فدائيو القاهرة الخمسة الى الطائرة المخطوفة تأكدت من تواطئهم معي. فهم يعرفونني بالشهرة ويقدرون المعركة التي اخوضها. كما انهم فوق ذلك مدينون لانني تدخلت لصالحهم لدى توقيفهم. وطلبت اليهم ان يقوموا بكل ما في وسعهم لاقناع قراصنة الجو بقبول اقتراحي، خاصة بأن يظهروا اليهم انه ليس لديهم اية فرصة لفرض وجهة نظرهم. فهم من جهة اولى معزولون على الصعيد الدولي لانهم سمعوا الاذاعات ولا بد كما سمعتها انا، وعلموا ان كافة البلدان العربية بما فيها ليبيا والعراق واليمن الجنوبية، اي الدول المتعاطفة مع "جبهة الرفض" قد ادانت المحاولة ادانة قاطعة. ومن جهة اخرى فان ابتزازهم هذا لن يفضي الى شيء لان جميع الرهائن تقريبا ليسوا أردنيين ولا أميركيين. اذ من ذا الذي يقلق لاجل باكستانيين او هنود او اي آسيويين آخرين؟ ان ملاحظة ذلك امر محزن، لكن الاوروبيين لا يهتمون الا بحياة رعاياهم، اما رعايا العالم الثالث فانهم غالبا ما يعتبرون – وبل يعاملون – كما لو كانوا كائنات ادنى من البشر. واذا فان عليهم ان يقنعوا بتسوية تتيح لهم ان ينسحبوا بثمن مغر، ذلك اني اقدم لهم مقابل ذلك الامان والاعفاء من العقاب.

وقد ادى الخمسة مهمتهم، لكنها لم تكن خالية من الصعوبات ذلك انها اقتضت منهم بضع ساعات من المساومات والمداولات مع قراصنة الجو. ثم خرج الركاب كما هو متفق، وهم سبعة وعشرون مسافرا بينهم ثلاثة اوروبيين وافرج عنهم سليمين معافين. ثم سلم الفدائيان اللذان افرجت الحكومة الهولندية عنهما، الى مجموعة "احمد عبد الغفور" دون حوادث. فأصبح هناك ثلاثة عشر فلسطينيا (بينهم قراصنة الجو الستة) على متن طائرة الخطوط الجوية البريطانية، ومعهم

افراد طاقم الطائرة السبعة، وباتوا مستعدين للاقلاع والذهاب الى البلد المعين لاستقبالهم.

غير ان رئيس المجموعة، مروان، طلب فجأة ان يتحدث الي على انفراد. وجرت المقابلة التي اعد لها بدقة، في مهبط الطائرات وبالضبط في منتصف الطريق الواقعة بين الطائرة وبرج المراقبة. فابلغني انه يريد هو ورفاقه الحصول على حق اللجوء السياسي الى تونس مع ضمانة عدم تسليمهم الى منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن بامكاني ان اقبل مثل هذه الشروط دون الرجوع الى الرئيس بورقيبة الذي رفض رفضا قاطعا ان يستجيب لطلب قراصنة الجو وعندها راح الخاطفون يهددون بتفجير الطائرة بمن فيها، فيقتلون بذلك افراد طاقم الطائرة معهم. فكان علينا ان نعود على بدئنا. وضاعت نصائحي سدى. فعرضت عليهم حينذاك مبادلة الانكليز السبعة بسبعة من معاونيي، وهكذا يصبح ضحايا هذا الانتحار الجماعي كلهم من الفلسطينيين. وقلت لهم بالمنياع: "وفروا علينا عار اعدام ابرياء انكليز!". وكما توقعت فان الرئيس بورقيبة تأثر لاقتراحي، ثم انه لما كان لا يريد ان يكون مسؤولا عن مثل هذه الخاتمة المأساوية فانه تعهد بتلبية مطالب مغاوير عبد الغفور. وهكذا فانني نجحت في النهاية ولكنه كان نجاحا "على الحافة".

وخلال هذه الستين ساعة من المساومات المقلقة المحمومة، كان هناك رجل قدموه الي على انه دبلوماسي بريطاني، يقف على مقربة مني ويتابع تطور المأساة التي تلعب. كان منزويا قليل الكلام ولا يتحدث الا بالانكليزية فلم يكن يخطر في بالي انه يفهم لغتنا. وكم كانت دهشتي عظيمة حين توجه الي بعربية منقحة ليشكرني بحرارة. وقال لي "نحن مدينون لك بجميل عميق يا ابا اياد لانقاذك حياة رعايانا. وقد تأثرت بالغ التأثر بروحيتك الفروسية وبعرضك المؤثر بالتضحية بفدائيين بدلا عنهم..." كان محدثي، وهو السفير الذي خدم في مختلف البلدان العربية، مكلفا من قبل الخارجية البريطانية. واجبته بأنني لم اقم الا بواجبي، وانه اذا كان يصر على شكري فان بوسع حكومته ان تدفع نصف ثمن طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي افلحت في انقاذها لصندوق منظمة التحرير الفلسطينية. فانفجر الدبلوماسي ضاحكا، وبعد ذلك ببضعة ايام، تلقيت، لدى عودتي الى منزلي في القاهرة باقة زهور باذخة من شركة الطيران البريطانية.

غير ان المهمة التي انجزتها لم تحزني التهاني وحدها. فخلال المؤتمر الصحافي الذي عقدته في تونس غداة تحرير الرهائن، راح صحفي امريكي يقول لي بفظاظة: "احسب انكم لم تكونوا في يسر من امركم في برج المراقبة، يا مستر ابو اياد! اليس مكانكم الطبيعي ان تقبع الى جانب الارهابيين في الطائرة! فتمالكت اعصابي واجبته بهدوء:"سيان كان المكان برج المراقبة ام سواه من الامكنة، فاني لا اشعر في اي حيز كان انني في داري. لكن اترانا نبالغ في الطلب اليكم ــ وانتم الذين لكم وطن ودار ثابتة ــ ان تراعوا الحد الادنى من اللياقة ازاء من ليس لهم وطن ولا دار!

وكانت لي من ثم مناقشة متقدة مع قراصنة الجو، حول موضوع نجحنا في خنقه في المهد حينذاك، واثيره اليوم للمرة الاولى ــ فالواقع هو ان مطالب مجموعة عبد الغفور لم تقتصر على تحرير الفدائيين المسجونين. فقد اشترطوا كذلك استدعاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية من الامم المتحدة. فطلبت من السلطات التونسية الا تنشر شيئا حول هذا الموضوع قبل التوصل الى اقناع افراد العملية يالتراجع عنه اثر مفاوضات شائكة معهم. فقد قلت لهم: لكن هل قرأتم خطاب عرفات امام الامم المتحدة؟! وعندما اجابوني بالنفي، رحت اصف لهم مشاهد الفرح التي دارت في مخيمات اللاجئين، موضحا لهم ان الفلسطينيين شعروا بالفخر عندما علموا بأن واحدا منهم عرض امام العالم اجمع، قضية طال تجاهلها، وان الرجل الذي تكلم باسمنا قد قوبل بالتصفيق من قبل ممثلي شعوب المسكونة كلها. ثم اضفت: ولا ريب في اننا لا نجد في موقف الامم المتحدة منا طوال تاريخنا ما نرحب به، كما انه لا ينبغي لنا كذلك ان نتوهم الاوهام حول سلطان وفعالية هيئة الامم المتحدة. لكن هل هذا يعني ان علينا ان نستصغر هذا الانتصار المعنوي والسياسي؟

وانتهى مروان ورفاقه، بأن اقروا، على اثر المناقشة، بخطئهم، ثم اعتذروا بارتباك وخجل عما اظهروه من عماء. ومنذ ذلك الحين التحقوا ستتهم بصفوف فتح. ثم ان النقاش الذي اجريته معهم كان مفيدا لي من حيث انه مكنني من معاينة المقدار من التأثير الذي تستطيع به الدعاية الديماغوجية التي تمارسها جبهة الرفض، ان تتركه على الشباب الوطني، اذا لم يكلف الواقعيون داخل الحركة الفلسطينية انفسهم عناء الاجابة بتحليل موضوعي للظرف الذي نواجهه وما يزيد

مهمتنا سهولة ويسرا، هو ان اطروحات خصومنا هي اطروحات لا يمكن الدفاع عنها كائنا ما كان المنظور الذي ينظر منه: قوميا او ثوريا او ماركسيا. فقادة الجبهة الشعبية يدعون الانتساب الى الماركسية، ليؤكدوا ان الدبلوماسية هي شكل من اشكال الانهزامية وان الكفاح المسلح وحده ثوري. ثم يشجبون بمثل هذه الحجة دخولنا الى الامم المتحدة، المنظمة التي تضم كافة البلدان الاشتراكية بما في ذلك عملاقا الشيوعية الدولية! ان هؤلاء الماركسيين المنحولين يجهلون حتى تعاليم لينين الذي كان يوصي البلاشفة بالتسرب الى كافة المنظمات الجماهيرية واثبات وجودهم فيها. ثم تراهم يزعمون لانفسهم التفوق لغيابهم عن اهم هذه المنظمات الجماهيرية، اي عن تلك التي تضم شعوب الكرة الارضية كلا وجمعا.

ورئيس الجبهة الشعبية، الدكتور جورج حبش، نسي انه عارض في تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٤ دخولنا الى الامم المتحدة كعضو مراقب، فعرض علينا في ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٧ ان يقوم وفدنا بطلب استبعاد اسرائيل عنها... لكن هذا ليس تناقض الدكتور حبش الوحيد...

وبينما كنا نتجابه داخل الحركة الفلسطينية حول الطريقة التي نرد بها على تحدي السلام كان هنري كيسنجر يعمل بدأب دائم وتكتم بالغ ليعطل النجاحات التي حققناها، على المسرح الدولي، وليقسم العرب عامة، لما فيه مصلحة اسرائيل. كان يعمل ظاهرا كوسيط لا يكل ولا يمل، ويقوم بسلسلة من الزيارات للشرق الاوسط ذاهبا آيبا، غاديا رائحا كالمكوك بين تل ابيب والقاهرة ودمشق وعمان والرياض الخ... وسريعا ما لوحظ ان هدفه ليس التوصل الى تسوية شاملة تذهب الى جذور النزاع، وانما عقد اتفاقيات جزئية سوف تعطي التوسعيين الاسرائيليين فترة راحة طويلة بأن تقيم العرب بعضهم ضد بعض. وقد بدا الاتفاق الاول الذي عقد بين مصر واسرائيل تحت رعايتها، في ١١ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٣، اتفاقا بريئا. افلم يكن يهدف الى انقاذ الجيش الثالث من الاختناق وربما من الابادة. ولم تعارض منظمة التحرير الفلسطينية ذلك. ولكن عندما شرع كيسنجر برحلة مكوكية جديدة بهدف التوصل الى فك ارتباط عسكري اول في سيناء، فان منظمتنا انتقدت انتقادا قاسيا دبلوماسية "الخطوة خطوة" التي لا يمكنها، ببديهة الحال، الا ان تفضي الى اثارة الشقاقات داخل العالم العربي. وقد قلقت سوريا بخاصة واستاءت منها . ذلك انها فهمت ان اتفاقا جديدا اسرائيليا مصريا لا

يمكن الا ان يضعف موقعها ازاء الدولة اليهودية.

وقبيل توقيع اتفاق ١٨ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٤ بين القاهرة وتل ابيب ببضعة ايام، فانني سافرت الى القاهرة لاحث السادات على عدم التورط في هذه الدوامة الخطرة. كانت المفاوضات في نقطة الصفر، فكنت آمل في ان يتغلب التصلب الاسرائيلي مرة اخرى على ضعف الرئيس المصري وموقفه الانهزامي... غير انني وجدت السادات مغضبا، ليس ضد الدولة الصهيونية او ضد كيسنجر، بل ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وابدى لي انتقادات مرة ثم هاجم ياسر عرفات بعنف بسبب البيان الذي نشرته اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية بصدد التوجه الذي تتجه الدبلوماسية الامريكية فيه.

واظهرت الكثير من الصبر محاولا تهدئته واعادته الى الصواب. فقد كنت اريد تلافي حدوث قطيعة في لحظة كنت لا زال فيها آمل باكتسابه الى وجهة نظرنا. الا انه لم يتراجع ولا قيد انملة ثم احتد وقال لي: "ولو قدم لي كيسنجر في الغداة مترا مربعا واحدا من سيناء اخذته منه! ولن اتراجع عن الخط الذي رسمته لنفسي ابدا" فأبديت بأنه ينبغي على كل حال ان يأخذ بعين الاعتبار موقف سوريا، حليفته في حرب تشرين ـ اكتوبر. وانتهى بأن قبل بعد كثير من التردد بالتباحث مع الرئيس حافظ الذي كنت تباحثت معه قبل ذهابي الى القاهرة. وتمت المقابلة بينهما بعيد ذلك في الرياض، الا انها لم تفض الى نتيجة لان السادات واصل الطريق التي رسمها له كيسنجر، حتى عقد اتفاق سيناء المشؤوم في الثاني من ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٥، وهو الاتفاق الذي سيخرج مصر من معسكر بلدان ساحة المعركة، ويعمق الهوة المحفورة بين القاهرة ودمشق، ويسهم اسهاما عظيما في تغذية نيران الحرب الاهلية في لبنان.

وقد انفجرت الصدامات الاولى بين المسيحيين والمسلمين في لبنان، وبين الاحزاب المارونية وبين الفلسطينيين، في الايام الاولى من عام ١٩٧٥. ولم يكن في وسعي وانا مستغرق بالكامل بالمشاكل المطروحة على الحركة الفلسطينية ان اغادر مركزي في بيروت. غير انني استغللت الهدأة الخادعة التي سادت في شهر تموز ـ يوليو، وقررت القيام بأول انتقال لي خلال سبعة اشهر الى الخارج. والواقع هو انني كنت تلقيت خلال ذلك دعوة لزيارة المغرب بهدف التصالح مع الحسن الثاني. ولم اكن اريد ان اقوم بزيارة رسمية او علنية مخافة الا يفضي اللقاء الى

نتائج ايجابية. وعلى هذا فقد تم الاتفاق على ان اسافر مع زوجتي واولادي لنمضي اجازة في تونس، ومن هناك اسافر الى المغرب. كنت مسرورا لتمكني من الافلات من مسؤولياتي المنهكة في لبنان لبضعة ايام، خاصة واني اكن مودة خاصة للتونسيين ورئيسهم الحبيب بورقيبة. وبخلاف ذلك، فاني كنت محتاجا، بالنظر الى انني لم انل قسطاً من الراحة منذ سنوات، الى اجازة بصحبة اطفالي الذين لا اراهم الا نادرا.

وفي العاشر من آب ـ اغسطس لحقت بي عائلتي الى تونس، وبعيد ذلك بنحو من عشرة ايام قادتنا طائرة مغربية خاصة بصورة بالغة التكتم الى الدار البيضاء، يصحبنا ضباط من المخابرات المغربية، والفدائيون الثلاثة المشتركون بعملية تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٧٤، والذين افرج الملك الحسن الثاني عنهم. ذلك اني كنت حريصا بالفعل على تقديمهم الى العاهل المغربي لاقناعه بأنهم ليسوا بالمتشردين اللصوص كما وصفتهم مخابراته.

وانزلت في مقر فخم بالدار البيضاء، وبقيت فيها خمسة او ستة ايام قبل ان يتم اصطحابي الى الرباط لاقابل الملك. وهناك جرت المقابلة وفقا لقواعد وابهة البلاط الشريفي. اذ وصلت الى القصر في عربة فخمة تتقدمني الدراجات النارية ويرافقني حشد من الحرس. واستقبلني رئيس المراسم الملكية ثم ادخلني الى مكتب فسيح شاهدت في طرفه الاقصى الحسن الثاني جالسا الى طاولة عمله. وما ان دخلت حتى نهض واقفا وتقدم الى وسط الغرفة ليحييني. الا انني لاحظت ان مودته لا تصل الى حد احتضاني على الطريقة العربية. وكان ذلك طبيعيا باعتبار اننا لم نسو بعد الخلاف الذي يفصلنا. وعلى اي حال فان سيرته تتناسب مع سيرتي تماما. ذلك اني انفر بالفعل من العواطف المصطنعة فلا اعانق شخصا القاه للمرة الاولى، او شخصا لا احمل له عاطفة ما.

وتبعني الفدائيون الثلاثة الذين يرافقوني ثم حيوا الملك وانسحبوا ليتركونا وحدنا. وما لبث الحسن ان بدأ المحادثات بقوله:"فلننس الماضي، اذ ان من الخير في تقديري ان تفتح صفحة جديدة في علاقاتنا"، فأثنيت على قوله ثم استأذنته في ان اثير نقطة واحدة على الاقل، تهمني على نحو خاص، عنيت الاتهامات الظالمة للفدائيين الذين اوقفوا قبيل "قمة" الرباط بقليل. وقلت له:"كيف امكن ان تصدقوا يا جلالة الملك ان عدة رؤساء دول ، انتم بينهم كانوا مستهدفين بالعملية وذكرته

بأنه هو نفسه كان قد اقترح منذ سنوات ان يتخلى الملك حسين عن السلطة للمقاومة.

واصغى الي الحسن الثاني بانتباه، ثم قال لي، ان الشعب الفلسطيني يستحق ان يمارس حقه في تقرير المصير، الا انه عرض ان يقوم بمساع حميدة لاعادة الحوار بين المقاومة والملك حسين. ثم اثرنا بعد ذلك النزاع الذي كان اندلع لتوه بين المغرب والجزائر حول الصحراء الغربية، وعرض لي العاهل المغربي وجهة نظره، ثم اقترح علي صيغة تسوية وكلفني بنقلها الى الرئيس بو مدين الذي كنت سأقابله قبل عودتي الى بيروت. وقد اتاحت لي هذه المحادثة التي راحت تزداد حرارة ان اقيس مدى ما يتمتع به الحسن الثاني من ارابة ومهارة، ومعرفة واسعة بالمشكلات الدولية.

ثم سألني قبل ان نفترق، عن مشاريعي، فأبلغته بعزمي على مغادرة المغرب من الغداة فعارض واصر على ان ابقى حتى اول ايلول-سبتمبر على الاقل. ولكن لماذا اول ايلول بالذات؟ واجابني احد معاونيه عندما سالته في ذلك بعد انتهاء المقابلة، بألغاز اذ قال: لان اطفالك يريدون ذلك". كنت اجهل انهم يعدّون لي دون علمي احتفالا بعيد ميلادي الذي يصادف في ٣١ آب _ اغسطس، والذي كنت نسيته بالكامل. غير انني بقيت في الدارة الجميلة التي وضعوها بتصرفنا قرب الشاطىء خلال فترة الثلاثة او الاربعة ايام الباقية، والتي استغللتها لاقابل مختلف شخصيات المعارضة.

وستظل سهرة الواحد والثلاثين من آب محفورة في ذاكرتي كأحدى اجمل سهرات حياتي. ذلك انه لم تتح لي، وانا المستغرق في انهماكاتي او في تنقلاتي، ان اجد نفسي وسط اسرتي في مناسبة كهذه. ووجدتني محاطا بأطفالي الستة وزوجتي والمناضلين الفلسطينيين الثلاثة وبشخصية كبيرة من البلاط الملكي امام وليمة شهية وكعكة ميلاد ضخمة مزدانة بعدد من الشموع يوافق عددها عدد سني عمري. وغنينا اناشيد فلسطينية ومغربية يصاحبها نقر على العود، حتى ساعة متأخرة من الليل.

وفي الغداة، علمت من الاذاعة في الجزائر ان مصر واسرائيل عقدتا اتفاقا جديدا، وهاما هذه المرة، حول فك ارتباط عسكري في سيناء . كنت اجهل

التفاصيل، واجهل بخاصة البنود السرية في البروتوكول الملحق بالاتفاق ــ والذي لن يكشف مضمونه الا بعد ذلك بعدة اشهر ــ الا انني توجست بأن يكون حقا وصدقا، مرحلة تنحو نحو معاهدة صلح منفردة مطابقة لاستراتيجية اسرائيل الدبلوماسية.

وقد سألني الصحفيون الجزائريون عن هذا الاتفاق، وكنت اول قائد فلسطيني يشجب تفريط السادات. فاتهمته بأنه يسدد طعنة نجلاء للتضامن العربي وللقضية الفلسطينية ثم وجهت نداء الى الرأي العام العربي كله ليتخذ الموقف نفسه الذي اتخذته من هذه الخطوة.

ثم اني عرضت على الرئيس بو مدين حين استقبلني في اليوم التالي، الوضع في الشرق الاوسط كما اراه والمخاطر التي يشتمل عليها اتفاق سيناء بالنسبة للقضية العربية وللسلام الاهلي في لبنان. فاعرب رئيس الدولة الجزائري عن اقتناعه بأن التفاهم الاسرائيلي المصري سيؤدي الى تفاقم الشقاقات بين القاهرة ودمشق، ثم اضاف بأنه لا يستبعد ان يقوم الامريكيون بتشجيع الصدامات الدموية في لبنان اضعافا للحركة الفلسطينية. وكان يرى ان حياة القادة الفلسطينيين في خطر، وانه ينبغي لنا ان نتخذ احتياطات اضافية. وعلى هذا فاني اقترحت عليه ان يتخذ موقفا علنيا مناهضا لاتفاق سيناء. الا انه اجابني بأنه على منظمة التحرير الفلسطينية ان تتخذ مثل هذا الموقف بادئا، والا فان اعلانا بهذا المعنى من جانبه سيكون سابقا لاوانه وغير مناسب وما لبثت لدى عودتي الى بيروت في الخامس من ايلول ــ سبتمبر ان ذهبت الى اجتماع تعقده لجنة فتح المركزية لتفحص وامتحان اتفاق سيناء بالذات. ثم اصدرنا على اثر مداولاتنا بيانا ينتقد التفاهم المصري الاسرائيلي وهنري كيسنجر الذي اوصى به، انتقادا شديدا. لكن غالبية البلدان العربية لزمت الصمت، اما موافقة منها على الاتفاق، واما مداراة لمصر او مراعاة لجانب الولايات المتحدة أو لكليهما معا.

ومذ ذاك، صار في مستطاع الجنون الدموي ان ينفلت من عقاله في لبنان دون ان يعيقه معيق.

الفصل الثامن

الشـــرك اللبناني

بدأت الحرب الأهلية اللبنانية على ما تقتضيه "الأصول" أي بمذبحة. ففي احدى ساعات بعد ظهر الثالث من نيسان ـ ابريل ١٩٧٥، كانت سيارة نقل (أوتوبيس) تقل عددا من الفلسطينيين واللبنانيين، تجتاز حي عين الرمانة ذي الغلبة المسيحية. ولم يكن في وسع هذه السيارة أن تسلك طريقا آخر لتنقل ركابها من مخيم صبرا حيث كانوا يشاركون في مهرجان شعبي، الى أماكن سكنهم الواقعة في مخيم آخر، هو مخيم تل الزعتر. فكان أن تعرضت لنيران غزيرة في ذات الحين الذي كان رئيس حزب الكتائب بيير الجميل، يدشن فيه كنيسة في عين الرمانة. ولم يكن في حيازة هؤلاء الركاب وبينهم عدد من النساء والاطفال أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم فكان أن سقط عدد منهم لدى بداية اطلاق النار، بينما راح المهاجمون يجهزون على البقية الباقية من الجرحى. وهكذا فان قوات الأمن وجدت لدى وصولها الى مكان الحادث ثلاثين جثة ممددة داخل الاتوبيس. وبهذا ستكون بداية أحد أفظع النزاعات المسلحة في التاريخ، ليتواصل ويزداد اضطرابا ـ خلال ثمانية عشر شهرا ـ اللهم ما خلا هدنة خداعة في شهري تموز ـ يوليو وآب ـ أغسطس من عام ١٩٧٥.

والحقيقة هي أن مذبحة عين الرمانة فقأت دملاً لم ينفك تقيحه عن التئام منذ ما يقرب العقد من السنين. وهي الى ذلك تشهد على تدهور العلاقات الفلسطينية اللبنانية برغم بعض الفترات من الوفاق الظاهر. فسلطات بيروت بدأت تعارض عمل المقاومة كما أشرت في فصل سابق، منذ اطلاق فتح للكفاح المسلح في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٥، فتعتقل وأحيانا تعذب الفدائيين الذين يحاولون اجتياز الحدود اللبنانية للذهاب الى الاراضي المحتلة. وكان لهزيمة عام ١٩٦٧ من الآثار في بيروت ما كان لها في العواصم العربية الأخرى اذ وجدت الحكومة اللبنانية نفسها مكرهة على تبني موقف لين ازاء المقاومة، القوة الوحيدة التي لم تستكن الى الهزيمة في العالم العربي وامتشقت السلاح في وجه عدو اشتهر بأنه لا يقهر. وأما الفلسطينيون المقيمون في لبنان فانهم استردوا من جانبهم ثقتهم بأنفسهم ثم واظبوا في غمرة الحماس على تحطيم قيودهم في بلد كان يعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية. وتحولت مخيمات اللاجئين التي جعلتها القوانين والقيود والاجراءات الادارية اشبه بالسجون، الى قلاع. وتطوع الرجال والنساء بالآلاف في التنظيمات الفدائية أو في ميليشيات الدفاع المدني.

وأنشأ مقاتلونا قواعد عسكرية في الجنوب. ثم راحوا يشنون انطلاقا منها عملياتهم ضد الأهداف الواقعة داخل الاراضي الفلسطينية.

أما المسؤولون اللبنانيون فانهم راحوا يراقبون، عاجزين، تطور وتنامي نشاطاتنا المستقلة. ولم تظهر أولى بوادر الضيق في بيروت الا بمثل ما ظهرت في عمان ــ أي اثر تظاهرة التشييع المهيبة التي نظمناها في نيسان ــ ابريل ١٩٦٨ لأحد مناضلينا من التابعية اللبنانية، عزالدين الجمل، الذي استشهد خلال عملية داخل فلسطين. فقد راح آلاف الفدائيين المسلحين، يتقاطرون في أرتال داخل شرايين العاصمة الرئيسية. صحيح أن ممثلين عن كافة الهيئات والأحزاب اللبنانية، اليمينية منها واليسارية أصروا على المشاركة في التشييع تعبيرا عن التضامن، الا انه من البديهي أن الانتشار العلني لقواتنا قد صدم عددا كبيرا منهم. وأما نحن، فانه كان من الصعب علينا من جانبنا أن نصادر الحرية التي استعادها شعبنا، والأمل الذي استرده في تحرير الوطن المغتصب واللذين كان حمل السلاح يرمز اليهما.

وبعد جنازة عز الدين الجمل بستة أشهر، بدأت التوترات بالاحتدام اثر اشتباك أول حدث في الجنوب بين مجموعة مغاوير فلسطينيين وبين دورية تابعة للجيش اللبناني، تلته في الأشهر التالية صدامات دموية. وفي شهر تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٦٩، دارت معارك عنيفة في عدة مناطق من البلاد، اثر محاولات السلطات فرض اشراف وقيود على تنقلات ونشاطات الفدائيين. فقد تبنى رئيس الجمهورية شارل حلو تحت ضغط الأحزاب المارونية مواقف معادية لنا، بينما جاهد رئيس الحكومة رشيد كرامي في الحفاظ على مصالح المعسكرين. وفي حين أن الأهالي كانوا بالاجمال مؤيدين لنا، الا أن الشرخ الطائفي عاود الظهور معاودة خطرة، الى حد أن رئيس الدولة أفضى الى احد المقربين اليه، بأن البديل الوحيد للتسوية هو تقسيم لبنان الى دولتين، احداهما مسيحية والأخرى مسلمة. وفي هذه الظروف بدأت المفاوضات في القاهرة تحت رعاية الرئيس عبدالناصر، الذي عرض وساطته، على الفريقين بحيث أنها أفضت في الثالث من تشرين الثاني ــ نوفمبر الى اتفاقات تحكم علاقات المقاومة بالدولة اللبنانية.

ومع أن "اتفاقية القاهرة" لم تنشر علنيا بناء لطلب السلطات اللبنانية التي كانت تخشى ردات فعل المعارضة البرلمانية ، الا انها تعرضت لحرب شديدة من

قبل رئيس الكتلة الوطنية ريمون اده، وهو سياسي على جانب عظيم من النزاهة أكن له شخصيا، برغم الاختلافات التي تفصل بيننا، مودة كبيرة. الا انني لا أستطيع أن أقول الشيء نفسه عن بيير الجميل وكميل شمعون، زعيمي حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار اللذين حملا السلاح لالغاء اتفاقية القاهرة، التي وافقا عليها دون تحفظ.

ولم تكن علاقاتنا بزعماء اليمين المسيحي سيئة في ذلك الحين، بل لقد كنا نطمح الى اقامة علاقات صداقة وتعاون مع كافة التشكيلات، وخاصة مع الطائفتين الرئيستين من السكان. وكثيرا ما كان القادة الفلسطينيون، وعرفات بخاصة، يلتقون مع بيير الجميل وكميل شمعون في جو يسوده الود، بل التقدير المتبادل. كان شمعون يظهر خلال هذه الاجتماعات وفي مواقفه المعلنة، اعتدالا مثاليا. في حين أن سلوك الزعيم الكتائبي كان يحيرنا. فهو في الاجتماعات الخاصة متفهم ومعقول دائما، مستعد للتسوية أبدا، الا أنه لا يلبث، فور انتهاء المحادثة، أن يصدر أو يفضي بتصريح معاد معاداة واضحة للفلسطينيين. وحين أبدينا له ذات يوم دهشتنا من هذه الازدواجية في اللسان فانه فسر لنا ذلك بعدم قدرته على أن يفعل غير ذلك، بالنظر الى مشاعر أنصاره ومحازبيه الذين لا يفهمون كنه الحوار القائم مع رؤساء المقاومة. وانما فهمنا بعد ذلك بكثير أن الكتائبيين كانوا يعبئون الرأي العام منذ ذلك الحين، استعدادا للصدام مع الفلسطينيين. يبقى أن سنوات ١٩٧٠ _ ١٩٧٢ ظلت هادئة نسبيا. ولا ريب في أن مشكلات عديدة ظهرت، الا انها حلت حبيا بفضل وسائل الاتصال التي أفلحنا في الحفاظ عليها مع زعماء الموارنة ومع الدولة اللبنانية التي كانوا يغلبون عليها.

ولكن الأمور ساءت في ربيع عام ١٩٧٣. فغداة الغارة الاسرائيلية على بيروت في ١٠ نيسان ابريل واغتيال زعماء منظمة التحرير الفلسطينية الثلاثة، اندلع النزاع بصدد تقصير قوات الأمن. ففي حين أن القادة المسلمين، وعلى رأسهم رئيس الحكومة صائب سلام، طالبوا بفتح تحقيق حول سلبية الجيش، وبانزال العقاب بالمسؤولين وعزل قائد الجيش العماد اسكندر غانم، فان الرئيس فرنجية طالب، مدعوما من الأحزاب المسيحية الرئيسية، بدخول القوات المسلحة الى مخيمات اللاجئين للدفاع عنها . وبطبيعة الحال، فاننا أجهضنا طلبه الذي يسير

في عكس وجهة "اتفاق القاهرة". ثم راحت الحوادث تتوالي، ويتوالى معها توقيف المناضلين الفلسطينيين.

على ان سيرة الجيش ظلت تسترعي انتباهنا. ففي الحين الذي كنا نتخذ فيه اجراءات لتهدئة الوضاع، تبين لنا أن قيادة الجيش العليا تضاعف الاستفززازات كما لو أنها تريد سفك الدم وبلوغ نقطة اللارجوع. وهكذا فان المعارك الدامية التي اندلعت في بيروت في مطلع شهر مايو ـ ايار. امتدت بسرعة الى بقية البلاد. وتدخل الطيران اللبناني للمرة الأولى في الثالث من أيار ـ مايو ليقصف مخيم برج البراجنة. في حين تعرضت التجمعات الفلسطينية الأخرى لقصف المدفعية.

وقد أتيحت لي فرصة اللقاء بقادة الجيش خلال المفاوضات التي جرت في اواسط شهر مايو ـ أيار مع أمين الحافظ الذي كان قد تعين لتوه رئيسا للحكومة. ولم أكن أتخيل في تلك الفترة أن هؤلاء الضباط سيظهرون انذاك تعصبا حاقدا، ان ازاء اللبنانيين المسلمين وان ازاء الفلسطينيين. فالعماد اسكندر غانم، الذي سيتمنطق بصليب ابان الحرب الأهلية في سنتي ١٩٧٥ و ١٩٧٦، كان قليل الكلام ابان محادثاتنا مع رئيس الوزراء. وتولد لدي وانا أرى جديته ووجهه الغامض وكياسته، انطباع بأنه عسكري محترف لا يحمل آراء سياسية مسبقة. أما العقيد جول بستاني والعميد موسى كنعان الرئيس المساعد لهيئة الاركان، فبديا لنا أكثر ودا وعذوبة فقد كانا يوليائنا وهما اللذان لا يعوزهما الذكاء ولا الدراية الكاملة بالوضع العسكري والسياسي، بآراء بالغة التعقل. ثم أن كنعان كان يتمتع فوق ذلك بحس دعابة فيظهر أكثر حبورا وبل اكثر ودا واتزانا.

وعلى أثر المباحثات، وبسبب الضغوط التي كانت تمارسها مصر وسوريا حرصا منهما على استتباب السلام الأهلي في لبنان تحسبا للحرب التي تعدان لها في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر، فاننا توصلنا الى عقد اتفاق ملكارت في ١٧ أيار ـ مايو. وهكذا فان هذه التسوية التي كان قوامها انشاء وسائل تهدف الى تيسير تطبيق "اتفاقية القاهرة" تطبيقا أفضل، قد أفلحت في إيجاد تعايش بين الفلسطينيين واللبنانيين سيدوم حتى مطلع عام ١٩٧٥.

الا اننا ظللنا نسعى الى اقامة تعاون على أسس وقواعد أكثر صلابة . وعلى

هذا فان وفدنا الذي ترأسته شخصيا ويمثل التنظيمات الفدائية الرئيسية، أجرى طوال شهر حزيران ـ يونية سلسلة من المحادثات مع العديد من اعضاء المكتب السياسي في حزب الكتائب، ولا سيما مع أمين الجميل ـ ابن بيير الجميل ـ وجوزيف شادر وكريم بقرادوني. فكانت مناقشاتنا على جانب من الصراحة فقد اتهمنا محادثونا بأننا نتصرف كما لو كنا في اراض محتلة وبأننا أقمنا دولة داخل دولة، ووضعنا آلاف الفدائيين الهاربين من الاردن بعد أحداث ٧٠ ـ ١٩٧١، سرا في بيروت. وواصلنا الرد على انتقاداتهم بهدوء محاولين طمانتهم بحجج عقلانية. فليس صحيحا أننا أدخلنا الى لبنان مناضلينا الأردنيين لأنهم لجأوا في غالبيتهم الى الساحة السورية. واذا كان صحيحا أننا جعلنا من بيروت مركز اتصالاتنا مع الخارج، ومركزا لبث صوت المقاومة، الا أن قادة الحركة الفلسطينية منتشرون في كافة أرجاء العالم العربي، ولا سيما في دمشق، كما أن نشاطاتنا ليست متركزة كما يحسب محادثونا في بيروت. ونحن لا ننوي بأية حال من الأحوال أن نحل سلطاننا محل سلطان السلطات الشرعية اللبنانية، أو ان نتدخل في شؤون لبنان الداخلية. فمن مصلحة الحركة الفلسطينية أن تظل بمنأى عن أي اطار له علاقة بالدولة كي تتمكن من مواصلة نضالها التحرري الوطني.

وبدا لنا أن محادثاتنا أفضت الى تفهم متبادل والى نتيجة ملموسة: ألا وهي صيغة تصريح مشترك يعبر عن تقارب وجهات نظرنا السياسية وخاصة فيما يتعلق بجنوب لبنان.

فقد جاء في بيان بهذا الصدد أن بواعث الاعتداءات الاسرائيلية ضد القرى الحدودية لا تعود الى تواجد الفدائيين في هذه المنطقة بل الى مطامع الدولة الصهيونية في الاراضي اللبنانية. وكان يفترض في هذه الوثيقة التي وقعها جوزيف شادر وأنا في شهر حزيران ـ يونية، أن تنشر في شهر أيلول ـ سبتمبر بمناسبة الاحتفالات التي ستقام بمناسبة ذكرى تأسيس حزب الكتائب. غير أن قادة الحزب راحوا يتعللون عندما جاء شهر ايلول. بمختلف الذرائع لكي لا يذيعوا التصريح المشترك علانية.

ثم ان حرب تشرين ـ اكتوبر بادئا، والمساومات الدبلوماسية التي جاءت بعد ذلك، امتصت كافة طاقاتنا خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٧٣، وخلال عام ١٩٧٤. ثم انه لم يكن لدينا أي سبب يدعونا للقلق من الوضع الداخلي اللبناني

لأن كافة قادة البلاد من المسلمين والمسيحيين، كانوا يظهرون لنا التعاطف والدعم. وكثيرا ما يجري اغفال واقعة كون الرئيس سليمان فرنجية قد ذهب محاطا بكافة رؤساء الجمهورية السابقين بمن فيهم كميل شمعون، الى نيويورك في شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧٤ ليرعى عملية قبول عضوية منظمة التحرير الفلسطينية كعضو مراقب في الأمم المتحدة.

على أن النشوة التي أثارها هذا الحدث، لم تدم طويلا. فقد راح الجميل في خطابين ألقاهما في شهري كانون الثاني ـ يناير، وشباط ـ فبراير ١٩٧٥ يتهم الفلسطينيين باستغلال الضيافة اللبنانية ويطالب باقامة سلطة الدولة اللبنانية على امتداد الأراضي اللبنانية أولا، ثم تنظيم استفتاء حول التواجد الفلسطيني في لبنان. ثم راحت الحوادث تتسارع بعد ذلك. ففي شهر آذار ـ مارس تولى الجيش قمع اضراب للصيادين في صيدا فكان أن سقط نائب المدينة السابق معروف سعد قتيلا. ثم أن مظاهرات الاحتجاج التي تلت ذلك ضد شراسة الجيش، الذي يقوده كما نعلم لواء ماروني، قد عمق الهوة بين المسيحيين والمسلمين وبين اليمين واليسار وبين المعادين للفلسطينيين وبين الموالين لهم وغير ذلك من الشروخ التي سوف تيسر عمل هواة الحرب الأهلية.

وفي هذه الاثناء، ووسط هذه الظروف، جاءت مجزرة ١٣ نيسان ـ ابريل بضحاياها الفلسطينيين واللبنانيين الذين سقطوا في سيارة الأتوبيس وهي تعبر حي عين الرمانة المسيحي.

كان كل شيء يشير، في الظاهر على الأقل، الى ان حزب بيير الجميل قد أعد العملية ونفذها. وعلمنا بين جملة ما علمناه ان اثنين من القتلة كانوا كتائبيين. لكن الغريب هو أن مسؤولي الحزب سلموهما في اليوم التالي الى البوليس. ثم أن الشك بدأ يتسرب الى نفسي عندما عرض علي عدة أعضاء من المكتب السياسي في حزب الكتائب وخاصة كريم بقرادوني وجوزيف شادر ـ اللذين لا يرقى الى نزاهتهما كمثقفين شك ـ انشاء لجنة تحقيق محايدة لتحديد المسؤوليات. كما أكدا لي في الحين نفسه وبصورة قاطعة بأن قيادة حزب الكتائب بريئة بالكامل من هذه الجريمة التي أدانوها بلا هوادة.

ولكنني عرفت الحقيقة بعد ذلك بعدة شهور ، فكان ان اعتراني الذهول، فبعد

تفكك الجيش اللبناني في ربيع عام ١٩٧٦، وضع ضباط لبنانيون مسلمون من المكتب الثاني اللبناني بين يدي وثائق أمنية. وتبين من الوثائق أن مجزرة عين الرمانة قد نظمت ونفذت بصورة مشتركة بين المكتب الثاني اللبناني الذي يرئسه العقيد جول بستاني وبين حزب الوطنيين الاحرار الذي يرئسه كميل شمعون.

وأما القاتلان اللذان سلمهما حزب الكتائب الى البوليس فكانا في واقع الامر عضوين في حزب الوطنيين الاحرار واندسا في صفوف الكتائب مموهين انتماءهما السياسي. كان تدبير الجريمة قد جرى بحيث تكون جريمة كاملة، الا أن أصحابها لم يتوقعوا حدوث "التسرب" الذي وقع نتيجة الظروف الاستثنائية التي استجدت في لبنان، بحيث يسقط القناع عن وجوههم. وقد شاءت الصدفة أن ألتقي العقيد البستاني بعيد اكتشافي هذا. فكان أن رفض كافة الادلة التي أملكها حول ادانته. غير ان مخابرات دمشق، زودتني بعد أن تحسنت علاقات المقاومة مع سوريا، بمعلومات تؤكد المعلومات التي حصلت عليها من الضباط الذين انشقوا عن المكتب الثاني.

وقد زاد من وقع الصدمة التي أثارها في نفسي استفزاز ١٣ نيسان ١٩٧٥ الدموي، انني كنت أبعد من أن اتخيل كميل شمعون يرتكب جريمة نكراء كهذه. وقد اتيحت لي فرصة التحدث مع رئيس الجمهورية اللبناني السابق هذا، أربع مرات على الأقل خلال شهر حزيران ـ يونية ١٩٧٥. وخلال اللقاء الاول الذي تم في منزل مسيحي فلسطيني بحضور ياسر عرفات، راح شمعون يتدفق ويفيض رقة وعذوبة بحديث حول المقاومة، متكلما بكلام لا يقوله الا قومي عربي! فرحت أراقبه من جانبي في صمت. واعترف بأن هذا الهرم الوقور ذي الشعر الفضي الذي يستطيع، وهو يلاعب بتأنق الاطار الكثيف لنظارته ويتكلم بهدوء واعتدال، ان ينزع الريبة من نفس أي مرتاب.

والتفت نحوي فجاة وقال لي على سبيل المناكفة: "هل تراك فقدت النطق يا أبو اياد؟ اني احب أن أسمع رنين صوتك..." فابتسمت وانا أجيبه: "اسمح لي أيها الرئيس أن أطرح عليك سؤالا لا يزال يوسوس في بالي منذ بداية هذه المحادثة: هل تعتقدون ان مجزرة عين الرمانة هي حادث عارض أم انها بداية لتنفيذ مؤامرة يحيكها حزب الكتائب ضد المقاومة؟" وحين استرجع ذلك، أرى في شمعون ممثلا حاذقا. فقد اصطنع سمة المستلهمين وضبط نظارتيه وعقد حاجبيه واستغرق

في تفكير عميق. ثم رفع عينيه بعد ذلك بدقائق ليقول لي: "انه من الصعب علي يا بني أن أعطيك جوابا للتو لان عناصر الاجابة تعوزني. ولا بد لي من خمسة عشر يوما لأجمع المعلومات وأصدر حكما. وبانتظار ذلك فاني لا أستبعد شأنكم أنتم، فرضية المؤامرة..." وسوف نعلم بعد ذلك ببضعة أشهر، أن رئيس حزب الوطنيين الأحرار، كان في اللحظة التي يحادثنا فيها، يستورد السلاح بكميات كبيرة ويجهز مليشياه، ويبيع الفائض لقاء أرباح ضخمة، الى مختلف فصائل اليمين المسيحي المتطرف، بما في ذلك حلفاؤه الكتائبيون.

ولم نفهم لعبة شمعون الا بالتدريج. والواقع هو ان استراتيجيته كما تظهر بوضوح في سيرته الذاتية تقوم على ثلاثة أهداف متتالية. الهدف الأول (وهو الهدف الذي كان يصبو اليه حين التقيناه في حزيران ــ يونية ١٩٧٥) هو أن يؤمن القبول به كزعيم وطني متحسس لمطالب اللبنانيين والفلسطينيين، والثاني أن يحتل مركزا ممتازا داخل الحكومة يتيح له المناورة من اجل بلوغ مطمحه الأقصى: الحلول محل سليمان فرنجية على رأس الدولة.

ولم أكن اعرف رئيس الجمهورية اللبنانية في ربيع عام ١٩٧٥ الا لماما، ذلك أني قابلته عرضا في القاهرة في شهر شباط ــ أغسطس من عام ١٩٧٠ بعيد انتخابه لرئاسة الدولة. وكنا في تلك الفترة في غمرة النزاع مع العاهل الاردني، فعرضت له مصاعبنا في الاردن فأصغى الي ثم أعلن بانه مقتنع بأن شيئا من هذا لن يحدث في لبنان في عهده لأنه سيسمح للمقاومة الفلسطينية، كما قال، بأن تواصل عملها في اطار اتفاقية القاهرة. وينبغي لي القول أنني كنت اعرف حسن استعداداته من رفيقنا يوسف النجار ومن الزعيم الاشتراكي كمال جنبلاط الذي التقاه قبل انتخابه. ذلك أن منافسه الياس سركيس بدا، حين سئل حول موضوعنا، أكثر تحفظا بكثير. وعلى هذا فان منظمة التحرير الفلسطينية دعمت معنويا ترشيح سليمان فرنجية، ولعلها ساهمت في انتصاره. ثم ان تأثير اللبنانيين الفلسطينيي الأصل ليس بالتأثير الحاسم عموما ولكنه أبعد من ان يكون كما مهملا كذلك.

وفي ١٧ أيار ــ مايو استقبل فرنجية ياسر عرفات لوضع حد للمعارك العنيفة التي اجتاحت البلاد اثر مذبحة عين الرمانة، لكن المداولة لم تفض الى أية نتيجة بالنظر الى ازمة الثقة التي كانت قائمة بين الرجلين . ثم أن الوضع راح يزداد

سواء، فكان ان استدعانا رئيس الجمهورية ـ عرفات وأنا ـ الى القصر الرئاسي في ٢٣ حزيران ـ يونية. واعترتنا الدهشة على الفور حين وجدنا سفيري مصر والعربية السعودية الى جانب الرئيس فرنجية، اذ كانت تلك واقعة لا سابقة لها، ومخالفة لقواعد البروتوكول في مثل هذه اللقاءات.

ثم جاء حدث غريب ثان: اذ ما كدنا نجلس حتى بدأ عدد من كبار ضباط الجيش اللبناني ـ وجميعهم من المسلمين ينضمون الينا، بناء لطلب فرنجية، الواحد تلو الآخر. كان مضيفنا يبدو عصبيا الى أقصى حد. فسحنته صارمة وهو يدخن السيجارة تلو السيجارة. ثم افتتح الحديث بأن قال لنا: لعلكم لاحظتم أني المسيحي الوحيد في هذا الاجتماع. فقد دعوت سفيري مصر والسعودية وضباطا من جيشي لا تستطيعون الارتياب بهم ولا الادعاء بعدائهم المطلق للحركة الفلسطينية، لكي يكونوا شهودا على مداولاتنا. ان اللبنانيين لا يستطيعون احتمال سلوككم. فمنذ مدة كنت اتنقل بصحبة زوجتي في الجبل. فصدمت وأنا أرى جدران المباني في التجمعات المسيحية مغطاة بالملصقات التي تمجد كفاح الفدائيين المسلح. ان المسؤول عن هذه الدعاية السفيهة هو بلا ريب اصدقاؤكم اليساريون. فلا تندهشوا والحالة هذه من وقوع مجازر مثل مجزرة عين الرمانة..."

واذ لم يعد في وسع عرفات احتمال المزيد، فانه قاطعه ليعلن عليه ان الحقيقة هي غير هذا، وأن الاحزاب اليمينية المسيحية تعد منذ فترة طويلة لحرب ابادة ضد الفلسطينيين وأنها تلقت كميات ضخمة من السلاح لهذا الغرض... فاحتدم سليمان فرنجية واحتد وقال: "هات البراهين! اعطنا براهين! فلتكن شريفا ولو مرة واحدة وأعطني الوثائق التي تؤيد ادعاءاتك!"

واستشعر عرفات الاهانة بألم كبير، خاصة وأنها أمام عدة شهود. واغرورقت عيناه بالدمع وأقفل دفتر الملاحظات الذي يستخدمه عادة كمفكرة بصورة مباغتة ثم قال وهو يتميز من الغيظ والغضب: "اني لا أسمح ان أكلم على هذا النحو. وانا مقاتل. وقد انتخبت بصفتي هذه في قيادة الحركة الفلسطينية وليس بفضل أغلبية صوت واحد في مجلس اعيان!". ملمحا بذلك الى عملية الاقتراع البرلمانية التي حملت فرنجية الى سدة السلطة.

ولا ريب في ان الرد كان فظا الا أنني رأيته ملائما ومبررا. ولو أن عرفات لم يرد على هذا النحو لكنت أنا حينذاك أكثر قسوة. اذ ليس في الوارد ولا في التصور، أن نسمح لأي كان بأن يهين مسؤولي الشعب الفلسطيني. وعلى أي حال فقد كان لرد عرفات الساخط أثر شاف في انه هدأ فرنجية الذي ما لبث ان اعتذر معلنا انه لم يكن يقصد اهانتنا. ولكنه يحرص فقط، على ان تكون الحجج التي ندلي بها مدعمة بأدلة لا ترد.

عند ذلك روى له عرفات أننا علمنا قبل أن نصل الى القصر الرئاسي بأن ضباطا مسيحيين من الجيش اللبناني سلموا لتوهم ستة آلاف قطعة سلاح ناري الى الميليشيا الكتائبية، كانت الدولة اللبناني قد اشترتها من بلغاريا وبولونيا، وان هذا التحول غير المشروع للاسلحة تم بواسطة وثائق مزورة صنعها المكتب الثاني. وقال فرنجية انه يجهل كل شيء عن هذه الصفقة، الا انه يبدو له أن من الطبيعي أن يتسلح المسيحيون اللبنانيون، شأنهم شأن الفلسطينيين. ثم أوضح قائلا: "لقد أصدرت الامر الى وزير الداخلية لكي يسلم رخصة حمل سلاح لكل مسيحي يتقدم بطلب الحصول عليها". ثم أضاف الرئيس اللبناني قائلا: "لقد سمحت لكم، لا بل شجعتكم على تحصين مخيماتكم وعلى استيراد كافة الاسلحة التي تحتاجونها للدفاع عن أنفسكم ضد الاعتداءات الاسرائيلية. وهكذا فقد تجهزتم بالمدافع الثقيلة، والمدافع المضادة للطائرات وحتى بصواريخ أرض ــ جو وانا أطلب منكم اليوم بالحاح، وبحضور سفيرين عربيين صديقين أن تلزموا حدود مخيماتكم وتجمعاتكم. أما ما تبقى من لبنان فلا يعنيكم. وبما أننا مختلفون حول هذا الموضوع، فاني أقترح أن ندعو الينا ضباطا من البلدان العربية لنحكمهم في نزاعنا. فيحكمون أي من الطرفين ــ أنتم ام نحن ــ هو الذي ينتهك "اتفاقية القاهرة".

ولما كنت ملازما الصمت منذ بداية الجلسة، فانني طلبت الكلام. وطال العرض الذي عرضته اكثر من ساعة متواصلة. وبدأت بامتداح الرئيس فرنجية مذكرا برعايته لدخول منظمة التحرير الفلسطينية الى الامم المتحدة، مترافعا بشخصه مدافعا عن القضية الفلسطينية في منتصف شهر تشرين الثاني ــ نوفمبر من السنة السابقة، متكلما باسم الامة العربية. فاذا تجاوزنا هذه النقطة، فانه ليس من الضروري "تعريب" مجمل النزاع اللبناني بدعوة ضباط عرب وتحكيمهم

في خلافنا. بل لا بد لنا، على العكس من ذلك، أن نتفاهم بمنأى عن أي تدخل اجنبي.

واستطردت أقول: صحيح ان الفدائيين ارتكبوا أخطاء مست حساسيات اللبنانيين الوطنية، ونحن لا ننكر ذلك، الا ان الرئيس فرنجية يرتكب بدوره خطأ اذا ما خلط بين الاعمال الذميمة التي يرتكبها أفراد، وبين سياسة رؤسائهم. فقادة الحركة الفلسطينية ليسوا متشردين ولا فوضويين. بل أن لهم ذات المصلحة التي للمسؤولين اللبنانيين في استتباب النظام، واتساق التعايش اللبناني الفلسطيني وبقاء معركة تحرير فلسطين بمنأى عن النزاعات الهامشية التي تعيقها أو تنعطف بها عن هدفها. ولا بد للرئيس فرنجية من أن يفهم بأن من الصعب علينا أن نضبط كافة أعمال وتصرفات مناضلينا المتحدرين من شعب جرد واضطهد وأذل عشرات السنين.

ومضيت أقول، أن أحزاب اليمين المسيحي في لبنان تحتقرنا وتواصل العمل لتحقيق أهداف شائنة. وقد حاولنا طوال سنوات أن نقيم حوارا معها وأن نتفاهم واياها على قواعد وأسس تكون مفيدة لها ولنا. ولكن عبثا. وليس صحيحا ما تزعمه هذه الاحزاب من أننا سعينا الى التحالف مع المسلمين اللبنانيين ومع اليسار ضدها. فمثل هذا الاتهام المزدوج غير منطقي على أية حال. اذ ليس بوسعنا أن نكون مسلمين متعصبين وتقدميين في أن معا. بل الحقيقة هي أننا حاولنا اقامة توازن متساو بين كافة الطوائف اللبنانية وذلك لان من مصلحتنا اقامة علاقات حسنة مع كافة الأهالي أولا، ولان الحركة الفلسطينية هي حركة علمانية بصورة قاطعة، ثانيا. ومن المشهور الذائع ان الفلسطينيين لم يصابوا بالمكروب الطائفي ابدا، وأنهم ما عرفوا التمييز بين المسلم والمسيحي. بل ان التمييز غريب عن عقليتنا بحيث أن بعض أبرز القادة الفلسطينيين كجورج حبش ونايف حواتمة هم من ابناء الطائفة المسيحية.

وقد عرضنا دوافعنا العميقة لزعماء اليمين المسيحي مرات عديدة. فنحن وطنيون فلسطينيون مطاردون خائفون. ولسنا نخجل بالتسليم بخوفنا وقلقنا. والدولة اللبنانية التي يؤطرها الموارنة ويقودونها تخيفنا. ولهذا نريد التفاهم مع الاحزاب المسيحية التي هي أدوات السلطة. الا ان هذه الاحزاب رفضتنا. فاذا كنا أقرب الى المسلمين والى اليمين الاسلامي الذي يمثله رجالات كصائب سلام ورشيد

كرامي، فلأننا لا نخشى شيئا من جانبهم. فاليمين الاسلامي محكوم لاسباب انتخابية وسياسية ومحلية ــ وأسباب أخرى تتعلق بالمنطقة ــ أن يدعم حركتنا. وكذلك الأمر بالنسبة لليسار الذي لا يمكن أن يضربنا لاسباب مماثلة. فالزعيم الاشتراكي كمال جبلاط كان لدى تسلمه وزارة الداخلية أقسى علينا من القادة المسيحيين. الا أننا كنا نعلم أنه لا يذهب الى حد طعننا في الظهر.

ثم أن الرئيس فرنجية الذي كان يصغي الي بكثير من الاهتمام، قاطعني معترضا وهو يقول: «ومع هذا فانكم أيدتم قرار اليسار الذي انتحل لنفسه اسم الحركة الوطنية، بمقاطعة حزب الكتائب مطالبين باستبعاده عن الحكومة وبحله. وتلك خطيئة من الكبائر. لان الكتائبيين يمثلون قسما له شأنه من المسيحيين وعلى أية حال، فانه لن يكون لقراركم من أثر سوى توسيع نفوذهم...»

ودافعت عن موقفنا ما وسعني، الا أنني كنت أقرب الى الارتباك والاحراج. فلم يكن في وسعي أن أعترف للرئيس فرنجية أني كنت أجهل في اللحظة التي أكلمه فيها ما يعنيه بالضبط قرار مقاطعة الكتائب الذي أيدناه تضامنا مع "الحركة الوطنية" ومع كمال جنبلاط بأكثر مما أيدناه اقتناعا. وكيف يسعنا أن نكون أقل من اليسار صرامة وقسوة ازاء حزب الكتائب الذي عزم على هلاكنا، والذي نظم ــ كما كنا نعتقد حينذاك ــ مجزرة عين الرمانة.

كانت الساعة قد بلغت الواحدة، اذ أن محادثتنا مع فرنجية دامت أربع ساعات متتالية. فطلبنا ــ ياسر عرفات الذي لم ينبس بكلمة بعد مشادته مع الرئيس، وانا ــ الاذن بالانصراف.. الا أن فرنجية أمام عظيم دهشتنا أبى وأقسم أنه لن يدعنا نغادر قبل أن نتغدى بصحبته. وعلي أن أقول ابراء لمضيفنا أنه كان الصحيح ان ثقافته العامة أقرب الى أن تكون محدودة، وانه لم يكن دائما على مستوى مسؤولياته، الا انه لم تكن تعوزه المروءة ولا اعتاد أن يلجأ الى مراوغة وازدواجية كميل شمعون.

وكان الغذاء الذي دعانا اليه الرئيس ضربا من الوليمة. فأنزل عرفات في صدر المائدة بمواجهته، بينما تحلق السفيران العربيان والضباط اللبنانيون المسلمون الكبار الذين حضروا المحادثة، وكذلك الضباط المسيحيون الذين ظلوا خلالها، بناء على طلب فرنجية في ردهة الصالون. وتغير مزاج الرئيس اللبناني بالكامل، فبات

وديا وأحيانا بشوشا فكها، مقبلا على شرب العرق مظهرا ضيافته العربية النموذجية مقدما لهذا قطعة لحم طرية ولهذا قطعة حلوى. ثم انضم الينا ابنه طوني ـ الذي سيغتاله الكتائبيون وزوجته وطفلته معا في حزيران ـ يونية ١٩٧٨ ـ قبيل انتهاء الغداء الذي طال أكثر من ثلاث ساعات.

وبالاجمال فان محادثتنا كانت ايجابية للغاية. واتفقنا على استبعاد التحكيم العربي وعلى أن تتولى لجان مختلطة لبنانية فلسطينية مؤلفة من عسكريين من الجانبين، اتخاذ الاجراءات المناسبة لوضع حد للمعارك. وتعهدنا ببذل جهودنا لحمل "الحركة الوطنية" على الاعتدال بحيث تخفف ضغطها على حزب الكتائب. واتفقنا أخيرا على أن يتوجه ياسر عرفات برسالة الى الشعب اللبناني يحثه فيها على الوحدة الوطنية. وقد صيغ نص هذا النداء الذي حرره فريق من الفلسطينيين المختصين بالشؤون اللبنانية لطمأنة المسيحيين بخاصة الى نوايانا وعزمنا على عدم التعرض للبنى الطائفية والسياسية والاقتصادية اللبنانية.

غير أننا لم نكن واثقين في أن نكون تحاشينا شياطين اليمين المسيحي خاصة وانا كنا ـ عرفات وانا ـ قد أجرينا محادثة طويلة مع اثنين من قادة الرهبانية المارونية ـ الاب بولس نعمان والاب قزي ـ اللذين صدمانا صدمة عميقة. ففي بداية اللقاء الذي جرى في منزل مسيحي فلسطيني في بيروت أطلعنا الكاهنان على وثائق تشهد بدعم الكنيسة المارونية للقضية الفلسطينية في السنوات الاولى من نزاعنا مع المشروع الاستيطاني الصهيوني. الا انه لم يكن لهذا العرض التمهيدي الذي تقدم به محادثانا من هدف، سوى التنديد بعد ذلك "بنكراننا للجميل" ثم القول بعدها اننا لم نعد "أهلا" لتعاطفهم.

ثم عمدا بعد ذلك الى اعطائنا درسا في التاريخ. مؤكدين ان الموارنة قاتلوا تاريخيا من أجل التوصل الى استقلال جبل لبنان ثم الحفاظ عليه وأخيرا الدفاع عنه حتى آخر رجل ضد ما أسموه بالاستيطان الفلسطيني. ثم قالا لنا: "نحن شعب من الفلاحين العنيدين والمحاربين وسندفع اي ثمن كان لطردكم من هنا".

ثم أن الاب بولس نعمان، عميد كلية الفلسفة في جامعة الكسليك المارونية ـ والذي كنا نحسب انه رجل دين وانساني برغم هيئته التي تشبه هيئة الثور ـ جعلنا نستشعر البرد في ظهورنا حين راح يعلن علينا بكل برود : "لقد ذبحت

بيدي هاتين مسلما لبنانيا وفلسطينيا على سبيل التحذير. وأقول لكما جيدا انني ذبحتهما ثم جمعت الرهبان ورؤساء الميليشيا التي شكلناها بقيادتي لأطلب اليهم أن يحذو حذوي باسم الله وباسم الكنيسة المقدسة".

وظللنا، عرفات وانا، فاغري الفاه لا ندري ما اذا كنا عدنا القهقرى الى الحروب الدينية السالفة. وعندما استعدت القدرة على النطق، لم أجد ما أقوله سوى أنني لا أومن بتبجحات الاب بولس نعمان ولا بالتصريحات العنيفة التي يطلقها أبو ارز زعيم مليشيات "حراس الارز" الذي كان يدعو اللبنانيين حينذاك الى أن يتولى كل واحد منهم قتل فلسطيني واحد على الاقل، ولا بالنداءات والدعوات الى القتل التي كان يوجهها المطارنة من على كراسيهم الرسولية. الا اننا اكتشفنا بعد ذلك أن ريبتنا لم تكن لسوء الحظ في محلها وان الفظاعات التي ارتكبتها ميليشيات اليمين المسيحي تتجاوز بكثير، ما أطلق من تهديدات.

لكن لماذا كل هذا الحقد؟! على هذا السؤال الذي طرحته على الاب نعمان أجابني الكاهن بقوله: انكم لا تفهمون من تاريخنا ومن عقليتنا شيئا. فنحن كما ذكرت لكم مشدودون الى جبل لبنان بأوتار جسدنا كلها. وقد استحالت كافة اديرتنا الى قلاع وترسانات. كما أننا جمعنا أموالا تبلغ خمسين مليون ليرة لنشتري بها المزيد من السلاح".

لكن الاب نعمان لم يكن يخبرنا فيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة بشيء جديد. فقد لاحظنا أن الكتائبين بدأوا يمدون مخيماتهم العسكرية ويطورون وينمون ميليشياتهم. كما تم ارسال شباب من الكتائب ومن حزب الوطنيين الاحرار ليتدربوا في المانيا الغربية. وبفضل التبرعات التي جمعها المغتربون اللبنانيون، فان الاسلحة بدأت تتدفق بكميات متزايدة ابدا منذ مطلع عام ١٩٧٣. وكانت هذه الاسلحة تشترى من بلجيكا وسويسرا والولايات المتحدة وفرنسا وتسلم بصورة عامة في جونية بعد أن تمر في الموانئ المغربية. ثم أن هذه الصفقات التي كانت تعقد بواسطة رجال اعمال عرب، كانت تتمتع بضمان الحكومات الغربية. على أن الكتائبيين لم يكونوا يحاولون، بخلاف الشمعونيين، تمويه استعداداتهم العسكرية. فقد دعاني أمين الجميل، الابن البكر لزعيم الكتائب مرتين عام ١٩٧٣ لزيارة مخيم تدريب تابع لحزبه حيث أمكنني أن ألاحظ حجم ميليشياته وكفاءتها. وقد

أكد لي الجميل أن هذه الاستعدادات ذات طابع دفاعي صرف. وحين سألته: "لكن ضد من ستدافعون عن أنفسكم". فأجابني: ضدكم. ضد الفلسطينيين.

وقد أدركنا في تلك الفترة عيب الاعتقاد بصدق كلام أحزاب اليمين المسيحي وبأقوالها حول عدم اعتزامها المبادرة الى النزاع المسلح. ولولا هذا لما كنا انتظرنا بدايات الحرب الأهلية لندرب ميليشيات فصائل اليسار ونسلحها والواقع هو أننا ظللنا حتى مجزرة عين الرمانة في شهر نيسان ـ ابريل ١٩٧٥، نكتفي بمساعدة سكان المناطق الحدودية في جنوب لبنان على تنظيم أنفسهم ليقاوموا هجمات الجيش الاسرائيلي. وكذلك فاننا لم نبدأ بتحصين مخيمات اللاجئين تحصينا جديا ونسارع في تكوين وتشكيل الميليشيات الفلسطينية الا بعد الغارة الاسرائيلية في نيسان ـ ابريل ١٩٧٣ على بيروت ـ والتي اغتيل خلالها ثلاثة من قادة منظمة التحرير الفلسطينية. الا أننا عمدنا الى التحصين والتدريب تحسبا للعدوان الاسرائيلي ليس الا. اذ لم يكن يدر في خلدنا مطلقا أننا سنضطر ذات يوم لأن ندير أسلحتنا صوب اللبنانيين.

وفي مطلع عام ١٩٧٥، توافرت لدينا عدة مؤشرات واستخبارات تشير الى اننا لسنا مهددين من قبل قوى محلية وحسب، وانما من قبل مؤامرة دولية حقيقية. فقد كان ثمة أسلحة تتدفق وتباع في لبنان ثم ما تلبث أن تتحول سرا وخفية الى الميلشيات المسيحية. بل عرفنا بما هو أسوأ من ذلك. فثمة شركات ورجال أعمال عرب، يمولون مشتريات الكتائبيين والشمعونيين من السلاح، بكرم بالغ. وكان ثمة بادرة أخرى مقلقة: فبعض بلدان الخليج العربي، توقفت أو تأخرت في دفع معوناتها لفتح والمنظمات الفدائية الأخرى. وهكذا فقد قررت في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٥، وفي غمرة الحرب الأهلية، أن أقوم بجولة في البلدان النفطية في المنطقة بادئا بالكويت.

وقد ألقيت خلال اقامتي التي امتدت نحوا من عشرة أيام في هذا البلد، عدة خطب في اجتماعات نظمها مكتب منظمة التحرير الفلسطينية هناك. واستغليت هذه المناسبة لأنتقد بقساوة موقف بعض البلدان العربية التي كان موقفها ازاءنا غامضا، ان لم يكن صريح العداء. ثم هاجمت كذلك الأثرياء الفلسطينيين الذين تباطؤوا من جانبهم في دفع مساهماتهم الى صناديق منظمة التحرير. وصحت قائلا أنهم سيدفعون طوعا أو كرها! بحيث أن التهديد كان شبه صريح. ذلك أنه

لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك في لحظة كانت المقاومة فيها تجتاز أزمة عصيبة. وقد كنت مصيباً حين أشهرت العصا ذلك أن مليونيريينا عمدوا أثر اجتماع عقدوه في الغداة، الى دفع مبلغ ضخم لحركتنا.

وبعد مرور ثلاثة أشهر على عقد الاتفاق المصري ـ الاسرائيلي حول سيناء، باتت للأمريكيين ـ وعملائهم في الشرق الأوسط ـ كل المصلحة في ضرب المقاومة والزامها الصمت واصابتها بالشلل. وتوفر لدي الدليل الملموس على ذلك خلال جولتي في الخليج حيث قام ممثلو الولايات المتحدة، بمن فيهم عملاء وكالة المخابرات المركزية الأميركية، بعمل متقن اذ انهم أفلحوا في انهاض القادة الذين لا يخشون شيئا مثل خشيتهم لانتشار الشيوعية ـ ضدنا. فقد كان بعضهم ممن لا يمكن أن نقول فيه أقل من انه تعوزه ملكة ادراك التلاوين يرى في الاشتراكي كمال جنبلاط زعيما "أحمر" جعل من نفسه، طائعا أو غير طائع، اداة في مؤامرة ماركسية واسعة. وهكذا فان بعضا من محادثي راحوا يتوسلون الي ألا أقع ضحية الشرك الشيوعي فنوقف تضامننا مع الحركة الوطنية، هذا بدون أن يدركوا انهم يطلبون الينا عمليا، أن نضع انفسنا تحت رحمة الأميركيين وحلفائهم الاسرائيليين والعرب في المنطقة.

وعادت بي الذاكرة لدى عودتي الى بيروت في منتصف شهر كانون الثاني ـ يناير الى محادثة أجريتها في شهر تموز ـ يوليو ١٩٧٣ مع جوزيف شادر، أحد الأعضاء الرئيسيين في المكتب السياسي لحزب الكتائب. فقد كان يخصني ببعض الود والتعاطف منذ أن قلت له ذات يوم أنني أشعر بأنني قريب اليه بسبب أصوله الأرمنية. ثم أضفت قائلا له: "أنتم ونحن ننتمي الى الأقليات المضطهدة سنة وتقليدا". وخلال لقائنا في تموز ـ يوليو ١٩٧٣، أفضى الي سرا بأن لدى بوب أوكلي، وهو دبلوماسي أميركي يعمل في بيروت ويتردد عليه، ملفا ضخما حول شخصي يضم وثائق خطيرة. ذلك أن هذه الوثائق تظهر أنني "ارهابي خطير" و "مفاوض صعب" في آن معا.

وفي لحظة اخرى من لحظات المحادثة، أفضى الي بنبأ تبين أنه صادق النبوءة. فقد علم من "مصدر موثوق" أن حربا عربية اسرائيلية ستنشب "قريبا" (وستقوم مصر وسوريا بمهاجمة اسرائيل بعيد ذلك بشهرين) وأن مؤتمرا للسلام سوف يعقد أثر ذلك بقليل "ثم أضاف وهو يؤكد كلماته:" وستدعى منظمة التحرير الى مائدة

المفاوضات، الا اذا جرت تصفيتكم قبل ذلك". فسألته وقد عرتني الدهشة عما يقصد بكلمة "تصفية" فأجابني اجابة مراوغة بأنه ينبغي لنا ان نتروى ونتعقل اذا كنا نريد فعلا أن نشارك في مؤتمر السلام.

كنت أقول في نفسي في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦، اننا لم نكن ولا ريب، على قدر كاف من "التروي والتعقل": فقد أبدينا تحفظات جدية على الطريقة التي جرت بها حرب تشرين ـ اكتوبر، وشجبنا دبلوماسية كيسنجر المسماة بدبلوماسية "الخطوة خطوة"، وقاومنا مد النفوذ الاميركي في الشرق الأوسط، كما وقفنا أخيرا ضد اتفاقية سيناء المعيبة. ثم ان تعيين غودلي كسفير للولايات المتحدة في بيروت قبيل الحرب الأهلية بقليل لم يكن أمرا عارضا. فقد كان مهندس أو منفذ عدد من الانقلابات الشريرة عبر العالم ولا سيما في تشيلي وفيتنام. ولذا فان كافة الأوساط البيروتية كانت تتساءل بقلق عن الكارثة التي تم التخطيط لها.

وابادر فاقول أنني لست من السذاجة بحيث أعتقد أن وكالة المخابرات المركزية الأميركية (السي. أي. أي) تلعب بوجه مكشوف ولا اعتقد بأن عملاء أميركيين ذهبوا الى بيير الجميل وكميل شمعون طالبين اليهما ابادتنا. كما أنه ليس بالأمر الذي يقبله التصور أن يكون مرتكبو العملية الدموية في عين الرمانة قد تلقوا أوامرهم مباشرة من واشنطن. ذلك أن الأمور تسير في هذا النطاق بصورة أكثر حذاقة ودقة. وذلك ليس لأن الولايات المتحدة تعاني من نقص أو عوز في العملاء المأجورين في لبنان أو سواه. أو أنها لا تملك التدخل عبر المخابرات الاسرائيلية أو سواها. فالأمر الأساسي هو أنها تحوز على الكثير من الوسائل التي تمكنها من بلوغ أهدافها مستفيدة على سبيل المثال من ظرف مؤات. فاذا كانت ليست من أطلق ماديا عقال الحرب الأهلية في لبنان، الا انه لا شك ولا ريب في انها أسهمت اسهاما واسعا في تغذية النزاع ونفخ ناره حتى تشتعل.

ثم أن عددا من البلدان العربية عملت عامدة أو غير عامدة في ذات الاتجاه. والتحليل الأكثر ذيوعا في الصحافة الدولية لأسباب الحرب الأهلية ـ يتهم الفدائيين بدفع أحزاب اليمين المسيحي ـ عبر افراطاتهم وتجاوزاتهم ـ للنهوض ضد الفلسطينيين. غير أن غالبية الاستفزازات التي يستشهدون بها ويرجعون اليها، انما ارتكبت من قبل تنظيمات فدائية على الأرض اللبنانية. فاذا ما صدر

مقال لا يسر العراق في مجلة "الحوادث" الاسبوعية، فان جبهة التحرير العربية صنيعة حكومة بغداد، تتكفل بتفجير مبنى الصحيفة مودية بحياة عشرة أشخاص. غير أن الصحافة المذكورة لا تتهم العراق ولا جبهة التحرير العربية بل تشجب "ارهاب الفدائيين". واذا ما قامت منظمة الصاعقة ـ الموالية لسوريا ـ باختطاف لبنانيين ينتمون للبعث الموالي للعراق، اتهمت منظمة التحرير الفلسطينية بالتدخل بالشؤون الداخلية اللبنانية. واذا ما قررت ليبيا وضع يدها على معارض، كالوزير السابق مصطفى بن حليم، فانها تجد فصيلا فلسطينيا لانجاز المهمة. وفي وسعنا أن نطرح هذا النوع من الأمثلة الى ما لا نهاية.

وهذا الأمر الواقع يضع منظمة التحرير الفلسطينية في وضع مؤلم. اذ يقال لنا، اذا كنتم لا توافقون على هذه التصرفات والأعمال واذا كنتم مقتنعين بأنها تلحق الضرر بالمقاومة، فلماذا لا تفعلون شيئا لوضع حد لها. وهنا أيضا يظهر منتقدونا جهلهم أو انهم يتصنعون البراءة. فمن البديهي، أولا، أننا لسنا مطلعين بالضرورة على هوية كافة مرتكبي المحاولات التي تجري. ثم وحتى لو كنا مطلعين، أفلا يكون عملا انتحاريا من جانبنا أن نفرض استتباب النظام باستعداء كافة الانظمة العربية علينا؟ فهل نستطيع على سبيل المثال، ان نبيح لنفسنا ترف قطع علاقاتنا مع سوريا أو مع السعودية؟

ويزيد من موقفنا دقة أن الحوادث "غير المنضبطة" في لبنان، هي وليدة الصراعات المستورة بين الأنظمة العربية. فمن المعروف الشائع أن لبنان كان دائما مركز انطلاق مخابرات الدول الأجنبية، العظمى منها أو الصغرى، والعربية والأوروبية والأميركية والاسرائيلية. وثمة كثير من الهجمات بالقنابل والاختطافات والاغتيالات التي ارتكبت ابان الحرب الأهلية ـ وعزيت بشيء من التسرع الى المقاومة أو الى اليسار ـ لم تكن في الحقيقة سوى واجهة "لحرب المخابرات" ووسيلة كسواها من الوسائل، لدفع النزاع من قبل الحريصين على استمراره. وقد كان ذلك ولا يزال مأزقنا ومأساتنا.

وقد كان اللبنانيون ـ عنيت أولئك الذين لم يكن لتحركهم خلفيات سياسية ـ محقين موضوعيا في ان يجدوا في هذا الوضع حالة لا تحتمل. الا انهم لم يكونوا يصدقوننا عندما كنا نوضح لهم أننا ضحايا شأنهم هم. فحتى الذين كنا نعتبرهم أصدقاءنا، كانوا يعبرون عن ريبتهم وتشككهم ازاء الحجج التي نسوقها.

فلا بد لمن يريد أن يفهمنا أن يضع نفسه مكاننا. وكما قلت لقادة اليمين المسيحي واعدت عليهم القول مرارا فانه ليس للفدائيين بعد طردهم من الأردن من ملاذ غير لبنان. فاذا كانوا سيخضعون فيه فان مكتسبات عدة عقود من النضال ستضيع. ولا ريب في أن الثورة الفلسطينية ستنتهي أبدا الى الانبعاث والديمومة. الا أن هزيمة حاسمة لها في لبنان ستعرضها للخطر طويلا. فنحن في مثل وضع القائد العسكري العربي طارق بن زياد الذي أحرق مراكبه وقال لقواته حين نزل في اسبانيا: "العدو من أمامكم والبحر من ورائكم" ولقد طالما طلبت من جهتي الى المسؤولين الموارنة بألا يلجأوا الى العنف ويدفعوننا الى آخر معاقلنا لأنهم لا يتركون لنا في هذه الحال من خيار آخر غير القتال حتى آخر رجل.

غير ان قادة اليمين الماروني تصرفوا بصلافة. فقد طرحوا أنفسهم مراءاة ونفاقا كمدافعين عن السيادة الوطنية وانطلقوا الى الحرب، وصليبهم على صدورهم ليحرروا مواطنيهم كما زعموا من الفلسطينيين، ثم بصورة أعم، من العرب. لكن من ذا الذي غازل الأنظمة العربية وسمح لها بأن تتدخل في الشؤون اللبنانية؟ من ذا الذي أفاد من الرساميل واليد العاملة والأسلحة الوافدة من البلاد العربية؟ يقينا أنهم ليسوا الفلسطينيين كبش الفداء الذي اختارته خيانات وصغائر حفنة من الرجال الذين لا وازع لهم.

ثم اننا كنا أكثر تصميما على القتال لعلمنا في بداية الحرب الأهلية بأننا نقاتل كذلك العدو الصهيوني المندس وراء راية الصليبيين اللبنانيين. والواقع هو أننا لاحظنا بين جملة ما لاحظناه، ان النظام الدفاعي المقام حول بعض المعسكرات المارونية، شبيه بذلك المعتمد بالنسبة للمستوطنات العسكرية الاسرائيلية. وكذلك الأمر بالنسبة لمختلف التقنيات الحربية التي يطول بنا مقام عرضها هنا ـ والتي نقلت الى لبنان ببديهة الحال بواسطة ضباط الدولة الصهيونية.

ولم يعد ثمة حاجة اليوم الى البرهنة على التعاون الوثيق الذي قام بين اليمين المسيحي وبين اسرائيل طوال الحرب الأهلية. فقد اعترفت بذلك حكومة مناحيم بيغن رسميا ابان صيف عام ١٩٧٧ مشيرة الى اتساع حجم المعونة المقدمة الى حلفائها اللبنانيين. ثم ان هؤلاء الأخيرين تبجحوا في مرات عدة بتحالفهم مع الصهاينة مبررين ذلك بضرورة تأمين بقائهم . فالمقدم سعد حداد ، المسؤول عن

الميليشيات المارونية في الجنوب لم يكن أكثر من عميل مأجور. كما أن بشير الجميل قائد القوات الكتائبية أقر أمام شهود بأنه ذهب الى بلدة نهاريا الاسرائيلية للتشاور مع مسؤولي تل ابيب. ولدينا كذلك الدليل على انه التقى بصحبة داني كميل شمعون ـ ابن رئيس حزب الوطنيين الاحرار ـ بضباط اسرائيليين مرات عدة. وكانت المباحثات بينهم تجري في وسط البحر على متن مركب سياحي خاص، عندما لا تدور على الأرض اللبنانية ولا سيما في مرفأ جونيه، مقر قيادة اليمين المسيحي. وفي جونيه نزل شمعون بيرز في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ عندما كان وزير الحربية في وزارة رابين، وذلك لاجراء محادثات مع شمعون وقادة مسيحيين آخرين. ولم يمتنع عن الاتصال المباشر بالاسرائيليين، سوى الرئيس سليمان فرنجية وبيير الجميل زعيم حزب الكتائب الذي ترك هذه المهمة لاتباعه.

ولا أعتقد فيما يعنيني أنه كانت لقيادة حزب الكتائب في مطلع الحرب الأهلية صلة ما مع اسرائيل. وبالمقابل فان لدي بعض الأسباب التي تجعلني أعتقد أن كميل شمعون ومعه عدد من ضباط المكتب الثاني اللبناني، كانوا يقيمون علاقات وثيقة مع المخابرات الاسرائيلية والاميركية والبريطانية. فمجزرة عين الرمانة لم يخطط لها وترتكب من أجل اشعال الاشتباكات وحسب بل ولجر الكتائب الى النزاع أيضا. فليس من قبيل الصدفة أن تقع المذبحة في اللحظة التي كان فيها بيير الجميل يدشن كنيسة في حي عين الرمانة، وأن يكون اثنان من مرتكبي العملية من أنصار كميل شمعون المندسين بين صفوف الكتائب.

والواقع هو أن المعونة المتعددة الاشكال المقدمة من الدولة الصهيونية كانت مغرية. فقد كانت الأسلحة الأميركية الصنع البالغة التطور تتدفق على جونيه الى حد انه جرى استجواب حكومة الرئيس فورد في مجلس الشيوخ بالنظر الى أن التحول غير المرخص به من العتاد العسكري الى بلد ثالث هو أمر ممنوع في تشريع الولايات المتحدة كما هو معلوم. وبخلاف ذلك، فان عددا من المراكب التي كانت تنقل الأسلحة الموجهة الى المقاومة الفلسطينية واليسار اللبناني قد اعترضتها البحرية الاسرائيلية واقتادتها الى جونيه حيث سلمت شحناتها الى الميليشيات المسيحية.

وقد استخدمت هذه الأسلحة في أفظع الجرائم التـي عرفـها لبنان والتي تشهد

على الطابع الفاشي للميليشيات المارونية. وقد لاحظت بعد عودتي من جولتي في الخليج الى بيروت في ١٠ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦ أن الحرب اتخذت منعطفا جديدا من هذه الناحية. فقبل ذلك بأسبوع طوق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومنع أهله من التموين. وبعد وصولي بأربعة أيام اقتحم الكتائبيون ومغاوير "حراس الأرز" مخيم ضبيه المأهول بالفلسطينيين المسيحيين الذين ظلوا على هامش النزاع. وبرغم ذلك فانه جرى تدمير المخيم وذبح أهله. وبعد ذلك باسبوع، أي في ١٩ كانون الثاني ـ يناير مسحت أحياء الكرنتينا عن وجه الأرض بواسطة جرارات. فكانت الحصيلة ألف قتيل مثّل بكثير منهم تمثيلا وحشيا. ثم أن جنود بيير الجميل وكميل شمعون احتفلوا بانتصارهم بشرب الشمبانيا فوق أكوام الجثث، وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم أبدا. وقد بثت صور احتفالهم هذا على مختلف أقنية التلفزيون في العالم. أما الناجون من المخيم، فانهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في مخيمات أخرى للاجئين سيستأصلها الجنود الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق.

وطرحت علينا هذه المجازر خيارا خطيرا. فنحن لا نريد من جهة أولى، أن نتدخل بصورة واسعة في النزاع طبقا للقرار الذي اتخذناه في مطلع الحرب الأهلية والقاضي بألا ننزلق الى الشرك المنصوب لنا. غير انه كان من الصعب علينا من الجهة الثانية الا نرد على التحديات التي تلقيها أحزاب اليمين المسيحي في وجهنا. فقد كان من شأن الهجمة الدموية انها وجهت ضربة معنوية شديدة الى الفدائيين، والى الفلسطينيين والمسلمين اللبنانيين الذين بداوا يستنكرون سلبيتنا. فكان لا بد لنا من استعادة المبادرة.

وقررت القيادة العسكرية المشتركة للمقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية أن تحتل الدامور، البلدة المسيحية الواقعة على بعد عشرين كيلومترا جنوب بيروت. وقد تعين اختيار الدامور لعاملين: الاول هو انها تحتل موقعا استراتيجيا على محور الطريق التي تصل العاصمة بمدينة صيدا وبالتالي بالجنوب المسلم الموالي للفلسطينيين. والثاني هو أن أهاليها الذين يؤيدون في غالبيتهم كميل شمعون أقاموا الحواجز على الطريق التي سقط عليها عشرات المسافرين الأبرياء من فلسطينيين ولبنانيين برصاص القناصة.

وبرغم الغضب الذي كان يسود صفوفنا بعد فظاعات ضبيه والكرنتينا ، فاننا

اتخذنا مختلف الاجراءات للمحافظة على الأهالي المدنيين في الدامور. فقد استمر قصف البلدة ثمان واربعين ساعة من أجل اتاحة الفرصة لأهاليها باللجوء الى مكان آخر. وبالفعل فاننا حاصرناها حصارا جزئيا وتركنا فيها منفذا يؤدي الى السعديات، البلدة التي يقع فيها قصر كميل شمعون. كما امتنعنا كذلك عن اطلاق النار على المراكب التي ركبها بعض الأهالي طلبا للهرب. وهكذا فانه عندما اقتحمنا الدامور في ٢٠ كانون الثاني ـ يناير كان نصف الأهالي تقريبا قد أفلحوا في مغادرة البلدة سليمين معافين.

وأعطينا جنودنا أوامر صارمة بعدم التعرض للمدنيين وخاصة المسنين والنساء والأطفال. غير أن الحرب هي الحرب وخاصة عندما تخاض في جو من الهياج، وعندما تكون كثير من الافراطات والتجاوزات قد ارتكبت وكثير من الأبرياء قد قتلوا. ثم كيف الى التمييز بين الميليشيات المسيحية وبين غير المقاتلين؟ ثم هل اذا كان لا بد لنا من أن نطلق النار على قناص يسكن في منزل، من وسيلة تحول دون تدمير المنزل بمن فيه حتى ولو كانوا من النساء والأطفال؟ ان الاجابة على هذه الأسئلة بالايجاب كما تفعل أحزاب اليمين المسيحي من أجل أغراض الدعاية، هو امر ينم عن نفاق كامل.

وقد رفضت أن أذهب الى الدامور بعد فتحها حين دعيت الى ذلك، لسببين، الأول سياسي والثاني انساني. فانا من جهة أولى لا أريد أن أقدم البيعة للافراطات والتجاوزات التي ارتكبت، وان تكن تمت بصورة غير مقصودة بالتأكيد. ثم اني من جهة أخرى، لم اكن أجد أي سبب يدعوني للفرح بانتصار عسكري لا اعتبره انتصارا لنا. فموضع الفلسطينيين لا يجب أن يكون في ساحات المعارك اللبنانية، وانما في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وكان لا بد لنا من ان نحتل بعد الدامور البلدتين المجاورتين الجية والسعديات حيث يتحصن كميل شمعون في قصره هناك ـ وفقا لما اذاعته اذاعة الانفصاليين الموارنة. كان لدينا ألف سبب وسبب لقتل الرجل الذي أهرق الكثير من الدم والذي كان السوريون يتهمونه حينذاك بانه عميل وكالة المخابرات المركزية الأميركية والمخابرات الاسرائيلية. غير ان شخصيات عديدة صديقة للمقاومة وعلى رأسها كمال جنبلاط وصائب سلام تدخلت لصالحه. وهكذا فقد اتخذ القرار بارسال

وفد يمثل كافة المنظمات الفدائية واحزاب اليسار اللبناني لتقديم تصريح بالمرور اليه.

واستقبل اعضاء الوفد من قبل داني شمعون الذي أبلغهم أن أباه غادر البلدة منذ بضعة أيام على متن طائرة مروحية (هليوكبتر). وهكذا انهارت اسطورة بطولة كميل شمعون الذي كان يقال أنه يفضل الموت وسلاحه بيده على الهرب امام تقدم القوات الفلسطينية التقدمية.

غير أن قصر السعديات نهب ودمر على يد الفلاحين الساخطين الذين جاؤوا من قرى الجنوب. وزعم شمعون أنه تألم لسرقة لوحة تمثل المرحومة زوجته. فكان أن أسرع ياسر عرفات باصدار أمرا بفتح تحقيق، ثم استرجع الصورة من القرويين الذين سطوا عليها لقاء خمسة آلاف ليرة لبنانية.

وفي هذه الفترة جاءت أول بادرة سورية واسعة النطاق لوضع حد للمعارك في لبنان. فقد وصل وفد سوري هام يقوده عبدالحليم خدام من دمشق الى بيروت في ٢١ كانون الثاني ـ يناير واتصل بكافة اطراف النزاع وتوصل الى تطبيق وقف لاطلاق النار ـ كان وقتيا عابرا ـ مبني على تسوية، تضمن سوريا بموجبها تقيد منظمة التحرير الفلسطينية الصارم الدقيق "باتفاقية القاهرة" مقابل أن تقوم الأحزاب المسيحية بمد يد المعونة للوسطاء السوريين فقد كان الرئيس الأسد يحاول منذ فترة أن يتخذ موقفا محايدا بين المعسكرين. فمع تقديمه مساعدة متعددة الأشكال وخاصة من الناحية العسكرية للمقاومة والحركة الوطنية، الا انه وجه الدعوة لبيير الجميل في ٦ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٥ لزيارة دمشق حيث استقبل استقبال رؤساء الدول، الأمر الذي أثار غضب كمال جنبلاط.

ثم أن استياء زعيم اليسار اللبناني تزايد بعد زيارة رئيس الدولة سليمان فرنجية في ٢ شباط ـ فبراير لدمشق، ثم وبخاصة، بعد أن اعلن هذا الأخير في ١٤ شباط ـ فبراير خطة تسوية تشتمل على ١٧ نقطة نالت موافقة الأسد وعُرفت منذ ذلك الوقت بالوثيقة الدستورية. أما منظمة التحرير فإنها لزمت الصمت معتبرة أن مشروع التسوية بين اللبنانيين هو امر لا يعنيها. ووافق اليمين واليسار على الخطة دون أدنى حماس اذ أن كلا المعسكرين كان يعتبر أن الخطة تتطلب منه تنازلات مسرفة . وكان اعتقاد كمال جنبلاط، أن سوريا تخلت

مرة أخرى عن الحركة الوطنية، وأنه كان في وسع هذه الحركة أن تفرض جزءا على الأقل من برنامج الاصلاحات الاقتصادية والمؤسسية والاجتماعية فيما لو أن دمشق دعمت استراتيجية اليسار العسكرية بأطول مما فعلت بقليل. أما الرئيس الأسد فكان على العكس من ذلك، يرى أن متابعة المعارك توشك أن تصلب اليمين وتثير تدخلات أجنبية وخاصة من جانب اسرائيل. وباختصار فان المقاومة الفلسطينية وجدت نفسها متجاذبة بين ضرورة الابقاء على حسن صلاتها بحليفها السوري وبين داعي عدم قطع تضامنها مع اليسار اللبناني.

ثم جاءت الأزمة داخل الجيش لتعقد علاقاتنا مع دمشق. وكان رئيس الحكومة رشيد كرامي قد تمكن من تلافي تفجر الجيش وتمزقه منذ بداية الأزمة حين عارض استخدامه في عمليات المحافظة على الأمن والنظام. ذلك أن ثمة خطرا كبيرا في أن يؤدي تدخل الجيش، الذي يؤطره ويقوده ضباط مسيحيون يتعاطفون في معظمهم مع اليمين، الى أن يتخذ طابعا حزبيا، تكون ردة الفعل عليه بين العسكريين المسلمين هي أن يتوجهوا في الاتجاه المعاكس. غير ان سليمان فرنجية انتهى، بتحريض من كميل شمعون، الذي نجح في تسنم وزارة الداخلية، الى استخدام الجيش في بعض المرات، وخاصة في ١٦ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٦، للدفاع عن الميليشيات المسيحية.

وكان ان وقع المحتوم بعيد ذلك ببضعة أيام: اذ انشقت بعض الوحدات بقيادة أحمد الخطيب عن الجيش، بادئة بذلك عملية التفكك. وراحت الحركة تنتشر من ثكنة الى ثكنة، بحيث أن الجيش انقسم الى فريقين متمايزين أحدهما مسيحي والآخر مسلم، وتمكن فريق أحمد الخطيب الموالي لنا من التمركز في القسم الأكبر من جنوب لبنان مدعما بذلك مراكزنا القريبة من الحدود الاسرائيلية.

وبطبيعة الحال، فان اليمين المسيحي والسوريين اخذوا علينا اننا دبرنا عملية أحمد الخطيب. والحق هو أن مبادرة هذا الأخير كانت تسرنا تماما. الا أننا في المطلق، كنا نفضل أن يكون الجيش موحدا وقويا تلافيا لاتساع الفوضى ومنعا لاثارة التدخلات العربية التي تسبب لنا أضرارا كثيرة.

ولهذا فاننا عرضنا مساعدتنا على العماد حنا سعيد ـ الذي خلف اسكندر غانم في قيادة الجيش ـ مقترحين، كاجراء تهدئة ، أن يجري العفو عن الضباط

المتمردين. غير أن سليمان فرنجية أجهض اقتراحنا وأصر على ايقاع عقوبات شديدة على كافة الذين شاركوا في مشروع أحمد الخطيب.

وفي هذه الأثناء، وفي التاسع من آذار ـ مارس بالتحديد، عقد بحضوري اجتماع صاخب بين وفد رسمي جاء من دمشق بقيادة عبدالحليم خدام، وبين ممثلي الحركة الوطنية وعلى رأسهم كما جنبلاط. وكان للوسطاء السوريين هدفان واضحان: التوصل الى توحيد الجيش على أساس اصدار عفو عام، وتشجيع قيام حكومة اتحاد وطني تتولى مهمة تنفيذ الوثيقة الدستورية ذات السبع عشرة نقطة التي سبق أن أعلنها رئيس الدولة.

كان رئيس الاركان السوري اللواء حكمت الشهابي بادي الغضب، متيبسا في بزته العسكرية، متجهم الوجه، ثم راح يخضع كمال جنبلاط لاستجواب حقيقي ويطرح عليه أسئلة عدوانية ويسجل الأجوبة على دفتر صغير: "هل تؤيدون الخائن أحمد الخطيب"؟ فكان الزعيم الاشتراكي يجيبه. وهو الرجل المرهف الذي يستخدم الكثير من التلاوين في تعابيره، بنفس اللهجة: "الخطيب وطني كبير، بل مفخرة قومية، أماالمسؤول عن تفكك الجيش فهو نظام سليمان فرنجية الفاسد الذي تدعمونه". وظل عنف الكلام الى تصاعد. ولخشيتي من وصول الأمر الى ما لاتحمد عقباه، فانني دعوت عبدالحليم خدام واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع السوري الذي كان حاضرا أيضا للحاق بي الى غرفة مجاورة، حيث لفت انتباههما الى الطريقة المهينة التي يعاملان جنبلاط بها وخاصة أمام آخرين. ونصحتهما بالانفراد برئيس الحركة الوطنية لمواصلة النقاش في جو هادئ. وهذا ما فعلاه بنجاح، ذلك أنهما خرجا بعد نصف ساعة والابتسامة تعلو الشفاه. اذ لم يعدهم جنبلاط بتقديم المساعدة لاعادة تكوين الجيش وحسب، بل انه قدم اليهم أسماء أربعة شخصيات تمثله في حكومة الاتحاد الوطني. غير أن الوسطاء السوريين كانوا يجهلون في تلك اللحظة أن الزعيم الاشتراكي عين لهم المرشحين الذين كان يعلم أن الرئيس فرنجية لن يقبل بهم...

وفي غداة اليوم التالي، أي في الحادي عشر من شهر آذار ـ مارس، يوم انقلاب الزعيم عزيز الأحدب ـ الذي اتهمت بالايحاء به، رأيت أعضاء الوفد السوري مرة أخرى. وقال لي عبدالحليم خدام حينها وهو متجهم: "ان فرنجية شخص مغيظ . فهو يرفض تشكيل حكومة اتحاد وطني قبل أن يسرح قيادة

الجيش العليا المؤيدة لاصدار قرار العفو، كلها". ومضى وزير الخارجية السوري يقول: "أن الوضع خطير. لان هناك انقلابا وفق معلوماتنا قيد الاعداد". وكان لدي شخصيا معلومات دقيقة حول هذا الموضوع: فسحبت من جيبي قصاصة ورق كتبت عليها اسماء خمسة ضباط كبار، يعزو اليهم من أبلغوني هذه المعلومات نية القيام بحركة انفصالية في الجيش. وكان الاسم الثالث على لائحتي هو اسم عزيز الاحدب، قائد موقع بيروت الذي كان يبدو بالنسبة الينا الشخص الأكثر احتمالا بالنظر الى ديانته (مسلم سني) وبالنظر الى التعاطف الذي يحظى به في الأوساط المارونية. كان يمثل بمعنى من المعاني محصلة تركيبة البلاد. غير ان احدا منا لم تكن تراوده أية أوهام حول فرص نجاح "انقلاب عسكري" في بلد فيه من الميلشيات بقدر ما فيه من الطوائف. ويعصى عمليا على كل اشراف من قبل الدولة. اما السوريون فانهم كانوا يخافون الانقلاب لاسباب سياسية أساسا. ثم غادر الوسطاء السوريون بيروت وهم قلقون. وبعيد ذلك بساعة ونصف على اكثر تقدير، قاد الأحدب حركة انشقاقه العسكري، وقبيل الساعة الثامنة والنصف مساء، ظهر أبو حسن سلامة وهو ضابط استخبارات فتح، في مكتبي بغتة ليعلن على أن الزعيم الأحدب سيقرأ خلال دقائق اعلانا من التلفزيون يطالب فيه باستقالة سليمان فرنجية. ثم راح يزودني بتوضيحات أمام نحو من عشرة أشخاص كانوا موجودين في مكتبي، بينهم ياسر عرفات وزهير محسن، رئيس منظمة الصاعقة الفدائية (الموالية لسوريا) وعلي المدني، رئيس الاستخبارات العامة في سوريا. وقال لنا سلامة، أن عزيز الأحدب مقتنع بأن حكومة دمشق وقيادة الجيش اللبناني العليا ستؤيد حركته، بهدف التخلص من رجل، (أي من رئيس الجمهورية فرنجية)، بات عائقا في وجه المصالحة الوطنية. ثم قال لنا أخيرا انه زود الزعيم الأحدب بثلة من فتح واكبته حتى مبنى التلفزيون. وبطبيعة الحال فان هذه المحاباة الأخيرة ـ والتي قلت له أنها في غير موضعها ـ هي التي غذت الاشاعات التي جعلتني شريكا متآمرا مع عزيز الأحدب. لكن، لو كان الأمر كذلك حقا، أفكان يعقل أن يحدثني سلامة بالأمر بمثل هذه الحرية وامام شخصيات قريبة من الرئيس الاسد! وهل كنت أقدم انا نفسي اسم الأحدب لخدام كأحد المرشحين المكنين للحركة الانقلابية.

غير أنه يبقى أن مغامرة الزعيم الأحدب الفاشلة ، أحدثت أول صدع في

العلاقات بين سوريا وبين المقاومة. ولما كان الرئيس الأسد مقتنعا بأننا نسعى الى تخريب مخطط التسوية الذي اعده بالاشتراك مع سليمان فرنجية، فانه دعا وفدا من منظمة التحرير الفلسطينية للذهاب الى دمشق. وقد استمر اللقاء الذي جرى في ١٦ مارس ـ آذار نحوا من اثنتي عشرة ساعة! وقد لاقينا ـ ياسر عرفات وأنا ـ أشد العناء في اقناع الرئيس الأسد بحسن نوايانا. اذ أنه ظل يرتاب ويتشكك بحججنا مرددا انه لا يستطيع مواصلة التعاون مع رجال يخونون ويزعمون فوق هذا أنهم أصدقاء. ذلك انه كان حريصا بالدرجة الأولى على عدم التخلي عن سليمان فرنجية، الذي يمثل في نظره رمز الشرعية وعامل الاستقرار في لبنان. غير ان عصبا وزمرا كثيرة في الجيش اللبناني ومعها الأغلبية البرلمانية والرأي العام كانت تطالب باستقالة فرنجية. وأخيرا رضخ الرئيس السوري للأمر الواقع وانتهى الى القبول بصيغة حل وسط يهدف الى ايجاد مخرج يؤاتي محميه اللبناني، وقوامه أن يقوم مجلس النواب اللبناني بتعديل الماد ٧٦ من الدستور لكي يتاح انتخاب رئيس جديد للجمهورية قبل نهاية ولاية الرئيس فرنجية، بحيث يتمكن هذا الأخير من الانسحاب بكرامة في الأيام التي تلي...

وكان يبدو أن الأمور كلها سويت، حين جاءت للرئيس الأسد رسالة هاتفية تبلغه تصريحا لكمال جنبلاط، يندد الزعيم الاشتراكي فيه بالتدخلات السورية في الشؤون اللبنانية. واذ استولى الغضب على رئيس الدولة السوري فانه طلب من اللواء الشهابي الذي كان جالسا الى جانبه ان يخابر الرئيس سليمان فرنجية في الحال لطمانته الى دعم الجيش السوري له في وجه الذين يطالبونه بالاستقالة. فعادت الأمور على بدئها... وتدخل نايف حواتمة رئيس الجبهة الديمقراطية الذي كانت علاقاته بالأسد ممتازة، ليوضح بدوره للرئيس السوري أنه يرتكب خطأ جسيما باستعداء زعيم سياسي له من المهابة والنفوذ ما لكمال جنبلاط، الذي يستطيع فضلا عن جر الحركة الوطنية معه أن يجرف الطائفة الدرزية أيضا. وتوصلنا في النهاية الى اقناع الأسد بالتباحث مع جنبلاط لتبديد الخلافات وسوء التفاهم الذي يفصل بينهما نهائيا.

وبرغم الهجمة التي شنتها القوات المشتركة (الفلسطينية التقدمية) ضد القرى التي يسيطر عليها اليمين في المتن الأعلى فان الأسد استقبل جنبلاط في ٢٧ آذار ـ مارس . ولم يفض اللقاء الذي دام ثماني ساعات الى شيء ، اللهم الا الى

التعجيل في القطيعة بين سوريا واليسار اللبناني. ووفقا لما قاله الرئيس السوري، فان جنبلاط تمسك بموافقه ورفض أن يضع حدا للمعارك. بل على العكس، فان رئيس الحركة الوطنية، وفقا لما قاله الأسد أيضا ــ راح يستشهد بالتاريخ ليدعو الى قيام الدروز بذبح الموارنة. وهكذا فان الأسد الذي أقسم ألا يستقبل جنبلاط طالما هو رئيس للجمهورية، لن يعود الى استقبال الزعيم الاشتراكي أبدا. ذلك أن جنبلاط الذي بدأ التنديد به منذ غداة اليوم التالي للقائه مع الأسد "كعميل اميركي" و "كخائن" سوف يغتال بعد ذلك بسنة.

غير أننا لم نيأس من مصالحة سوريا مع اليسار اللبناني. وهكذا فقد ذهب وفد من منظمة التحرير يضم ياسر عرفات وأنا ونايف حواتمة وزهير محسن، الى دمشق في ١٦ ابريل ــ نيسان حيث أجرينا محادثة جديدة طويلة مع الأسد. وببديهة الحال فان الرئيس السوري لم "يغفر" لنا أبدا لا حركة الأحدب ولا مواصلة المعارك في الجبل المسيحي، بعد أن جعلنا مسؤولين عن الأمرين معا. كما أنه كان يرتاب كذلك ــ برغم انكارنا واحتجاجاتنا ــ باقامتنا علاقات مشبوهة مع الرئيس السادات برغم قيام هذا الأخير بعقد الاتفاقية الشهيرة حول سيناء. ومذ ذاك، راح الأسد يعزز تعاونه مع "جبهة بيير الجميل وكميل شمعون اللبنانية" مبررا ذلك بسلوك جنبلاط الذي اعتاد على وصفه "بتاجر ثورة وتقدمية" من جهة، وباهتمامه هو بالحفاظ على وحدة وسلامة أراضي لبنان من جهة أخرى.

ورغم هذا كله. فاننا توصلنا في ١٦ نيسان ــ ابريل الى عقد اتفاق من سبع نقاط مع الرئيس الأسد ينص أساسا على وقف اطلاق النار في لبنان ورفض تقسيم البلد ورفض "تعريب" النزاع، أي استبعاد مصر وحلفائها عن تسوية النزاع اللبناني. على ان بروتوكولا ملحقا بالاتفاق، قررنا ألا نذيعه، كان يشترط سحب سوريا لجيشها من الأماكن الحدودية التي احتلتها، كمقابل لتعهداتنا. لكن جنبلاط الذي شاورناه لدى عودتنا الى بيروت رأى أن التسوية غير مرضية ولم يقبل بالموافقة على وقف اطلاق النار الا كارها.

وبعيد توقف المعارك تنفيذا للهدنة التي لم تدم أكثر من سابقاتها إلا قليلا، جاءني غسان تويني ليبلغني رسالة من الممثل الشخصي لهنري كيسنجر، السفير دين براون الذي كان وصل الى لبنان قبل ذلك ببضعة أسابيع. وقال لي التويني ــ

وهو الوزير السابق وصاحب جريدة النهار ــ أن براون يريد أن يعرف ما اذا كانت المقاومة تستطيع أن تضمن احترام الحركة الوطنية لوقف اطلاق النار. اذ دون ذلك فان الولايات المتحدة لن تعارض تدخلا عسكريا سوريا في لبنان.

واعتبرت هذا المسعى غريبا، كما بدا لي التدخل الأميركي أمرا لا يطاق. لكن جوابي جاء غامضا مهذبا. وقلت للتويني أن هذا الأمر لا يعود الي، وأنه ليس لي أن أسير في متاهة دسائس ومكائد كيسنجر. فضلا عن أن عقدة المشكلة لا تقع في معسكرنا، وانما في معسكر الانفصاليين الموارنة الذين لم يتوقفوا عن انتهاك اتفاقيات وقف اطلاق النار الموقعة في السابق.

وخلال محادثتنا بتاريخ ١٦ نيسان ــ ابريل مع الأسد، فان الرئيس السوري تناول موضوعا رئيسيا آخر متوسلا اليه مواربة عبر المساءلة. فقد سألنا: "من هو مرشحكم لرئاسة الجمهورية اللبنانية؟". كان مجلس النواب اللبناني قد عدل المادة ٧٦ من الدستور قبل ذلك بأسبوع، ووافق سليمان فرنجية تحت ضغط السوريين، على أن ينتخب خليفته في أول أيار مع احتفاظه بحق البقاء في السلطة حتى نهاية ولايته في شهر آب ــ أغسطس.

وأجبت الأسد بأننا أكثر احتراما لسيادة لبنان من أن يكون لنا مرشح لرئاسة الجمهورية. الا أنني أكن الكثير من التقدير لصديقي ريمون اده الذي أقدر فيه استقامته برغم تبايناته العميقة مع المقاومة. ثم أضفت أن الآراء منقسمة داخل الحركة الوطنية حول ريمون اده، ولكن الحركة قررت تأييد ترشيحه ضد ترشيح الياس سركيس الذي يؤيد اليمين المسيحي وسوريا. ثم خلصت الى القول بأنه لا ينبغي للرئيس الأسد الركون الى المظاهر: فريمون اده يتمتع باحترام كبير وحب بالغ داخل "الأكثرية الصامتة" وبين المسلمين والمسيحيين وداخل المحافظين والتقدميين.

وأجابني الرئيس الأسد: "على رسلك. انه ليس لسوريا مرشح في الانتخابات الرئاسية اللبنانية لأنها لا تعتزم التدخل في الشؤون اللبنانية". ثم تكلم بعبارات عامة عن سركيس واده. الا انه كان من البديهي أنه يتعاطف مع الأول وأنه ليس شغوفا بعميد الكتلة الوطنية الذي كان لا يترك مناسبة دون أن يندد بما لا يزال يسميه اليى اليوم "مطامع سوريا التوسعية".

كنت أعلم مقدما أنه ليس لريمون اده الا قليل حظ في النجاح في الانتخابات. ذلك أنه لم يكن يواجه عداء "الجبهة اللبنانية" وسوريا وحسب، بل الولايات المتحدة أيضا. فقد وقف دين براون على آراء المرشحين عبر المحادثات التي اجراها مع سركيس واده طارحا عليهما سلسلة من الأسئلة حول ما يعتزم كل منهما عمله في حال انتخابه. فكانت الردود التي قدمها اده ــ وفق ما رواه لي ــ أجوبة لا يمكن الا أن تفقده الحظوة وتحط من شأنه في نظر الأميركيين.

أما قادة المقاومة فكانوا أقرب الى الارتباك بشأن الموقف الذي ينبغي لهم اتخاذه. فهل كان ينبغي منع انتخاب رئيس جديد والدخول بذلك في نزاع مع سوريا. أم أنه ينبغي على العكس من ذلك التخلي عن اليسار اللبناني باتاحة انتخاب سركيس. كنا نطفو في بحر من التخبط. فقد كان هناك جزء هام من "الحركة الوطنية" يؤيد انتخاب سركيس، ولكنه قرر الاقتراع ضده تحديا لسوريا. وكان ثمة جناح من "الجبهة اللبنانية" يفضل اده، لكنه انضم الى جانب سركيس للحيلولة دون فوز مرشح اليسار. أما كميل شمعون فقد اتخذ موقفا أكثر غرابة: ذلك أنه طلب ثمنا مرتفعا لأصوات مجموعته البرلمانية.

وأمام هذا الخيار الصعب، اختارت المقاومة في النهاية صيغة معتدلة بحيث أن الفدائيين سيقصفون المبنى الذي سيجتمع فيه النواب في ٨ أيار ــ مايو ــ بنيران كثيفة من مدافع الهاون. وبقدر يكفي لاظهار انزعاجهم، ولكن ليس الى حد الحيلولة دون انتخاب رئيس جديد... ذلك أن الرأي السائد يقضي بألا نستعدي سوريا حتى لو كان صحيحا أن ريمون اده سيستطيع اذا ما انتخب وضع حد للحرب الأهلية، والغاء كافة الميليشيات الحزبية واعادة توحيد الجيش وتأمين وحدة البلاد على أسس جديدة.

غير أن سركيس يظل في نظرنا رجلا حسن الاستعداد ووطنيا يستطيع ــ اذا ما توفرت له الوسائل ــ أن يخدم مصالح البلاد العليا. أو ذلك، على الأقل هو الانطباع الذي خرجت به اثر عدة محادثات أجريتها مع مرشح اليمين هذا قبل وبعد اختياره للرئاسة.

لكن انتخاب سركيس لم يحل المشكلات القائمة بل أنها على العكس من ذلك، راحت تزداد تفاقما . فاليمين المنتعش ظل يناوشنا لاسترجاع مواقعه

المفقودة. واليسار والمقاومة فتحا ابتداء من ١٢ أيار ـ مايو "جبهة جبيل". كما أن الهزائم التي لحقت بالميليشيات المارونية كانت تقلق السوريين الى أقصى حد، لأنهم كانوا يرون أن انتصارا فلسطينيا ـ تقدميا صريحا لا يمكن الا أن يؤدي الى تدخل عسكري أجنبي، اسرائيلي أو أميركي.

فكان لا بد من اجراء مشاورات جديدة مع الرئيس الأسد. وهكذا فقد ذهبنا ـ ياسر عرفات وأنا ـ الى دمشق في ١٥ أيار ـ مايو حيث كان ينتظرنا رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود الذي كان يطرح نفسه في تلك الحقبة كوسيط.

وراح جلود يستشهد بالمحادثة التي أجراها مع الرئيس الأسد راويا لي ان الرئيس السوري قال ان فتح سلحت ودربت في لبنان ثلاثين ألف شخص من أفراد الميليشيات الشيوعية، وأن غالبية رؤساء البلديات الذين انتخبوا في عهد قريب في الضفة الغربية المحتلة بدعم من منظمة التحرير الفلسطينية هم من الشيوعيين أيضا. وأننا نسفنا اتفاقيات وقف اطلاق النار المعقودة في لبنان بصورة منتظمة. وأن المقاومة، أخيرا، تعارض توحيد سوريا ولبنان في دولة واحدة. وأمام فداحة وضخامة هذا كله، فانني طلبت ونجحت في ان أجعل عبد السلام جلود يحضر مقابلتنا مع الرئيس الأسد.

وبطبيعة الحال، فان المحادثة مع الرئيس السوري كانت، محادثة عاصفة. فقد رد علينا الرئيس الأسد حججنا واحدة أثر الأخرى، وأبلغنا بارسال جيشه الى لبنان لاعادة النظام اليه. وهكذا فان مرافعتنا ونصائحنا ذهبت سدى. وبعد ذلك بأسبوعين بدأ ستة آلاف جندي سوري، سيصل عددهم بعد ذلك الى ثلاثين ألفاً، مدعومين بمئات الدبابات والمدافع الثقيلة، باجتياز الحدود اللبنانية.

وبينما كانت القوات السورية تتقدم على محورين شمالي يتجه نحو صوفر والثاني جنوبي يتجه نحو صيدا، علمت من أحد قادة الصاعقة المقربين من رئيسها زهير محسن، أن المنظمة السورية الاتجاه ستقوم في ٦ حزيران ـ يونيه باستفزاز يهدف الى شل كافة التشكيلات الفدائية في بيروت. وستقوم باقتحام مكاتب أحزاب اليسار ومغاوير "جبهة الرفض". في حين تقوم وحدة سورية ترابط في المدينة الرياضية بالتحرك لفصل المشتبكين في الظاهر وللسيطرة على جهاز فتح العسكري والسياسي في الحقيقة . وقد وصلتني هذه المعلومات في ٣ حزيران ـ

يونيه، فكان في وسعي استغلال مهلة الثلاثة أيام الباقية لاتخاذ تدابير دفاعية.

وبالفعل، فان الصاعقة بدأت هجومها قبيل ظهر يوم ٦ حزيران ــ يونيه. فما لبث مغاويرنا أن طفقوا يحتلون قواعد ومكاتب المنظمات الموالية لسوريا وينزعون سلاح ميليشياتها ويوقفون رؤساءها. وانتهت العملية التي دامت ست ساعات بعد أن تكللت بالنجاح. والصحيح هو أن خصومنا لم يبدوا مقاومة حقيقية بحيث أن كثيرين منهم سلموا أسلحتهم طواعية. اذ لم يكن في كلا المعسكرين أحد يشعر بالفرح ازاء هذه المرحلة الجديدة من الحرب الأخوية التي ستهرق الكثير من الدم لسوء الحظ على غير طائل. وكان تقديرنا هو أن اخواننا السوريين أوقعوا أنفسهم في الشرك الأميركي، شرك هنري كيسنجر الذي يفضل ألف مرة وقوع مواجهة سورية فلسطينية على حدوث هدوء يتيح للعرب أن يراقبوا عن كثب دسائسه الرامية الى تيسير مصالح اسرائيل والولايات المتحدة في المنطقة.

وعلى أساس مثل هذا التحليل ارتكبت الجريمة الغبية في ١٦ حزيران ــ يونيو. ففي هذا اليوم كان سفير الولايات المتحدة الجديد في بيروت فرنسيس ميللوي ولم يكن مضى عليه في منصبه هذا سوى شهر، يرافقه المستشار الاقتصادي في السفارة روبرت وارنغ في طريقه لمقابلة الياس سركيس الذي لم يكن قد بدأ يضطلع بعد بمهمته الرئاسية بانتظار نهاية ولاية سليمان فرنجية. وكان لا بد للدبلوماسيين من سلوك طريق المتحف، الطريق الوحيد التي تصل القطاعين المتناحرين من بيروت، عنيت القطاع الغربي الذي تقع فيه السفارة الاميركية، والقطاع الشرقي الذي تسيطر عليه الميليشيات المارونية ويقطنه الرئيس المنتخب.

ووصلت سيارة السفير تتبعها سيارة الحرس الى الخط الفاصل بين القطاعين. ولدى وصولها الى مدخل شارع المتحف انعطفت سيارة الحرس متخلية عن السيارة التي يستقلها السفير ومستشاره الاقتصادي. ولكن لماذا؟ ان السر لا يزال يكتنف هذه القضية ولم يكتشف حتى الآن. يبقى أن سيارة السفير اختفت قبل أن تصل حاجز المراقبة الواقع على نقطة تقاطع القطاعين. وبعيد ذلك بساعات اكتشفنا جثث فرنسيس ميللوي وروبرت وارنغ وسائقهما اللبناني زهير مغربي وقد اخترقها الرصاص. وقد نددت كافة المنظمات الفدائية بهذا الاغتيال الثلاثي وشجبته. غير ان حزب العمل الاشتراكي العربي وهو فصيل لم يسبق لنا أن سمعنا به قبل ذلك

أعلن تأييده لهذا العمل دون أن يدعي مسؤوليته عنه. وهذه كافة الوقائع التي تناهت الى علم الرأي العام قبل أن يطوى ملف القضية.

وقررت من جانبي القيام بتحقيق حول الحادث. وبعد ثمانية أيام من البحث والتحري، أبلغت بوجود سيارة السفير في مرآب، فقامت مجموعة فدائية باقتحام المبنى وعثرت فيه على السيارة كما وجدت هناك شابا في السادسة من عمره يتولى حراستها. ولم يكن المراهق أكثر من ممثل مساعد (كومبارس) الا أنه زودني ببعض الاشارات حول مسير العملية وهكذا فقد علمت أن القتلة اتصلوا بزهير مغربي، السائق الشخصي للسفير، قبيل تنفيذ جريمتهم ببضعة أيام لتأمين تواطئه معهم. فأكدوا له أنهم يريدون خطف رب عمله للحصول على فدية ثم يطلقون سراحه وسراح راكبي السيارة الآخرين. وكان خادم السفارة الأميركية الوفي الهرم هذا، يعيش حياة هي أكثر بؤسا وضنكا من ان تحول دونه ودون أن تراوده الرغبة في الحصول على نصيب من الفدية يضمن له ولعائلته الأمان المادي لسنوات طويلة. وهكذا فقد قبل أن يلعب دور الأداة في يد الخاطفين. فأوقف السيارة عند نقطة اتفق عليها معهم. بحيث يتمكن الخاطفون من الاستيلاء على ضحاياهم بدون اطلاق نار وبعد أن جرى استجواب ميللوي ووارنغ استجوابا لا يستطيع مخبري أن يفيدني عنه بشيء، فانه جرى اعدامهما واعدام مغربي معهما بكل برود. ثم غادر القتلة لبنان بعيد ذلك بساعات دون أن يتركوا أي أثر.

لكن ما دام هؤلاء لم يطلبوا فدية، ولا تقدموا بأية مطالب سياسية أو سواها، فماذا كان هدفهم اذن؟ ان المراهق الانف الذكر روى لي انه استمع عرضا الى محادثة بين القتلة سمعهم يقولون فيها أنهم كانوا يأملون أن يترتب على عمليتهم، حدوث انزال أميركي في لبنان! واذا كان هؤلاء يرثون شأننا جميعا لاقتتال الأخوة الفلسطينيين والسوريين، فانهم كانوا يتصورون أنه سيسعهم وضع حد لها بتحويل لبنان الى فيتنام جديدة وتطوير الحرب الأهلية الى حرب تحرير وطني! ولا ريب في أنه يحق لنا أمام منطق بمثل هذه البساطة الشائنة، أن نتساءل عما اذا كان مرتكبو هذه العملية الغبية أشخاصا حمقى أم عملاء مأجورين.

وبعد عملية الاغتيال الثلاثية بستة أيام، بدأت معركة تل الزعتر، أطول معارك الحرب الأهلية وأكثرها خسائر وضحايا . فقد فرض اليمين المسيحي

الحصار على مخيم اللاجئين منذ شهر كانون الثاني ـ يناير ثم شن في ٢٢ حزيران ـ يونيه هجوما واسع النطاق على تل الزعتر وعلى التجمعين المجاورين له، جسر الباشا والنبعة. وبدأت القذائف والصواريخ تمطر هناك بلا انقطاع من الفجر الى المغيب على مدى اثنين وخمسين يوما متتالية. ويقدر عدد القذائف التي سقطت على تل الزعتر والذي التجأ اليه ٢٠,٠٠٠ فلسطيني و١٥,٠٠٠ لبناني مسلم بحوالي ٥٥٠٠٠ قنيفة.

وبدأ بضع مئات من أفراد الميليشيات المارونية ـ هي ميليشيات كميل شمعون التي عاد الكتائبيون بعد خمسة أيام، فانضموا اليها بعد تردد ـ بمحاصرة المخيم بعد دخول الجيش السوري الى لبنان بعشرة أيام. وببديهة الحال، فانهم انتظروا مبادرة دمشق ليقوموا بهذه المذبحة. ودليلي على ذلك هو رد فعل اليمين المسيحي على عرض التسوية الذي قدمته المقاومة وكمال جنبلاط اليهم في ٢٥ أيار ـ مايو، أي قبل التدخل السوري بأسبوع. وكان هدف الصيغة المقترحة هو بالضبط، منع تدخل دمشق العسكري. فقد عرضنا الانسحاب من كافة المناطق التي فتحناها في الجبل على أن نتركها تحت اشراف قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار. لكن الجيش السوري كان مع الكتائبيين. وسلم هذا الاقتراح الذي حررت صيغته بيدي في رسالة الى بيير الجميل بواسطة معاوني أبو حسن سلامة. الا أن رئيس الكتائب لم يرد على رسالتي اذ كان ينتظر خشبة الخلاص الدمشقية وفرصة تحقيق انتصارات عسكرية.

والحقيقة هي أن انتصار تل الزعتر كان مشروع ابادة بالأسلوب الفاشي الصرف. وقد كان بيير الجميل وكميل شمعون يعرفان أننا لا نملك أية وسيلة فعالة لتحرير مخيم اللاجئين المطوق مع التجمعين المجاورين له والمطوقين تطويقا كاملا بواسطة حزام مسيحي يسيطر عليه الانفصاليون. وكان لدينا، في المطلق، قوات تكفي لشن هجوم مضاد ولتحطيم الحصار. لكن الجيش السوري كان لا يزال، برغم اتفاق وقف اطلاق النار الذي عقدناه معه قبل ذلك ببضعة أيام، يشل حركتنا في شمال لبنان وفي جنوبه معا، بحيث أن سحب المقاومة لقواتها من المراكز التي تحتلها في مواجهة القوات السورية، كان سيشكل كارثة.

غير أننا أسهمنا في الدفاع عن المخيم بقصف محاصريه وبمحاولة تدمير مدافعهم المبعثرة في المدينة ، وعلى التلال المجاورة . حيث كنا نتمكن من تحديد

مواقعها بفضل المعلومات اللوجستيكية التي كان المسؤولون العسكريون في تل الزعتر يزودوننا بها بواسطة الراديو. وبفضل هذا "الحزام الناري" الذي أنشأناه، لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المخيم.

غير أن المخيم كان مهددا من الداخل بأكثر مما كان مهددا من الخارج. ذلك أن الحصار الذي دام أكثر من خمسة أشهر أفضى بالاهالي الى عتبة المجاعة بل ان ما كان أكثر من ذلك قسوة وفظاعة هو نقص الماء وشحه. فبعد أن نجحت الميليشيات المسيحية في تفجير شبكات المياه لم يبق أمام أهالي تل الزعتر سوى بئر ملوثة شحيحة المياه. وكان البئر معرضا لسيل من القذائف المنهمرة على المخيم فكان لا بد من ارسال حملات بالمعنى الحقيقي للكلمة، للبحث عن الماء. وكانت كل محاولة من هذه المحاولات تذهب بحياة شخصين أو ثلاثة بحيث أن الناس في تل الزعتر اعتادوا على أن يقولوا أن كأس ماء تساوي فعلاً كأساً من الدم.

وقد نال ذلك كثيراً من صغار الأطفال. وبطبيعة الحال، فانه لم يكن في الوارد تزويد الرضع بالحليب. كما أن كمية الخبز والماء الموزعة على العائلات، كانت أقل من أن تكفي صغار السن، حتى أننا كنا نسمع عندما نتحدث الى مسؤولي المخيم بالراديو أنين وعويل الأطفال وعويل الصارخين: "أنا عطشان يا امي". وعلى هذا فقد مات، بخلاف البالغين، حوالي ثلاثماية طفل ورضيع جوعا وعطشا ابان فترة الحصار.

ولم نكن ندرك خطورة الوضع في بداية المعركة، الى أن اتصل بنا ذات يوم طبيبان من أطباء المخيم لطلب النجدة. وكانا يصران على الحديث مع مسؤولين سياسيين من المقاومة وليس مع مسؤولين عسكريين. وأحسست بغيظهما وهيجانهما عندما قالا لي بلهجة جافة: "فاذا كنتم لا تستطيعون التوصل لوضع حد لهذه المجزرة، فجدوا على الأقل وسيلة لتموينننا بالماء والغذاء" وما لبثنا أن كونا مجموعات صغيرة تتألف كل واحدة منها من قبضة من الرجال وذلك لمحاولة التسلل وراء خطوط العدو والوصول الى تل الزعتر. فكان على هذه المجموعات وهي تلتف على المحاصرين. أن تزحف ليالي بأكملها على الهضاب المجاورة للتل وعبر الحقول والغابات. وكان يستحيل على أفرادها ان ينقلوا الماء. كما أن أسلحتهم وذخائرهم لم تكن تتيح لهم أن يحملوا كميات هامة من

الأغذية. وكثير منهم استشهد في الطريق. وأما الآخرون فلم يكونوا يقدمون للمحاصرين أكثر من تسكين مؤقت، كما أنهم لاضطرارهم الى البقاء في المخيم كانوا يزيدون عدد الأفواه المحتاجة للغذاء.

وفي اليوم الخامس من القتال جاءني الأب يواكيم مبارك ـ وهو كاهن ماروني مفعم بالمشاعر الانسانية ومعاد فوق ذلك للتدخل العسكري السوري، ليقدم لي اقتراحا بوضع حد للمعارك. ويقضي الاقتراح بأن يستسلم فدائيو تل الزعتر بأسلحتهم الى ممثلين عن الصليب الأحمر الدولي، ينتظرونهم عند أبواب المخيم وبعد ذلك يتم اخلاء الأهالي ضمن أفضل الشروط الممكنة. فرفضت اقتراحه للفور لأنه بدا لي غير لائق بمقاتلين في مثل بسالة مقاتلينا. وتقدمت باقتراح مضاد يقضي باخلاء الجرحى والنساء والأطفال فقط ـ أو على الأقل الاطفال بدون أمهاتهم ـ بينما يظل الرجال جميعا يواصلون المقاومة في داخل المخيم، فرفض. ثم تلقينا عدة عروض أخرى بعضها أذل من بعض اذ كان القوم يسعون الى جعلنا نستسلم استسلاما شائنا مخجلا.

ولا ريب في أننا كنا سنتبنى موقفا أكثر مرونة فيما لو أن المسؤولين السياسيين والعسكريين في تل الزعتر، أو فيما لو أن المحاصرين فيه عامة، أبدوا مثل هذه الرغبة. لكنهم على العكس من ذلك كانوا أكثر تصلبا منا. وكانوا يقولون لنا أن تل الزعتر بعد فلسطين، هو وطننا "بالتبني". وأنهم لن يغادروه الا محمولين على الالواح. وعندما تفاقم الوضع وفقد فيه كل أمل، ذهب أبو محسن ـ الرئيس السياسي للمخيم ـ الى ولده مصحوبا بكافة أفراد العائلة يتضرع اليه رفع العلم الأبيض. فكان أن استشاط محسن غضبا، وطرد أباه باحتقار ثم أبى أن يكلمه الى أن انتهت المعركة.

وقد دق احتلال مخيم جسر الباشا الفلسطيني (في ٢٩ حزيران ـ يونيو) ثم احتلال حي النبعة اللبناني ـ المسلم بعد ذلك (في ٦ آب ـ اغسطس) ناقوس تل الزعتر. فتم عقد اتفاق بواسطة ممثل الجامعة العربية في ١١ آب ـ اغسطس حول أشكال الاخلاء التي ستطبق من الغداة. وكانت الشروط مشرفة نسبيا من حيث أن المحاربين سيغادرون المخيم مع المدنيين في آن معا، دون أن يستسلموا للميليشيات المارونية، بل تتكفل بهم "قوة السلام" العربية والصليب الأحمر اللذين

يزودانهم بوسائل النقل اللازمة .

غير أن أعداءنا دفعوا غدرهم الوحشي الى غايته، وذلك، عندما فتحت ميليشيات كميل شمعون وبيير الجميل النار على جميع سكان تل الزعتر وهم يغادرون مخيمهم عزلا من السلاح وفقا للاتفاق المعقود، حاصدين بضع مئات من الأشخاص. بينما انقض آخرون على داخل المخيم وراحوا يطلقون النار على كل من يصادفون، وفي الوقت نفسه راح سواهم يوقفون الناقلات التي تراكم فيها الناجون على الحواجز المنصوبة على الطرقات، وينتزعون من داخلها بعضا منهم، وخاصة حديثي السن الذين يشتبهون في كونهم فدائيين، ثم يقتلونهم بوحشية أو يقتادونهم الى جهات مجهولة. وهكذا فان ميليشيات اليمين المسيحي اغتالت في يوم واحد عددا من الأشخاص يزيد على عدد ما قتلوه خلال الأثنين والخمسين يوما من حصار تل الزعتر. وبالاجمال فان عمليتهم هذه أوقعت حوالي ٣٠٠٠ ضحية. في حين أن الألف فدائي الذين كانوا في المخيم لم يستشهد منهم سوى عشرة فقط، وسلم الباقون بعد أن افلحوا في الفرار عبر الغابات والهضاب المجاورة مستفيدين من الفجور الدموي الذي ساد في ذلك اليوم المقدور ــ يوم ١٢ آب ــ أغسطس.

ولا يخالطنا الشك في أن المدافعين عن تل الزعتر أضافوا صفحة مجيدة الى تاريخ الشعب الفلسطيني. وستظل بطولاتهم وبطولة سكان المخيم أسطورة حية تلهم شعبنا أبدا على مدى الأجيال القادمة.

لكن جلجلة تل الزعتر أفادت في أنها أظهرت مرة أخرى، أنه ليس في وسعنا الاعتماد على أحد غير انفسنا. فقد أدار العالم "المتحضر" عينيه بخفر واحتشام عن المجزرة... ولا ريب في أنه وجد في أوروبا رجال ونساء سخطوا واستنكروا ونظموا الاجتماعات ومظاهرات الاحتجاج، الا أن عملهم هذا ظل أكثر تواضعا من أن يؤثر على مجرى الأحداث.

غير أن الفضيحة الحقيقية وقعت في موضع آخر، عنيت في العالم العربي الذي لم ترفع دولة صديقة ولا عدوة أصبعها لتنقذ خمسة وثلاثين ألف "أخ" من أبناء تل الزعتر. وليس في وسع أحد أن يقنعني أن مئة مليون عربي يعجزون عن كسر حصار فرضه بضع مئات من الأشخاص، أو عن أن يرفعوا صوتهم ليمارسوا به الضغوط، ان لم يكن على الميليشيات، فعلى سوريا التي تحميهم، على الأقل.

وكما قلت في مستهل هذا الفصل، فان الدول العربية لم تكن تخشى شيئا أكثر من خشيتها لانتصار القوات الفلسطينية ـ التقدمية. لأنهم كانوا مكرهين برغم كل شيء، نتيجة للرأي العام في بلادهم على دعمنا بأطراف ألسنتهم، وأحيانا على دفع معونات سخية لنا، وكانوا في الوقت ذاته يمولون ويشجعون المشروع السوري في لبنان بهدف تأمين الغلبة لليمين المسيحي. وحتى عندما كانوا لا يتمنون ازالة فتح، فانهم كانوا يحرصون على تدمير الجناح اليساري في المقاومة. وخلافا لما يمكن أن يعتقده البعض، فان شاغلهم لم يكن حماية المعتدلين بين الفدائيين لأنهم كانوا يمدون دعمهم الى التشكيلات الفاشية داخل "جبهة الرفض".

ثم أن العديد من البلدان ـ التي لم تكن تؤمن بوجود "خطر أحمر" في لبنان نتيجة لأنها أكثر اطلاعا وعلما ـ كانت تواصل، كل على حده، سياسة لا ترمي الى الدفاع عن المقاومة الفلسطينية وانما عن مصالحها الأنانية الضيقة. فمصر مثلا كانت تؤيدنا تأييدا مطلقا بل وتحضنا على أن نكون أكثر تصلبا لأنها لم تكن ترمي الا الى تعميق الهوة بين المقاومة ومنافستها سوريا. أما العراق فكان يفعل الأمر نفسه في حين أن ليبيا كانت تسعى على العكس من ذلك، الى عزل مصر لصالح سوريا. وأما الجزائر فانها مع معونتها لنا، لم تكن تأخذ أية مبادرة جسورة لأنها لا تستطيع، كما كانت تقول لنا، أن تصرف طاقاتها في لحظة ينبغي لها أن تكرسها فيها لتحرير الصحراء الغربية.

وبالغا ما بلغت غرابة ما سأقول، فانه حتى موقف اسرائيل نفسها لم يكن يخلو من اللبس. فهي ترسل العتاد العسكري الى اليمين المسيحي، الا اننا لاحظنا أنها تغمض أحيانا عينيها وهي تعترض مراكب تشحن الأسلحة الى المقاومة أو الى اليسار اللبناني. وببديهة الحال، فان الدولة الصهيونية لم تكن تريد لحرب أهلية تفيدها بقدر عظيم من الفائدة، أن تتوقف قبل الآوان نتيجة لعدم وفرة السلاح...

أما بين الدول الكبرى التي كنا نعدها بين أصدقائنا، فانه كان للاتحاد السوفياتي موقف ايجابي نسبيا. فهو لم يفهم في البداية طبيعة الحرب الأهلية فهما جيدا وحسبها حربا "طائفية". وبرغم توضيحات الشيوعيين اللبنانيين المتواصلة، الا أن السوفيات ظلوا ينصحوننا بألا "نزج بأنفسنا في شأن عائلي". ولكنهم بدأوا يدركون أبعاد النزاع بعد مجازر ضبية والكرنتينا في كانون الثاني ـ

يناير ١٩٧٦. ووقفوا الى جانبنا صراحة بعد التدخل العسكري السوري في لبنان. ويقينا أن بياناتهم وصحفهم لم تنتقد الحكومة السورية الا تلميحا. الا ان الرئيس الأسد أفضى لي بأن موسكو أوقفت شحن قطع الغيار للجيش السوري منذ شهر حزيران ـ يونيو ١٩٧٦. كما أنه تلقى بموازاة ذلك رسائل من القادة السوفيات تحثه على اعادة الجسور الى سابق عهدها بينه وبين اليسار اللبناني والمقاومة.

الا أن موسكو، لعظيم أسفنا، لم تتخذ أي اجراء لكسر الحصار الذي فرضته علينا اسرائيل والانفصاليون وسوريا في البحر والبر. وفي اللحظة التي كان يعوزنا فيها كل شيء، بما في ذلك الحليب والوقود، فان الاتحاد السوفياتي لم يحاول أن يرسل الينا مركب تموين حتى ولو تحت راية غير رايته.

ولهذا فاني لم أمتنع نفسي في المؤتمر الصحفي الذي عقدته ابان حصار تل الزعتر عن انتقاد الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الأخرى حول هذا الموضوع. ولكنهم أصموا آذانهم. وعندما تعود بي الذاكرة الى ذلك فاني اعتقد أن موسكو لم تكن تريد أن تتورط في نزاع قد يؤدي بها الى المواجهة مع الولايات المتحدة، واحسب أن دواعي الأمن ومقتضيات الانفراج تغلبت على رغبتها في مساعدتنا.

واذا كان السوفيات قد أبطأوا حتى أدركوا كافة مضامين النزاع اللبناني، فان اصدقاءنا الصينيين لم يفهموا منه شيئا. فقد ظلوا يعتقدون حتى النهاية، بأن الحرب اللبنانية ليست سوى حرب ديانات. أو لعلهم كانوا مستغرقين في الأزمة الداخلية الكامنة في بكين. وقد امتنعوا عن دعمنا في كافة المجالات سياسيا، ثم بخاصة عسكريا.

وعلى هذا فاننا كنا وحيدين عمليا، حين شن السوريون في ٢٨ أيلول ـ سبتمبر هجوما ضخما في المتن الأعلى بهدف ازاحة القوات الفلسطينية والتقدمية عن المراكز التي احتلتها. وكانت الذريعة التي تذرع بها القوم لتبرير انتهاك وقف اطلاق النار الساري المفعول، هو الهجوم الذي شنه أربعة فلسطينيين قبل ذلك بيومين على فندق سميراميس في دمشق واسترهنوا فيه رهائن. وقتل أحدهم خلال العملية بينما شنق الثلاثة الآخرون في الغداة في احدى الساحات العامة. وأقول أن الأمر كان ذريعة لأن أصحاب العملية كانوا اعضاء في احدى منظمات جبهة

الرفض ذات الميول العراقية، ولم تكن لهم أية علاقة بقيادة المقاومة. بل على العكس من ذلك فانهم كانوا مناوئين لخطنا السياسي. ومن الصحيح كذلك أن نائب وزير الدفاع السوري اللواء ناجي جميل كان قد طلب منا خلال اجتماع في صوفر في ١١ ايلول ـ سبتمبر أن نسحب كافة قواتنا بدون قيد أو شرط وان ننكفئ الى المواقع التي تبيحها لنا "اتفاقية القاهرة". الأمر الذي رفضته حينذاك بسبب معارضة حليفنا كمال جنبلاط.

وبرغم بعض التباينات التكتيكية التي كانت بيننا وبين كمال جنبلاط من حين لآخر، الا أننا كنا نكن أعظم الاحترام لرئيس "الحركة الوطنية". فقد كان جنبلاط ـ تغمده الله بالرحمة ـ وطنيا صادقا عظيما وقائدا سياسيا عبقريا. وكانت له دراية عميقة وفهم فطري للبنان واللبنانيين الذين يحبهم بكل جوارح وجوده. الا أنه لسوء الحظ لم يكن يدرك دائما تعقيد الظرف العربي واللعبة التي تدور على المسرح الدولي.

كانت تحليلاتنا وتحليلاته تتباين بالنسبة لهذا الموضوع حول نوايا سوريا ومقاصد الولايات المتحدة. فالسفير دين براون الذي كان يعمل بناء على تعليمات هنري كيسنجر ـ رئيس مجلس الأمن القومي الاميركي حينذاك ـ أكد له بأن حكومته تعارض تدخل دمشق عسكريا في لبنان، وان الجيش السوري لن يجرؤ على أية حال أن ينطلق الى ما وراء مدينة صوفر. وصدقه كمال جنبلاط. ومن هنا كان رفضه العنيد لسحب قواته من المتن الأعلى.

وكنا نتوقع هجمة سورية مؤيدة من الولايات المتحدة ومن بعض البلدان العربية. وكان تقديرنا كذلك أن تدخل سوريا قلب موازين القوى لصالح الانفصاليين. وحذر مسؤولونا العسكريون كمال جنبلاط بأنه اذا كان من الصحيح أن في وسعنا الصمود للميليشيات المسيحية الى ما لا نهاية، الا أن أية مقاومة للجيش السوري الذي يتمتع بمدفعية ثقيلة ودبابات وصواريخ أرض ـ أرض، ستكون عملا انتحاريا.

وهكذا فان قيادة المقاومة بالاجمال، كانت تؤيد انسحاب القوات الفلسطينية التقدمية المشتركة خاصة وأنها تريد تلافي مواجهة مع سوريا يمكن أن تكون مضرة على المدى الطويل . غـير أن بعضا منا كان يرى أن علينا أن نعمد الى

الجلاء دون تأخير متجاوزين اعتراضات جنبلاط. بينما كان آخرون، وأنا من جملتهم، يدعون الى مواصلة الحوار مع الزعيم الاشتراكي لاقناعه بصحة تحليلنا. وكنت أقول أنه لا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال كسر تضامننا مع "الحركة الوطنية" اللبنانية، وذلك لسببين: الأول سياسي والثاني معنوي. وكان تقديري ان الوفاء يقتضي ألا نخل بالتزاماتنا ازاء تشكيلات سياسية أيدتنا بأمانة منذ نهاية سنوات الستينات، وازاء جزء من الشعب اللبناني الذي رضي أن يتحمل تضحيات جسيمة وهو يقاتل الى جانبنا طيلة الثمانية عشر شهرا التي استغرقتها الحرب الأهلية. وبخلاف ذلك فاننا نرتكب خطأ سياسيا خطيرا اذا ما قطعنا صلاتنا بالجماهير التي تثق بجنبلاط.

واخيرا انتهت قيادة المقاومة الى أن حددت موقفها بصيغة تسوية. فقد رفضنا مطالب دمشق، ولكن الاوامر صدرت للمسؤولين العسكريين في المتن الأعلى بسحب قواتنا منه بمجرد أن يبدأ الهجوم السوري. وهكذا تلافينا وقوع خسائر لا طائل منها، وافلحنا في جعل الفدائيين كلهم تقريبا ومعهم رفاقهم اللبنانيين ينجحون في الانكفاء سالمين الى مراكز جديدة.

الا ان سوريا عاودت هجومها في ١٢ تشرين الاول اكتوبر على اثر المفاوضات غير المثمرة التي دارت بين ممثلي المقاومة وبين ممثلي دمشق. ولكن على جنوبي لبنان هذه المرة. وفي غداة اليوم التالي دفعت بدباباتها لفتح بحمدون وعاليه اللتين كانت القوات الفلسطينية ـ اللبنانية متحصنة فيهما بعد معركة المتن الأعلى. وبينما كانت قواتنا تبدى مقاومة ضارية وبطولة نادرة في بحمدون، كان ياسر عرفات يخابر مختلف رؤساء الدول العربية ليرجوهم التدخل. الا انه لم يستطع الاتصال بأي منهم. فقد كانوا جميعهم "مشغولين" بأكثر من أن يتمكنوا من الرد عليه. وعلى أثر مكالمة اجراها في ١٤ تشرين الأول ـ اكتوبر مع الأمير فهد ولي عهد العربية السعودية، قال له الأمير "امهلني بضع ساعات فأسوي المشكلة". وفي غداة اليوم التالي صدر بيان رسمي نشر في الرياض ويعلن عن عقد اجتماع "قمة" مصغرة في العاصمة السعودية. وفي اليوم نفسه أوقف الرئيس الأسد هجومه وأعلن وقف اطلاق النار على كافة الجبهات. وعندما وجد ياسر عرفات نفسه غير قادر على مغادرة لبنان بوسائله الخاصة، فانه قبل أن يأخذ الطائرة التي قدمها له الرئيس الأسد للذهاب الى مطار سوري حيث تقله من هناك طائرة سعودية ...

وخلال ثمان وأربعين ساعة تمكن ستة رجال من وضع حد للحرب الأهلية اللبنانية: الملك خالد، ملك العربية السعودية وأمير الكويت الشيخ صباح والرؤساء الأسد والسادات وسركيس وعرفات. وقد استنفذت الجلسة الاولى في المهاترات والمعاتبات العنيفة التي تبادلها السادات والأسد. غير أن الرئيسين المصري والسوري عادا الى الجلسة الثانية، بعد أن وضع العاهل السعودي بكل ثقل نفوذه السياسي والمالي في الميزان، وهما مبتسمين منشرحين، وسعيدين "بصداقتهما" المستجدة. وتلك احدى خصائص العالم العربي: فالمصالحات فيه بمثل سرعة المشاجرات. وذلك أن هذه شأن تلك ... مصطنعة ، أو سطحية.

وكانت القرارات المتخذة في الرياض تناسبنا تماما: وقف اطلاق النار، واحترام تطبيق "اتفاقية القاهرة" في علاقاتنا مع الدولة اللبنانية، اعادة تأكيد الدعم العربي لمنظمة التحرير الفلسطينية ثم، أخيرا ــ الأمر الذي أرضانا غاية الرضى ــ استبدال الجيش السوري بما سيسمى "قوة الردع العربية". التي ستتألف من وحدات عسكرية تابعة لمختلف البلدان العربية.

الا ان فرحتنا كانت عجولة بعض الشيء. فقد اكتشفنا بذهول بعد ذلك بأسبوع خلال "القمة" الموسعة في القاهرة، انه ليس ثمة بلد عربي ــ غير سوريا ــ على استعداد لارسال وحدات عسكرية الى لبنان. فالعراق برر رفضه بالتوتر القائم بينه وبين سوريا، وأما الجزائر فتذرعت بحاجتها الى كافة قواتها لمواجهة الوضع في الصحراء الغربية. واما المغرب فأعلن أن جيشه لا يمكن ان يستخدم خارج حدوده الا في "تحرير القدس" الأمر الذي لن يمنع الحسن الثاني من ارسال قوات الى زائير للدفاع عن نظام موبوتو. واما ليبيا فتذرعت بخطر العدوان المصري عليها، بينما تعللت مصر بالمقابل باحتمال قيام ليبيا بمهاجمتها. وباختصار، فان قوة الردع العربية (٣٠ ألف جندي) ستتكون بكاملها تقريبا من الوحدات السورية التي ستنضم اليها وحدات رمزية من العربية السعودية والسودان واليمن الجنوبي والامارات.

واذا كان لا بد من تفسير لرفض البلدان العربية هذا. فانني أقول أن بعضا منها لم يشأ ادخال اصبعه في وكر الدبابير اللبناني، وأن غالبيتها كانت تتمنى في قرارة نفسها أن تتولى سوريا وحدها مهمة تحجيم المقاومة واليسار اللبناني.

أما كمال جنبلاط الذي لم يتوقف عن العمل من أجل تعريب النزاع اللبناني ليتخلص من الحضور السوري. فانه اغتم غما عميقا. فقد خاب أمله في نتائج "القمة" العربية وبات قلقا على مستقبل الحركة الوطنية في آن معا. فكان أن عقد مؤتمرا صحفيا دعاني اليه. وفي حين أنني رفضت من جهتي أن أدلي بأي تصريح ــ اذ ماذا يمكن لي أن أقول دون أن أناقض نفسي؟ ــ فان الزعيم الاشتراكي أعلن مستكينا موافقته على مقررات الرياض، لكن مع الاصرار على ان القوة العربية هي قوة "أمن" لا قوة ردع. فكانت تلك الانتفاضة الأخيرة لرجل مهشم منهوك سيقع غيلة برصاصات مجموعة من الرجال نصبت له كمينا على طريق مقره في المختارة بالشوف وذلك بعد دخول القوات السورية (تحت غطاء الردع) الى بيروت بأربعة أشهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما.

وخلال دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني (برلمان المقاومة) الذي انعقد في القاهرة وصلنا خبر اغتياله في ١٦ آذار ــ مارس ١٩٧٧، وأصابنا الذهول والألم. واذ كان ياسر عرفات أكثر انفعالا من أن يتمكن من الكلام، فانه كان علي أن أرثيه أمام المجلس. وقلت ما مفاده: ان الذين دبروا اغتيال كمال جنبلاط، قد سددوا طعنة نجلاء للبنان ولفلسطين وللعالم العربي. ثم أضفت قائلا وسيندمون على ذلك ذات يوم، لأن جنبلاط الوطني اللبناني والقومي العربي كان رمزاً وضمانة للتحرر الوطني والكرامة.

ولا ينبغي للفراغ الذي تركه رئيس الحركة الوطنية أن يصرفنا عن الحقائق التي نواجهها. واحدى هذه الحقائق، بل والرئيسية بينها، هي المكانة البارزة التي باتت تحتلها سوريا في لبنان. فقوات سوريا انتشرت سلميا في البلاد تحت راية قوة الردع العربية ... وياسر عرفات والرئيس الأسد تعانقا في "قمة الرياض" المصغرة وضربا من حيث المبدأ صفحا عن الماضي. وقد أعاد كافة رفاقي في قيادة فتح بناء جسورهم مع الرؤساء السياسيين والعسكريين السوريين فكنت عمليا المستبعد الوحيد عن هذا التلاقي الذي أملته المصلحة العليا لكلا الطرفين.

وينبغي لي أن أقول أن حالتي كانت بمعنى من المعاني استثنائية. فازاء غياب بقية أعضاء قيادة المقاومة فانني كنت أنا الذي اتخذ في ٦ حزيران ــ يونيه ١٩٧٦، القرار المؤلم بالتصدي للتدخل العسكري السوري بالسلاح. وغالبا ما كنت أنا أيضا من يعقد المؤتمرات الصحفية ويضاعف التصريحات التي تندد بسلوك

المسؤولين في دمشق. وفي غمرة العمل وحماسه وتحت تأثير الألم الذي يثيره اهراق الدم، فان أحاديثي كانت مشوبة بعنف لا يمكن الا أن يثير غضب الرئيس الأسد ويمحوره علي.

ولما كنت أنا نفسي موضوع حملات وسائل الاعلام السورية طوال الحرب الأهلية، فانني لم أكن في أفضل الأوضاع التي تمكنني من التصالح مع رئيس الدولة البعثي. فمنظمة الصاعقة، السورية الولاء، أفرطت في نشر المنشورات في لبنان التي تندد فيها بشخصي كعميل "سعودي" بل وأميركي وخاصة بعد حركة الأحدب. بل أن بعض صحف دمشق حسبت أنها عرتني نهائيا عندما راحت تؤكد أن والدتي يهودية وأن اسمها راشيل، بينما راحت صحف أخرى تتهمني بأني أعيش حياة منحلة وأن عشيقتي هي يهودية أيضا وتدعى جانيت...

وبعد معانقات الرياض، قلق رفاقي على مصيري. فمكتبي في بيروت يقع على بعد بضعة أمتار من احدى الوحدات السورية، وانا أتجول في الشوارع وأعبر الحواجز التي تشرف عليها قوات دمشق. ثم أنني كمسؤول اصبحت بحكم العاجز عن القيام بأي شيء لعدم وجود حوار بيني وبين النظام البعثي. وكان تقدير رفاقي أن هذا الوضع العقيم والخطر في آن معا، لا يمكن أن يستمر الى الأبد وانتهوا الى أن وضعوني أمام واحد من خيارين: اما أن أذهب من تلقاء نفسي لأقر بذنبي جهارا. وأما أن أغادر لبنان في "اجازة" غير محدودة.

ووجدتني لأول مرة في حياتي أنتهك قواعد الانضباط المعمول بها في فتح. اذ رفضت الاقتراحين بعناد. فقد كنت من جهة أولى اعتقد أن الكرامة تأبى علي، وأن العدل لا يرضى لي أن أتوسل إلى "بلاط الحيرة"، وألقي باعتذاريات النابغة، كما أنني من الجهة الأخرى لم أكن أريد أن أرضي خصومي وأهرب من مسؤولياتي. واذا فقد قررت ألا أغادر بيروت ولو الى القاهرة لأزور زوجتي وأولادي الذين لم أرهم منذ أكثر من سنة. وانما ذهبت الى العاصمة المصرية، على كره، بمناسبة دورة انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني التي أشرت اليها آنفا.

ولدى عودتي الى بيروت استدعاني الرئيس سركيس ليقول لي انه لا بد من اعادة علاقاتي الى طبيعتها مع القادة السوريين. ثم أخذ المبادرة لمفاتحة الرئيس الأسد بذلك، بعد أن أطلعه على التقدير الذي يكنه لي . وأخيرا فان الصداقة التي

أكنها للرئيس اللبناني والجهود التي بذلتها عدة شخصيات، انتهت بأن حملتني على الذهاب الى دمشق، حيث أعلن الرئيس الأسد عن استعداده لاستقبالي.

وذهبت في يوم جميل من أيام نيسان ـ ابريل بصحبة ثلاثة من فتح ـ أبو جهاد وأبو صالح وأبو ماهر ـ الى العاصمة السورية حيث استقبلنا المحادثون الذين ألفناهم أيام الحرب الأهلية: عبدالحليم خدام وزير الخارجية، واللواء ناجي جميل نائب وزير الدفاع، واللواء حكمت الشهابي رئيس الأركان العامة. ودار حديث تسوده المجاملة حول موضوعات هامشية لا أهمية لها، الا أنه أتاح ترطيب الأجواء.. ثم قادنا الثلاثة الى القصر حيث كان الرئيس الأسد ينتظرنا.

وما كدنا نجلس في احد الصالونات، حتى طلب منا رئيس التشريفات ـ أمام عظيم دهشتنا ـ بأن نسلمه أسلحتنا قبل أن ندخل الى مكتب الرئيس! وبعد لحظة انفعال، أجاب أبو جهاد بهدوء بأنه لا يحمل سلاحا. وأما رفيقاي الآخران، فانهما ألقيا بمسدسيهما على الطاولة بحركة سخط واستنكار. واما أنا فرفضت أن أضع سلاحي وقلت بلهجة عصبية، بأنه يعود الى الرئيس الأسد أن يقرر ما اذا كان يثق بي ويطمئن الي ام لا. ولم أكن أسعى الى التميز بنفسي عن أصحابي مطلقا. الا أن تقديري كان هو أني أرتكب ـ من منظور المواجهة المقبلة ـ خطأ تكتيكيا، اذا ما أذعنت واستسلمت أمام أول تحد. واختفى رئيس التشريفات بضع لحظات ثم عاد ليقول: "تفضلوا واتبعوني الى مكتب الرئيس...".

وعانقنا الأسد واحدا بعد الآخر على الطريقة العربية. ثم شرع يحادث رفاقي الثلاثة بأعصاب باردة هادئة، محادثة حول موضوعات لا يجمع بينها جامع، فيسألهم مثلا بأدب عن صحة أولادهم. وكان ثمة اشارتان لا يدركهما الا من يعرفهما مثلي تترجمان مشاعر الأسد الحقيقية نحوي: الأولى هي أنه لا يوجه الكلام الي، وراح يتصرف كما لو لم اكن موجودا. فالرئيس السوري مثلي، لا يستطيع أن ينظر الى شخص لا يتعاطف معه. الا أنه برغم ذلك رأى أن يخفف من جو التوتر المخيم بأن راح يسأل أبا صالح: "كيف حدث أن ابيض شعر شاب مثلك". ففسر أبو صالح له ذلك بقوله أنها ظاهرة وراثية. لكن الأسد راح يعلق على ذلك وهو بين الجاد والهازل: "كلا. بل هي معاشرة أبو اياد جعلتك تهرم قبل الأوان..."

وحملت نكتته على محمل الدعابة، وأخذت الكلام لأستشهد له ببيت الشاعر العباسي، البحتري الذي يقول:

اذا احتربت يوما فسالت دماؤها   تذكرت القربى فسالت دموعها

وانكسر الجليد. فاغتنمت ذلك لأقول له أن كلا منا تصرف حسب ضميره: هو حين أرسل جيشه الى لبنان، وانا حين قاومته، والتاريخ هو الحكم في أي القرارين هو الصواب! وبانتظار ذلك فاني أحرص على تبيان صغر وضحالة أجهزة دعايته. وقلت له: "لقد حسبوا أنهم يشتمونني حين ذكروا أن أمي يهودية. لكن سوء الحظ يشاء أنها ليست كذلك. وأقول سوء الحظ، لأن يهوديتها كانت ستساعدني مساعدة أفضل على الدفاع عن هدفنا الاستراتيجي القاضي بانشاء دولة يهودية ـ عربية في فلسطين. وأما الأقاويل المتعلقة بحياتي الخاصة، فانها حقارات أفضل عدم الرد عليها.

ثم أضفت أقول: "وعلى أي حال فانني أتمنى أن أطوي هذه الصفحة لنناقش مستقبل العلاقات السورية ـ الفلسطينية.

وقدم لي الرئيس الأسد عرضا ضافيا دام ثلاث ساعات. قال أن جيشه تدخل في لبنان لأنه تبين أن كافة المحاولات الأخرى لوقف الحرب الأهلية غير فعالة، لأنه ينبغي الحؤول دون تدويل النزاع. ثم أوضح أنه داخلته الريبة في مناورات كمال جنبلاط التسويفية لأنني حذرته من أن الزعيم الاشتراكي هو في الحقيقة عميل أميركي. وهتفت مستنكرا: "أن ذلك غير صحيح! فانا لم أقل هذا مطلقا!" وذكرته بأن ما قلته هو مجرد الاشارة الى أن كمال جنبلاط يثق بدين براون وأن هذا الأخير يفسد عليه أفكاره. الا أن الأسد ظل على قناعته لا يتزحزح عنها، بحيث أن النقاش الطويل حول هذه النقطة لم يفض الى أية نتيجة.

ثم أنه أثار استنكاري وسخطي مرة ثانية عندما ذكر خلال عرضه بأننا، خلافا للمظاهر، نؤيد الاتفاق الذي عقده السادات حول سيناء، وأن الاتصالات السرية التي قام بها بعض الفلسطينيين مع الشخصيات الاسرائيلية كانت موجهة في الحقيقة ضده وضد سياسة سوريا. ووثبت من مقعدي وانا أقول: "ان ثمة حدودا لما أستطيع احتماله! فالحركة الفلسطينية هي المستهدفة، في مجملها. بمثل هذه الادعاءات الظالمة! لقد كنا أول من ندد في العالم العربي باتفاق سيناء، وأول

من قاتله ومن عانى منه، لأن هذه التسوية المشينة أفضت الى الحرب الأهلية اللبنانية. لكن اسمحوا لي أن أطرح عليكم سؤالا أيها السيد الرئيس: كيف حدث وأخلى الأميركيون بينكم وبين ما تريدون في لبنان، في حين أن تحذيرا بسيطا من واشنطن في ايلول ـ سبتمبر عام ١٩٧٠، أجبركم على سحب قواتكم من الأردن بعد ثلاثة أيام من دخولها اليه.

فأجاب الأسد وقد لدغه الكلام، انه اتخذ قرار التدخل في لبنان بكل استقلالية، وبرغم التحذيرات والضغوط التي مورست عليه، ليس من الولايات المتحدة وحسب وانما من الاتحاد السوفياتي كذلك. ثم أضاف: واذا كنت في ريبة من ذلك فان في وسعي أن أضع في تصرفك الوثائق التي تثبت أقوالي. وانها تكشف النقاب عن أن السوفيات أوقفوا شحن قطع الغيار المخصصة للقوات المسلحة المصرية.

وبلغت المناظرة بيننا عتبة القطيعة، عندما تطرق الرئيس الأسد الى موضوع عام، هو موضوع التعاون بين سوريا والمقاومة. فقد قال لي: "لقد قررنا ألا نولي اعتبارنا بعد الآن الا للقضية الفلسطينية وليس لمسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية الذين يزعمون انهم يدافعون عن هذه القضية. فمنذ بعض الزمن وانا أطرح على نفسي الاسئلة بصدد جديتكم وطاقتكم على قيادة الحركة الفلسطينية. لقد قدتم شعبكم الى أحداث الأردن في ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٠ وفعلتم الأمر نفسه في لبنان. وتشاجرتم مع الأنظمة العربية. اني قلق على مستقبل القضية الفلسطينية لأنكم ببديهة الحال لستم على مستوى المسؤولية".

كان ذلك أكثر من أن يطاق. فنهضت مرة جديدة وانا أرد بغضب مغيظ: "أنكم محقون أيها الرئيس في الحكم علينا على هذا النحو. لكنه كان عليكم أن تضيفوا بأن الحكومات العربية بمجملها، بما في ذلك أنتم، تقف عاجزة أمام المشكلة الفلسطينية . ولأنها ليست أهلا، ولم تكن على المستوى المطلوب لحل هذه المشكلة، فان المقاومة وجدت، وستظل موجودة وستبقى تنمو وتتطور!".

وكان قد مضى خمس ساعات على بداية محادثتنا، خمس ساعات من المآخذ والملامة والمواجهات العنيفة. غير ان هذا اللقاء لم يكن سلبيا بل أتاح تصفية ملف خلافات جسيمة وايضاح موضوع الأخذ والرد السوري ـ الفلسطيني. وهكذا

فقد قال لي الرئيس الأسد وهو يودعني: "أنا أحترمك ولكني لا أحبك". فقلت له: "أقول ما قاله عمر بن الخطاب: انما تفتش عن الحب النساء. وأنا لا يهمني حبك أيها السيد الرئيس، بل يهمني ألا أقوم بما يفسد احترامك لي أو يسيء الى العلاقات السورية ـ الفلسطينية".

الفصل التاسع

مبادرة السادات
من الوهم الى الخيانة

اليوم هو يوم ١٩ تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٧ وطائرة البوينغ الرئاسية تحط بهدوء في مطار تل أبيب، وأنا جالس أمام جهاز التلفزيون في بيروت، أراقب الجمهور الكثيف من الشخصيات الاسرائيلية ذات الوجوه، المألوفة. أو غير المألوفة، وهي تنتظر وصول السادات. واستقرت الطائرة أخيرا وبدأ المصورون، والأشخاص المجهولون، ورجال الأمن المرتدون الثياب المدنية، والموظفون يهبطون مسرعين. وكوكبة من القادة الصهاينة يتقدمهم مناحيم بيغن واقفون كالخشب المسندة على قدم سلم الطائرة ونظراتهم مسمرة على بابها الفاخر. وأنا يغمرني أمل مجنون في أن السادات لن يخرج من الباب! لأنه قرر في اللحظة الأخيرة أن لا يأتي الى اسرائيل!

وتلقيت الصدمة في أحشائي وأحسستها تشنجا في حلقي. ذلك أن الرئيس المصري ظهر تحت الأضواء الكاشفة كالتماعة النور في العتمة، وهو يصافح أيدي جلادي شعبنا وهم يتتالون أمام ناظري: بيغن، دايان، شارون والجنرالات ببزاتهم. ثم ظهر السادات "المنتصر في حرب اكتوبر" جامدا أمام علم المحتلين بينما النشيد الوطني الصهيوني يدوي في الأسماع. وانسابت الدموع عل خدود عدد من رفاقي. وأما أنا فلازمت جهاز التلفزيون دون أن أحول ناظري عنه طوال أربعين ساعة، متتبعا زيارة العار والمذلة دقيقة دقيقة.

وفي غداة اليوم التالي، كان السادات يصغي لكلمة بيغن بمجاملة ومراعاة، ليعود فيرحب به بحرارة. ووجدتني أخجل مرتين. اذ هل يمكن ألا يكون الرئيس المصري قد استشعر مثلي الصفعات التي يكيلها رئيس الوزراء الاسرائيلي لنا بخطابه العدواني في قوميته، المستفز في شوفينيته والذي يفوح التعصب من أول كلمة فيه الى آخر كلمة؟! ثم ان استشهاده بوعد بلفور جعلني أثب من مقعدي. فالرجل الذي يدعي أنه قاتل الانكليز، يدلي بحجة الوعد الذي قطعته الامبريالية البريطانية لينكر حقوق شعب يضرب بجذوره في الأرض الفلسطينية منذ قرون! وهو يصف نفسه بأنه يهودي "فلسطيني" مبررا ذلك بذات القدر من التبرير الذي كان يبيح لي أن أدعي أني يهودي بولوني! وهو يمتدح المقاتلين الصهاينة الذين "حرروا وطنهم"، أي وطني الذي رواه دم الفلسطينيين الذين ذبحهم هو وأمثاله! وعادت بي الذاكرة الى دير ياسين تلك المجزرة التي نظمها ونفذها أنصار بيغن في نيسان ــ ابريل ١٩٤٨ ، يوم بقرت بطون الحوامل وذبح الأطفال والشيوخ ذبح

هوام الأرض. واسترجعت في بالي ـ وأنا استمع ال بيغن يتحدث عما يجرؤ على تسميته "بالملحمة" الصهيونية ـ الرحيل وأرتال الهاربين على الطريق فرارا من جنود المستوطنين، وهجرة عائلتي على المركب المتداعي، وآلام المنفى. وأمامي السادات يهز رأسه أحيانا. أفترى هزة الرأس هذه علامة الموافقة أم آية موات الاحساس!؟

وظللت أمني نفسي وأحاول ان أقنعها طيلة خطاب بيغن، بأن الرئيس المصري لن يحتمل الاهانة، الموقعة على الأمة العربية كلها. وتخيلته، وهو يتوجه الى المنبر ليعلن: "شكرا لكم على دعوتكم، بيد أنه بات على أن أعود لفوري الى القاهرة. فرجاء أن تعذروني لأنني أخطأت ولم أفهم الاسرائيليين..."

وطوال يوم الاحد ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر، راح السادات قبل اجتماع الكنيست، يضاعف بادرات المصالحة والتودد الى مضيفيه، مقدما بادرات سياسية جسيمة الدلالة والمغزى.

وحسبت لسذاجتي أنه سيجزى عليها بتنازلات موازية، فأنا أستطيع أن أفهم عند الاقتضاء زيارته لنصب ضحايا النازية (ياد فاشيم). ولكن كيف أمكنه أن يصلي في المسجد الأقصى في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، تحت حماية حراب المحتلين. ولماذا كان عليه أن يضع أكليل زهور أمام تمثال الجندي المجهول الذي نصب تكريما لذكرى الذين قتلوا وهم يقاتلون في حرب لم تنته بعد. وانعكس خطابه في الكنيست مرارة استشعرتها في حلقي. فقد أغفل، بناء لطلب بيغن، كما علمت فيما بعد، أية اشارة الى منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن هذا التنازل، بل لا يمكن أن يكون، مجرد تنازل شكلي مطلقا. لأنه يشكل تخليا عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني التي تجسدها منظمتنا، دون أن يحصل من بيغن مقابل هذا على شيء، ولو مطلق أي شيء! حتى ولا عبارات لياقة مبهمة! فقد وصل اسرائيل جاثيا على ركبتيه، وعاد منها زاحفا على بطنه.

بل انه لم يحظ بسماع عبارات مشجعة من جانب المعارضة، فخلال الجدل العلني الذي أجراه مع البرلمانيين الاسرائيليين قبيل مغادرته الاراضي الفلسطينية المحتلة بساعات، عبر النواب العماليون عن آراء مشابهة لآراء زملائهم في الليكود، وان كانت بلغة أقل اظلاما وأكثر تكيفا مع العصر.

وشعرت للمرة الأولى بأن شيئا ما انكسر في داخلي هو صداقتي منذ خمسة عشر عاما للسادات. فقد ظللت أحترمه برغم الخلافات التي تفصل بيننا. ذلك أن الأخطاء التي ارتكبها لا تكفي في نظري لثلم صورة الوطني التي يعكسها. غير أن سلوكه في اسرائيل شأنه بعد ذلك في ايلول ـ سبتمبر ١٩٧٨ في كامب ديفيد، تجاوز الحد. فقد زعم أنه يتكلم باسم الأمة العربية جمعاء وباسم الشعب الفلسطيني، ولكنه تنازل عن حقوقنا دون أن يستشيرنا! وأرخص في ثمن ارض لا يملكها على حساب شعب بلا وطن! وأقر وأنا خجل بأن الصداقة التي كنت أكنها له، استحالت حقدا. اذ بات من البديهي انه دبر عملية دعائية واسعة النطاق تهدف الى اظهاره للرأي العام العالمي كرجل دولة كبير يعمل بنزاهة وتجرد من اجل السلام.

وقد علمت في وقت لاحق ان فكرة زيارة اسرائيل، جاءت للسادات، ابان المحادثة التي أجراها في مطلع شهر نيسان ـ ابريل عام ١٩٧٧ في واشنطن مع الرئيس كارتر. فقد راح كارتر يدعو الى عقد لقاء اسرائيلي ـ مصري على أرفع مستوى، مؤكدا انه سيكون للمفاوضات المباشرة من التأثير ما يزيل تصلب الاسرائيليين. ووافق السادات من حيث المبدأ على القيام بمثل هذا اللقاء الذي سينظمه وزيرا خارجية مصر والولايات المتحدة، يوم كان اسحق رابين لا يزال في السلطة.

وفي نهاية شهر آب ـ اغسطس، اي بعد انتصار الليكود في الانتخابات التشريعية، قدم وزير الخارجية الاميركية سيروس فانس صيغة بدا أنها ستحظى بتأييد الجانبين: اذ يحضر السادات وبيغن دورة الجمعية العامة لأمم المتحدة التي تعقد في الخريف ويلقيان هناك خطابين وبعد ذلك يدعوهما الرئيس كارتر الى واشنطن حيث يجمعهما معا. لكن الرئيس المصري رأى أن هذا الاخراج ليس على قدر كاف من المسرحية والابهار. وقال لوزير خارجيته، إسماعيل فهمي الذي كان العضو الحكومي الوحيد الذي أطلعه على مشروعه والذي وضعه بالاشتراك مع كارتر، "لماذا ينبغي لي أن أذهب الى واشنطن لأقابل بيغن. ثم أضاف يقول: "بل خير لي أن أذهب الى اسرائيل بصحبة رؤساء الدول الخمسة العظمى أعضاء مجلس الأمن (أي الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين وبريطانيا وفرنسا). اذ بهذا يكون للحدث دوي أكبر ونجبر اسرائيل على عقد السلام". غير

أن السادات وافق بناء على اقتراح من اسماعيل فهمي، أن يستشير الحكومة الأميركية مقدما. فجاءه الجواب بالسلب لأن واشنطن ترى أن ثمة خطرا كبيرا في أن لا تفضي الصيغة المقترحة ـ حتى اذا أمكن تحقيقها بصورة ملموسة ـ الى أية نتيجة.

وبين ايلول ـ سبتمبر، وأول شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر، لم يكن السادات يدري ما يفعل. فمؤتمر جنيف الذي يجهد كارتر في عقده، واقف في طريق مسدود. واسرائيل تضاعف وضع العراقيل في دربه. وسوريا لا تشارك السادات في تصوراته ومفاهيمه للاجراءات التي ينبغي اتباعها. والرئيس الاميركي وجه له رسالة شخصية يعترف فيها بعجزه، مقرا بأن هامش المناورة الذي يملكه بات صفرا عمليا، بسبب ضغوطات الجماعة الضاغطة (اللوبي) اليهودية في الولايات المتحدة. وأضاف يقول له: "أنا في حاجة الى معونتك".

وفي هذه الفترة التقى موفد من قبل السادات بالجنرال دايان سرا في المغرب. وراح وزير الخارجية الاسرائيلي ينثر الوعود المغرية شمالا ويمينا، قائلا للوفد المصري: "سوف نمضي بعيدا وبعيدا جدا في طريق التنازلات اذا ما زارنا الرئيس السادات". ثم أن الملك الحسن راح من جانبه يشجع السادات على القيام بهذه الرحلة. وأكد له أنها ستكون حدثا تاريخيا ومبادرة حاسمة، و "سأكون أول من يؤيدكم".

كان العاهل المغربي يدافع بذلك عن قناعة عامة سائدة لدى القادة العرب في شمال افريقيا من تونسيين وجزائريين وحتى ليبيين، ومفادها ان اللقاءات المباشرة مع الخصم، هي وحدها التي تؤدي الى نتيجة.

أفلم يقترح على ياسر عرفات في أكثر من مرة، أن يلتقي بناحوم غولدمان، رئيس المجلس اليهودي العالمي سرأ؟

وهكذا فقد اتخذ السادات قرارا بالذهاب الى اسرائيل. ولم يطلع أحدا على ذلك، حتى ولا اسماعيل فهمي لعلمه بعداء فهمي لمثل هذه الرحلة. ثم حاول منذ ذاك تمويه خطاه ومحو معالم مسيرته.

ودعى عرفات بصورة عاجلة الى القاهرة، فوافاه في الثامن من تشرين الثاني ـ نوفمبر حيث استقبله نائب رئيس الجمهورية حسني مبارك ، وأبلغه رسالتين

من السادات. وقال له أن الرئيس المصري يدعوه لسماع الخطاب الذي سوف يلقيه في الغداة أمام مجلس الشعب، ولكنه يرجوه أن يذهب قبل ذلك الى طرابلس للحصول على جواب واضح ودقيق من العقيد القذافي، حول الطلب الذي تقدم به السادات كثمن للصلح بين البلدين. أما طلب الرئيس المصري من الرئيس الليبي، فهو أن يزوده بالوسائل التي تمكنه من الحرب ضد اسرائيل! وهو يريد أن تعوض عليه طرابلس كل السلاح الذي تدفق خلال اشتباكات اكتوبر ـ تشرين الأول عام ١٩٧٣ على نفقتها.

واستقبل العقيد القذافي عرفات استقبالا حسنا. وأعلن له عن استعداده لتسليم السلاح لمصر. الا انه أبلغه أنه حتى لو كرس كل موارد بلاده المالية لذلك، فانه لن يستطيع لوحده تأمين العتاد العسكري الذي يطلبه السادات. وهو يوافق كذلك على لقاء السادات على "أرض محايدة" على الحدود المصرية ـ الليبية، ولكن ليس في القاهرة كما يقترح السادات.

واتجه عرفات لدى عودته الى القاهرة الى مجلس الشعب مباشرة حيث كانت الجلسة قد بدأت. وهناك اعتراه بعض الدهشة وهو يسمع المديح وتكرار المديح الذي يجزيه السادات له في خطابه. ولكنه لم يجد الخطاب يشتمل، فيما عدا هذا التفصيل الفريد، على أي شيء يبرر ايلاء الطابع الاحتفالي لهذا الاجتماع. فقد سرد الرئيس كالعادة، الجهود التي بذلها، عبثا، من اجل التوصل الى تسوية عادلة للنزاع في الشرق الأوسط. الا أنه، ابتعد بغتة عن النص الذي يقرأه باعثا في المستمعين اليه احساسا مثيرا، اذ هتف قائلا أنه مستعد للذهاب الى أي مكان كان، "حتى ولو الى اسرائيل" اذا كان ذلك سيساعد على التوصل الى السلام.

واندلعت تصفيقات حادة في المجلس. وما لبثت كاميرات التلفزيون أن وجهت عدساتها صوب عرفات الذي كان يجلس مكتوف اليدين. وبطبيعة الحال. فانه لم يعجب مطلقا "بالعبارة الصغيرة" الجامحة التي كان يجهل، شأن حسني مبارك الجالس الى جانبه، ما اذا كانت تشكل فورة لا عاقبة لها، أم تعريضا له مغزاه. غير أن السادات عمد فور انتهاء الجلسة الى تطمينه. اذ راح امعانا منه في المكر يقول وهو محاط بوزرائه وأعيان نظامه، لوزير خارجيته بحضور عرفات: " ينبغي

أن تجد وسيلة يا اسماعيل لاستدراك هفوة لساني المؤسفة تلك ..."

واذا فان عرفات عاد الى بيروت وهو مقتنع بأن ما كان من أمر السادات، ليس سوى شطحة خطابية. أما أنا فانني من جهتي ذهبت الى أن السادات كان يقوم بعملية دعائية أريبة ماهرة مخصصة لأغراض الاستهلاك الخارجي. ولكنني نصحت عرفات بالكتابة الى رئيس الدولة المصري ليطلب اليه تزويده بتوضيحات، بعد ذلك بأسبوع، أي عندما أعلن السادات عن عزمه للسفر الى دمشق لمشاورة الرئيس الأسد.

وفي ١٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر، قطع الشك باليقين. فقررت قيادة فتح أن تنشر بيانا معتدلا نسبيا يدعو السادات للتراجع عن مشروعه. ولكن بعد أن تمت الزيارة، انقسمت اللجنة المركزية في منظمتنا الى اتجاهين. فكان تقدير الاتجاه الأول هو أننا لا نستطيع السماح أنفسنا بالقطيعة مع مصر لأن دور مصر الحاسم في العالم العربي لا يحتاج الى برهان وأنه ينبغي لنا بالتالي ان نقنع بانتقاد مسعى الرئيس المصري ليس إلا. أما أنا فاني دافعت عن الرأي المضاد. وقلت ان مصر هي بلا ريب قطعة كبرى في رقعة الشطرنج العربية، الا انها لا تكون قوية حقا الا بشعبية وشرعية نظامها. وعلى أية حال فانه لا ينبغي لنا ان نراعي جانبها بأي ثمن كان. وبناء عليه، فانني رحت أدعو الى خوض هجوم مواجه ومتواصل ضد السادات وضد كافة الدول التي تؤيده. ولاقتناعي بتعاطف ٩٩ بالمئة من "قاعدة" المقاومة معي، فانني رحت أندد بالحسن الثاني وسلطان عمان قابوس، ثم وبخاصة، بالرئيس السوداني اللواء النميري. ذلك أنني علمت أن هذا الأخير بلغ به الحماس "لجملة ٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر الصغيرة، الى حد أنه ابلغ وزارته في الغداة بأنه قرر استباق السادات الى اسرائيل! غير أن الوزراء نجحوا، وان بجهد جهيد، بردعه عن ذلك...

كنت أعلم ان حملتي ستذهب ـ في مرحلة أولى على الأقل ـ عكس التيار. فالرأي العام العالمي في مجمله. كان بالغ التأثر بجرأة السادات الباهرة. وبرغم قناعة العديد من الحكومات ـ ولا سيما حكومة الولايات المتحدة ـ بأن المبادرة المصرية محكومة بالفشل، الا أن خليفة عبدالناصر ظهر في عيون الأميركيين والأوروبيين كبطل السلام. بل أن جزءا من العالم العربي أغري بمسعى الرئيس الذي يعد بتلبية المطامح والتطلعات بوسيلة أخرى غير الحرب.

وبدت حسابات السادات في فترة أولى وكأنها صحيحة. فقد كسب الرأي العام العالمي، وحيد جزءا من الرأي العام العربي، ودعم مركزه في مصر. ذلك أنه كان قد توصل بالفعل الى اقناع مواطنيه، بأن كافة الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهونها ستختفي بسحر ساحر، اذا ما استقر السلام في الشرق الأوسط. فقد استغل بمعنى من المعاني بؤس المصريين وتعبهم من الحرب ليكسبهم الى جانب المغامرة التي يقوم بها. كما امتص النقمة داخل جيشه بأن جعله يعتقد بأن مرد قصور تجهيزه ونقص تسلحه هو سوء مقاصد ونوايا الاتحاد السوفياتي، وانه ليس من خيار آخر أمام مصر، سوى وضع حد نهائي لنزاعها مع اسرائيل.

غير أن التجربة تولت البرهنة على ان السادات بنى استراتيجيته، في الواقع، على رمال متحركة. فالتعاطف الذي استثاره لدى الرأي العام العالمي، والاميركي بخاصة، لم يتمكن من هز السياسة التوسعية الاسرائيلية ولا أفلح في انتزاع الشعب الاسرائيلي من تصلب حكامه، بل على العكس من ذلك، فانه بذهابه الى القدس اكد رأي بن غوريون الذي كان يقول أن الزمن يعمل لمصلحة اسرائيل، وان العرب سينتهون الى الاذعان، فهل توصل، الى ما كان يعتزمه من تدمير "الحاجز النفسي" الذي يفصل بين الشعبين.

ولو كان الأمر كذلك فعلا، اذا لأدى لنا خدمة بالغة السوء. اذ ما الذي سيدفع الاسرائيليين بعد أن يشعروا بالأمن والأمان ويرتاحوا الى السلامة، الى طلب تسوية سريعة. في حين ان جو الانفراج الذي سيركن اليه العرب، سيؤدي بهم الى الركون، وينهي حالة التعبئة في صفوفهم.

واعتقادي ان السادات يفهم النوابض النفسية لدى الاسرائيلي والفلسطيني المتشابهين فيما عانياه من آلام ـ أحدهما بسبب النازية والثاني بسبب الاستيطان والاستعمار ـ وفي عزمهما على بلوغ اهدافهما أيا كان الثمن، بل وبتصلبهما القاطع الذي يتجاوز تصلب قادتهما. وقد اخطأ السادات حين ظن أن الاسرائيليين سيكونون أكثر تساهلا من مناحيم بيغن ووزرائه، أو أن الفلسطينيين يمكن أن يقبلوا بما هو أقل مما يطالب به مسؤولو منظمة التحرير الفلسطينية. ويمكن القول، في المطلق، ان الفلسطينيين والاسرائيليين وجدا ليتفاهما، الا أنه ينبغي لهما قبل ذلك وعي الحقائق والاعتراف ببعضيهما والتسليم بوجوب التعايش على ذات الأرض.

كما أخطأ السادات حين تخيل لدى توقيعه اتفاقيات كامب ديفيد ان باستطاعته اعداد تسوية دون اشراك منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا. بحيث انه حين تقدم الى الساحة دون شركائه الطبيعيين، اضعف مركزه أكثر مما كان ضعيفا. فقد كان له أن يعلن انه يتكلم باسم كافة العرب. الا أنه لم يكن لدى بيغن أي سبب يدعوه للوثوق به. فأية ضمانة تضمن لرئيس الوزراء الاسرائيلي ان تكون التسوية مع السادات. موضع قبول وتطبيق من قبل المحاربين الآخرين؟ وهكذا فان بيغن اكتفى بتقديم مشاريع يمتد تحقيقها على عدة سنوات، أي المدة التي تتيح له أو لخلفائه بأن يمتحنوا قدرة الرئيس المصري على فرض ارادته على العالم العربي. أما بالنسبة لسيناء، فان اسرائيل عرضت ان تجلو عنها تدريجيا. وأما الجولان فانه وضع بين مزدوجين بانتظار ان تقرر سوريا الجنوح الى التفاوض. وأما الضفة الغربية، فان حقبة الخمس سنوات التي عرضها بيغن من الاستقلال الذاتي المزعوم لا تنص، لا على انسحاب القوات الاسرائيلية منها ولا على استقلال اراضيها، ولا حتى ربطها بالاردن.

وعندما أصر السادات خلال المحادثات مع بيغن في الاسماعيلية في شهر كانون الأول ــ ديسمبر ١٩٧٧، على أن يعترف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير، فان رئيس الوزراء الاسرائيلي سأله: "واذا كان علي ان أسلم بمثل هذا الحق، فماذا تعطوني في المقابل؟" فأجاب الرئيس المصري "الاعتراف الحقوقي بدولة اسرائيل". ووفقا لأقوال شهود عيان، فان زعيم الليكود سخر منه وقال: "لا حاجة لي باعترافكم، فاليهود موجودون بلا نزاع وبقوة القانون في أرض أجدادهم.." بل ان بيغن اجبر السادات ــ وتلك مذلة ما بعدها مذلة ــ على أن يتضمن الاعلان النهائي للمؤتمر مصطلحي "يهوذا والسامرة" التوراتيين للاشارة الى الضفة الغربية العربية.

وباختصار فان السادات لم يحصل على شيء، ولا كان في مستطاعه الحصول على شيء من بيغن. ليس بسبب ايديولوجية بيغن التوسعية وحسب، بل ولأن، ميزان القوى الذي بات مائلا الى مصلحة اسرائيل بفضل الأميركيين "أصدقاء" الرئيس المصري، لم يعد يسمح بذلك. وحول هذه النقطة الجوهرية والحاسمة افترقنا عن السادات بأكثر مما اختلفنا معه حول مبدأ زيارته لاسرائيل.

وخلافا للقناعة المنتشرة في الغرب، فاننا لسنا معادين بصورة مطلقة وفي كافة

المناسبات والظروف، للمفاوضات المباشرة. اذ لا ينبغي النسيان بأن هدفنا النهائي هو العيش في وفاق مع اليهود، داخل فلسطين موحدة ديمقراطية. وبديهي أننا لا نستطيع تحقيق هذا الهدف بالتفاوض مع الصخور. والقرار الذي اتخذه المجلس الوطني الفلسطيني في شهر آذار ـ مارس ١٩٧٧ بهذا الصدد واضح: فنحن مستعدون للتعاون مع اليهود التقدميين والديمقراطيين أي أولئك الذين يعترفون بحقنا في تقرير المصير سواء أقاموا داخل أو خارج الأراضي المحتلة. وهذا هو قصارى ما نستطيع التسليم به اليوم، بالنظر الى ميزان القوى المحلي والشرق أوسطي والدولي. اما المضي الى ما وراء هذه الحدود، فانه لا يمكن أن يقود الا الى الاستسلام كما أثبتت ذلك نتائج مؤتمر كامب ديفيد بوضوح لا يقبل الجدل.

وكان على الرئيس المصري ان يتوقف عن مواصلة التفاوض بمجرد ان عرف نوايا ومقاصد محادثيه. ولو أنه قدم استقالته بعد أن يحرر بيانا بفشله ويندد بتعنت وسوء نية القادة الصهاينة وعجز كارتر عن اكراههم على مزيد من الليونة، اذن لكان استعاد كرامته وشرفه. ولكنت حينذاك أول من يذهب الى القاهرة لتهنئته ومطالبته بالبقاء في السلطة. فالخطأ امر انساني، اما الاستمرار به، في هذه الحالة فهو اجرام. لكن السادات بدفاعه عن مصالح انانية ضيقة فضل التضحية بالسلام الحقيقي، على مذبح كبريائه.

أما نحن، فاننا كنا منطقيين ازاء مبادئنا وتحليلاتنا. فرفضنا الذهاب الى "اجتماع الخبراء" الذي عقد في القاهرة في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٧، قبيل "قمة" الاسماعيلية. ويومها انتقد القادة المصريون رفضنا هذا بمراءاة ونفاق. زاعمين انه يسهم في فشل الاجتماع. وكجواب على ذلك، أورد فقط ما قاله رئيس الوزراء اللبناني السابق، رشيد كرامي للسادات: "فاذا كنتم لم تتوصلوا الى رفع العلم الفلسطيني فوق مينا هاوس (الفندق الذي اجتمع فيه الخبراء) فكيف يمكن أن تأملوا في جمع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية وممثلي اسرائيل مواجهة؟".

وبالمقابل فاننا وافقنا بحماس على الاشتراك في مؤتمر طرابلس الذي عقد في ٢ كانون الأول ـ سبتمبر بمبادرة من العقيد القذافي، وبهدف تشكيل جبهة من البلدان العربية المعادية لمبادرة السادات تضم ليبيا والجزائر وسوريا والعراق وجمهورية اليمن الديمقراطية.

غير ان المؤتمر كاد ينتهي الى فشل كبير اذا لم يتوصل المشاركون فيه الى تأليف جبهة موجهة ضد السياسة المصرية. ولهذا فانني جمعت جميع القادة الفدائيين الحاضرين لأحثهم على اعداد برنامج مشترك، نقدمه الى رؤساء الدول العربية ونطلب اليهم بالحاح الا ينفصلوا قبل أن يخلقوا جبهة تتأسس على اجماعنا. ووافق حبش على أن تدعو الوثيقة الى انشاء دولة فلسطينية "على كل جزء من الوطن المحرر". ووافقت انا، بمقابل تنازله هذا، على أطروحته التي تقضي بألا تتفاوض منظمة التحرير الفلسطينية مع اسرائيل وألا تعترف بها قانونيا.

وهكذا ولد "برنامج طرابلس" الذي أعلن على أساسه قيام جبهة "الصمود والتصدي" في العاصمة الليبية برغم انسحاب الوفد العراقي احتجاجا.

ونتيجة لخطأ السادات وحلفائه الأميركيين، فانه لم يكن لنا خيار غير تصليب مواقفنا. وماذا يسعنا أن نفعل غير ذلك؟ أفنحتذي أمثولة الرئيس المصري، انه حتى لو زحف قادة المقاومة جميعا، وعلى رأسهم ياسر عرفات وجورج حبش، على قدمي بيغن يتضرعون له بأن يمنحنا دويلة، فان زعيم الليكود سيلقيهم في السجن، هذا اذا لم يعدمهم. فمهما فعلنا ومهما قلنا، فان الصهاينة ينظرون الينا كأعداء خطرين. فهل تراهم يريدون السلام؟! انهم لم يستجيبوا لمطالب الحد الأدنى التي تقدم بها السادات، مع أنهم يثقون به. ونحن نعلم أنهم لا يسعون الى عقد تسوية عادلة طالما ظلوا يتمتعون بدعم الولايات المتحدة المطلق، التي تزود اسرائيل بكل ما تحتاج اليه "من الرغيف الى المدفع" وفقا لتعبير السادات نفسه.

كيف اذن الى الوثوق بالأميركيين!؟ صحيح أن كارتر كان أكثر صراحة ولا ريب من أسلافه فيما عني حق الشعب الفلسطيني في وطن، ولكن مصطلح "أرض وطنية" أو حيز وطني الذي استخدمه، هو مصطلح غامض ـ فلا هو حدد مكان الأرض أو الأقليم الذي سوف يسند الينا ولا نطاقه ولا حدوده ـ ومع هذا فانه لن يلبث أن ينكفيء على عقبيه ويتراجع فلا يتكلم عن حقوقنا ولا عن الحيز القومي ولا عن اشتراكنا في أية مفاوضات محتملة. وسريعا ما أدركنا أنه ليس لنا أن ننتظر منه أي شيء. فالرئيس الأميركي مقيد بالتعهدات التي قطعها سلفه فورد، ووزيره كيسنجر ازاء اسرائيل بموجب ثلاثة نصوص سرية أدخلت على شكل ملاحق في اتفاقية سيناء الموقعة في أول أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٥. وتشترط هذه النصوص عدم جواز توسيع مؤتمر جنيف وفتح بابه أمام مشاركين جدد ،

دون موافقة اسرائيل وبأنه لا يحق للولايات المتحدة من جهة اخرى، ان تتصل بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل أن توافق المنظمة على قرار ٢٤٢.

وقد طلب الينا وزير الخارجية الأميركية ـ سايروس فانس ـ خلال جولته في الشرق الأوسط في شهر آب ـ اغسطس ١٩٧٧ ـ بواسطة مختلف البلدان العربية ـ ان نوافق على القرار المذكور كما هو، مع احتمال ان ننشر اعلانا بتحفظاتنا على محتواه. فأجهضنا العرض باعتبار أن مسعى من جانب واحد كهذا، لن تكون له قيمة قانونية. وقد تقدم بعض رفاقي باقتراح مضاد ينص على تعديل نص القرار بالصيغة التي أقرته فيها المنظمة الدولية الا أن واشنطن رفضت ذلك بدورها. وفيما عناني شخصيا، فانني كنت ضد هذه المساومة. وكان رأيي هو انه اذا كان مجرد الحوار مع الولايات المتحدة يقتضي تنازلا منا بحجم قبول منظمة التحرير الفلسطينية بالقرار ٢٤٢، فأية تنازلات اضافية أخرى سوف تطلب منا مقابل القبول بنا في مؤتمر جنيف والاعتراف بحقوقنا الوطنية!. فالمنحدر عميق ويمكن ان ينزلق بنا بعيدا جدا.

وكان ينبغي لنا في رأيي ألا نبتعد عن خط مسلك حلفائنا ولا سيما الاتحاد السوفياتي، والبلدان العربية الصديقة وعلى رأسها سوريا. فنحن نملك القليل من الاوراق في هذه اللعبة. واحدى هذه الاوراق هي "رفضنا الايجابي" للقرار ٢٤٢ ـ ثم أنه أولى بنا أن نخلط أوراقنا بأوراق حلفائنا، بدلا من أن نتخلى عنها للخصم. فبهذا فقط نستطيع تغيير ميزان القوى تدريجيا لصالحنا. ونحن نجد دائما المتسع اللازم من الوقت لنقوم بتنازلات في ظرف يكون من شأنه ان يجعلها مجزية وذات مردود.

وجاءت "أوراق العمل" التي أعدت في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٧٧ على يد الولايات المتحدة واسرائيل لفتح الطريق أمام الدعوة الى مؤتمر جنيف، لتؤكد قناعاتي. فالأميركيون والاسرائيليون سعوا الى تحجيم المشكلة الفلسطينية وتقليصها الى مجرد مشكلة لاجئين وتعويضات وفقا لحرفية وروحية القرار ٢٤٢.

ولم يكن للاجراءات "الجغرافية" التي توخوها للمؤتمر من هدف سوى اقامة مفاوضات موازية بين الدولة الصهيونية من جهة، وبين مصر وسوريا والأردن من جهة ثانية. بحيث تقود الى معاهدات سلام منفصلة . وها هي اتفاقيات كامب

ديفيد تؤكد تحليلاتنا. وهكذا فان شعار الامبريالية البريطانية، فرق تسد، بات شعار المستوطنين الاسرائيليين وشركائهم الاميركيين.

ثم أنهم استبعدوا الاتحاد السوفياتي، حليفنا الأول على المسرح الدولي، عن مسيرة السلام لكي يتمكنوا من تحقيق مشروعهم دون أن يعيقهم عائق.. وأنا لست من أولئك الذين يعتقدون ان اسرائيل مجرد جرم يدور في فلك الولايات المتحدة، أو أن واشنطن، على العكس من ذلك، تنفذ سياسة القادة الصهاينة حرفيا. كما لا اعتقد ان مصالح البلدين متطابقة دائما وأبدا، غير اني أرى ان كارتر مضطر ومكره، برغم تبايناته مع الصهاينة، الى أن ينصاع لارادة بيغن. فهو يتعرض من جهة أولى لضغط اللوبي الصهيوني، بينما يجد من جهة اخرى الدول العربية صاحبة الاحتياطي النفطي تراعيه وتداريه. فقد تعهدت العربية السعودية عام ١٩٧٧ بتموين الولايات المتحدة بالطاقة لمدة خمس سنوات، وتعهدت بأن لا تلجأ الى سلاح النفط، الذي استخدمته استخداما ضعيفا عامي ٧٣ ـ ١٩٧٤.

الا أن استراتيجيي واشنطن يرمون الى أبعد من ذلك بكثير. فهم يريدون انشاء حزام واسع خاضع لسيطرتهم يمتد من ايران الى المغرب مرورا بمصر. والحال هو أن عددا من حكومات هذا الامتداد الجغرافي لا تواتيهم ولا تناسبهم. وهم يحلمون باستبدال شيوخ النفط بأنظمة أكثر عصرية وبالتالي أكثر صلابة بحيث تعمد الى توزيع أفضل للثروة القومية. لهذا فانني لن أدهش اذا ما عمدوا الى تدبير انقلابات، أو ـ اذا لم يتح لهم ذلك ـ استغلال قوة الجيوش الايرانية والعمانية. وبهذا يتوصلون الى ضمان المصالح الاميركية في هذه المنطقة من العالم لفترة طويلة. ثم في الحين نفسه، الى ضمان مصالح اسرائيل، التي تظل مهما قيل عنها وفيها، الأداة المتميزة للامبريالية الاميركية. غير أن اعظم القوى العالمية هذه، ليست مطلقة القدرة والسلطان. فهي تملك، ولا ريب، وسائل فرض ارادتها على هذه الدولة العربية أو تلك، وان تؤثر على سياسة رئيس كالسادات أو غيره، ممن يظل شاغلهم الأول هو تأمين بقاء أنظمتهم أو استقرارها. لكن ماذا تراها تستطيع أن تفعل ضدنا نحن الفلسطينيين، ونحن لا وطن لدينا ولا دولة ولا نظام ندافع عنه؟ انها لا تستطيع أن تؤثر علينا لأنه ليس لدينا ما نخسره، بل على العكس فان من مصلحتنا مواصلة المعركة بأية وسيلة من الوسائل التي نحوزها. أو لسنا نشبه في ذلك الريح؟ فنحن نعصي على الامساك ، حاضرون في

كل مكان وفي لا مكان، ونكيف في الحين نفسه حرارة الجو المحيط. وانما يخشى جانبنا لأن لدينا ملكة ارسال هبات الرياح الساخنة والباردة على مجمل الشرق الأوسط. وبديهي اننا لن ندع كارتر وبيغن والسادات يدبرون سلما مزعوما يصادر مستقبل الشعب الفلسطيني. ولا بد لنا من أن نذكر الاسرائيليين بأن لا طائل من استبعادنا من التسوية، وان نذكر العرب بأن من الخطر التضحية بنا على مذبح مصالحهم الانانية. وقد كان هذا هو الهدف السياسي المزدوج للعملية التي اطلق عليها اسم "أوتوبيس تل ابيب" والتي انتهت في الحادي عشر من آذار ١٩٧٨ ـ رغما عنا ـ بالمذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها مدنيون اسرائيليون ومعهم مناضلونا الفلسطينيون.

وقد كان طابع الهجمة التي اعددناها طابعا عسكريا تماما في الأصل. فكان على حوالي خمسة عشر فدائيا ان ينزلوا سرا على احد شواطئ تل ابيب حيث يفترض ان يلتقيهم اعضاء المقاومة في الداخل. وعندها تتجه المجموعة نحو مخيم تدريب الجيش في الضاحية القريبة وتحاول الاستيلاء على جنود الحامية بهدف مبادلتهم بعدد مواز من المعتقلين الفلسطينيين. غير أن الطبيعة شاءت غير ذلك. لأن عاصفة منعت الزورقين اللذين يقلان فدائيينا من بلوغ مكان الموعد المضروب بحيث ان احد الزورقين عاد ادراجه بينما حمل الموج الزورق الثاني وأرساه على بعد ٤٠ كيلو مترا الى الشمال من تل ابيب على مقربة من مرفأ حيفا. وهكذا فان الفدائيين لم يبلغوا ساحل فلسطين المحتلة الا بعد تأخير بلغ ثلاثة أو أربعة أيام.

كانت المجموعة المكونة من ١١ شخصا وتقودها مناضلة شابة نجت من جحيم تل الزعتر، تدعى دلال المغربي. وكانت دلال تناهز العشرين من العمر وتفيض تفاؤلا وفرحا بالحياة وتوقدا. وما كانت تثير المحنة التي مرت بها الا لتعبر عن استفظاعها للحرب. الا أنها كانت مقتنعة ايضا بضرورة نقل المعركة الى الاراضي المحتلة. واذ وجدت نفسها تواجه وضعا لم يكن في الحسبان فانه كان عليها أن تضطلع بمسؤولية ارتجال خطة بداية للعمل الذي ينبغي للمجموعة التي تقودها تنفيذه. وليس لي أن أدلي بحكم على قرارات اتخذت في ظروف استثنائية في صعوبتها، الا اني استطيع ان اشهد على اساس المعلومات الواضحة التي تلقيناها بأن دلال المغربي ورفاقها ارادوا تلافي أية اراقة للدم . وكانوا يعرفون تماما أن

موت المدنيين سيستغل كالعادة، من قبل اسرائيل لتقديم المقاومة على انها "عصابة قتلة". غير أنهم لاعتقادهم بأن الصهاينة لن يجرؤوا على اطلاق النار على مواطنيهم، فانهم استولوا على اوتوبيس وركابه ليؤمنوا لأنفسهم جواز مرور حتى تل ابيب.

وقد اسهبت الصحافة العالمية وأفاضت في سرد ما تلى ذلك من أحداث، فقد أقامت دوائر الأمن الاسرائيلية حواجز على طرق حيفا ـ تل ابيب قبل ان تفتح النار ببرودة أعصاب تامة على الاوتوبيس فتردي بعض الركاب وعددا من الذين كانوا يمرون بسياراتهم في الاتجاه المقابل. وهكذا فقد تسببت بحدوث المعركة ومن ثم بالمجزرة التي تلتها، وكان ان سقطت دلال المغربي وثمانية من رفاقها بعد أن طالت المجزرة ثلاثين من الاسرائيليين.

والحق أن الخاتمة المأساوية التي انتهت اليها المغامرة لم تدهشني. ففي عمليتين مماثلتين سبقتا عملية تل ابيب ـ كعملية الالعاب الاولمبية في ميونيخ لعام ١٩٧٢ على سبيل المثال ـ فضلت الحكومة الصهيونية التضحية بمواطنيها على أن تدعنا نسجل نجاحا سياسيا. وقد فسرت غولدا مئير في الفترة التي كانت ترأس فيها الحكومة الاسرائيلية، بواعث هذا السلوك غير الانساني بقولها انه اذا كان عليها أن تذعن حتى ولو مرة واحدة لابتزاز الفلسطينيين، فان شيئا ما لن يمنع هؤلاء من المطالبة ذات يوم بأن يسلم رئيس وزراء اسرائيل اليهم مقابل الافراج عن مجموعة من الرهائن.

وقد يكون في المستطاع عند الضرورة ان نفهم ان لم نوافق على هذه الحسابات التي لا وازع فيها. الا ان صلافة القادة الاسرائيليين تبلغ شأوا شاهقا عندما تضج باتهامنا بأننا المسؤولون الوحيدون عن موت المدنيين الابرياء. أو عندما يطالبون، كما فعلوا أثر قضية اوتوبيس تل ابيب، كافة الحكومات الغربية التي اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية بأن تقطع كل علاقة معنا. أو عندما يتبنى الكنيست في آذار ـ مارس ١٩٧٨ بالاجماع (باستثناء أصوات الشيوعيين) قرارا يبيح للدوائر الاسرائيلية قتل الفلسطينيين في كل مكان من العالم تحت غطاء "مكافحة الارهاب". ان اضفاء الطابع الشرعي والمؤسسي على اغتيال الاعداء السياسيين، بل وأفراد جماعة قومية مناوئة هو امر لا سابق له في التاريخ حتى في ظل الأنظمة الفاشية ـ اللهم الا السهو والخطأ.

وكذلك فان عملية ١١ مارس ــ آذار اتخذت كذريعة للقيام بعد ذلك بثلاثة أيام بهجمة واسعة النطاق ضد جنوب لبنان. وأقول ذريعة لأننا كنا قد تلقينا قبيل ذلك بشهرين تقريرا من اصدقائنا في الولايات المتحدة يطلعنا على مشروع بيغن بتدمير بنانا التحتية العسكرية والسياسية خلال حرب خاطفة تدوم بين ٢٤ و٤٨ ساعة. وقد صممت العملية لايقاع هزيمة بالفلسطينيين تكون من التمام والكمال بقدر ما كانت عليه الهزيمة التي اوقعتها بالبلدان العربية في حزيران ــ يونيه ١٩٦٧. وكنا نعلم كذلك ــ منذ مطلع تشرين الثاني ــ نوفمبر ١٩٧٧، ان السلطات الصهيونية تلح على حكومة بيروت لكي لا يدخل الجيش اللبناني الى المناطق الحدودية التي يشرف عليها صنيعتهم المقدم سعد حداد وميليشيات اقصى اليمين المسيحي. ولم تحقق اسرائيل بغزوها وباحتلالها لجنوب لبنان الا جزءا ضئيلا من اهدافها. فقد نجحت ولا ريب في الحفاظ حتى خريف عام ١٩٧٧ على الأقل، "بحزام أمني" على طول الحدود بعرض نحو من عشرة كيلومترات. كما حصلت على مرابطة قوات الامم المتحدة في جنوب لبنان. الا ان بيغن فشل في المسألة الاساسية. فالهزيمة الصاعقة التي حلم بها لم تحدث: ذلك ان اداء فدائيينا كان باعتراف غور ــ رئيس الاركان الاسرائيلي يومها ــ اداء ملفتا للنظر وفعالا في أغلب الاحيان. وبرغم الطيران والمدفعية الثقيلة والقنابل الانشطارية والثلاثين ألف جندي من المشاة، فان الجيش الاسرائيلي احتاج الى ثمانية أيام ليستنفذ مقاومة الفدائيين البطولية. ثم ان هؤلاء انسحبوا بانتظام ولم تقع بهم سوى خسائر طفيفة في الارواح والعتاد.

والأمر الأساسي هو ان الفلسطينيين لم يلقوا " حزيرانهم " الذي وعدوا به. فقد بقيت قواتهم سليمة ولم تمس وسائل عملهم، كما تشهد بذلك العمليات شبه اليومية التي لا تزال تنصب على المحتلين منذ ذلك الوقت. فلا وجود "القبعات الزرق" في جنوب لبنان ولا الحفاظ على الرقع الانعزالية على طول "الجدار الطيب" مع اسرائيل، منع فدائيينا من بلوغ أهدافهم.

وما تسعى اليه اسرائيل في الأساس وقبل كل شيء، هو استمرار عدم الاستقرار في لبنان وتواصل النزاعات المسلحة فيه. فمن شأن هذا الوضع في نظرها، أن يستنفذ خصومها ــ السوريين والفلسطينيين واليسار اللبناني ــ في معارك هامشية توليها امكانية التدخل باسم "الدفاع عــن المسـيحية" في كل مرة

يواجه فيها بيغن مشكلة سياسية أو دبلوماسية شائكة كتلك التي طرحتها مبادرة السادات "السلمية".

غير ان الرئيس المصري فقد، قبل ذهابه الى قمة كامب ديفيد، جزءا هاما من التعاطف الذي اجتنبه والذي أوهمه بأنه سيضع حدا نهائيا للنزاع العربي ـ الاسرائيلي. فغزو اسرائيل لجنوب لبنان، جعله اضحوكة. أفلم يصرح لدى وصوله الى القدس في تشرين الثاني ١٩٧٧ انه لن تكون هناك حرب بعد بين (الدولة الصهيونية) وجيرانها. وها ان المصريين لاحظوا انه لم يف بأي وعد من الوعود التي قطعها وانه ليس ثمة سلام متوقع وان الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية تتدهور في وادي النيل.

ومذ ذلك الوقت والولايات المتحدة وعدد من الدول العربية تحاول انقاذه. فقد عرضت العربية السعودية تنظيم مؤتمر "قمة" تحت رعايتها يعيد مصر الى الحظيرة العربية مشجعة على مصالحة السادات مع سوريا ومع منظمة التحرير الفلسطينية. غير أن الرئيس المصري رفض الاقرار جهارا بخطئه ليعلن فشل استراتيجيته الدبلوماسية. الا انه تعهد بعدم الموافقة على اجراء لقاءات مصرية اسرائيلية في القاهرة أو في القدس وطرد البعثة العسكرية الاسرائيلية التي كانت مقيمة في العاصمة المصرية.

بيد أنه قام بمحاولتين لتلافي القطيعة الافلاسية مع بيغن، جاءت الأولى في شهر تموز ـ يوليو في مؤتمر ليدز حيث تمثل بوزير خارجيته، كما جاءت الثانية حين قبل بالاشتراك في اجتماع كامب ديفيد. فالرئيس الاميركي ايضا تراوده أوهام حول عقلية رئيس الوزراء الاسرائيلي. وكلاهما يعتقدان بأن زعيم الليكود ـ الذي تأصل فيه الارهاب والذي لا يؤمن بغير العنف ـ أهل لأن يتحول عن تعصبه المتصوف.

ان اتفاقات كامب ديفيد تشكل كارثة بالنسبة للقضية العربية الا انها كشفت اقنعة الاميركيين وحلفائهم الاسرائيليين بصورة نهائية. ولعل السادات لن يفقد السلطة قريبا. فأصدقاؤه العرب والاميركان ووكالة المخابرات المركزية (السي. آي. اي.) بخاصة، تسهر على أمن نظامه بانتظار ان تجد له بديلا له بعض القيمة. غير أنه ألحق خلال ذلك بالقضية العربية أذى لا يمكن حسبانه وذلك لقيامه ،

بجملة ما قام به، باستبعاد خيار الحرب. وقد قال لي الفريق سعدالدين الشاذلي، الذي كان رئيس اركانه ابان نزاع تشرين الاول ـ اكتوبر ١٩٧٣، بعد ان تخلى عن وظيفته كسفير لمصر في لشبونة، في تموز ـ يوليو ١٩٧٨، ان الخلاف مع الاتحاد السوفياتي افسد الطاقات العملياتية لدى الجيش المصري، لجيل واحد على الأقل.

الفصل العاشر

عندما تقوم

الدولة الفلسطينية

دقت ساعة تقديم كشف الحساب. اذ قد مضت ثلاثون سنة على خروج الشعب الفلسطيني، وعشرون سنة على تأسيس فتح. ولا بد لي من الاعتراف، وبعمق المرارة بأن وضعنا اليوم هو اسوأ من الوضع الذي دفعنا عام ١٩٥٨ الى انشاء حركتنا. بل اني اخشى حقا ان يكون لا بد من عود على بدء.

وبالطبع فانني لا انكر النجاحات المسجلة. فانا فخور بشعبي وبالتضحيات التي بذلها ليحقق انتصارات في ساحة المعركة ضد عدو لم تعد قوته الساحقة بحاجة الى برهان. وانا اعتز بالمنزلة التي تحتلها منظمة التحرير الفلسطينية على المسرح الدولي. فقد اعترفت بها غالبية الدول كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وانتزعت مقعد مراقب في منظمة الامم المتحدة. فاذا تجاوزنا هذا، قلنا ان قدر شعبنا لا يزال بعد سنوات من الكفاح المضني والدائب قدرا موجعا. فهو لا يزال بلا وطن ولا هوية. بل الحق هو اننا عدنا القهقرى. فاسرائيل لم تعد تحتل نصف الاراضي الفلسطينية، بل كلها وجميعها. والولايات المتحدة ضامنة المشروع الصهيوني، وسعت نفوذها في العالم العربي وعززته. ومصر اكبر البلدان العربية واعظمها نفوذا انهارت بالكامل في كامب ديفيد.

ثم ان الحركة الفلسطينية لم تعد تملك الوسائل التي كانت تحوزها عام ١٩٦٧. فالهزيمة العربية لم تكن تمنعنا حينذاك من مواصلة وتكثيف الحرب الفدائية لنؤكد للصهاينة بأن المعركة لم تنته برغم انتصارهم الباهر، رافعين بالتالي معنويات الجماهير العربية مطلقين بصيص نور في ظلمات الهزيمة والاحتلال. كانت لدينا ملاذاتنا التي نستطيع الانطلاق منها لشن غاراتنا ضد اسرائيل. والمهابة التي كنا نتمتع بها كانت تتيح لنا ان نمارس تأثيرا حاسما في بعض الاحيان على سياسة مختلف العواصم فالانظمة العربية لم تكن تحبنا بالامس بأكثر مما تحبنا اليوم، الا انها كانت تخشانا يومها على الاقل، وتأخذ آراءنا بعين الاعتبار. واستطيع ان اقول بكل تواضع بأننا اسهمنا في الاعداد النفسي لحرب تشرين الاول ــ اكتوبر ١٩٧٣ واندلاعها، كما لم نكن غرباء عن نزاع حزيران ــ يونيه ١٩٦٧.

وقد عرفت فتح برغم التقلبات والعوائق الموضوعة في طريقها، ان تحافظ على استقلالها الذاتي وان تتلافى الخطأ الرئيسي الذي ارتكبه من سبقونا على رأس الحركة الفلسطينية . وبهذا نكون قد سجلنا انتصارا بالنظر الى تبعيتنا المالية

واللوجستيكية ازاء البلدان العربية. ثم اننا حرصنا على توزيع مواردنا وعلاقاتنا مستفيدين من التناقضات السياسية الملازمة لوضع المنطقة، فاننا توصلنا في بعض الاحيان الى ممارسة ارادتنا بحرية.

غير انه اذا كان من الصحيح اننا تلافينا الكثير من الاخطاء التي ارتكبها من سبقونا، فان اخطاءنا نحن، وان كانت اقل جسامة، قد الحقت بنا احيانا اضرارا لا سبيل لاصلاحها. فقد عقدنا تحالفات مع انظمة عربية واعتبرناها تحالفات استراتيجية، لنكتشف بعد ذلك، وبعد ان ندفع الثمن، بأنها ليست سوى تحالفات عارضة جدا. فكان ان جرعنا ذلك خيبات امل شديدة وفشلا غير متوقع. فقد حسبنا مثلا، ان مصر ستظل الى جانبنا الى الابد!

ويضاف الى هذا التقدير الخاطىء لحقائق العالم العربي حسابات خاطئة. فغالبا ما كنا نعتقد ازاء ظرف من ظروف النزاع في بلد عربي ما، ان من الخير لنا ان نحافظ على علاقاتنا مع النظام القائم على حساب علاقاتنا بالجماهير الرافضة له، مزدرين بذلك المبدأ الذي كان ينبغي له ان يقود خطانا، وأعني المبدأ القائل ان المصدر الحقيقي لقوتنا انما يكمن في التعاطف الشعبي التي نثيره بأكثر مما يكمن في الدعم الذي توليناه اياه الحكومات على مضض. صحيح اننا اقمنا احيانا علاقات سرية متكتمة موازية مع حركات المعارضة، الا انها لم تكن تتناهى الى علم الرأي العام، فكان يخرج بانطباع مفاده اننا نطبق سياسة انتهازية.

بل لنقل بصراحة، ان دخول فتح عام ١٩٦٨ الى منظمة التحرير الفلسطينية قد افسد عليها طابعها الثوري. اذ ان اكثر ما كنا نخشاه حينذاك وما كان يثير تحفظاتنا قد حدث: فحركتنا غلبت عليها البيروقراطية. وخسرت من النضالية ما ربحته في "الاحترام": فقد بتنا نتذوق التفاوض مع الحكومات ورجال السلطة ونأخذ آراءهم وتمنياتهم بعين الاعتبار. ولخشيتنا من ان يتهمنا الدبلوماسيون المحترفون، الحسنو النوايا الى هذا الحد او ذاك، "بالارهابية" و"التطرف" و"المغامرة" فاننا كنا نسرع لنثبت بأي ثمن كان، "اعتدالنا" و"مرونتنا" و "روحية التوفيق والمصالحة" لدينا، ناسين ان ذلك لا يحتل من حيث المبدأ، مرتبة الاولوية في دعوتنا ورسالتنا.

ومذ ذاك بات الراؤون ينظرون الينا كسياسيين باكثر مما ينظرون الينا كثوريين. وبطبيعة الحال فان هذه الطفرة التي حلت بصورتنا قد اضرت بنا في وسط الجماهير العربية التي كانت تنتظر منا شيئا اخر. الا انها لم تعوضنا بتعاطف له شأنه بين الاوروبيين والامريكيين. ويقينا اننا بخلاف اعدائنا الصهاينة، لم نكن نملك لا الوسائل ولا التجارب الضرورية في حقل العلاقات العامة. غير ان السبب الرئيسي لفشلنا انما يكمن في جهلنا للمجتمع الغربي ولتعقيد الاليات الديمقراطية التي تحكمه. فنحن لا نحسن في غالبية الاحيان التمييز ــ وخاصة بالنسبة للولايات المتحدة ــ بين السياسة الامبريالية التي تمارسها حكومة من الحكومات وبين البواعث الشريفة في ذاتها، والتي تصوغ وتقولب موقف الشعب ازاءنا. ان امثال هذا الخلط والتشويش هو ما يفضي بنا الى اتخاذ مبادرات من شأنها ان تزيد من نفور الرأي العام الغربي منا، او الى اللواذ بسلبية اليأس.

كما اننا من الجهة الاخرى لم نعرف كيف نوحد الحركة الفلسطينية او على الاقل، ان نحد من تجزئتها بأقصى ما يمكن. وبطبيعة الحال فان هناك اسبابا موضوعية تمنعنا من تحقيق هدفنا هذا. لقد تصورنا فتح لدى تأسيسها كجبهة تهدف الى تجميع الفلسطينيين بدون تمييز لايديولوجيتهم او لنزعاتهم السياسية. ولم يكن في وسعنا اكراه قادة اصليين كجورج حبش او نايف حواتمة على الانضمام الى صفوفنا او منعهم من انشاء منظماتهم ــ اللهم الا ان نعمد الى استخدام القوة، الامر الذي لا يمكن ان يرد في تصورنا. غير انه كان في مقدورنا تماما ان نعارض معارضة حازمة وجود فصائل تختلقها الانظمة العربية اختلاقا لتستخدمها كأدوات سياسية او عسكرية. واذا كان يستحيل اليوم ــ نظرا الى ميزان القوى الحالي، ان نطلب استبعاد هذه الفصائل من منظمة التحرير الفلسطينية او حلها بالكامل. الا انه كان في وسعنا اظهار معارضة حازمة لدى انشائها بعيد هزيمة حزيران ــ يونيه ١٩٦٧ اي في الفترة التي كانت الانظمة العربية فيها مهزومة وضعيفة ويصعب عليها مقاومة ارادتنا.

ثم ان هذه المنظمات ــ الدمى لم تضعف المقاومة الفلسطينية بتقليص تماسكها واضعاف فعالية عملها، وحسب، بل انها لعبت في بعض الاحيان دورا سلبيا وحاسما. فقد افلحت، بالمزايدات التي كانت تقوم بها، والدعم الاجنبي الذي

كانت تستفيد منه، في اقتيادنا الى مغامرات كان بوسعنا تلافيها.

صحيح اننا تمكنا في اكثر من مرة، مقاومة الضغوط التي كنا نتعرض لها. فبعيد دخول قوة الردع العربية الى لبنان في خريف عام ١٩٧٦ مثلا، حاولت منظمة الصاعقة السورية الولاء، ان تقنعنا بتصفية فصائل الرفض التي كان بعضها مرتبطا بالنظام العراقي. وكان قوام الاقتراح ان تتولى عملية التصفية فتح او الصاعقة او ان تتولى المنظمتان معا القيام بهذه العملية مشتركتين. فرفضنا الصيغ الثلاث المقترحة جميعها، ليس لاننا لا نزال متعلقين بالحوار الديمقراطي بين المنظمات الفلسطينية وحسب، بل لاننا لا نريد ان نتورط في عمليات تسوية الحسابات بين الانظمة العربية المتنافسة.

ثم اننا نحن العرب سريعون عموما الى الصراخ باتهام الامبريالية كلما انفجرت معركة هامشية تنعطف بنا عن هدفنا الرئيسي، هدف محاربة الصهاينة، او بصورة اكثر عمومية عن محاربة الاستعمار. الا ان هذا لا يمنعنا مطلقا لسوء الحظ، من الانزلاق بكثير من الخفة الى المعركة التي نندد بطابعها المضر. وهكذا مثلا، فقد تواجه السوريون والفلسطينيون مثلا بالسلاح في لبنان طيلة اشهر، امام رضى وارتياح الامريكيين والاسرائيليين العظيم.

غير ان شططنا وعوراتنا واخطاءنا لا تكفي لتفسير الموقف الدقيق الذي تجد المقاومة نفسها فيه. ولا بد ان يقال ابراء لنا اننا اضطلعنا بمهمة لا سابق لها في صعوباتها في التاريخ. فنحن نقود حركة لا يمكن ان تتمتع، بحكم الاشياء، بقواعد متماسكة. فالشعب الذي نسعى لتعبئته وقيادته هو شعب مبعثر جغرافيا متغاير نفسانيا، ومتنافر سياسيا. فالفلسطينيون يعيشون في ظل انظمة سياسية واجتماعية مختلفة واحيانا متناقضة، وتؤثر بالضرورة على تصوراتهم، وهم يخضعون للنزاعات التي تقوم بين الدولة والمقاومة بحيث انه ليس لهم في هذه الحالة سوى خيار واحد هو خيار الانضواء طواعية او كرها تحت الاطروحات الرسمية او اللواذ بحياد ظاهر ليفلتوا من ردود الفعل الانتقامية المحتملة.

ونحن مجبرون من جهتنا على مهاودة الحكومات العربية لنعفي مواطنينا من هذه المخاطر، ومضطرون لاغماض اعيننا عن السلوك غير الودي الذي كنا لولا هذه الناحية سننهض ضده . وهذا الامر يحد بصورة ما من حريتنا في

الحركة. وعلى هذا فانه لا ينبغي الاندهاش من حجم ومدى المواقف الظاهرة التناقض التي نتبناها وفقا لهوية من نتفاوض معه من هذا النظام العربي او ذاك. فنحن اشبه بالمسافر الذي ينتقل من نصف المعمورة الى نصفها الاخر فيضطر لاصطحاب امتعة الشتاء وثياب الصيف ليحمي نفسه من المناخات الشديدة الاختلاف. وتلك ليست انتهازية كما يتهمنا البعض، بل تدابير حماية ذات.

وثمة تجارب مريرة تدعونا الى التروي. وأحب هنا ان اورد كمثال للتدليل على قولي، حادثا لا يزال يتسلط على ذاكرتي. فعلى اثر نزاع حدث بين عبد الناصر وبين الملك سعود عام ١٩٥٧، طلب عبد الناصر من المجلس التشريعي الفلسطيني في غزة الذي لم يكن سوى زائدة ملحقة بالسلطة المصرية، ان يتبنى قرارا ينتقد العاهل السعودي. فكان ان رد الملك لفوره بطرد المعلمين الفلسطينيين العاملين في مملكته. وهكذا فان ٧٠,٠٠٠ شخص بينهم اطفال ونساء فقدوا دورهم ومواردهم مرة اخرى - هذا مع ان الملك سعود كان يعلم جيداً ان مجلس غزة التشريعي لم يكن اكثر من منفذ للتعليمات الواردة من القاهرة. ولا ريب في ان انتقامه كان سيكون اقسى الف مرة فيما لو ان النقد جاءه من منظمة ذات استقلال ذاتي كفتح، اقول هذا لأشير الى مدى الجهود التي نبذلها لنتلافى الصدام مع هذا النظام العربي او ذاك عندما لا يكون موضوع اختلافنا معه مسألة حاسمة او قضية اساسية بطبيعة الحال.

وقد نكون اقرب الى الافهام اذا قلنا ان كل فلسطيني يطمع قبل كل شيء الى ملاذ أمين بالغا ما بلغ صغره، والى قنصلية يستطيع اللجوء اليها اذا ما اوذي او هدد. افنكون اقل اهلية وأحقية من مواطني امارة من امارات الخليج؟ ان غالبية الدول العربية ترفض منح مواطنيتها للفلسطينيين، لا بأس. فنحن لا نشكو ذلك ولا نتظلم منه. اذ لعلها تولينا خدمة على غير قصد منها. لانها تسهم بذلك في الحفاظ على اصالتنا وتعزز عزمنا على ايجاد وطن. وفي اليوم الذي نفلح فيه في اقامة دولة في أراضي الضفة الغربية وغزة المحررة، فاننا سنبدأ بتوزيع بطاقات الهوية، ومن الممكن ان يقرر كثير من الفلسطينيين ان لا يقيموا في الدولة الجديدة لاسباب عملية. لكن ما هم! فهم يستطيعون ان يعيشوا في البلد العربي الذي يختارون بدون قلق ولا عقد! اذ انهم سيعاملون أخيرا على قدم المساواة مع كافة من يملكون جواز سفر يعرضونه للناظرين. واذا ما شعروا لسبب

او لآخر بتهديد يتهددهم، فانهم يستطيعون ابدا ان يحزموا امتعتهم ويعودوا الى فلسطين حيث لا يعاملون كمنبوذين. ان نصف الشعب اللبناني يعيش خارج وطنه الا ان أحدا لم ينكر عليه حقه في اقامة دولة.

ان الحجج التي يقدمها اولئك الذين ينكرون علينا هذا الحق هي " شبهة" حجج. فهم يقولون ان دويلة فلسطينية ليست سوى كيان غير قابل للحياة اقتصاديا. وهم يتناسون ان عددا من الامم الشابة التي نالت استقلالها منذ نهاية الحرب العالمية الاخيرة لا تملك ما نملكه من نعم ومزايا. فلدى الفلسطينيين يد عاملة وفيرة وفائض من التقنيين والكوادر الذين انهوا دراساتهم العليا في الخارج، وبرجوازية غنية بالرساميل، وهم يستطيعون الاعتماد على معونة مالية ضخمة تأتيهم من الدول المنتجة للنفط، ونحن على اي حال اكثر " قابلية للحياة" من دولة اسرائيل نفسها .

ويذهب اعداؤنا كذلك الى أن دويلة كهذه ستصبح قاعدة شيوعية مزروعة في قلب المنطقة ومنطلقا ينطلق منه الارهابيون لمناوشة اسرائيل وازعاجها. ان هذه الادعاءات مضحكة، فنحن كما يعلم القاصي والداني لسنا بشيوعيين، والماركسيون بيننا قلة قليلة. بل اننا جميعا، وكائنا ما كانت نزعاتنا السياسية، وطنيون غيورون يدافعون رغم الكافة وضدها عن الاستقلال والسيادة الوطنية العتيدة.

ثم هل ترانا نشكل تهديدا لاسرائيل. اليس ان من اكثر الامور مفارقة، باديء ذي بدء، ان تزعم القوة العسكرية الرئيسية في المنطقة، والتي تهدد عشرين دولة عربية مجتمعة، بأن الدويلة الجارة تستطيع ان تتهددها في أمنها ووجودها؟ بل اني اقول من جانبي انه لن تكون هناك نشاطات تخريبية فلسطينية في اليوم الذي يكون لدينا فيه دولة نقودها، ثم وبخاصة، نحافظ عليها. وسيختفي التطرف من صفوفنا، وحتى من صفوف "جبهة الرفض". ان جورج حبش مثلا لن يتخلى عن افكاره، ولكن معارضته ستحترم المؤسسات وتوقر القوانين التي سيختارها الفلسطينيون. وهو لن يلجأ الى العنف انتصارا لآرائه. ولن يتصرف بصورة مختلفة عن قادة التشكيلات الاسرائيلية التي تنكر الصهيونية مثل الحزب الشيوعي راكح أو التي تنكر شرعية دولة يهودية (مثل احبار ناطوراي كارتا). وهذه ليست مجرد أمنية بل كلام عارف مجرب . فانا لا اعرف عمق الوطنية والحس

بالمسؤولية لدى رفاقي وحسب، بل ولدى اخصامنا السياسيين في داخل الحركة الفلسطينية.

واذا كان للعقل ان يتغلب على مطامع المتطرفين الاسرائيليين في الاراضي، واذا كان السلام ـ اعني السلام العادل لا سلام كامب ديفيد ـ سيقوم، فان من الطبيعي ان تنفتح الحدود بين اسرائيل وجيرانها العرب. ومن الطبيعي والمنطقي ان يبدأ تيار مبادلات، ثم ينمو، بين كيانين يكمل بعضهما بعضا في اكثر من جانب. وكيف يمكن ان يكون الامر بخلاف ذلك ـ فيما يعنيني على الاقل ـ عندما يكون مئات الآلاف من الفلسطينيين يعيشون في اسرائيل (داخل حدود عام ١٩٤٨) ويتطلعون الى اقامة جسر مع اشقائهم الذين يعيشون في الضفة الغربية وغزة والمملكة الهاشمية وفيما وراء ذلك في مختلف الدول العربية؟

ونحن بصفتنا قادة الحركة الفلسطينية، لسنا معارضين من حيث المبدأ للحدود المفتوحة. فنحن لا نزال أوفياء لمثلنا ـ او لحلمنا وفقا لتعبير ياسر عرفات ـ الذي ينص على توحيد فلسطين في دولة علمانية ديمقراطية تضم اليهود والمسيحيين والمسلمين الذين يضربون بجذورهم في هذه الارض المشتركة. والحال هو ان الحدود المفتوحة تقود حتما الى الحوار ثم الى التفاهم بهدف قيام مثل هذا التوحيد بحيث يحل بدلا من المواجهة القومية الصراع الطبقي الذي سيتفجر بين الجماهير العربية واليهودية من جهة وبين المستغلين والامبرياليين من جهة اخرى، اي بين هذه الجماهير وبين اولئك الذي ولدوا الحقد بين شعبينا قبل ان يقودهما الى الحرب.

ان العائق الذي يحول دون مثل هذا التطور لا يقف في معسكرنا، لان من لا يريد السلام الشامل والنهائي هو حكومة اسرائيل. كما ان من يخشى الحدود المفتوحة هم قادتها المتطرفون الذين ينظرون الى هذه الحدود كتهديد لتماسك الدولة الصهيونية وسياستها التوسعية. وعلى العكس من ذلك، فانهم بتعميقهم الهوة بين شعبينا وبتعهدهم للتوترات، يؤمنون طواعية الاسرائيليين ويغذون خوفهم ويواصلون في الحين نفسه استيطان واستعمار ما يطلق عليه السيد بيغن اسم "يهودا والسامرة".

ان ما اوردناه وما أسلفناه لا يبعث على التفاؤل. ويقينا ان دوري كقائد ثوري

هو ان أبث الامل وأعزز بواعث شعبنا على مواصلة المعركة. الا ان واجبي بالاضافة الى ذلك هو عدم خداعه، وتغذيته بالاوهام التي يفوق خطرها خطر خيبات الامل الموجعة. وأنا اقولها بصراحة: اني لا أعتقد ان جيلي سيحظى بفرحة رؤية ولادة دولة مستقلة حتى على جزء متناهي الصغر من فلسطين الا انني اوضح بأنني ارى شأن شعبي كله تقريبا ـ بأنه لا يمكن تصور دولة ذات سيادة حقيقية الا اذا أسسها وحكمها اولئك الذين قادوا حركة التحرر الوطني منذ عشرين سنة. كما ولا يمكن اقامة سلام دائم بدون ممثلي الشعب الفلسطيني الحقيقيين.

وبطبيعة الحال، فانه ليس ثمة أمر محتوم مسبق، فهناك من التقلبات والمتغيرات في الظرف الدولي وفي ظرف المنطقة أكثر مما يمكننا من التنبؤ بالمستقبل. ولكنني أتمنى ان تكذب الاحداث تشاؤمي على المدى القصير أو المتوسط. واذا كنت لا أستثني امكان انتصار قريب الا انني لا استبعد فرضية حدوث كارثة ايضا، وأعني شلل او تدمير حركتنا وتلك لن تكون اول مرة ولا آخر مرة تنجح القوى الرجعية الجاهلية في اجهاض ثورة.

غير ان شعبنا سيلد ثورة جديدة وينجب حركة أعظم بأسا من حركتنا وقادة اكثر دراية وتجريبا وأشد خطرا ـ من ثم ـ على الصهاينة. فارادة الفلسطينيين التي لا ترد في مواصلة المعركة كائنا ما كانت الظروف، هي حقيقة لا تأتيها الريبة من بين يديها ولا من خلفها. بل انها ارادة تمليها طبيعة الاشياء. ونحن عازمون على البقاء كشعب وسيكون لنا ذات يوم ـ وطن.

الفصل الحادي عشر

من الولادة... الى الشهادة

... كأنهم لم يقطعوا حبل سرته على الساحل اليافوي للمتوسط، فظل صلاح خلف (ابو اياد) مشدوداً الى مسقط رأسه (يافا)، حتى فاضت روحه في (قرطاج) على الساحل التونسي للمتوسط، حين قضى برصاص الغدر والخيانة مثل الكثيرين من رفاقه في اللجنة المركزية لحركة فتح.

وبين الولادة في اليوم الاخير من شهر آب عام ١٩٩٣، والشهادة في الدقائق الخمس الاخيرة، قبل انتصاف شهر كانون الثاني عام ١٩٩١، ثمانية وخمسون عاماً من التاريخ الفلسطيني المتفجر باللوعة... وبالانتصار. فابو اياد كان، في حياته، يحمل فلسطين كاملة، ويحلم بفلسطين كاملة. وعندما اخترق الرصاص جسده اصاب فلسطين كلها. لكن (الوطن) الذي ناضل ابو اياد لاستعادته وقضى من اجله يمد شهداءه بالحياة الجديدة مستلهما من تاريخهم ومن وصاياهم عزيمة البقاء ووسيلة الديمومة.

سيكون لنا، ذات يوم، وطن"... قالها ابو اياد ومضى، بعد قرابة ثلاثة عقود من النضال في قواعد المقاومة وفي قلب قيادتها... وها هو الوطن يتشكل الان حجرا حجرا، وشجرة شجرة، ومدينة مدينة، محتفظا برائحة الشهداء وعبق تاريخهم.

لم يكن صلاح خلف الشهيد الفلسطيني الاول، ولن يكون الاخير، لكنه واحد من الرموز النضالية المهمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر، وهو، بلا شك، واحد من اهم رموز الثورة الفلسطينية وقادتها البارزين. وفي سيرته من الولادة الى الشهادة تلخيص للعذاب الفلسطيني وللانجاز الفلسطيني ايضا...

النشأة

ولد صلاح خلف في يافا في ٣١-٨-١٩٣٣، وكان والده القادم اصلا من غزة موظفاً متوسطاً في السجل العقاري في المدينة.

والتحق الطفل (آنذاك) باحدى المدارس الابتدائية لتلقي التعليم الذي كان والده حريصاً على توفيره لابنائه مثل سائر الاباء الفلسطينيين.

وفي تلك الفترة تعرف التلميذ صلاح خلف على طبيعة الصراع بين العرب واليهود من خلال احتكاكه بأبناء (المعسكر الآخر) ، والتحق باشبال النجادة وهو

فتى يانع، وكانت منظمة النجادة في ذلك الوقت تنظيما يسعى لمقاومة تهويد فلسطين، ويدرب اعضاءه باستخدام البنادق الخشبية نظراً لندرة السلاح.

وفي تشرين الاول عام ١٩٤٥، جرب الفتى صلاح خلف الاعتقال لاول مرة، عندما داهمت شرطة الانتداب منزل اسرته واصرت على اعتقاله بتهمة الاعتداء على تلميذ يهودي.

لكن يوم الثالث عشر من عام ١٩٤٨، هو اليوم الاكبر تأثيراً في ذاكرة (ابو اياد)، ففي هذا اليوم هاجرت عائلته من يافا الى غزة هرباً من القوات الصهيونية، وقد ركب صلاح خلف مع والديه واشقائه وشقيقاته ورهط من المهاجرين في مركب غادر ساحل يافا متجها الى غزة تحت وابل من نيران القصف اليهودي.

وفي غزة التي وصلها بعد رحلة صعبة رأى فيها الفجيعة على وجهي ابوين فقدا طفلهما ثم القيا بنفسيهما في البحر، بدأ صلاح خلف حياة جديدة، والتحق باحدى المدارس الثانوية ليكمل تعليمه، وعمد بالتعاون مع شقيقه الاكبر عبدالله الى العمل سرا لمساعدة الوالد الذي كانت مدخراته تنفذ دون ان يستطيع توفير مصدر للدخل.

البدايات

عام ١٩٥٢ توجه صلاح خلف الى القاهرة لدراسة اللغة العربية في جامعة الازهر، وهناك بدأ نشاطه النضالي المنظم، وتعرف على "الطالب" ياسر عرفات، وتعاون الاثنان في النضال من خلال رابطة الطلاب الفلسطينيين ثم من خلال الاتحاد العام لطلبة فلسطين الذي تمكن عرفات من ان يصبح رئيسا له.

وفي تلك المرحلة واجه صلاح خلف الكثير من الصعوبات مع الاجهزة الامنية في مصر، لكنه تمكن ايضا، وهو ما زال طالبا، من اللقاء مع الرئيس جمال عبد الناصر ليعرض عليه مطالب الطلبة الفلسطينيين من مصر ومن جامعة الدول العربية.

ثم واصل صلاح خلف نشاطه حتى بعد عودته الى غزة ليعمل مدرساً لفترة من الزمن، قبل ان يسافر الى الكويت ليعمل في مدارسها معلماً للغة العربية. وكان قد حصل على دبلوم تربية وعلم نفس من جامعة عين شمس المصرية.

القيادة

وفي الكويت بدأ مع صديقه ياسر عرفات وفاروق القدومي (ابو اللطف) ومناضلين آخرين بناء تنظيم حركة فتح. وبالاتصال مع مناضلين اخرين في بلدان مختلفة، كان ابرزهم (ابو مازن) الذي كان مقيما في قطر، تمكن (المؤسسون) من بناء الحركة التي اصبحت في السنوات اللاحقة اكبر فصيل فلسطيني ورائدة النضال الوطني التحرري الفلسطيني. وكان ابو اياد منذ ذلك الوقت وحتى استشهاده يوصف بأنه الرجل الثاني في فتح، وفي منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد تفرغ ابو اياد للعمل النضالي من خلال حركة فتح وتسلم مواقع وانجز مهمات صعبة في كل مواقع تواجد الثورة في القاهرة ودمشق وعمان وبيروت. فشارك في معركة الكرامة عام ١٩٦٨، كما شارك في قيادة العمليات طيلة سنوات الحرب اللبنانية، وبقي في بيروت اثناء الحصار وغادرها مع المقاتلين عام ١٩٨٢.

وخلال وجوده في قيادة الثورة، تسلم ابو اياد العديد من المسؤوليات الحساسة ومنها رئاسته لجهاز الامن المركزي للثورة الفلسطينية، ولذلك فقد تعرض للعديد من محاولات الاغتيال التي نجا منها بفضل يقظته ودرايته بهذه المحاولات، لكن رصاصات حمزة ابو زيد التي قتلته جاءت مفاجئة تماما، ومخالفة لكل التوقعات. فكيف تمت الجريمة ومن يقف وراءها؟

جريمة قرطاج

من المعروف والبديهي ان جهاز الاستخبارات الاسرائيلي "الموساد" كان يريد رأس ابي اياد بأي ثمن، وقد حاول من خلال عملائه، اكثر من مرة اغتيال (الرجل الثاني) لكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل.

ومن المتوقع ان تكون اجهزة استخبارية اخرى قد حاولت الوصول الى ابي اياد وانهاء حياته، لكن الامر لم يكن سهلاً حتى في بيروت اثناء الحرب الطويلة بسبب يقظة الرجل واحتياطاته الامنية التي تنبه الى اهميتها القصوى بعد استشهاد رفاقه الثلاثة كمال ناصر وكمال عدوان وابو يوسف النجار على ايدي الكوماندوز الاسرائيليين في عملية فردان عام ١٩٧٣.

ومن المؤكد ان هناك اطرافاً اخرى كانت تريد اغتيال ابي اياد، وخاصة جماعة ابو نضال التي تمكنت من ذلك بعد تجنيد حمزة ابو زيد وبعد سنوات كثيرة من العداء المعلن والتهديد المتلاحق لحياة ابي اياد. وربما كان احد اهم اسباب نجاح جماعة ابو نضال في تنفيذ هذا (الهدف) يكمن في اسلوب الشهيد ابو اياد الذي كان يفضل استمالة اعدائه الفلسطينيين وتجنيدهم للعمل معه ووضعهم ضمن حراساته. لكن ايا من هؤلاء لم ينقلب على ابي اياد، بل كان القاتل حمزة ابو زيد احد حراس (ابو الهول) -هايل عبدالحميد- الذي قضى ايضاً في تلك الدقائق الخمسة المشؤومة، كما قضى ايضا ابو محمد العمري مدير مكتب ابو اياد.

ومن التحقيق الذي تم مع القاتل تبين انه كان اصلاً مقاتلاً في حركة فتح، وانه خدم في صفوف الحركة في بغداد وتونس بعد خروجه من الاردن حيث تقيم عائلته في مخيم "الوحدات" في عمان. وقد تم تجنيد القاتل للعمل مع تنظيم جماعة ابو نضال اثناء وجوده في بولندا، ثم جرى تسفيره الى يوغوسلافيا واليونان والفلبين اثناء فترة اختباره من قبل فتح-المجلس الثوري، وهو الاسم المستخدم لجماعة ابو نضال.

وفي ليبيا، حيث التقى حمزة ابو زيد مع مسؤولين في تنظيم ابو نضال في مواقع مهمة على ما يبدو، جرى تكليفه باغتيال ابو اياد، وطلب منه العودة الى تونس للعمل في حراسات ابو الهول.

وبالفعل عاد حمزة الى تونس حيث استطاع الالتحاق بحراسات ابو الهول، وكان يخطط لتنفيذ التعليمات التي تلقاها من المسؤولين في جماعة ابو نضال باغتيال ابي اياد اثناء زيارته لمنزل ابي الهول.

وقد انتظر حمزة ابو زيد خمسة اشهر لحدوث هذه الزيارة، لكنها لم تحدث، فطلب اجازة من ابي الهول للسفر الى ليبيا بحجة كاذبة وهي رغبته في رؤية شقيقته التي لم يرها منذ اعوام طويلة والتي قال انها كانت في ذلك الوقت تزور ليبيا.

ولم يكتف ابو الهول بمنحه الاجازة بل امر بتزويده بتذكرة السفر وبالفعل سافر ابو زيد الى ليبيا حيث التقى مع المسؤولين في جماعة ابو نضال وابلغهم بان ابا اياد لم يزر منزل ابي الهول طيلة الشهور الخمسة التي انقضت اثناء وجوده في

تونس. وحاول ابو زيد -حسب روايته- ان يقنع جماعة ابي نضال بأن العملية لن تنجح، لكنهم لم يقتنعوا، وهددوه بايذاء اسرته اذا لم ينفذ (المهمة). وهكذا عاد ابو زيد الى تونس لينتظر بعض الوقت قبل ان تواتيه الفرصة ويتمكن من اغتيال الشهداء الثلاثة، في ليلة الرابع عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٩١، عندما حضر ابو اياد لزيارة ابي الهول في منزله الواقع في ضاحية قرطاج في العاصمة التونسية.

وكان مقررا ان ينفذ ابو زيد عملية الاغتيال ثم يهرب الى وسط العاصمة حيث ينطلق من هناك الى الحدود التونسية-الجزائرية ويدخل الاراضي الجزائرية متجها الى احدى القرى حيث يكون نفر من جماعة ابو نضال في استقباله، لكنه لم يستطع الهروب بعد ان نفذ (المهمة) داخل المنزل وليس امام مدخله، وانتهى القاتل معتقلاً لدى الامن التونسي الذي سلمه الى الامن الفلسطيني الذي قام بالتحقيق معه في تونس قبل اعدامه في اليمن بقرار من القضاء الثوري الفلسطيني بطريقة اختلفت حولها الروايات.

وفي تقريره لكيفية ودوافع الجريمة يقول محمد عودة (ابو داود) عضو المجلس الثوري لحركة فتح وصديق الشهيد ابو اياد ان صلاح خلف كان على رأس قائمة المطلوبين للتصفية من قبل "الموساد" الاسرائيلي، وقد لجأ "الموساد" الى بعض الفلسطينيين والعرب من العملاء المرتبطين بجهاز الاستخبارات الاسرائيلي من اجل تنفيذ هذه الجريمة، وفي النهاية تم اختيار فلسطيني كان يعمل في المقاومة الفلسطينية وقد قست عليه الظروف فتم تجنيده لصالح "الموساد". وحتى يغطي نشاطه التحق مع تنظيم ابو نضال ـ صبري البنا ـ.

ويضيف ابو داود ان قوى امريكية وعربية تكالبت على (ابو اياد) لاختيار ساعة الصفر لاغتياله. وكان ذلك مع بداية الحرب ضد العراق لمنع (ابو اياد) من اي نشاط قد يؤذي الامريكيين.

ويبدو هذا التقرير منطقيا في ضوء التقييم الموضوعي للظروف التي كانت سائدة عام ١٩٩١.

على اية حال فان ابو اياد هو القائد الذي اكد قبل سنوات من استشهاده "سيكون لنا، ذات يوم، وطن" صدق النبوءة وان لم يستطع رؤية تحققها.

ملحق

اعترافات القاتل (*)

وصف حمزة أبو زيد بدقة تفاصيل ارتكابه لجريمة قتل (أبو اياد وأبو الهول وأبو محمد العمري) في تونس، كما وصف أيضاً المحطات المهمة في تاريخه الشخصي، وكيفية تجنيده للعمل مع جماعة ابو نضال.

جاء ذلك في اعترافاته التي تضمنتها محاضر التحقيق الذي اجراه معه القضاء الثوري الفلسطيني. وقد نشرت هذه الاعترافات في مجلة "المجلة" على اربع حلقات متسلسلة من التاسع من كانون الاول عام ١٩٩٢ وحتى الثلاثين من الشهر ذاته.

وهذه اعترافات ابو زيد كما رواها...

اسمي حمزة محمود عبدالله ابو زيد، من السافرية، يافا، ومن مواليد ١٩٦٣ من سكان الوحدات ـ الاردن. والدتي حلوة قاسم ابراهيم، متوفية، منذ عام ١٩٧٠ ابان احداث ايلول (سبتمر) في الاردن. تواجدت في بولندا عام ١٩٨١ حيث خرجت من بغداد من عند هواري الى هنغاريا بسبب اغلاق مكاتب الاخير في بغداد. وبعد وصولي الى هنغاريا سافرت وزملائي ومنهم احمد العزة الى تشيكوسلوفاكيا ومنها الى بولندا حيث الحياة رخيصة وكذلك لوجود صديقي وابن دورتي عبد الرحمن النبراوي (عمر)، في بولندا كنت اترقب الفرص على امل الهجرة الى اي بلد.

مكثت في بولندا بدون عمل وكنت اتردد على الطلبة وامضي اوقاتي في صحبتهم ومرافقتهم لتمضية الوقت وخلال تلك المدة وفي شهر ١٠-١٩٨٧، تعرفت على ناصر راشد مسؤول المجلس الثوري في بولندا والذي التقيت به اول مرة بمعهد الاعلام الكائن في منطقة "لوج". كانت مناسبة اللقاء بيني وبين ناصر راشد وعبد الرحمن نبراوي الذي كنت اجلس بجانبه ، وبعد ذلك اصبح ناصر يرد

* توخيا للدقة قرر الناشر ان تعرض هذه الاعترافات كما هي، دون التدخل فيها، حتى بتصحيح اللغة.

علي السلام في كل مرة يشاهدني بها، وتكرر ذلك وخاصة من خلال ترددنا اليومي على مقهى مسرح "التياتر".

ناصر يعرف انني فلسطيني ومقيم في بولندا بدون "فيزا" ولا امارس اي عمل وكذلك لست طالبا جامعيا، وتوطدت بعدها العلاقة وخاصة عندما كنا نلتقي يوميا في المطعم السوري حيث كان ناصر يتردد على نفس المطعم، في احدى المرات وبينما كان يتناول الطعام ومعه مجلاته سألته: ممكن ان تعطيني مجلة، فاعطاني المجلة، وسألني اين تسكن؟ اجبته بشارع "البروميسكيكو" وبعدها قرأت المجلة واعدتها له، وتكرر بعد ذلك لقاؤنا اليومي دون مواعيد، واثناء جلوسنا أخذنا نتناقش بالسياسة وحول التنظيمات الموجودة على الساحة الفلسطينية، وفي احدى المرات وبينما كنت جالسا وناصر في زاوية مقهى التياتر دار بيننا نقاش بالنسبة للتنظيمات الفلسطينية، وسألني ما رأيك بتنظيم ابو نضال؟ اجبته تنظيم مثله مثل باقي التنظيمات الفلسطينية لكن عليه تشويهات وتساؤلات وخاصة بالنسبة لعملية اغتيال (السرطاوي)* عندما قتل كان الى جانبه موشي ارينز ولماذا لم تقتلوا الاخير؟

قال لا لم يكن ارينز بالمنطقة وتابع، نحن قتلنا السرطاوي لانه تقرب من الاسرائيليين. واستمر بعدها النقاش حول الانتفاضة والقضية الفلسطينية وبعد ذلك وكالعادة اصبحنا نتقابل بدون مواعيد في مقهى "التياتر".

في منتصف شهر ١٢-١٩٨٧ وكان الوقت ظهرا دخلت لمقهى التياتر فشاهدت ناصر راشد يجلس الى جانبه شاب من الجبهة الديمقراطية اسمه (ناصر جليلي) وفي تلك اللحظات خرج الاخير وانا جلست بدلا منه الى طاولة ناصر راشد ودار بيننا نقاش عادي سياسي عن فلسطين وفجأة قال: سأقترح عليك موضوعا وان شاء الله تتقبله، ونحن كفلسطينيين وخاصة من لا ينتمي لاي تنظيم لا يقدم لوطنه شيئا. اجبته انني مللت العمل الفدائي لانني جربت وفشلت، فقال لي: انا سأعرض عليك، وانت عندك خلفية عني من خلال قراءاتك "المجلة" انني من جماعة ابو نضال. ومباشرة عرض علي الالتحاق بتنظيم ابو نضال ـ المجلس الثوري. قلت له اعطني مهلة افكر فيها واشوف وانا انسان لا اعرف اذا كان هذا

* احد قادة فتح .

التنظيم جيدا ام لا، وما الذي يقنعني انه تنظيم جيد؟

اجاب: ستتأكد مع الايام وستعرف لماذا نحن مضطهدين ومطاردين في كل انحاء العالم وهذا دليل على اننا مطلوبين وكوننا مطلوبين فنحن نعمل صح ولولا هذا لما طاردنا احد.

وانتهت هذه الجلسة على ان نلتقي ثانية بعد يومين، وفي الموعد المحدد تقابلت مع ناصر راشد في مقهى "التياتر" وأثناء جلوسنا سألني عن قراري بالنسبة للالتحاق بتنظيم ابو نضال. اجبته وخاصة انني بحاجة للمعرفة والاطلاع، على ما يقوم به التنظيم وخاصة انني اعرف انه يصفي جسدياً ويقتل. فرد ناصر بقوله سأزودك بمجلات صادرة عن التنظيم لتتعرف منها اكثر على تنظيمنا. واصبح بعد ذلك يزودني باستمرار بمجلات قديمة وبعضها جديد صادرة عن تنظيم ابو نضال وانا بدوري كنت اقرأها. وبعد الانتهاء من كل مجلة يناقشني ناصر بكل ما ورد فيها وخاصة بكلمة الثورة التي يعتبرونها اساسا عندهم وكنت اجيب عن تساؤلاته ومناقشاته واصبحت بالنسبة لناصر راشد نصيراً لجماعة ابو نضال.

في شباط (فبراير) ١٩٨٨ التقيت مع ناصر راشد في التياتر فاصطحبني مباشرة الى مقهى محطة قطارات "لوج"، واثناء جلوسنا اعطاني استمارة ذاتية لتعبئتها وطلب مني احضار ست صور شخصية لي، وكانت الاستمارة الذاتية عبارة عن خمس صفحات تتضمن الاسم والبلد الاصلي ومكان وتاريخ الميلاد وعدد افراد الاسرة واسماءهم والعنوان الدائم والتنظيمات التي سبق ان التحقت بصفوفها ونبذة عن حياتي. عندما انتهيت طلب مني كتابة تقرير مفصل عن حياتي واوصاني ان احضر له في اللقاء الثاني ست صور شخصية لي، ثم وضع الذاتية التي كتبها في جيبه وودعني موصيا اياي ان اكتب التقرير المفصل بقلم اسود. وفعلا في مكان سكني كتبت وبالقلم الاسود قصة حياتي كلها وتصورت ست صور وعندما قابلت ناصر ثانية اعطيته التقرير والصور الست، وضمنت التقرير مختصرا عن عملي السابق في حراسات بيت الاخ ابو الهول وايضا عملي بالحراسات في مكتب التحقيق في حمام الشط والتحاقي السابق في حركة فتح في عام ١٩٨٢.

كان تسليمي التقرير لناصر في مقهى "التياتر" وقد حدد لي بعد ذلك اللقاءات

الدورية كل ثلاثة ايام ما بين الساعة الثانية عشرة والثانية عشرة والربع ظهرا بالمقهى الكائن في نقطة تلاقي شارعي سشكيكو وبرومنكيكو. ويمتاز هذا المقهى بقلة رواده وهم من كبار السن.

بعد ذلك استمرت اللقاءات حسب المواعيد المحددة وفي كل مقابلة كان نصار يزودني بالمجلات الخاصة بتنظيم ابو نضال ـ المجلس الثوري. وكذلك يحدثني عن المسلكيات الخاطئة لزمرة عرفات وتارة يحدثني بأن الذي تمت تصفيتهم على يد جماعة ابو نضال كانوا عقبة في طريق النضال الفلسطيني، وزودني بمجلة خاصة صادرة عن تنظيم ابو نضال وفيها صور الخمسة الذين قتلوا في البقاع ـ لبنان ـ والذين تم قتلهم من قبل جماعة عرفات ولا اذكر اسماء هؤلاء الخمسة وانما جماعة ابو نضال تعتبر يوم مقتل هؤلاء الخمسة تاريخا ويفردون لذلك اليوم ذكرى سنوية.

استمرت علاقتي بناصر راشد كما ذكرت. في مارس (اذار) ١٩٨٨ دخلت المستشفى لاجراء عملية لاصبع قدمي اليمني وسبق ذلك ان حدث شجار قبل وبعد خروجي من المستشفى مع الطالبين محمد بحوز وايهاب الاغا اللذان اتهماني بسرقتهما، وبسبب ذلك انقطعت عن لقاء ناصر راشد الذي كان على علم بدخولي المستشفى وايضا بمشاجرتي مع الاثنين السابق ذكرهما.

استمريت بمقابلة ناصر راشد بشكل منتظم ووفق المواعيد وهي الاماكن التي يحددها لي. في ايار (مايو) ١٩٨٨ القى البوليس البولندي القبض عليّ اثناء وقوفي مع بعض معارفي امام معهد اللغة وذلك بعدما شاهدني الطالب عاصم والذي ابلغ زميله محمد بحوز وايهاب الاغا عن مكان وجودي واللذين بدورهما اتصلا بالشرطة التي حضرت والقت القبض علي ونقلت الى قسم "لوج" حيث تم استجوابي عن علاقتي بعبد الرحمن النبراوي وابو علي الشرط وابو بشير الذي سبق وان زار وارسو، كذلك اتهمت انني كوماندو فلسطيني، فأجبت انني فلسطيني وبدون وطن وليس لي علاقة بالتنظيمات الفلسطينية.

وفي تلك اللحظات انشغل المحقق عني فاخرجت قطعة النقود التي كنت استخدمها للاتصال الهاتفي وكذلك القيت بالمفاتيح خلف الخزانة وبعد ذلك تابع المحقق البولندي استجوابه لي والتدقيق حول علاقتي بالنبراوي وابو علي الشرط

وابو بشير ثم سئلت عن البطاقة التي زودني بها ايمن ابو عيشة، وهي مزورة وتشهد انني طالب فأجبت انني وجدتها بالشارع وانني دونت المعلومات عليها.

بعدما اقفل المحضر اصطحبوني الى قسم الجوازات وخاصة بعدما فتشت سترتي وتم العثور على جواز سفري واكتشاف انني مقيم غير شرعي في البلد. بعد ذلك حجزت مدة ٤٨ ساعة.

بعدما اخذت جواز سفري غادرت القسم ومنه لبيت عبد الرحمن النبراوي وبعد مقابلتي الاخير اخبرته بما حصل معي وبعد ذلك ذهبت الى مقهى "التياتر" ولم اجد احد. ومباشرة ذهبت لمكان سكني في منطقة "كوشاكا" حيث حضر بعدها لبيتي ناصر راشد وابلغته بكل ما حصل معي وانه طلب مني مغادرة البلد خلال ٤٨ ساعة، فاجاب ناصر لا تهتم سوف ندبر امورك واسفرك الى يوغسلافيا. وفي نفس اليوم اصطحبني ناصر الى السفارة اليوغسلافية حيث حصلت منها على تأشيرة دخول وضعت على جواز سفري اليمني وبعدها قطع لي ناصر تذكرة سفر بالطائرة الى يوغسلافيا واعطاني مبلغ ٣٢٠٠ دولار فكة، وافهمني ان احد الرفاق والذي سبق ان شاهدته في بولندا برفقة ناصر سيكون بانتظاري في المطار وهو المكلف بمتابعة عملي.

وفي اواخر مايو (ايار) ١٩٨٨ وبانتهاء موعد انذاري بمغادرة البلد غادرت بولندا الى يوغسلافيا وفي المطار تعرف علي الرفيق المكلف المدعو كمال شكري والبالغ من العمر حوالي ٣٠ سنة، وهو طالب جامعي، حنطي البشرة، شعره مجعد، لا توجد اي علامات فارقة في وجهه. ركبت واياه بالباص الى المدينة حيث انزلني في غرفة في شقة من عدة غرف تعود ملكيتها لامرأة عجوز يوغسلافية ملقبة بام اسكندر هذه الشقة تقع مباشرة في عمارة من اربعة طوابق خلف عمارة المسرح المجاورة لتمثال الحصان.

اثناء جلوسنا في هذا البيت طلب مني كمال شكري كتابة نبذة عن حياتي وضمنتها اكثر من سابقتها حيث ذكرت فيها عن حقيقة وضعي السابق كحراسات في بيت الاخ ابو الهول وهروبي الى بغداد الى هواري. بعد ان اخذ هذا التقرير استمر بالتردد علي يوميا في المساء بعد الساعة السابعة حيث كان يزودني بمجلات خاصة بتنظيم ابو نضال وايضا بالبيانات الصادرة عن ذلك التنظيم ،

وبعد عدة ايام وحوالي اسبوع حضر كمال شكري لمكان اقامتي ومعه شخص اخر عرّفني باسمه الرفيق خليل واعتقد بانه ضابط التشغيل ومسؤول عن كمال شكري عمره حوالي ٢٨ سنة قصير وممتلىء الجسم ويبلغ طوله ١٦٠ سم، وشعره ناعم، ولونه خروبي يتحدث بسرعة، واعتقد انه غير مقيم في يوغسلافيا بصورة دائمة.

بعد التعارف تحدث خليل قائلا ان هناك عمليات سنقوم بها في جنوب شرق اسيا خصوصا ضد الاسرائيليين وحدد لي الفلبين وطلب مني ان اذهب للسفارة الفلبينية للحصول منها على تأشيرة الى الفلبين وبموجب جوازي الاردني المزور وهو باسم عساف جابر المهدي.

في اليوم التالي راجعت السفارة الفلبينية برفقة خليل الذي انتظرني في الخارج، بعد دخولي السفارة قابلت الموظفة اليوغسلافية التي دققت في جواز سفري واجابت انه غير ممكن اعطائي تأشيرة دخول لعدم وجود اي ختم يدل على دخول يوغسلافيا بطريقة شرعية فجادلتها مصرا على شرعية وجودي في يوغسلافيا وطلبت منها الاتصال بالمطار للسؤال عن حقيقة دخولي يوغسلافيا فاستغليت فرصة انشغالها واخذت جواز سفري الذي كان على الطاولة وخرجت مسرعا الى الشارع العام حيث قابلت خليل واخبرته بما حصل معي فاجاب كان بامكانك الانتظار لترد عليك الموظفة، فقلت حاولت الاتصال بالمطار هاتفيا واذا كشفت حقيقة جواز سفري عندها تكون الورطة الكبرى، وقد نجوت بنفسي بمغادرة السفارة عقب خليل بقوله: ماشي الحال وجيد انك خرجت ومعك جواز سفرك، ثم ذهبت واياه الى مكان السكن الخاص بي وعند وصولنا اخبرني انه سيأتي في اليوم التالي ومعه كمال ليضعا لي خطة للحصول على تأشيرة دخول الى الفلبين، وبما انك لم تستطع الحصول على "فيزا" من يوغسلافيا الى الفلبين سوف نسفرك الى بلد اخر واجبته بالموافقة.

في اليوم التالي حضر خليل وكمال شكري الى مكان سكني وقال لي الاول تذهب الى السفارة اليونانية في بلغراد لتحصل منها على تأشيرة دخول ترانزيت الى اليونان وبموجب جواز سفرك الاردني، وكمال سيحضر لعندك صباحا ويرافقك الى السفارة اليونانية، فاليونانيون لا يدققون على "فيزا" الترانزيت وخاصة ان الفصل صيفا وكثيرون من العمال اليوغسلاف يسافرون الى اليونان لجني الثمار.

صباح اليوم التالي حضر كمال الى مكان سكني وذهبت واياه الى السفارة اليونانية حيث قدمت جواز سفري الاردني ورسوم بمبلغ (٥٠ الف دينار) وبعدما اعطيت وصلا طلب مني العودة الى السفارة بعد الظهر، وراجعت السفارة اليونانية بعد الظهر واخذت جواز سفري الاردني وعليه تأشيرة ترانزيت لمدة سبعة ايام ثم عدت انا وكمال الى مكان سكني، في المساء حضر خليل واعلمته بحصولي على تأشيرة "ترانزيت" فقال لي غدا تسافر بالقطار وعند الحدود تبرز الجواز اليمني فيختم عليه الخروج من يوغسلافيا وفي الحدود اليونانية تبرز الجواز الاردني وتدخل بموجبه الى اليونان.

في بداية شهر يوليو (تموز) ١٩٨٨ غادرت يوغسلافيا بالقطار الى اليونان ونفذت الخطة التي رسمها لي خليل خاصة باستخدام جوازات السفر عند مغادرة يوغسلافيا ودخولي الى اليونان وعند وصولي الى اليونان اقمت في فندق "نيون" الكائن في ساحة الامونيا، ثم ذهبت الى السفارة الفلبينية في بيريا. مقابل الميناء، وقد ركبت بالميترو من الامونيا الى بيريا وتعرفت على مكان السفارة من خلال سؤالي الناس، وعند دخولي مقر السفارة قدمت جواز سفري الاردني للموظف وطلبت تأشيرة دخول الى الفلبين كسائح، فاجابني الموظف وهو يتكلم العربية بلهجة مصرية هل الجواز لك ومن اين حصلت عليه فأجبته هذا جواز سفري وحصلت عليه من حكومتي. قال هذا لا يمشي عندنا وبلدنا ليست سائبة.

جادلته بأن الجواز لي وهو صحيح، عندها نادى على السكرتيرة الفلبينية وتحدث معها بالانكليزية موضحا انني اطلب تأشيرة وجواز سفري مزور، فقالت له لنأخذه الى القنصل ودعتني لمرافقتها الى غرفة القنصل وبعد دقائق قابلت الاخير الذي عرف مطلبي وحقيقة سفري فقال نحن نرحب بأي زائر لبلدنا انما جواز سفرك ليس صحيحا ونحن الان ندقق في جوازات العرب لكثرة مشاكلهم، واعتذر لي عن عدم منحه لي تأشيرة سفر.

عندها اخذت جواز سفري وخرجت عائدا الى الفندق، وفي ذلك اليوم وبينما كنت اتجول في ساحة الامونيا شاهدت صدفة الملقب بـ "جورج محمد توني" الذي كان عند هواري، وبعدما سلم علي علمت منه انه مقيم على نفقة الامم المتحدة في فندق "قبيا" ويتردد عليه بسيم والعديد من العاملين في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. دعاني لزيارته في الفندق فاجبته غدا احضر لطرفك وانا انزل

الان لدى عائلة مصرية في بيريا، وفي اليوم التالي بعد الظهر ذهبت لفندق "قبيا" وشاهدت جورج الحاصل على ورقة اللجوء من الامم المتحدة واعلمني انه يعمل بالجوازات المزورة ويبيع الساعات ويشاركه بعمله وحيد بارود وبسيم.

وبعد نصف ساعة من جلوسي معه ودعته وخرجت، وفي اليوم التالي ذهبت الى شارع البرلمان حيث موقع السفارة اليوغسلافية وحصلت منها بموجب جواز سفري الاردني على تأشيرة دخول الى يوغسلافيا. وفي اليوم التالي كان قد مضى على وجودي في اليونان حوالي اسبوع غادرتها بواسطة القطار الى يوغسلافيا وعدت الى مكان سكني الذي كان محجوزا باسمي. وفي المساء اتصل خليل هاتفيا حيث كان معتادا ان يتصل هاتفيا كل يوم للسؤال عني، وعندما علم بوجودي حضر الى البيت المقيم فيه والعائدة ملكيته للعجوز اليوغسلافية (ام اسكندر) والتي لها ابن مقيم بنفس السكن "هبيلة" حيث كما ذكرت ان المنزل يقع بالقرب من تمثال الحصان الكائن وسط المدينة ثم "التياتر" وبجانبه شارع صغير ثم عمارة زجاجية معظم واجهاتها زجاجية وكأنها معرض والمنزل يقع على اليسار في الطابق الثالث من العمارة.

عند حضور خليل وكمال الى مكان سكني اخبرتهما انني لم استطع الحصول على الفيزا الى الفلبين من اليونان، حيث اشتبه بان جواز سفري مزورا، وبعدها كتبت تقريرا مفصلا لخليل حول ما حدث معي في اليونان، وحول المهمة التي كلفني بها خليل وزودني قبل سفري بمبلغ ٦٠٠ دولار بعدما وقعت له على وصل استلام.

بعد ذلك استمر خليل وكمال بالتردد الى مكان سكني يوميا في المساء وبعد ثلاثة ايام وصلته معلومات تفيد ان بأستطاعتي دخول الفلبين والحصول على تأشيرة دخول الى المطار، قال لي خليل غدا اذهب واياك الى الخطوط اليوغسلافية واقطع لك تذكرة ذهابا وايابا حتى لا تكون لشركات الطيران اية حجة. وفي اليوم التالي ذهبت وخليل الى مبنى شركة الطيران اليوغسلافية واشترى لي تذكرة سفر الى الفلبين ذهابا وايابا، وبعدها عدنا الى مكان السكن ووضع لي خليل خطة عملي وتواجدي في الفلبين بقوله، سيحضر هدف صهيوني في زيارة رسمية الى الفلبين وسوف ينفذ عملية قتله، وهذه الشخصية ستنزل في احد الفنادق الرسمية

وربما في "مانيلا بالاس" او في الفندق المجاور له، وقد نسيت اسم هذا الفندق لكن اعرف ان ابو عمار سبق ان نزل فيه هو والشيخ السائح عندما زارا الفلبين.

وتابع خليل، سنقتل هذا الشخص الصهيوني الذي سيحضر الى الفلبين في تاريخ ما بين ١٥ الى ٢٠ اغسطس (آب)، وهذا مؤكد فأجبته جيد وهذه امنيتي فقال لي خليل انه سوف يلحق بي الى الفلبين بعد عشرة ايام تقريبا من سفري، وعلي ان اقابله بتاريخ ٢٠-٧-١٩٨٨ او ما بعده في يوم الاثنين او الخميس الساعة ١٢ ظهرا امام مركز البريد في مانيلا، ثم اعطاني وصفا عاما للحالة في الفلبين وكيفية التحرك وارشاد حول المناطق والاحياء.

بالنسبة الى الحالة العامة قال ان الوضع مترد واستطيع الحصول على سلاح حتى من الشرطي بعد ان تصبح بيننا علاقة وطيدة، كما اعطاني ارشادات بالاقامة في "البنسيونات" الصغيرة المجاورة لشارع ممتلىء باليهود والعرب، واعطاني وصفا عاما للفندقين اللذين ستنزل في احداهما الشخصية الصهيونية، وطلب مني ان اوطد علاقتي بأحد رجال الشرطة الفلبينيين لحين حضوره الى الفلبين وخصوصا ببائعي السجائر المتجولين، وهم مخابرات فلبينية لكنهم انانيون ويأخذون خاوات من اصحاب "الديسكوات".

اعطاني خليل مبلغ ثلاثة الاف دولار بوجود كمال شكري وبعدما وقعت له على وصل استلام قال: خط سيرك الى سنغافورة حيث تمضي ليلة فيها وفي اليوم التالي تتابع الطائرة سفرها الى مانيلا وعند وصولك لمطار مانيلا تركب تاكسي الى "البنسيون" وتحتفظ بالفاتورة وكذلك عليك الاحتفاظ بفواتير النفقات التي تدفعها وخاصة حساب الفندق.

في اليوم التالي سافرت الى سنغافورة حيث بت ليلة وفي اليوم التالي تابعت الطائرة تحليقها الى مانيلا، وعند وصولي الاخير استأجرت غرفة في "بانسيون" يقع خلف شارع ما بين (الديسكوات) ارميتا، و"البانسيون" اسمه كارولينا. وقد تعرفت على شاب صومالي يدعى محمود كان يعمل في الخليج وحضر الى الفلبين كسائح وبعدها تابعت مهمتي المكلف بها وتعرفت الى الفندق الخاص بالرسميين وكذلك كنت اتردد على بائع البيرة الكائن محله بجانب المطعم الباكستاني وبعدها توطدت علاقتي مع احد باعة السجائر والمتجولين حيث دعوته في البداية لشرب

البيرة على نفقتي الخاصة وبعد ان اشتريت منه علبة سجائر وقدمت له سيجارة ودعوته الى شرب عدة زجاجات من البيرة وفي لحظة نشوته اخذت منه حمالة السجائر وفتشت بداخلها فوجدت مسدسا من نوع "بكرا" فقلت له اتبيعني هذا المسدس؟ فأجاب نعم وابيعك مسدسي، عندها خشيت ان اشتري منه المسدس وهو في حالة سكر.

انتظرت لليوم التالي حيث اعدت على مسمعه حاجتي لشراء مسدس فقال سأحضر لك مسدسا شبيها بمسدسي مع اثني عشر طلقة مقابل مبلغ ٦ الاف "بيسو" وفي الوقت المحدد من اليوم التالي اشتريت منه المسدس المذكور وكان في تاريخ ١٧-٧-١٩٨٨ وقمت باخفاء المسدس في "تيربلاي" فتحة تهوية في السقف. استمريت بعدها بالتجوال والتردد على شارع "الديسكوات" حيث كنت اشاهد بكثرة امريكيين يترددون كل يوم سبت يحضرون من قاعدة "كلارك" الكائنة في "باكيو" وتعتبر هذه اكبر قاعدة امريكية على ما اعتقد في جنوب شرق اسيا وكان الجنود يتجولون سكارى في الشوارع وممكن معرفتهم من حلاقة رؤوسهم.

يوم الاثنين بتاريخ ٢١- او ٢٢-٧-١٩٨٨ قابلت خليل بجانب مبنى البريد واصطحبته الى "بانسيون" قريب من الشارع الرئيسي وليس بعيدا عن "البنسيون" الذي اقيم فيه، واعتقد ان نزوله كان في بنسيون اخر بهدف عدم الكشف عن نوع جواز سفره او اسمه الكامل، بعدها اصبحنا نتقابل يوميا واعلمته بكل ما حصل معي في المدينة قبل حضوره، وعرف بشرائي مسدسا من نوع "بكر" بالاضافة الى ١٢ طلقة. عندها كلفني بشراء مسدس اخر له وقنابل فوسفورية بحجة ان لها فاعلية في حرق الهدف المراد تنفيذ العملية به. في اليوم التالي قابلت الفلبيني وطلبت منه احضار مسدس اخر وبعض القنابل فاجابني بعدم الممانعة، وفي الموعد المحدد من اليوم التالي قابلت الفلبيني الذي عرض علي قائمة باسماء اسلحة فقلت له: لا اريد ايا من الاسلحة فقط اريد شراء المسدس واشتريت منه المسدس الثاني وهو من نوع "بكر" صناعة فلبينية بالاضافة الى ١٢ طلقة وبنفس الثمن، وبعد حصولي على المسدس اعطيته الى خليل واخذنا نتردد يوميا على الفندق الرسمي "مانيلا بالاس" وفي كل مرة كان خليل يقول لي ان العملية المنوي تنفيذها استشهادية اي اما قاتل او مقتول.

اقترحت عليه ان نخبىء المسدسات داخل حمام الفندق قبل ٢٤ ساعة من

وصول الشخصية الرسمية الصهيونية، لنجاح العملية ولنتمكن من اجتياز آلة التفتيش الكهربائية التي تنصب امام باب الفندق عند اقامة اية شخصية رسمية فيه. استحسن خليل فكرتي وتابع بقوله يجب علينا ان نتأكد من ان الشخصية الصهيونية ستحضر الى الفندق ام لا، اجبته ما رأيك لو نرسل فلبينية تساله عن الحجز بالفندق فاجاب بالنفي ودعاني للذهاب برفقته الى مقهى ومشرب العريشة.

عند وصولنا الى المقهى المذكور جلسنا، وفي تلك اللحظات حضرت فلبينية معتدلة الجمال ولباسها مقبول، فقال لي خليل ادع هذه الفتاة للجلوس الى جانبك على الطاولة ورافقها الى الفندق واسأل عن الحجز بحجة انك ستمضي مدة اسبوع شهر عسل. وفعلا دعوت الفلبينية هذه وبعد جلوسها بجانبي شربت واياها البيرة ثم رافقتها الى فندق "مانيلا بالاس" متأبطا ذراعها وقاصدا ان يشاهدني موظف الاستقبال في الفندق حيث مررت من امامه وبعدما شاهدنا، اجلست الفلبينية في الصالة وتقدمت الى طاولة الاستقبال وسألت الموظف عن حجز بقولي اريد الزواج وجئت للاستفسار عن امكانية حجز غرفة لمدة اسبوع في التاريخ ما بين ١٥ الى ٢٠-٨-١٩٨٨ طلب مني الموظف الانتظار وبعدما دقق في السجل اجابني ان الحجز في هذه الفترة غير ممكن فعدت والفتاة الى الشارع ثم ودعتها وذهبت الى "البنسيون" حيث حضر بعد ذلك خليل، واخبرته ان الشخصية الصهيونية ستحضر الى الفندق بدلالة عدم امكانية الحجز لاي شخص عادي من ١٥ الى ٣٠-٨-١٩٨٨، واتفقنا ان نضع المسدسين قبل ثلاثة ايام من موعد وصول الشخصية الصهيونية في فندق "مانيلا بالاس" واخفائها في الحمام. بعدها اشتريت المادة اللاصقة لتثبيت المسدسات واخفائها داخل الحمام وقبل الموعد بثلاثة ايام راجعت فندق مانيلا بالاس طالبا الحجز من تاريخ ١٥-٨ ولمدة اسبوعين بحجة الاقامة بمناسبة احتفالي بالزواج فاخبرني موظف الاستقبال بامكانية الحجز عندها وعدته بالعودة اليه وذهبت الى خليل، واخبرته ان الوفد الاسرائيلي لن يحضر بدلالة السماح لي بالحجز وبرغم ذلك وفي يوم ١٥-٨-١٩٨٨ راقبت الفندق طيلة النهار وراقب خليل المطار ولم تحضر اية شخصية اسرائيلية الى الفلبين في ذلك التاريخ.

في مساء ذلك اليوم عندما التقيت بخليل اتفقنا ان الشخصية الاسرائيلية لن تحضر الى الفلبين وبالتالي فان العملية فشلت ، فقال خليل اعد المسدس الى بائعه

واحضر منه ثمنه. فعلا اعدت احد المسدسات الى الفلبيني بمبلغ اقل مما دفعته بمئتي دولار وبقي المسدس الثاني مع خليل الذي كلفني بمهمة ثانية وهي معرفة الفلسطينيين الذين تسببوا في اعتقال العناصر الاربعة التابعين "لابو نضال" والذين قامت السلطات الفلبينية والامريكيين باعتقالهم والتحقيق معهم، ووضع لي خطة للتردد على مكتب اتحاد طلبة فلسطين في مانيلا بهدف تقصي المعلومات وجمعها من الطلبة الفلسطينيين. كذلك ارشدني الى مكان تردد العرب والفلسطينيين وحدد مطاعم "حلال" التي يتردد عليها معظم الطلبة وطلب مني توطيد علاقتي بالطلبة الفلسطينيين وانتحال صفة بحار فلسطيني عامل على متن سفينة يونانية ثم اخبرني بأنه سيغادر الفلبين في نهاية شهر اغسطس (آب" ١٩٨٨ وعلي ان اعود الى يوغسلافيا بعد خمسة اشهر على ان نلتقي في يوغسلافيا في مقهى "الانينكس"، وان اقيم عند عودتي الى بلغراد في منازل كبار السن واتردد ظهرا على مقهى "الانينكس" والمقهى المجاور" طلب مني خليل عدم البقاء في الفلبين اكثر من ستة اشهر ولم يحدد لي كيفية الاتصال به خلال تلك المدة بحجة ان المعلومات التي سأحصل عليها لن تفقد اهميتها فيما لو طالت المدة، ودعته وسافرت الى بلدة "كيانا" حيث يقيم المسلمون. واثناء جلوسي في المطعم سمعت بعض الرواد يتحدثون بالعربية فاشتبهت انهم فلسطينيون وحاولت اسماعهم انني اتحدث العربية عندها تعمدت ان اتلفظ بلهجة عربية لعاملة المطعم ثم تحدثت مع الشبان المجاورين لي على الطاولة الذين عرفت انهم عرب وعرفت عن نفسي انني فلسطيني وبحار، حضرت على متن باخرة يونانية تعطلت لكن التصليح والايدي العاملة رخيصة في الفلبين فتوقفت الباخرة للاصلاح وهذا يتطلب وقتا مما يضطرني للبقاء في هذا البلد. عندها رحب بي الشباب واذكر ان احدهم كان يدعى اسعد عبد الجابر وهو شيخ فلسطيني ومسؤول عن جمعية اسلامية فسألته عن دار الطلبة الفلسطينيين فاجابني في منطقة "تيموك".

مسؤول مكتب اتحاد طلبة فلسطين يدعى علي عوفة واعطاني عنوان المكتب وبدوري ذهبت الى الشارع العام وركبت "الجمني" وهي وسيلة مواصلات في مانيلا وذهبت الى منطقة تيموك حيث استدللت على بيت علي عوفه بعدها طرقت الباب خرج الي شاب يدعى اسامة الصالح وهو طالب وسألني عن سبب حضوري. اجبته انني فلسطيني واسمي خليل ماضي واريد مقابلة رئيس اتحاد طلبة فلسطين

فادخلني حيث سلمت على الموجودين وبعد جلوسي عرفت عن نفسي باسم خليل ماضي. وانني بحار فلسطيني واعمل على باخرة يونانية، وحاليا متوقفة في الحوض الجاف رهن اصلاحها من قبل العمال الفلبينيين كون اجورهم رخيصة.

وفي هذه الاثناء تعرف علي موسى علاونة الذي كان في بيشاور في باكستان وتحدث معي قائلا انه سبق وشاهدني في باكستان.

وقد حضر هذه الجلسة كل من: خالد علوان، سامي الصالح، علي عوفة، وبالنسبة الى خالد علوان وهو اذكاهم اشتبه بي على ما اعتقد بسبب الثغرات التي كثرت في قصتي واصر ان اترك "البنسيون" واقيم معه في مركز اتحاد الطلبة لكوني فلسطينيا فوجدتها فرصة حتى اكون قريبا من الطلبة الفلسطينيين للوقوف على كيفية اعتقال الشباب الاربعة التابعين لابو نضال من قبل الفلبينيين والامريكيين وحسبما كلفني خليل ذهبت مباشرة الى البنسيون وسددت الحساب وحملت اغراضي الى مركز اتحاد طلبة فلسطين الكائن في منطقة تيموك. وفور وصولي سلمت خالد علوان جواز سفري الاردني لاقناعه بصدق نواياي، وسمح لي بالاقامة في المركز حيث كنت يوميا اتعايش مع شباب الاتحاد واشاركهم في اعمالهم داخل المركز وايضا في المقر الجديد اندمجت مع الشباب وتشجعت على العمل معهم لحفظ بعض الشبان من الانفلات كما عملت مع محمد ابو القاسم في ادارة المطعم تارة ومرة اخرى في ادارة طاولة التنس او الشطرنج. وكنت مستاء، فقط من بعض الشبان الذين كانون يترددون على المركز ويطيلون شعرهم، وكنت باستمرار احاول توجيههم.

لم احاول طيلة تلك المدة ان اسأل عن كيفية اعتقال "الجماعة" حتى لا اكشف نفسي، واستمررت بالمكوث مع الشباب، كان خالد علوان قريبا مني ولم اكن اشرب الكثير او اعاشر النساء. وهكذا انطلت حيلتي على خالد الذي اقتنع بأنني وطني ولدي حس وطني. ومرة واحدة فقط دار الحديث في مقر اتحاد الطلبة امامي وهو انه حجز في فندق "الكاميلوت" اربعة من جماعة ابو نضال حقق معهم الفلبينيون والامريكيون ولم يتطرق الطلبة لتوضيح حول من تسبب في اعتقالهم انما قالوا ان الشباب كانوا علنيين وان الامريكيين اكتشفوهم ولاحقوهم لغاية اعتقالهم.

بعد حوالي خمسة عشر يوما من اقامتي في مقر اتحاد طلبة فلسطين دعاني

خالد علوان قائلا "بدنا نحكي مع بعض" فاجبته: لا مانع وجلست واياه منفردين. قال خالد "بدنا نعرف منك على الاقل شو انت واين كنت، ونحن نرحب بك كفلسطيني" فاجبته: ماذا تريد ان اخبرك؟ اجاب: عن تواجدك في الفلبين وقصة السفينة واصلاحها في الحوض الجاف، قلت له: لا حقيقة للسفينة وايضا لاصلاحها في الحوض الجاف وانا لست بحارا. وانما كنت عند هواري وطلعت من عنده وبعدها ذهبت الى بولندا وحضرت الى الفلبين واريد السفر الى استراليا. قال خالد لكن من هنا لا تستطيع الهجرة. وانتهت هذه الجلسة ولم نعد نتحدث حولها.

مرة اخرى خلال وجودي في مقر الاتحاد حضر محمد حمدوني، وعندما شاهدني تعرف الي مباشرة كونه يعرفني من ايام باكستان. قلت له: اريد الهجرة من هنا الى استراليا. فلم يعلق على حديثي. واستمر تواجدي في الاتحاد بشكل عادي. وفي شهر ١٠-١٩٨٨ عرض علي خالد علوان مرافقته ومعنا المدعو بكر الى احد المطاعم حيث كان يجلس بانتظارنا وليد حطيني والذي سمع عني حسب شرح خالد له.

بعد السلام واثناء جلوسنا وجه وليد حطيني حديثه الي قائلا: انت فلسطيني ونحن نريد ان ننتقم للاخ ابو جهاد وان نرد الرأس برأس اجبته مزاودا: لا بل رأسين او ثلاثة برأس، واذا صح لنا نقتحم السفارة الاسرائيلية ونقتل اكبر عدد ممكن من اليهود.

قال وليد: العملية لا نريد اقتحام السفارة الاسرائيلية فيها وستحضر شخصية اسرائيلية الى الفلبين وعلينا ان نقوم بقتلها.

ابديت استعدادي ثم تعرض هو لموضوع شراء السلاح وتحدث عنه بكر بقوله ان باسل عرفه على تجار سلاح فلبينيين وبامكانه ان يرشدني اليهم على ان اقوم بشراء الاسلحة كوني لست معروفا في الفلبين وحتى لا يتورط بكر، وعلي ان اعرف نفسي كايطالي وكان باسل قد سبق ان عرف تجار السلاح الفلبينيين على بكر على انه باكستاني.

بعد هذه الجلسة اتفقت مع بكر على اللقاء في اليوم التالي. وفي الموعد المحدد ذهبت معه الى تاجر سلاح فلبيني مقيم في منطقة معسكر كرامي وبعد التحدث

واياه عرض علينا مخازم بلاستيك وطلقات ثم رافقنا الى مكان زميل له بائع اسلحة فلبيني وعند مقابلتنا الاخيرة ومعرفته بطلبنا شراء اسلحة فردية عرض علينا ٣ قطع "م-١٦" صغيرة وقنيفتي "أنيرجا" وبعدما تفقدت صلاحيتها وافقنا على شرائها وقام بكر بدفع المبلغ ولا اعرف مقداره، ووضعنا البنادق الثلاث ومخازنها التسعة وقنيفتي "الانيرجا" في حقيبة وخرجت وبكر الى الشارع العام حيث ركبنا سيارة اجرة.

في الطريق ركبنا سيارة ثانية ثم ثالثة للتضليل في ما لو كنا مراقبين من اية جهة الى ان وصلنا الى بيت بكر. في اليوم التالي اعلمنا خالد علوان بحصولنا على الاسلحة وكان خالد مكلفا باستئجار سيارة وكذلك هشام العجل كان مكلفا بقيادة السيارة المستأجرة حسب ما حدد ذلك وليد حطيني الذي اعرف انه من الغربي بحكم معرفتي ان خالد علوان من الغربي ويعمل مع وليد*، فاذا وليد حطيني "غربي" مهمة بكر المحددة هي شراء السلاح ومهمتي الاشتراك مع خالد علوان في مراقبة الشخصية الاسرائيلية التي ستحضر الى الفلبين والفنادق التي ستنزل فيها وتنفيذ قتل هذه الشخصية حال وصولها.

وضعنا الاسلحة في السيارة المستأجرة وعلى مدار اربعة ايام كنت انا وخالد علوان وهشام العجل نتجول في السيارة المستأجرة لمراقبة المطار والسفارة الاسرائيلية والفنادق "الدبلوماسية" للتثبت من حضور الشخصية الصهيونية. وخلال تلك المدة لم يحضر اي اسرائيلي، فاعتبرت العملية فاشلة.

جربت البنادق التي اشتريناها في منطقة "قرط" الجبلية الكائنة في ضواحي مانيلا وذلك على شجرة وايضا على احدى اللوحات الدالة على الطريق. قمت بنزع المقذوف من بعض الطلقات لاستخدامها فيشنغ "لرمي الانيرجا".

بعد مضي اربعة ايام على مشاركتي لخالد علوان وهشام العجل بمتابعة حضور الشخصية الصهيونية للفلبين ولعدم وصول تلك الشخصية المزعومة نفذ صبر خالد علوان وتوقفنا عن المتابعة، وبعدها كلفني خالد انا وماهر بمراقبة السفارة الاسرائيلية ومن يتردد عليها من الطلبة العرب والفلسطينيين وايضا لجمع المعلومات عن هذه السفارة التي تقع في الطابق الخامس من العمارة التي كانت

* القسم الخاص بعمليات الارض المحتلة في حركة فتح.

تضم مركز بنك. كذلك كلفني برسم سريع لمبنى السفارة ومواعيد مراجعتها فنفذنا المهمة التي دامت يومين. بعدها كلفني خالد علوان بمتابعة المدعو خالد وهو من جماعة ابو العباس ومقيم في بلدة باكيو. كان المطلوب مني ان اكون قريبا من خالد لمساعدته في حال تعرضه للخطر وخاصة انه كلف باختراق اثنين ايطاليين عندما دخلوا الى البار ولم يخرجوا منه حتى الصباح.
في تلك الليلة فرغ صبري من الانتظار فدخلت البار وشاهدت خالد يسكر مع الايطاليين، وكأنه لا يفقه بالامن شيئا فاستأت منه. وعند بزوغ شمس ذلك اليوم تركته وعدت الى خالد علوان واخبرته بما حصل معي فرد علي بأن خالد هذا سبق ان قتل يهوديا وانتزع منه نجمة داوود الذهبية وسلمها الى خالد علوان لتثبيت تنفيذه عملية القتل. فاجبته ان خالد الاصلع ما هو الا مخادع، وممكن شراء هذه النجمة من اي محل لبيع الذهب. واصررت على عدم الاستمرار بمرافقتة خالد الاصلع فلم يمانع خالد علوان.

بعد ذلك عدت الى الاقامة في مقر الاتحاد وكلفت بمساعدة مدير المطعم محمد ابو القاسم، واستمررت بذلك لغاية حضور الاخ ابو لؤي الى الفلبين حيث زار مقر الاتحاد، وبسبب دسائس موسى العلاونة وتحريضه ابو لؤي علي طلبني الاخير وقال لي: عليك بمغادرة المقر كونك لست طالبا ولست من افراد الاتحاد ولا داعي لبقائك في هذا المقر وكان ذلك في شهر ٢-١٩٨٩.

غادرت الفلبين بتاريخ ٢-٢-١٩٨٩ بموجب تذكرة الى يوغسلافيا. وعند وصولي الى العاصمة بلغراد اقمت في سكن كبار السن المجاورة لمحطة القطارات. وفي اليوم التالي ذهبت الى مقهى "الالينكس" فلم اشاهد خليل واضطررت للتردد على المقهى المذكور. وفي اليوم التالي اثناء جلوسي حضر خليل وربت على كتفي وبعدما سلم علي قال: وين يا رفيق؟ قلت له ان المدة التي بقيتها في الفلبين امضيتها مع الطلبة في مقر الاتحاد وبعدما شربنا الشاي وذهبت واياه الى الغرفة التي اقيم فيها فطلب مني الرحيل الى فندق "مالادوست" وبناء على طلبه ومباشرة ذهبت الى الفندق المذكور واقمت في احدى الغرف في الطابق الارضي.

في اليوم التالي حضر خليل الى غرفتي وطلب مني كتابة تقرير مفصل عن مهمتي وما حصل معي في الفلبين وزودني بكمية من الورق الناعم الخفيف وبقلم اسود ووعدني ان يقابلني في اليوم التالي لاستلام التقرير وفعلا كتبت

التقرير في الغرفة المقيم فيها في الفندق وضمنته ما قيل حول اعتقال الاربعة والتحقيق معهم من قبل الامن الامريكي والفلبيني.

كما كتبت في التقرير ما حدث معي وتعاوني مع خالد علوان. وفي الموعد حضر خليل وتسلم مني التقرير واثناء قراءته اعترض على تعاوني مع خالد علوان بحجة انشغالي عن مهمتي الاساسية وانبني على تنفيذ مهام لم يكلفني بها فاجبته ان تعاوني مع خالد كان بهدف قتل شخصية اسرائيلية. عند هذه الفقرة لم يعترض وبقي صامتا ثم فارقني على ان يعود الي في اليوم التالي. وبعد ذلك استمريت في الاقامة في فندق "مالادوست" ويوميا كان خليل يتردد علي صباحا ويزودني بالمجلات التنظيمية وخاصة مجلة "الطريق" وكان خليل يسدد حساب الفندق ويعطيني شهريا بموجب وصل استلام اوقع عليه مبلغ ٢٠٠ دولار كمصاريف.

في شهر ٥-١٩٨٩ كلفني خليل بالسفر الى ليبيا التي وصلت اليها بتاريخ ١٤-٥-١٩٨٩ وعند وصولي الى مطار طرابلس واجتيازي الصالة استقبلني المدو عيسى جرادات الذي يعرفني من صوري السابقة فلفظ اسم التعارف مشيرا الى الرفيق محمد فاجبت: نعم عندها رحب بي واخذني بسيارته الى فندق "اليسر" المجاور لفندق "مرحبا" وقال لي ارتح اليوم وغدا نلتقي.

في صباح اليوم التالي حضر عيسى الى الفندق. وفي هذه المقابلة كان حديثه الي حول المسلكيات الخاطئة لجماعة عرفات وخاصة ابو اياد موضحا ان الاخير هو الذي سلم "الالوية الحمراء" وجماعة "بادر ماينهوف" وجزءا من عناصر " ١٧ نوفمبر " اليونانية، وانه وراء قتل الرفاق الخمسة في البقاع.

وبعدها اصبح عيسى يحضر الي يوميا واتمشى واياه في الحديقة او بجوار الكنيسة القريبة من الفندق ويتناول في احاديثه تحريضي على ابو اياد على اساس انه خرب كثيرا في الساحة الفلسطينية وانه هو الذي يقف حجر عثرة في استمرار النضال الفلسطيني بعد حوالي خمسة عشر يوما حضر عيسى الى الفندق وبعدها سدد الحساب ونقلني من فندق "اليسر" الى مكان اقامتهم الخاص والكائن بالقرب من ساحة "السويحلي". واستمر في التردد علي صباح كل يوم من الساعة التاسعة الى العاشرة والنصف. كنت امشي واياه في المنطقة القريبة من قصر ليبيا

باتجاه الدهماني اذ ان تلك المنطقة تمتاز بقلة روادها.

انتقلت من فندق "اليسر" وبرفقة عيسى مشيا على الاقدام لمدة ربع ساعة الى موقع المقر الخاص، وكانت بيدي حقيبة ملابسي البسيطة التي كان بداخلها ثلاثة غيارات. وموقع المقر الخاص. الذي اقمت فيه، كان بجانب ميدان سويحلي خرية وبعد عبورها تقابلنا عمارة من اربعة طوابق لونها ابيض المقر في الطابق الثالث والشقة على يمين الدرج وبابها من الخشب الابيض مثبت عليه جرسان. امام باب العمارة توجد خزانات ماء. وكانت هذه الغرفة تضم طاولة فورمايكا وكرسي من خشب وحديد وخزانة لونها بني فاتح. وسرير عادي مصنوع من الحديد وعليه فرشة وحرامات. واعطاني ارشادات حول كيفية الاقامة في هذا المقر وهي كالتالي: اذا اردت ان اخرج من غرفتي علي ان اتنحنح واطرق باب غرفتي ثم اخرج. وعندما احضر الى المقر من الخارج اضغط على جرس الباب. وعندما يفتح لي المخول ادخل الى غرفتي مباشرة دون النظر الى احد او التحدث مع احد.

وهذه التعليمات حسب اعتقادي تعطى لكل المقيمين في المقر بالاضافة الى انه علي ان اكون في حالة استعداد وجاهزا طيلة النهار ولا ارتدي ملابس النوم الا في المساء. ويجب علي ان اكون داخل المقر قبل الساعة العاشرة مساء كل يوم. كان عيسى يحضر الى غرفتي يوميا ويزودني بالمجلات والدراسات المختصة بمجال معين مثل الحرب الشعبية او مجلدات حول الممارسات الخاطئة للثورة الفلسطينية والاخيرة كان زاخرة بالحديث عن ابو اياد وابو عمار وعن اللجنة المركزية لحركة فتح وعن الجبهة الديمقراطية. وكان التركيز على حركة "فتح" واسباب الانحدار وعدم جدواها في الكفاح المسلح وانها تكرس نهج الاستسلام.

بقيت في هذا المقر مدة شهرين وكنت اتقاضى شهريا. بعدما اوقع على وصل استلام مبلغ ١٥٠ دينارا ليبيا وكان تسليمي الفلوس في ٢٦ او ٢٧ من نهاية كل شهر.

بعد نهاية الشهر كلفني عيسى جرادات بالتردد على الجامعة وجمع المعلومات عن الطلبة الفلسطينيين. ذهبت الى "جامعة الفاتح" وتعرفت على بعض الشباب الفلسطينيين ومنهم منير حسونة وجهاد برعي وفضل بوشناق. وكنت اعرف عن نفسي بأني فلسطيني قادم من بولندا ومقيم في طرابلس في الفندق . فدعاني

الطلبة لمرافقتهم الى قصر بن غشير حيث يتوفر لي الشرب والمأكل. ظهر ذلك اليوم ذهبت مع الطلبة السابق ذكرهم الى قصر بن غشير، وبينما كنت اتناول صحون الاكل شاهدت ماجد ابو جماع الذي كان طالبا في بولندا ويعرفني جيدا. وبعدما سلمت عليه اخبرني انه مطرود من بولندا وانا بدوري قلت له انني لم اجد سوى ليبيا للاقامة فيها ولذلك حضرت للاقامة والعمل هنا. فقال لي: النوم في قصر بن غشير مجاني. ودعاني الى الاقامة في هذا المكان. فاجبته: نلتقي. وفي مساء ذلك اليوم قابلت عيسى في المقر واخبرته بما حدث معي بموجب تقرير خطي واعلمته بموضوع ماجد ابو جماع فقال لي عيسى: هذا الطالب الفاشل الذي حضر من بولندا، عليك ان تكون حذرا منه لانه من جماعة عرفات. ولم يدقق حول ماجد وقال: لا مانع ان تأخذ اغراضك وتقيم في قصر بن غشير لتكون على مقربة من الطلبة الفلسطينيين وتتمكن من جمع المعلومات. وكلفني ان احضر الى المقر كل يوم خميس لتقديم تقرير خاص.

وفي صباح اليوم التالي اخذت اغراضي واقمت في قصر بن غشير. واستمررت في الاقامة في ذلك المكان وكنت يوميا احاول توطيد العلاقة مع الطلبة بهدف جمع المعلومات عنهم وتقدمت بتقارير خطية الى عيسى حول الفلسطينيين المقيمين في قصر بن غشير ومنهم ابراهيم نواس منيب وقد اصيب بساقه ابان الانتفاضة وخرج للعلاج، وعيد سعد وهو اسلامي وممكن ان يكون من الجهاد ومحمد مصلح وعزام وهما من الجبهة الشعبية وايضا عن عدد من الطلبة الفلسطينيين. واصبحت اتردد على المقر كل يوم خميس واقابل عيسى واقدم له المعلومات.

في نهاية شهر ١٠-١٩٨٩ عدت بطلب من عيسى للاقامة في المقر، واعادني الى الغرفة التي كنت انزل فيها في السابق وفي اليوم التالي صباحا حضر الى غرفتي عيسى ومعه شخص عرفني عليه باسم الرفيق نعيم يوسف وقال: ستنتهي علاقتي معك ومنذ الان ستكون علاقتك مع نعيم. وامتدحني امام الاخير.

وبعدها غادر عيسى المقر وبقي معي نعيم يوسف الذي رحب بي ووعدني بأن يحضر في اليوم التالي ثم خرج، وفي اليوم التالي حضر نعيم ومعه ملف واطلعني على ما فيه: اي قصاصات من الجرائد وكلها تتحدث عن ابو اياد والتصريحات غير المسؤولة العائدة اليه ومنها تصريحه عن ان الثورة الفلسطينية لم تخرج من بيروت وبقي ثلاثة الاف مقاتل فيها. بعد هذا التصريح بفترة قصيرة حدثت مجزرة

صبرا وشاتيلا التي سببتها تصريحات ابو اياد غير المسؤولة وايضا قصاصة من جريدة مصرية تتحدث عن ثروات ابو اياد في الكويت واملاكه وايضا قصاصات ممكن ان تكون مطبوعة تتضمن ان ابو اياد هو السبب في اعتقال ثوار ومناضلين، وقام بتسليم مجموعات كاملة.

وبعد قراءة هذه القصاصات قال نعيم: يجب ان نضع حدا لهذا الانسان، وترشيح رفيق لوضع حد لابو اياد. وفهمت من نبراته انه قصدني لان اكون المرشح لتنفيذ هذه العملية. فقلت: هذا ليس بسيطا ويجب استشارتي، فقال بحزم: نحن تنظيم ولسنا شركة سياحية، وهذا ترشيح لك وانت تقدر على العودة الى "فتح" وتنفيذ العملية.

حاولت التذمر فلم يمهلني بقوله: نحن سألنا وعليك تنفيذ الاوامر. عندها فكرت بأهلي وخفت ان يتعرضوا للخطر، خاصة ان اخوتي معظمهم "قطاميط" لحم واخي الكبير مصاب وامرأة ابي مشلولة وابي كبير في السن وما زال يشقى من اجلنا. لم استطع الرد وخاصة لعلمي بأن هذا التنظيم باستطاعته امساكي من يدي التي توجعني، وفجأة قال لي نعيم يوسف: رئيس التنظيم كلف ابن اخيه بمهمة في لندن والاخير لم يتذمر ونفذ المهمة وهو حاليا معتقل فيها. قلت: طيب هذا عاطف ابو بكر كان عندنا وانفصل عن التنظيم وليش احنا لم نواجهه. فاجاب نعيم: عاطف نحن عارفينه تابع لـ "فتح" داخل التنظيم، لكن كنا ننوي اعادته الى رشده".

استغرقت في التفكير واصبحت في حالة سيئة وخاصة عند سماعي جدية عبارات نعيم بقوله: انت تنفذ هذا واما... لنا حلول ثانية. عدت الى التفكير لتأكيدي من قدرة هذا التنظيم على العمل ضد اسرة ضعيفة مثل اسرتي. ولم يطل بي الصمت وخاصة عندما قطع نعيم هذا الصمت قائلا ان ابو اياد هو المسؤول الكبير عن الاخطاء القاتلة في الثورة كما ان هذه الاخطاء هي التي اوصلت شعبنا الفلسطيني الى هذه الحالة، وان ابو اياد هو المسؤول الذي لم يردع امثال هواري. في تلك اللحظة اصبحت عندي ردة فعل داخلية، خاصة عندما تحدث عن هواري وبت ارى كل الناس سيئين مثل هواري. وانتهى هذا اللقاء بتوصية نعيم لي "خليك صاحي ومخك معاك... مفيش قرعة حتى نعملك قرعة".

بعد خروج نعيم من غرفتي جلست شبه مشلول وخشيت ان يصاب اهلي بأي ضرر و"الجماعة" يعرفون مدى ارتباطي باسرتي. وبعد ذلك ويوميا تكرر حضور نعيم الى غرفتي وكان في كل مرة يردد على مسامعي ان قتل ابو اياد هو عمل ثوري للشعب الفلسطيني وان ابو اياد هو مسؤول عن هواري وابو اياد هو المسؤول عن المسلكيات الخاطئة داخل الثورة وهو الذي تسبب في مأساة شق التنظيم وهو الذي قتل خمسة من الرفاق في البقاع في لبنان.

عندما اصبحت تحت تأثير كلام نعيم واقتنعت عمليا ان ابو اياد فعلا هو المسؤول عن كل هذه المصائب، وان هواري يجب ان يدفع ثمن سلوكه وهذا يقع على من هو اعلى منه سلطة، وابو اياد الذي كان اول من نادى بالعنف ضد العدو تخلى عن العنف وهو الذي كان ينادي بالكفاح المسلح ويتبناه فاصبح عاديا وتخلى عن الكفاح المسلح.

بعد هذا اللقاء طلب مني نعيم عدم مغادرة المقر لمدة يومين على ان اقرأ كل المجلدات التي احضرها الي وكلها حول ابو اياد. بالاضافة الى ان نعيم كان يتردد علي يوميا ويسمعني ان زوجة الشهيد لا يعنى بها والجريح يلقى دون ان يكترث له احد، والفلوس تنفق على ناس وناس، فاصبحت كمثل بالع الموس بالحدين وخاصة لاقتناعي بأن التنظيم يستطيع ان يفعل اي شيء. ومثال ذلك انني في يوم تخلفت عن كتابة التقرير اليومي فقال لي نعيم: اين التقرير اليومي يا رفيق فقلت له: لم اكتبه قال: لا شيء كتبناه عنك.

ومرة ثانية قال لي عيسى: لماذا لم تقدم التقرير اليومي الخطي؟ فأجبته: لم اكتبه لان مخي اليوم تعبان... وبعدما ارتاح قليلا قلت له اكتبه اجاب: لا خلاص، نحن كتبنا التقرير عنك مرة ثالثة سهوت في تقرير المتابعة اليومي ان اكتب انني اشتريت بعض المواد الخاصة بي للتسلية، وعندما قدمت هذا التقرير لعيسى قال لي: ان تقريرك ناقص يا رفيق. فقلت: كيف؟ اجاب: اثناء سيرك في الطريق اشتريت بعض الاغراض لتسليتك ولم تذكرها في التقرير. وعندها تأكدت انني مراقب وتثبت من قصدهم انهم يراقبون تحركات كل الناس.

كذلك كان نعيم يوسف باسلوبه الحازم يركز على وجوب تنفيذ العملية المرشح لها. وفي كل مرة كان يعيد على مسامعي حديث البذخ واللعب بالفلوس والزنا

وعدم الاكتراث بالمناضلين الجرحى. ومن هذه التعبئة الحاقدة يوميا اصبحت في حالة صحية ونفسية سيئة للغاية حيث نقص وزني واصبحت افكر بالهرب ثم راجعت نفسي وخشيت اتهامي بانني سرقت ارشيفهم وبالتالي سوف ينتقمون من اهلي. واصبحت اعيش شبه ضائع، خاصة ان نعيم يتردد على غرفتي يوميا ويكرر تعبئته لي حول النهج العرفاتي ومساوئه.

اصبحت اقارن بين مأساتي ودمار اهلي في حال عدم التنفيذ واذا نفذت فانني اتسبب في مأساة ودمار عائلة اخرى، لكنني فضلت حبي لاهلي واخترت ان انفذ ما كلفت به.

في اللقاء السابع المطول الذي تم بيني وبين نعيم في غرفتي في المقر وكان ذلك في شهر ١٢-١٩٨٩ وضع لي نعيم خطة للرجوع الى ابو الهول والعودة الى حركة "فتح" وطلب مني التردد الى مكتب المنظمة لمعرفة موعد وصول اي من قادة الحركة في ليبيا، وخاصة الاخ ابو الهول. وقال لي: يتردد على بيت الاخ ابو الهول العديد من القادة وبأمكانك تنفيذ قتل ابو اياد لدى حضوره الى بيت ابو الهول، وخاصة عند تعيين الحرس في بيت ابو الهول. وطلب مني بذل اقصى جهودي للعودة الى الحركة من خلال الاخ ابو الهول والعمل ضمن حراسات بيته. واستمرت هذه التعبئة حوالي اربعة اشهر مركزة حيث كان يوضح لي مكان وقوع بيت ابو الهول الجديد في المرسى. فقلت له ان البيت الذي خدمت فيه سابقا ليس كما تصفه. اجاب: بيت ابو الهول الحالي يقع في قرطاج ـ جنبعل ـ. وللدار بابان خلفي ورئيسي والحراسات الليلية على البابين وتوجد حديقة في الداخل وعلى الممر تقف سياراته الخاصة واعطاني وصفا كاملا لبيت ابو الهول الحالي.

في اواخر شهر ٤-١٩٩٠ وصل الاخ ابو عمار والاخ ابو اياد الى ليبيا لحضور احتفالات "القرضابية" وايضا لاحياء مناسبة ذكرى استشهاد الاخ ابو جهاد التي اقيمت في قاعة الشعب.

ذهبت الى القاعة وشاهدت الاخ ابو الهول والاخ ابو عمار وكانا جالسين الى المنصة. وفي اليوم التالي وبعدما اعلمت نعيم بأن ابو الهول في طرابلس ذهبت الى مكتب المنظمة وسألت حارس المكتب الذي كان يجلس خلف طاولة الاستقبال عن مكان اقامة الاخ ابو الهول فاجاب الحارس ويدعى سامي ، الاخ ابو الهول مقيم

في الفندق الكبير ومعه في نفس الفندق الاخ عبدالله الافرنجي والاخت ام جهاد. ذهبت الى الفندق المذكور حيث قابلت على بابه الاخ ابو عرب وبعدما سلمت عليه وقد عرفني سألته عن الاخ ابو الهول اجاب: في غرفته بالطابق الثالث فصعدت الى الطابق المذكور وقابلت مسؤول مرافقي الاخ ابو الهول احمد سعيد ومعه مسؤول امن المكتب الاخ وائل سكيسك بالغرفة المقابلة لغرفة الاخ ابو الهول. سلمت على احمد سعيد الذي يعرفني منذ كنت اخدم واياه لدى الاخ ابو الهول عام ١٩٨٦ وقال لي وينك انت، اجبته "والله في هذه البلد"، واريد ان اقابل الاخ ابو الهول طالبا منه ان يعيدني للعمل فاجابني احمد، الاخ ابو الهول مش فاضي اليوم ارجع بكرة".

غادرت الفندق الى المقر وقابلت نعيم يوسف واخبرته انني ذهبت الى الفندق وقابلت المرافقين، ابو عرب واحمد سعيد وان "الزلمة" مشغول (واقصد ابو الهول) فقال لي نعيم: عليك ان تقنع ابو الهول ليوافق على اعادتك للحركة والعمل عنده كحراسات. فهل وضعت في مخك اية قصة تبرر فيها المدة التي غبت فيها؟

قلت كنت سأروي امام ابو الهول انني اقمت في بولندا وطردت منها الى يوغسلافيا ولعدم تمكني من العيش فيها حضرت الى ليبيا وها انا اعمل فيها. قال نعيم وكيف ستبرر انت امضيت مدة طويلة في بولندا ولم تستطع العيش والبقاء في يوغسلافيا خاصة ان هواري في بلغراد؟ وتابع قوله: عليك ان تحفظ قصة وتسردها امام ابو الهول ليصدقك. اليوغسلاف لا يطردون وانما عليك ان تقول له انك عملت مع عصابة يوغسلافية لتزوير الدنانير والدولارات واختلفت مع اليوغسلاف الذين تتعامل معهم حيث قمت بسرقة احدهم وخفت على نفسك منهم فاضطررت للهروب من يوغسلافيا الى ليبيا ولكون الاخيرة لا تطلب تأشيرة للمسافر اليها...".

وهنا قلت لنعيم، احمد سعيد قد اقتنع بروايتي وتأكد انني محبط ماليا واكيد سينقل شعوره بحالتي السيئة للاخ ابو الهول.

بعد هذه الجلسة وفي اليوم التالي صباحا حملت في راسي الرواية التي ساعدني نعيم على تأليفها لاسردها امام ابو الهول، وعند وصولي الى الفندق صعدت الى الطابق الثالث وقابلت احمد سعيد الذي قال لي ها هو ابو الهول في الداخل مع عبدالله الافرنجي فطرقت الباب ودخلت للغرفة الكائنة في نهاية الممر لجهة اليسار

حيث كانت غرفة احمد سعيد على الجهة اليمنى داخل الغرفة سلمت على الاخ ابو الهول وتباوسنا ثم جلست وقلت له: اخ ابو الهول انا بدي ارجع وبدي اعيد علاقتي وانا اخطأت في السابق بهروبي من عندك وانني على استعداد لتلقي اية عقوبة تفرضها علي، وانا مستعد لاية محاكمة وان تحاسبني على اي قصور سابق ارتكبته واتمنى ان تقبل عودتي ثاني مرة لعندك.

لم احدث الاخ ابو الهول عن الاماكن والبلدان التي تنقلت وعشت فيها حيث اختصر الاخ ابو الهول الجلسة قائلا اذهب لاحمد سعيد واحكي له ما الذي حصل معك. وبعدها خرجت وجلست مع احمد سعيد وحكيت له القصة الوهمية وكيفية طردي من بولندا الى يوغسلافيا وهروبي من المافيا الى ليبيا واني كنت اريد الهجرة الى استراليا. حكيت له القصة التي ساعدني على تأليفها نعيم يوسف وبقيت مع احمد سعيد الى المساء.

استأذنت وغادرت الفندق الى المقر حيث قابلت نعيم وقدمت له تقريرا عن مقابلتي لابو الهول وسردي القصة الوهمية لاحمد سعيد واعلمته ان هناك شبه موافقة مبدئية من ابو الهول على اعادتي للعمل عنده. فارتاح نعيم لما حدث معي وقال هذا جيد وفي اليوم التالي ذهبت الى الفندق واقمت مع احمد سعيد في غرفته وبت ليلتين بالفندق الكبير بغرفة احمد سعيد.

يوم سفر الاخ ابو الهول قال لوائل سكيسك اقطع لحمزة تذكرة ليسافر الى تونس.

عند نزول الاخ ابو الهول رافقته الى باب الفندق حيث بوسني (قبلني) قبل سفره قائلا لا تنسى يا حمزة ان تأتي الى تونس واجبته بامرك.

وسافر الاخ ابو الهول وعدت الى المقر حيث قابلت نعيم يوسف واخبرته ان الاخ ابو الهول وافق على اعادتي وعملي كحراسات في بيته وانه اوصى وائل سكيسك ان يقطع لي تذكرة سفر كذلك اوصاني بالتردد على مكتب المنظمة وان اسمي قد ثبت في تونس لاتمكن من السفر اليها.

ارتاح نعيم لما حدث معي وللنتائج الجيدة التي حققتها وطلب مني ان اتردد على مكتب المنظمة لمتابعة موضوع التذكرة والتأكد من ان اسمي قد وضع لدخول تونس.

وفعلا تردد على المكتب حيث قابلت وائل سكيسك الذي اعطاني بتاريخ ٧-٥-١٩٩٠ تذكرة سفر باسم شخص اخر من عائلة الغول. وبعدما اتصل مع تونس هاتفيا اعلمني انه تم وضع اسمي لدخول تونس، وطلب مني مراجعة شركة الطيران لحجز التذكرة. وفعلا راجعت شركة الطيران وحجزت التذكرة وكان تاريخ السفر في ١٤-٥-١٩٩٠، واعلمت وائل بتاريخ الحجز ثم استأذنته وذهبت عائدا الى المقر وقابلت نعيم يوسف وقدمت له تقريرا بحصولي على تذكرة سفر وحجزي عليها وان اسمي موضوع في تونس لدخولي اليها، فرد نعيم: ممتاز ويعني انك ستسافر الى تونس وتعمل في بيت ابو الهول.

في اليوم التالي مساء وكان بتاريخ ٢٩-٥-١٩٩٠ حضر نعيم وقال: سنقابل رئيس التنظيم اجبته: ماشي الحال. نزلنا الى الشارع حيث ركبنا سيارة بيجو وكان ينتظرنا بداخلها عيسى جلست على المقعد الخلفي وقاد السيارة نعيم. الذي طلب مني ان احني نفسي على المقعد الخلفي، حتى لا يراني احد اثناء ركوبي معهم، سارت السيارة حوالي ثلث ساعة بعدها اوقف نعيم السيارة ونزلنا نحن الثلاثة ودخلنا الى بناية وصعدنا الدرج الى الطابق الثاني حيث قرع نعيم جرس الشقة الواقعة على الجهة اليسرى وبعدما فتح الباب دخلنا الى الصالة فطلب مني نعيم الجلوس على الكنبة الكبيرة وجلس الى جانب عيسى ثم دخل نعيم الى احدى الغرف، وبعد ثلاث دقائق خرج وطلب مني اللحاق به الى غرفة اخرى بالشقة. دخلنا نحن الثلاثة الى تلك الغرفة التي كانت تضم صالونا فخما يضم كنبة كبيرة واربع كنبات صغيرة لون سكني مورد، وبالوسط طاولة زجاجية وبين الكنبة الكبيرة والكنبة الصغيرة طاولة زجاجية صغيرة. كانت ارض الغرفة مفروشة بسجادة حمراء. وبعد لحظات من دخولنا دخل المسؤول عن التنظيم وهو يلبس بدلة سفاري لو خيشي وهو متوسط الطول، ومعتدل البنية. "زلمة" كبير بالعمر بالخمسينات، اصلع.

وقفنا نحن الثلاثة وتقدم المسؤول مني وعندما صافحته قال لي: الرفيق ابو.. ثم امرنا بالجلوس وبعد جلوسه جلسنا. وجه المسؤول حديثه لي قائلا انا احب الشباب عندما نأمرهم بأمر ان ينفذوه، اجبته: نعم.

وتابع: نحن اخترناك لهذه المهمة وبدك تنفذها. وانت الذي تصلح لها خاصة انك حصلت على موافقة من ابو الهول لاعادتك، وهذا امر ولازم تنفذه وامرنا لا

تستطيع ان تعفي نفسك منه. اجبته حاضر وماشي الحال وتابع: انا مسؤول التنظيم بيدي ان اجعلك واهلك تتمتعون بحياة سعيدة واذا تقاعست بيدي ان ادمرك واهلك، وتأكد انه ستكون لك الحياة ولاهلك عند نجاحك بالتنفيذ وكذلك ستكونون سعداء. ونحن مش حننساك كتنظيم وانت عارف ان هؤلاء جماعة عرفات وخصوصا ان ابو اياد مطلوب منا ولازم نصفيه وقتله لصالحك ولصالح التنظيم. ابو اياد هذا خرب التنظيم وهو ضد اي شيء فلسطيني والاختيار صار عليك ولا تراجع عن هذا الاختيار ونحن عندنا اسلوب اما ان تعيش انت واهلك عيشة سعيدة خاصة ان اهلك فقراء وتتمنى لهم السعادة او يقع الدمار عليكم وانت تعرف احنا تنظيم واياديناً طويلة.

ثم شرح لي كيفية تنفيذ عملية قتل ابو اياد بقوله: عند حضور ابو اياد لبيت ابو الهول عليك ان تستخدم سلاح الحراسات الذي معك وتطلق النار بغزارة وعلى مقربة على ابو اياد. وعليك تصويب النيران الى الجزء الاعلى من جسده وتتأكد من موته. ثم سألني: هل تحسن استخدام السلاح والرماية؟ اجبته: انني رامي جيد واجيد استخدام السلاح والرماية. فقال : ستنجح بالعملية وخاصة انك ستطلق النار على ابو اياد من مسافة قصيرة، وبعدما تتأكد من قتل وموت ابو اياد تهرب الى تونس المدينة ومباشرة الى القرى الشمالية التي تقع على حدود تونس ـ الجزائر شمالا، ونحن كتنظيم نستطيع التقاطك. وطمأنني انه فيما لو اعتقلت فان التنظيم سينفذ عمليات مقابل استردادي وتخليصي ووعدني بالمكافأة وبحياة كريمة لي.

في هذه الغرفة التي قابلت فيها المسؤول عن التنظيم ولمدة حوالي ثلاثة ارباع الساعة كنت اجلس انا ونعيم على الكنبة الطويلة وكان المسؤول يجلس على الكنبة الصغيرة المجاورة لي والتي يفصلني عنها فقط طاولة زجاجية (اسكملة) عيسى كان جالسا على الكنبة الفردية المجاورة لنعيم وطيلة ذلك اللقاء لم ينطق عيسى او نعيم بأية كلمة الحديث كان دائما بيني وبين المسؤول.

في نهاية هذا اللقاء خرج المسؤول بعد ان سلم علي بشدة بكلتا يديه وامرني بالتنفيذ وعدم التقاعس وكانت لهجته عصبية وحازمة بعد خروجه خرجت انا ونعيم يوسف وعيسى وغادرنا الشقة الى السيارة وبواسطتها ذهبنا الى المقر حيث دخلت لغرفتي وعلى ان يأتيني نعيم في اليوم التالي وفي اليوم التالي حضر نعيم

واعاد على سمعي خطة تنفيذ قتل ابو اياد والسلاح الذي سأستخدمه وكيفية اخلاء المكان بعد التنفيذ والهرب الى العاصمة تونس ومنها مباشرة الى القرى الحدودية الشمالية من الجزائر والاقامة في احد فنادق البلدة التي نسيت اسمها والكائنة عند الحدود الشمالية بين الجزائر وتونس وعلى ان يكون الفندق من الدرجة الاولى على ان اجلس في الصباح في افضل مقهى في البلدة ومن هناك التقط من قبل جماعتي. وقال لي ان علي ان استخدم جواز سفري الاردني المزور باسم عساف جابر المهدي لدخول الجزائر، كما ردد عبارات المسؤول عن التنظيم بأن السعادة ستشملني واهلي بعد تنفيذ قتل ابو اياد. وسيعم الخير على التنظيم وعلى فلسطين، وحذرني من التخاذل لان التنظيم له اساليبه الخاصة في تدميري واهلي الذين لن تقوم لهم قائمة.

حاولت ان ادخل اسم عاطف الذي تسبب في شق التنظيم فرد بحزم: القرار قرار والامر امر وقرار التنظيم ان تنفذ قتل ابو اياد وكان جافا وحازما في حديثه معي، ثم وعدني ليعود الي ثانية.

وفي اليوم التالي عاد الى غرفتي وسلمني مبلغ (٨٠٥٠ دولارا) بعدما وقعت له على وصل استلام، ثم غادر الغرفة.

بتاريخ ١٤-٥-١٩٩٠ ذهبت الى مطار طرابلس وقابلت الاخ سكيك الذي عرفني في المطار على قاسم ابن اخ احمد سعيد الذي سافر معي الى تونس للعمل كزميل لي في الحراسات بيت ابو الهول وعند وصولنا الى تونس التحقت بعملي كحراسات في بيت الاخ ابو الهول وبقيت اترقب مجيء ابو اياد الى بيت ابو الهول.

من شهر خمسة حتى شهر عشرة ١٩٩٠ لم يحضر ابو اياد ولا مرة الى بيت ابو الهول ووجدت هذه المدة فرصة لاتخلص من العملية المكلف بتنفيذها وفي بداية ١٠-١٩٩٠ قلت للاخ ابو الهول اريد اجازة الى ليبيا لمشاهدة اختي التي مضى علي اثنا عشر عاما دون ان اراها وقلت له انها حضرت الى ليبيا واتمنى الموافقة على ان اسافر لاراها، فاعطاني الاخ ابو الهول اجازة لمدة اسبوع وتذكرة سفر اشتراها لي محمد حمدان.

بتاريخ ٤-١٠-١٩٩٠ غادرت تونس جوا بموجب جواز سفري الاردني المزور

باسم عساف جابر المهدي الى طرابلس، ومن المطار ذهبت مباشرة الى المقر الكائن في منطقة السويحلي والخاص بجماعة التنظيم وطرقت جرس الباب ففتح لي المسؤول عن باب المقر حيث يعرفني ودخلت الى غرفتي السابقة وقابلت نعيم وقدمت له تقريرا عما حدث معي طيلة الخمسة اشهر واخبرته انني انتظرت خمسة اشهر مجيء ابو اياد الى ذلك البيت وربما لن يحضر فاجابني نعيم: يا اخي استكثرت خمسة اشهر؟ فاجبته خطة قتله فاشلة، فاجابني بحزم عليك بتنفيذها وكما وضعت. ولماذا لم تنفذ التوصيات بعدم التشاجر مع احد في تونس، لقد تشاجرت مع زياد عبد الفتاح وهذا خرق للتعليمات. المسؤول عن التنظيم افهمك بأن تكون مسلكيتك في تونس جيدة، وعدم المشاجرة مع احد حتى لا تكون مشاجرتك مبررا لطردك من تونس، فاجبته بأنني كنت محتدا على المصريين واعتقدت ان زياد عبد الفتاح مصري كونه يتحدث وزوجته باللهجة المصرية.

شرحت لنعيم انني اثناء وجودي في تونس تعرفت على تحركات عاطف ومكان سكنه بالمرسى فأجابني: سيبك من عاطف ونحن قادرون على الوصول اليه في اي وقت نريد.

اصر نعيم على رجوعي الى تونس خلال اسبوع، وبقيت طيلة هذه المدة في البيت لا بل في المقر. ومرة خرجت الى صالة فندق البحر المتوسط للتسلية ومشاهدة التلفزيون واثناء جلوسي سمعت شخصا جزائريا يجادل شخصا تونسيا ففهمت انهما يتحدثان بخصوص جواز سفر ولعدم موافقة التونسي على شراء جواز السفر هذا ترك زميله وخرج فحاول الجزائري الخروج من الفندق فلحقت به وسألته هل كنت تعني انك ستبيع جواز سفر؟ اجابني بعد تأمل نعم واتفقت واياه ان اشتري منه جواز السفر الجزائري بمبلغ ١١٠ دنانير ليبية بعدما يضع عليه صورتي وسلمته الصورة في اليوم التالي وفي الصالة تسلمت منه الجواز الجزائري وعليه صورتي ودفعت له مبلغ ١٠٥ دنانير تونسية بحجة انني لا املك غيرها وعندما عدت للمقر اخبرت نعيم بقصة جواز السفر الجزائري وابرزته امامه فاستحسن ذلك ودفع لي ثمن الجواز مائة وخمسة دنانير ليبية وقال: اذا بعدما تنفذ عملية قتل ابو اياد تستخدم الجواز الجزائري لدخول الجزائر بدلا من جواز سفرك الاردني المزور.

طيلة مدة اقامتي في المقر كان نعيم يحضر الي ويتكلم بلسان مسؤول التنظيم محرضا اياي مهددا تارة ومرغبا تارة اخرى.

بتاريخ ١١-١٠-١٩٩٠ غادرت طرابلس وعدت الى تونس حيث سمح لي بالدخول وعدت لعملي كعنصر حراسات في بيت ابو الهول ولغاية ١٤-١-١٩٩١ حيث ذهبت عند المغرب الى بيت زميلي رمضان سالم الذي كنت اتردد عليه باستمرار لمشاهدة نشرة الاخبار المتلفزة.

في ذلك المساء وفي بيت رمضان سالم شاهدت نشرة الاخبار على التلفزيون وبعد انتهائها خرجت واياه الى بيت ابو الهول لنقوم بمهمة الحراسة.

اوقفت السيارة بالنزلة الخلفية للبيت كالعادة ثم دخلت من الباب الخلفي واخذت سلاحي الفردي كالعادة صعدت الى حديقة البيت للسلام على الشباب المناوبين وبعدها خرجت الى حديقة البيت وكانت الساعة حوالي الثامنة والنصف مساء، فشاهدت سيارة سوداء مصفحة فسالت الحارس امام الباب الرئيسي للبيت وهو علي قاسم: من الزوار عندنا؟ فاجابني بكلام لم افهمه عندها دخلت الى غرفة المرافقين المجاورة للباب الرئيسي لاقف الى جانب علي قاسم وكنت متاكدا من ان الزائر هو ابو اياد وذلك من خلال مرافقيه الذين شاهدتهم في غرفة المرافقة. وبقيت انتظره بالخارج قرب مكان توقف السيارات بالممر الداخلي واترصد خروجه لاطلق عليه الرصاص وانسحب.

انتظرت كثيرا حوالي اكثر من ساعتين لكن ابو اياد لم يخرج، واثناء وقوفي مزح معي علي بقوله: شو رأيك "اطخ" على هذه السيارة ويقصد المرسيدس بزخات من الرصاص مقابل ان تعطيني مخصصك ومهمتك الشهرية؟ كان رمضان سالم واقفا الى جانبنا ومعه ابو شهاب (جوهر عطية)، وحتى لا يشتبهوا بي عند سحبي اقسام البندقية قلت لهم: يا شباب وين الرش وين الحبة حبة واضعا اصبعي على الامان، فضحكوا وقال احدهم على الوسط رش. فصرت اتكتك بالامان.

استمريت واقفا في الممر، بعدها ذهب رمضان وجوهر عاد رمضان ليقول لي ان مهند عرب يطلب مني الذهاب اليه والقيام بحراستي على الباب الخلفي فاجبته: انتظر قليلا لاكلم الاخ ابو اياد كلمتين "شو صار بقضية فلسطين؟".

وبقيت واقفا الى جانب علي وتململت قائلا له: ما طلعش الاخ ابو اياد؟ وكنت في داخلي افكر بامكانية تنفيذ العملية بداخل البيت حيث تكون عملية الانسحاب اقلّ خطورة.

حاولت الهاء علي بقولي: شايف هذه اللمبة واقصد تلك المثبتة على مدخل المنزل فيها شورت (خلل كهربائي) اذهب يا علي وقول لهم (واقصد من بداخل منزل ابو الهول) انه يوجد شورت في اللمبة، فاجابني علي: سيبك وكنت اقصد باختلاق موضوع "الشورت" اللمبة انه في حال رأني علي اطرق باب منزل ابو الهول لا يظن بي.

استغللت دخول علي لغرفة المرافقين المجاورة للباب الرئيسي ورحت الى باب منزل الاخ ابو الهول وقرعت الجرس وبعدما فتحت الشغالة الفلبينية الباب دخلت للمنزل ومباشرة الى الصالة. وكان الاخ ابو محمد (لم اكن اعرفه) موجودا وابو اياد وابو الهول جالسين وبينهما الطاولة الصغيرة فقلت مساء الخير ووجهت بندقيتي الى ابو اياد واطلقت النار بغزارة باتجاهه.

واكيد اصيب ابو محمد بطلقاتي في كتفه الايسر والاخ ابو الهول اصيب بطلقاتي عند مروره من امام مرمى النيران واستمر سائرا على قدميه وخرج من الباب.

بعدما تأكدت من موت ابو اياد اسرعت الى باب المنزل فسمت صوت المرافقين.

لم اكن اريد اطلاق النار عليهم فدخلت لداخل المنزل واطلقت النار على الارض ثم صعدت الدرج الى الطابق العلوي لاقفز من باب الشرفة الى الشارع.

اثناء صعودي الدرج قابلتني ام الهول وابنتها "رولى" وكانتا تريدان النزول فقلت لهما انتظرا ولكونهما اصرتا على النزول اجبرتهما على الصعد واجلستهما في الغرفة، وبعد قليل صعدت الخادمة الاريتيرية فأجلستها معهما، واذ بأحمد سعيد ينادي من تحت: يا حمزة انزل قتلتهم! فقلت له: بدي عاطف، لدي رسالة شفوية اريد ان اوصلها له. في داخلي كنت متأكدا ان سبب مأساتي وقتل ابو اياد هو عاطف.

نادى احمد. الاخت نادرة موجودة؟

اجبته: نعم، وقالت هي انا موجودة يا احمد.

بعد ذلك قال احمد: عاطف ليس موجودا وهنا ابو ثائر قلت له: فليتكلم قال ابو ثائر من الاسفل: يا خالي اجبته: نادى لي عاطف، قال: طيب وراح ولم يعد.

رجع احمد سعيد وناداني من الاسفل، قلت بدي عاطف، اجاب عاطف ليس موجودا قلت له: اريد ناس من الداخلية التونسية.

حضر واحد وناداني من الاسفل قائلا انه مسؤول من الداخلية، وقلت: اريد عاطف اجابني هو في الجزائر. عندها قلت له: وماذا يثبت لي انك من الداخلية قال بطاقة التعريف، قلت: اقذفها لي الى الاعلى. وفعلا قذفها فوقعت على الدرج وعندها قال انزل طولها، فقلت له: ابعث واحد من عندك يأخذها واربطها بشيء ثقيل واقذفها لعندي ثانية. وفعلا صعد احدهم نازعا ملابسه من الاعلى وطلب مني الامان فقلت اصعد واخذ البطاقة من على الدرج ونزل واعيد قذفها للاعلى باتجاهي.

وعندما مسكت البطاقة طلبت ان يقذفوا لي "وقيدة" ولاعة وبعدما تثبت من الهوية باشعال عود الثقاب تأكدت ان صاحبها بلقاسيم سنبطع من الداخلية التونسية، بعد ذلك القيت له الهوية وبسبب اصابتي بارهاق نتيجة الوضع وبسبب النعاس قمت بحرق جواز سفري الاردني المزور حتى لا يفطن احد لذهابي الى الفلبين وحرقت فواتير السيارة وناديت: انا نازل. وفعلا نزلت على الدرج والقيت بسلاحي والمخزنين ثم تم اعتقالي من قبل الامن التونسي الذي نقلني مخفورا الى الداخلية التونسية رهن التحقيق.

حضر واحد وناداني من الاسفل.

الكتب الصادرة عن دار الجليل

الرقم المتسلسل	اسم الكتاب	المؤلف	المترجم
١-	عمود النار ، الأسطورة التي قامت عليهااسرائيل		غازي السعدي
٢-	الأستيطان ، التطبيق العملي للصهيونية طبعة جديدة (مزيدة ومنقحة)	عبد الرحمن ابو عرفة	
٣-	حرب الجليل ، الحرب الفلسطينية ـ الأسرائيلية ، تموز ١٩٨١	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٤-	الكتاب السنوي ١٩٨١ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة .	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي ، نواف الزرو ، غسان كمال	
٥-	الكتاب السنوي ١٩٨٢ ، توثيق لأبرز المعلومات والأحداث في فلسطين المحتلة	هيئة الرصد والتحرير غازي السعدي ، نواف الزرو ، غسان كمال	
٦-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (١) شهادات ميدانية لضباط وجنود العدو	بدر عبد الحق وغازي السعدي	
٧-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٢)	مايكل جانسن	محمود برهوم
٨-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٣) وثيقة جرم وادانة	غازي السعدي	
٩-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٤) اهداف لم تتحقق	غازي السعدي	
١٠-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٥) معتقل انصار ـ وصراع الارادات	سليم الجنيدي	
١١-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٦) الحرب المضللة	زئيف شيف و ايهود يعاري	غازي السعدي
١٢-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٧) فظائع الحرب اللبنانية		زكي درويش
١٣-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٨) هزيمة المنتصرين وانتصار القضية	اللجنة ضد الحرب في لبنان	
١٤-	الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان (٩) الأسرى اليهود وصفقات المبادلة	غازي السعدي	
١٥-	رسائل من قلب الحصار من ابو عمار الى الجميع		
١٦-	يوميات من سجون الاحتلال ـ زنزانة رقم (٧)	فاضل يونس	

١٧-	المثلث الايراني : العلاقات السرية الاسرائيلية ـ الأمريكية الايرانية في عهد الشاه	الصحفي شموئيل سيجف	غازي السعدي
١٨-	هل يوجد حل للقضية الفلسطينية ؟ مواقف اسرائيلية	الوف هرابين	غازي السعدي
١٩-	عملية الدبويا كما يرويها منفذوها	المحامي درويش ناصر	
٢٠-	مراكز القوى في اسرائيل ١٩٦٣- ١٩٨٣ ونموذج صنع القرار السياسي في اسرائيل	دكتور نظام بركات	
٢١-	مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧- ١٩٨٥	منير الهور وطارق الموسى	
٢٢-	غوش ايمونيم ـ الوجه الحقيقي للصهيونية	داني روبنشتاين	غازي السعدي
٢٣-	عش العصفور ـ قصة للأطفال	منير الهور	
٢٤-	رؤى مستقبلية عربية في الثمانينات	د . احمد صدقي الدجاني	
٢٥-	أيام دامية في المسجد الأقصى المبارك	الدكتور احمد العلمي	
٢٦-	حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير	يوسف قراعين	
٢٧-	الأحد الأسود : تصور امريكي صهيوني للعمل الفدائي الفلسطيني	حسن اسماعيل مشعل	
٢٨-	خارطة فلسطين ـ وهي خارطة تمثل سهول وهضاب وجبال ووديان ومدن وقرى فلسطين (ملونة)		
٢٩-	بروتوكولات حكماء صهيون ـ المجلد الاول	عجاج نويهض	
٣٠-	بروتوكولات حكماء صهيون ـ المجلد الثاني	عجاج نويهض	
٣١-	الاردن وفلسطين ـ وجهة نظر عربية	د . سعيد التل	
٣٢-	الاقتصاد الاسرائيلي بين دوافع الحرب والسلام	د . فؤاد حمدي بسيسو	
٣٣-	الاستعمار وفلسطين	رفيق شاكر النتشة	
٣٤-	الحرب من اجل السلام	عيزر وايزمن	غازي السعدي
٣٥-	الموساد ، جهاز المخابرات الاسرائيلي السري	دنيس اينبرغ ، ايلي لانداو اوري دان	
٣٦-	التوازن العسكري في الشرق الاوسط	مركز الدراسات الاستراتيجية بجامعة تل ابيب	نبيه الجزائري
٣٧-	بطاقات فنية (لوحات فنية تعبر عن الانتماء الفلسطيني)	د . كامل قعبر	
٣٨-	بطاقات فنية (مجموعة) بطاقات على شكل دفتر الشيكات	د . كامل قعبر	
٣٩-	الكتاب الأسود عن يوم الأرض ٣٠ آذار ١٩٧٦		
٤٠-	في سريبة الصحراء	سميح القاسم	

٤١- الخيار النووي الاسرائيلي — شاي فيلدمان — غازي السعدي
٤٢- انتهاك حقوق الانسان في الأراضي المحتلة — سليم ابو غوش
شهادات مشفوعة بالقسم
٤٣- نقاط فوق الحروف
مناقشة لردود الفعل تجاه مبادرتي الأمير فهد خالد الحسن
وبريجنيف
٤٤- قراءة سياسية في مبادرة ريغان — خالد الحسن
٤٥- فلسطينيات — خالد الحسن
٤٦- الاتفاق الأردني الفلسطيني للتحرك المشترك — خالد الحسن
٤٧- من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (١) يعقوب الياب — غازي السعدي
جرائم الأرغون وليحي ١٩٣٧- ١٩٤٨
٤٨- من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٢) — غازي السعدي
مجازر وممارسات ١٩٣٦- ١٩٨٣
٤٩- من ملفات الارهاب الصهيوني في فلسطين (٣) د. حمدان بدر
دور الهاغاناه في انشاء اسرائيل
٥٠- ملصق يوم الأرض — سليمان منصور
٥١- ملصق جمل المحامل — سليمان منصور
٥٢- ملصق قبة الصخرة ـ صورة تبرز معالمنا التاريخية
والدينية في القدس
٥٣- فلسطين تاريخا ونضالا — نجيب الأحمد
٥٤- فلسطينيات في سجن النساء الاسرائيلي طيسور المحامي وليد الفاهوم
نفي ترتسا
٥٥- المؤسسة العسكرية الصهيونية في دائرة الضوء بشير البرغوثي
اسرائيل عسكر وسلاح (١)
٥٦- اتفاقيات السلم المصرية ـ الاسرائيلية في نظر
القانون الدولي — محمد الرفاعي
٥٧- الجذور ـ وثيقة الأوقاف الاسلامية — فتحي فوراني
٥٨- فلسطين .. الأرض والوطن (١) قرية الدوايمة موسى عبدالسلام هديب
٥٩- خط الدفاع في الضفة الغربية — أريه شليف — غازي السعدي
وجهة نظر إسرائيلية
٦٠- تشريقة بني مازن — د. عبداللطيف عقل
٦١- القمع والتنكيل في سجن الفارعة — لجنة الحقوقيين الدوليين
القانون من أجل الانسان
٦٢- صورة العربي في الأدب اليهودي (١) — الدكتورة ريزا دومب — عاطف عطاري
٦٣- الشخصية العربية (٢) في الأدب العبري الحديث غانم مزعل
١٩٤٨- ١٩٨٥

٦٤-	فلسطين أرض وتاريخ	د . محمد النحال	
٦٥-	القدس ماضيها ، حاضرها ، مستقبلها	فايز فهد جابر	
٦٦-	القضية الفلسطينية في القانون الدولي .. والوضع الراهن	د . جابر الراوي	
٦٧-	شوكة في عيونكم	مئير كهانا	غازي السعدي
٦٨-	حرب الاستنزاف	د . محمد حمزة	
٦٩-	القرار - ألفان واثنا عشر يوما في سجون الاحتلال	رشاد أحمد الصغير	
٧٠-	المطامع الاسرائيلية في مياه فلسطين والدول العربية المجاورة	بشير شريف البرغوثي	
٧١-	أزمة الاستخبارات الاسرائيلية	تسفي لنير	قسم الدراسات
٧٢-	اسرائيل عام ٢٠٠٠ (تصورات اسرائيلية)		
٧٣-	دعوى نزع الملكية الاستيطان اليهودي . والعرب في الفترة ١٨٧٨- ١٩٤٨	أريه . ل . افنيري	بشير البرغوثي
٧٤-	ندوة مشاكل التعليم الجامعي في الوطن المحتل والروح الجماعية		
٧٥-	سميح القاسم - قصائد - شخص غير مرغوب فيه		
٧٦-	القضية الفلسطينية	أكرم زعيتر	
٧٧-	فلسطين الأم وابنها البار - عبدالقادر الحسيني	عيسى خليل محسن	
٧٨-	عرب التركمان - أبناء مرج ابن عامر	علياء الخطيب	
٧٩-	المرأة الفلسطينية والاحتلال الاسرائيلي	ميسون العطاونة الوحيدي	
٨٠-	نادية برادلي - الفدائية المغربية الشقراء		غسان كمال
٨١-	الاعلام الاسرائيلي	غازي السعدي ومنير الهور	
٨٢-	تقرير الأرض المحتلة المقدم الى الدورة (١٨) للمجلس الوطني الفلسطيني	قسم الدراسات والأبحاث	
٨٣-	الوجه الحقيقي للموساد	د . وجيه الحاج سالم وانور خلف	
٨٤-	العمق الاستراتيجي في الحروب الحديثة		بدر عقيلي
٨٥-	شخصيات صهيونية (١)	مذكرات الجنرال رفائيل ايتان	غازي السعدي
٨٦-	شخصيات صهيونية (٢) وتهجير يهود العراق	شلومو هيلل	غازي السعدي
٨٧-	شخصيات صهيونية (٣) ثيودور هيرتسل عراب الحركة الصهيونية	قسم الدراسات	
٨٨-	شخصيات صهيونية (٤) شـــارون بلدوزر الارهاب الصهيوني		غازي السعدي
٨٩-	شخصيات صهيونية (٥) آباء الحركة الصهيونية		عبدالكريم النقيب
٩٠-	شخصيات صهيونية (٦) موشيه ديان .. أنا وكامب ديفيد		غازي السعدي

٩١-	شخصيات صهيونية (٧) بن غوريون والعرب		غازي السعدي
٩٢-	شخصيات صهيونية (٨) رسائل بن غوريون		الأميرة دينا عبدالحميد
٩٣-	شخصيات صهيونية (٩) حياتي .. غولدا مائير		دار الجليل
٩٤-	شخصيات صهيونية (١٠) حركة التصحيح الصهيونية من عهد جابوتنسكي الى عهد شامير	ليني برينر	دار الجليل
٩٥-	شخصيات صهيونية ١١/١ مذكرات اسحق رابين - القسم الأول		دار الجليل
٩٦-	شخصيات صهيونية ١١/٢ مذكرات اسحق رابين - القسم الثاني		دار الجليل
٩٧-	شخصيات صهيونية ١٢ مذكرات ناحوم غولدمان		دار الجليل
٩٨-	ششخصيات صهيونية ١٣ مذكرات اسحق شامير		دار الجليل
٩٩-	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الأول	زياد عودة	
١٠٠-	من رواد النضال الفلسطيني ١٩٢٩- ١٩٤٨ الكتاب الثاني	زياد عودة	
١٠١-	الحركة العمالية العربية في فلسطين	سليم الجنيدي	
١٠٢-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (١) سلاح الجو الاسرائيلي	زئيف شيف	دار الجليل
١٠٣-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٢) سلاح الاستخبارات الاسرائيلي	عوديد غرانوت	دار الجليل
١٠٤-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٣) سلاح الهندسة	عمي شامير	دار الجليل
١٠٥-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٤) سلاح المشاة	نتان روعي	دار الجليل
١٠٦-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٥) سلاح المظليين	ايلان كفير	دار الجليل
١٠٧-	دراسات في تعليم الكبار	د . عدنان أبو عمشة	
١٠٨-	وجه قبيح في المرآة	بروفيسور ادير كوهن	غازي السعدي
١٠٩-	تاريخ ما أهمله التاريخ	عبدالهادي جرار	
١١٠-	الاعلام الفلسطيني	د . حسين أبو شنب	

١١١-	النزاع العربي ـ الاسرائيلي بين فكي كماشة الدول العظمى	موشه زاك	دار الجليل
١١٢-	تحت السياط	فاضل يونس	
١١٣-	الغضب	اكرم النجار	
١١٤-	جلسات في رغدان	د . يوسف هيكل	
١١٥-	منجل في النجمة السداسية (التجسس السوفياتي في اسرائيل)	ايسر هرئيل	بدر عقيلي
١١٦-	اشكالية الديمقراطية والبديل الاسلامي في الوطن العربي	خالد الحسن	
١١٧-	تعليم الفلسطينيين ماضيا وحاضرا ومستقبلا	د . عبدالقادر يوسف	
١١٨-	صرخة في وجه العالم (اليوم الانتفاضة)	دار الجليل	
١١٩-	الاستخبارات والأمن القومي	المقدم احتياط تسفي عوفر والرائد آفي كوبر	دار الجليل
١٢٠-	الاحزاب والحكم في اسرائيل	غازي السعدي	
١٢١-	ربيع الحياة	د . يوسف هيكل	
١٢٢-	قبس من تراث المدينة والقرية الفلسطينية	صباح السيد عزازي	
١٢٣-	اشتعالات حمدان ـ مجموعة قصصية	اكرم النجار	
١٢٤-	الحافلة رقم ٣٠٠ و(فضيحة الشين بيت)		احمد بركات
١٢٥-	آه يابلدي ـ رواية	اكرم النجار	
١٢٦-	معجم المصطلحات الصهيونية	افرايم ومناحم تلمي	احمد بركات العجرمي
١٢٧-	من القمع الى السلطة الثورية	قدري أبو بكر	
١٢٨-	أيام الصبا صورة من الحياة وصفحات من التاريخ	د . يوسف هيكل	
١٢٩-	معجم الأمثال الشعبية الفلسطينية	فؤاد ابراهيم عباس وعمر شاهين	
١٣٠-	صناعة قرارات الأمن الوطني في اسرائيل		بدر عقيلي
١٣١-	قمع شعب شهادات ميدانية مشفوعة بالقسم		بشير شريف البرغوثي
١٣٢-	جليلة .. وهج في جذور الانتفاضة ـ رواية	اكرم النجار	
١٣٣-	اسلحة وإرهاب وجهات نظر اسرائيلية في ثلاثة ابحاث		دار الجليل
١٣٤-	حدود (أرض اسرائيل)	موشيه رافر	بدر عقيلي
١٣٥-	هذه قضيتك ياولدي	سليم عبدالعال القزق	
١٣٦-	حرب سيناء ١٩٥٦ ـ تصورات اسرائيلية		بدر عقيلي
١٣٧-	المثلث الايراني ـ الكتاب الثاني ـ دراما العلاقات الايرانية ـ الاسرائيلية ـ الامريكية	شموئيل سيجف	دار الجليل
١٣٨-	الفاشية الاسرائيلية	المحامي درويش ناصر	

١٣٩-	النظرية العسكرية الاسرائيلية ـ دفاع وهجوم	اريئيل لفيتا	دار الجليل
١٤٠-	الأمن القومي العربي	العميد محمد يوسف العملة	
	ونظرية تطبيقه في مواجهة الامن الاسرائيلي		
١٤١-	سياسة اسرائيل الأمنية	المحرر زئيف كلاين	بدر عقيلي
١٤٢-	دقيقتان فوق تل ابيب	محمد أزوقة	
١٤٣-	الهجرة اليهودية حقائق وارقام	د . عمران ابو صبيح	
١٤٤-	انتفاضة	زئيف شيف وايهود يعاري	دار الجليل
١٤٥-	جواسيس المخابرات الاسرائيلية	يوسي ميلمان ودان رافيف	دار الجليل
	تاريخ .. وجغرافيا		
١٤٦-	دولة اسرائيل ـ زائلة	يعقوب شريت	دار الجليل
١٤٧-	الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية	محمد خالد الأزعر	
١٤٨-	بقايا من خبز وكتاب	اكرم النجار	
١٤٩-	اسرائيل في حرب الخليج	غازي السعدي.	
١٥٠-	المثلث المحتوم	احمد عزالدين بركات	
	الولايات المتحدة ـ اسرائيل والفلسطينيون		
١٥١-	الاستيطان الاسرائيلي جغرافيا وسياسيا	بروفيسور أليشع إيفرات	دار الجليل
١٥٢-	حرب السكاكين في نظر الاسرائيليين	زياد ابو صالح ورشاد المدني	
١٥٣-	انتفاضة العصافير	نجوى قعوار فرح	
١٥٤-	موسوعة عشائر وعائلات فلسطين (١)	فائز أبو فردة	
	القدس مدنها وقراها		
١٥٥-	انهيار نظرية الأمن الاسرائيلية	عمنوئيل فالد	احمد بركات العجرمي
١٥٦-	الموسوعة العسكرية الاسرائيلية (٦)	حشافيا أريه	دار الجليل
	سلاح الدروع		
١٥٧-	بولارد	برنارد ر . هندرسون	دار الجليل
	قصة جاسوس		
١٥٨-	أبو عجاج العينبوسي	عيسى خليل محسن	
	الدكتور الثائر		
١٥٩-	قناع القناع	محمد نورالدين شحادة	
١٦٠-	الأسلحة الكيماوية والبيولوجية	د . عادل احمد جرار	
	ـ وتأثيراتها البيئية ـ		
١٦١-	دولة مجدو	عبدالله عواد	
١٦٢-	الشَّبَح	عبدالله عواد	
١٦٣-	طرد الفلسطينيين وولادة مشكلة اللاجئين	بني موريس	دار الجليل
	ـ وثيقة اسرائيلية ـ		
١٦٤-	الاستشراق وابحاث الصراع لدى اسرائيل	ابراهيم عبدالكريم	
١٦٥-	دليل المستوطنات الاسرائيلية في الاراضي	د . عمران ابو صبيح	
	العربية المحتلة (١٩٦٧- ١٩٩١)		

١٦٦- حرب في الخليج (ابعاد على اسرائيل)	تقرير طاقم مركز الأبحاث الاستراتيجية الاسرائيلي : يافه	بدر عقيلي
١٦٧- فلسطين في سيرة البطل عبدالحليم الجيلاني	د. حسن صالح عثمان	
١٦٨- ثلاثون قضية استخبارية وأمنية في اسرائيل	يوسف أرجمان	دار الجليل
١٦٩- الادب العربي في جزر البليار	د . عبدالرزاق حسين	
١٧٠- الشرق الاوسط الجديد	شمعون بيرس	دار الجليل
١٧١- الاعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود	غازي السعدي	
١٧٢- اسلحة الدمار الشامل	وليام بورروس وروبرت ويندرم	دار الجليل
١٧٣- المفصل في تعلم اللغة العبرية بمعلم وبدون معلم	بدر عقيلي	
١٧٤- القاموس العلمي / عبري - عربي	امين ابو عيسى	دار الجليل
١٧٥- مكان تحت الشمس	بنيامين نتنياهو	محمد عودة الدويري
١٧٦- الحوار الاميركي - الفلسطيني الدبلوماسية السرية والاتصالات الفلسطينية - الاسرائيلية	د . محمد عبدالعزيز ربيع	
١٧٧- فلسطيني بلا هوية	صلاح خلف/ابو اياد	دار الجليل



صلاح خلف «أبو إياد»

فلسطيني بلا هوية

هذا الكتاب

يؤرخ لواحد من مجموعة الرموز الذين حملوا عبء القضية الفلسطينية ، كانوا قلة حملوا الشجاعة ، هاجسهم فك الشعب الفلسطيني من عقاله ، وتحطيم مقولة شعب بلا وطن ، التي فرضتها الغطرسة الإسرائيلية مدعومة بقوى الاستعمار العالمية .

« فلسطيني بلا هوية » ، يختزل حقبة من الكفاح المرير ، في تاريخ شعب ، كان البحث عن الذات همه الأول ، وهو الشعب الذي طوّع الحضارة ، وأفاء بها على كل بني قومه من الماء إلى الماء .

صلاح خلف ، أو الأكثر شيوعاً « أبو إياد » ، لم يكن ذات يوم باحثاً عن منصب ، بل جاءت الزعامة منقادة إليه ، ألهب حماس مستمعيه بالكلمة ، فقادهم إلى المقاومة ، تلك اللغة التي لم يفهم الغاصب غيرها ، فجمع كل أسلحة الكفاح من أطرافها ، لم تأخذه في الحق لومة لائم ، حيد جانباً دبلوماسية فن الممكن ، ولم تعوزه الجرأة لقول الحقيقة ، في وجه الآخرين ، زعماء ووزراء ، وحتى الرفاق .

أمسك بناصية الأحداث ، تعامل معها بموضوعية ، تحدّث إلى الإسرائيليين ، وتمنّى لو أنه يجد لديهم لغة خطاب مشتركة ، تقود إلى سلام متوازن ، يأخذ بموجبه ، كل ذي حق حقه ، لكنه أدرك في وقت مبكّر عمق الهوة بين الفلسطيني و « أرض إسرائيل الكاملة » .

قضى أبو إياد شهيداً ، عام ١٩٩١ برصاص تجار القضيّة ، بعد أن ترك إرثاً حافلاً بالنضال يجعله خلداً في ذهن الفلسطينيين الأحرار ، وخلّف لنا كتاب « فلسطيني بلا هوية » ، وأناط بنا مهمة البحث عن الهوية .

عام ١٩٧٨ شهد الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، ووفاء لذكرى الشهيد « أبو إياد » ، أعدنا طباعته مضافاً إليه تاريخ حياته ، وملحق خاص حول موضوع اغتياله .. ولعل ذلك أضعف الإيمان .

اصدار
دار الجليل للنشر
والدراسات والأبحاث الفلسطينية
عمّان ـ ص.ب ٨٩٧٢ ، تلفون ٦٦٧٦٢٧ ـ ٦٧٦٢٧
تلكس ٢٣٠٣١ ـ فاكسميلي ٦٨٣٦٦٨